حياة وفكر

كنيسة الآباء



الموسوعة الآبائية

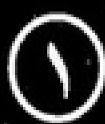


حياة وفكر

كنيسة الآباء



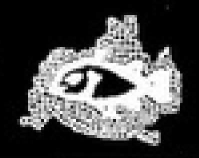
الموسوعة الآبائية



كنيسة الآباء

القس/ أثناسيوس فهمى جورج

يتضمن هذا الكتاب





إيبارشية أيرلندا واسكتلندا
وشمال شرق إنجلترا وتوابعها
كنيسة السيدة العذراء والشهيدة دميانة
دبلن ـ أيرلندا

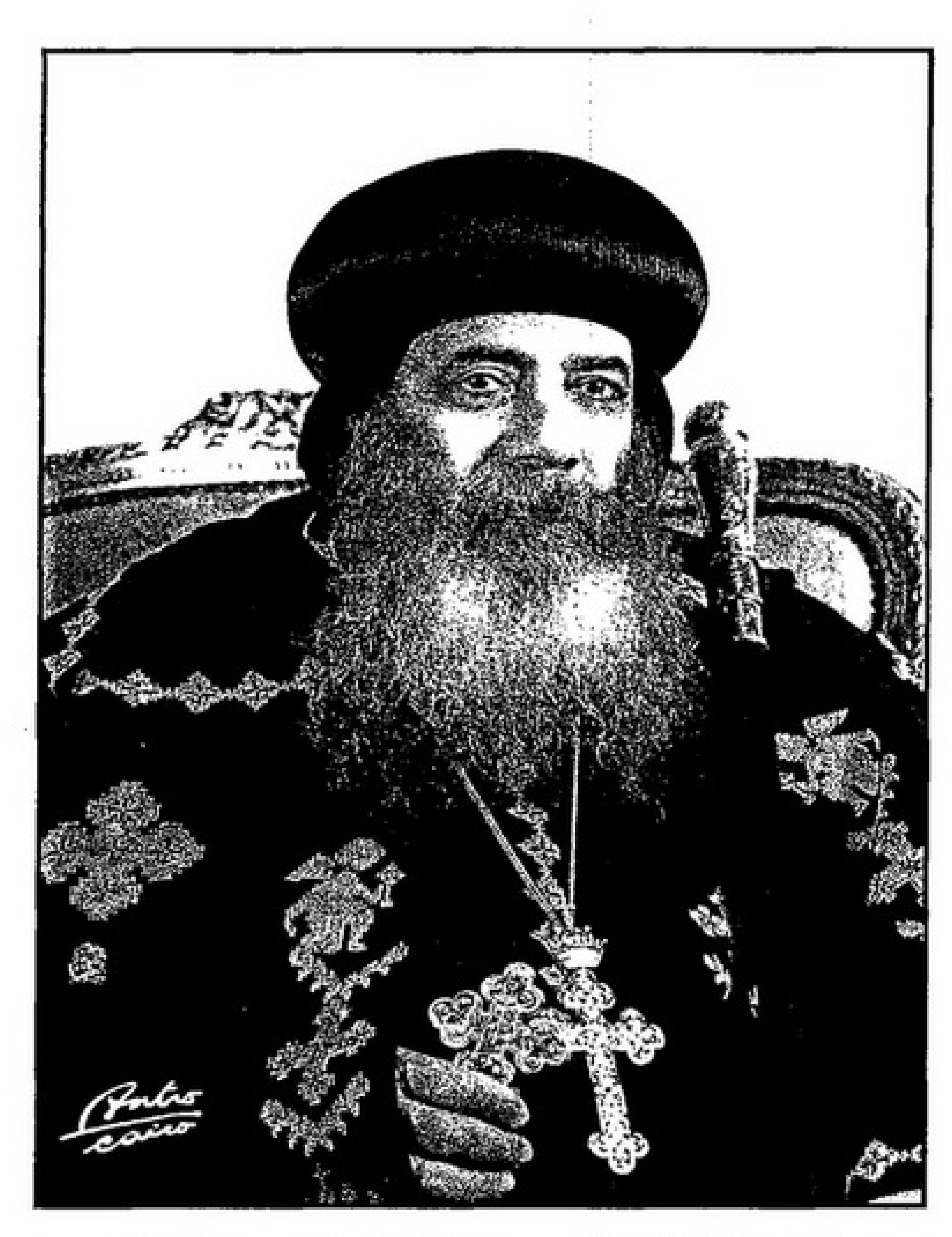
حياة وفكر

كنيسة الآباء

الموسوعه الآبائية

(١)

القس أثناسيوس فهمى چورچ



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازه المرقسية

اسم الكتاب: حياة وفكر كنيسة الآباء
تأليف: القس أثناسيوس فهمى چورچ
الناشر: دار الكتاب المسيحى - ٣٠ شارع شبرا - القاهرة
المطبعة: مطابع كونكورد - ت. ٢٠٥٧٩٠٢ - ٢٠٥٧٩٠٣
رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥٦٨٩

المرسلات

البريد الإلكترونى

ichthos@indigo.ie

العنوان البريدى

Rev. Fr. Athanasius George
Church of St Mary & St Demiana,
4 - 5 The Pines, Herbert Road,
Bray, Co. Wicklow,
Republic of Ireland



نيافة الأنبا انطونى
اسقف ايرلندا واسكتلندا وشمال شرق انجلترا

مقدمة

تأتى هذه الدراسة فى إطار إهتمامنا بالرجوع إلى الينابيع الأبائية الأولى، لذا تضمنت لمحة عن حياة وفكر كنيسة الآباء فى القرون الأولى، من حيث الرمز والسر والبنية والفكر واللاهوت والتاريخ والحياة بحسب الآباء.

وكل ما جاء فى هذا الكتاب ليس هو رأينا ـ فلو كان رأينا فلا قيمة له ـ بل هو خبرة آباء الكنيسة على مر العصور، لأن كنيسة الله تحيا بإتباع تقليد القديسين كما كان فى البداية هكذا يكون من جيل وإلى جيل.

إننى أحسب نفسى فرحاً عندما أقدم هذا العمل ضمن سلسلة «**إكثوس** ـ ΙΧΘΥΣ» لكى يكون علامة على طريق اللاهوت الأرثوذكسى الأبائى.

والشكر لله أبينا السمائى من أجل صدور هذا الكتاب، وإنى أضعه بين يدى الرب الذى أحبنا وفدانا ليجعله سبب بركة لكثيرين بصلوات صاحب القداسة البابا المعظم **الأنبا شنوده الثالث** وشريكه فى الخدمة الرسولية أبينا الأسقف المكرم **الأنبا أنطونى** أسقف أيرلندا وإسكتلندا وشمال شرق إنجلترا وتوابعها.

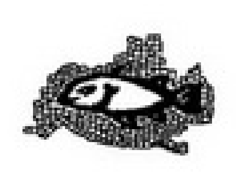
ولله المجد على كل شئ.

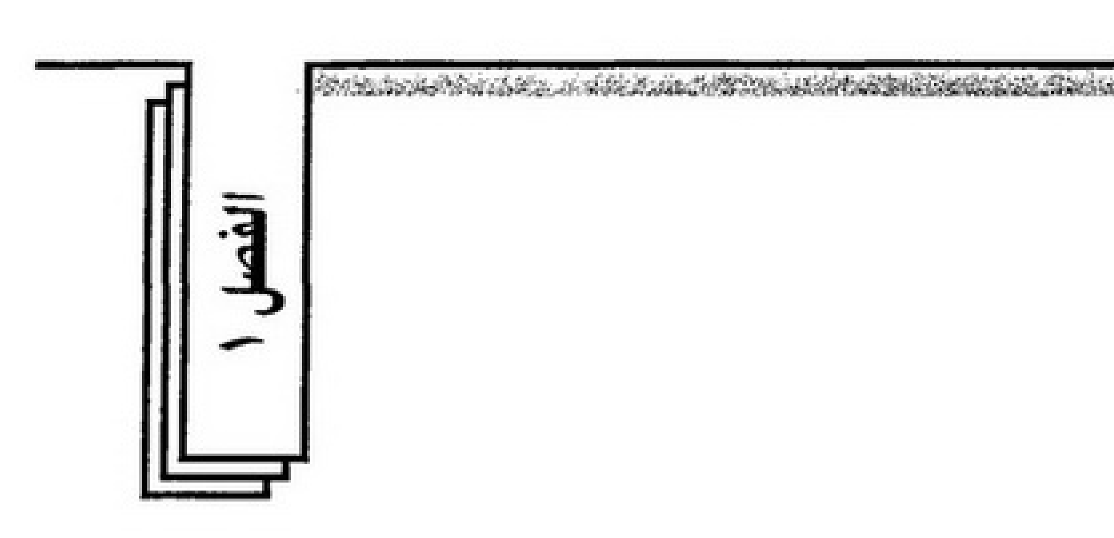
القس

أثناسيوس فهمى چورچ

دبلن ـ أيرلندا Dublin - Ireland

١٨ ـ ٧ ـ ٢٠٠٠م





الأسماء

التى ميزت المسيحيين

فى القرون الأولى

(الجنسية والمواطنة والهوية المسيحية)

الأسماء التى ميزت المسيحيين

فى القرون الأولى

(الجنسية والمواطنة والهوية المسيحية)

من العهد الجديد نعرف أن هناك أسماء كانت تميز المسيحيين منها: «**التلاميذ، المؤمنون، المختارون، القديسون، الإخوة**». واشتهر المسيحيون بعد ذلك باسم «**المسيحيين**» لكن القديس إيبفانيوس يسجل اسم *Ieccaioi* أو *Iccaioi* والذى يعنى «**اليسويين**» نسبة إلى «يسى» جد الملك داود، أو يعنى «**اليسوعيين**» من «يسوع».

وقد كتب فيلون الفيلسوف اليهودى السكندرى فى كتابه «التأمل» فصلاً خاصاً عن الذين سماهم *Ieccaios* أى هؤلاء الذين اشتهروا بهذا الاسم فى مصر عندما بشر القديس مار مرقس بالإنجيل وكرز فى مدينة الاسكندرية. ويؤكد القديس إيبفانيوس أسقف سلاميس والعلامة يوسابيوس القيصرى على أن الذين أشار إليهم فيلون هم فعلاً المسيحيين. ويقول چيروم أيضاً أنه يعتبر فيلون المؤرخ من المؤلفين الذين اهتموا بالكنيسة لأنه أول من أشار إلى الكنيسة التى أسسها مارمرقس الرسول بطريرك الأسكندرية الأول.

ومن العلامة ترتليان نعرف أن المسيحيين أخذوا اسماً سرياً إشتهر بينهم وهو *Pisciculi* أى «**السمك**»، إشارة إلى أن السيد المسيح يصطادهم ليقيمهم أحياء، واسم السمك مأخوذ من مفرد السمكة وهو فى اللاتينية *Ichthyn* وفى اليونانية *Ichthys* وحسب هذا المفهوم تكون **إكثوس** ΙΧΘΥΣ هى الحروف الخمسة التى تختزل اسم المسيح وصفته:

I = ايسوس = يسوع

X = خريستوس = المسيح

Θ = ثيؤ = الله

Y = يوس = ابن

Σ = سوتير = مخلص

لذا ترمز السمكة للمسيحيين مؤمنى الله الذين اصطادهم التلاميذ صيادى الناس (مت١٣: ٤٧ + لو٥: ٤) فكما يُدعى المسيح مجازياً بالسمكة، هكذا نكون نحن السمك الصغير بحسب سمكتنا يسوع المسيح، تكفينا فقط مياه المعمودية التى فيها نُولد ونبقى على الدوام فى آمان.

إستخدم العلامة كلمنضس السكندرى اسم «**أهل المعرفة**» ليميز به المسيحيين عن غيرهم، وهو ذات الاسم الذى استخدمه البابا أثناسيوس الرسولى فى وصف نساك الصحراء فى برارى مصر. ويؤكد ذلك المؤرخ سقراط نفسه الذى سجل أن إيفاجريوس البنطى (مار أوغريس) كتب كتاباً عن «أهل المعرفة».

وبالطبع تميز المسيحيون بهذا الاسم لأنهم اختصوا بالمعرفة الإلهية السامية السماوية الرؤيوية الحقيقية غير الكاذبة، تلك المعرفة ـ الغنوسية الحقيقية ـ التى يدخلون بها إلى كمال المسيح ليتقدسوا ويستنيروا ويعيشوا الحياة السمائية (بحسب تعليم كلمنضس السكندرى).

استخدم القديس أغناطيوس الأنطاكى اسم «حاملى الإله» (الثيؤفوروس) فيدعو المؤمن «ثيؤفوروس» أى «**حامل الإله**»، أو «ثاؤفوروس»أى «**حامل الهيكل**»، و«خريستوفوروس» أى «**حامل المسيح**»، و«أجيا فوروس» أى «**حامل القدسات**»، على اعتبار أن غاية إيمان المسيحيين هى أن يكتشفوا مركزهم الجديد بعد أن صاروا قريبين للغاية من الله ومن قدساته، وعندما سأله الامبراطور تراجان أثناء محاكمته: «ماذا تقصد بحامل الله؟» أجابه: «أن يكون السيد المسيح فى قلبه لأنه مكتوب: أنا أسكن فيهم وأكون معهم». هذا وقد سجل التاريخ أن اسم ربنا يسوع المسيح قد وُجد مكتوباً فى داخل قلب أغناطيوس الأسقف والشهيد بعد أن وثبت عليه الوحوش ولم تبق منه إلا القليل.

ولأن أغناطيوس الأنطاكى لُقب بـ «حامل الإله»، لذا فى كتاباته عامة وفى كتابه «الإقتداء بالمسيح» سمى المسيحيين رفاق الطريق بـ «حاملى الله *Theophoroi* وحاملى الهيكل *Naophoroi* وحاملى المسيح *Christophoroi* وحاملى القدسات *Agiaphoroi*».

أما العلامة أوريجين والقديس كيرلس الأورشليمى وأمبروسيوس أسقف ميلان وغيرهم

فقد سموا المسيحيين باسم «**المسحاء**» ومفردها «مسيح» من المسحة التى تُعطى بعد المعمودية أى الميرون والتى بها نُدعى مسحاء لأننا جميعاً قد مُسحنا بالروح القدس.

إضافة إلى أن الآباء قد دعوا المسيحيين بـ «المسحاء» لأن كل مسيحى هو مسيح آخر، فيقولون أن المسيحيين هم مسحاء وكل مسيحى هو مسيح آخر يحمل سمات الرب يسوع.

ولم يقبل المسيحيون الأولون أن يُطلق عليهم اسم أى من الرسل أو الشهداء لأن هذا علامة من علامات التحزب والإنقسام، فيقول ذهبى الفم :«ليس لدينا زعماء وقادة نتبعهم مثل الهراطقة أتباع ماركيون ومانى وآريوس». ويقول القديس إبيفانيوس فى كتابه «ضد الهرطقات»: «لم تقبل الكنيسة إطلاقاً أن تأخذ اسمها من اسم رسول من الرسول، فلم نسمع عن البطرسيين أو البولسين، وإنما نتسمى دوماً باسم المسيحيين أو المؤمنين باسم المسيح». ويقول القديس اغريغوريوس النزينزى: «أنا أُكرم بطرس ولكنى لا أدعى بطرسى. أنا أُكرم بولس ولكننى لا أُدعى بولسى. أنا لا أحتمل أن أُسمى باسم آخر لأى مخلوق خلقه الله». ويقول القديس اغريغوريوس النيصى: «إن الهراطقة أتباع أبوليناريوس لم يهتموا باسم المسيح وأخذوا اسم بشر مثلهم».

ويسجل القديس باسيليوس الكبير نفس الملاحظة مؤكداً أن الهراطقة قد رفضوا اسم «المسيحيين» وأخذوا أسماء مرقيان وڤالنتينيان وآريوس، وشاعت هذه العادة حتى فى شمال أفريقيا إذ رفض الدوناتيون اسم المسيحيين حسبما سجل لنا القديس أغسطينوس أسقف هيبو. وهكذا رفض الآريوسيون والميليتيون واللوقيانيون والأبوليناريون أن يُطلق عليهم اسم «مسيحيين» وأطلقوا على أنفسهم أسماء الهراطقة الذين تبعوهم.

إن الاسم علامة من العلامات الأساسية للشخصية ولتحديد الهوية ولذلك سجل المؤرخ يوسابيوس القيصرى أن الشهيد سانكتوس *Sanctus* وهو شماس من كنيسة ڤيينا عندما سُئل عن بلده واسمه، وهل هو عبد أم حر، أجاب إجابة واحدة: «**أنا مسيحى**». وهكذا سجل ذهبى الفم نفس الإجابة على نفس الأسئلة التى وجهت إلى الشهيد لوقيانوس. لقد تردد هذا الاسم «أنا مسيحى» و«أنا مسيحية» للإجابة على سؤال «ما هو اسمك؟» عندما وجه لكل شهيد وشهيدة.

واستخدم ذهبى الفم اسم «**أهل العقيدة**» ليميز به المسيحيين عن غيرهم، والعقيدة

هى *Dogma*. ويُقصد بهذا التعبير هؤلاء الذين لهم إيمان محدد ومعروف، بل وتسمى أيضاً المسيحيون الشهداء بهذا الاسم لأنهم شهود وشهداء للمسيح الذى شهدوا له شهادة الدم القانى. هذا ويعتبر القديس أغناطيوس الأنطاكى أن كل شهيد مسيحى هو تلميذ للمسيح. لذلك أُلحقت بأسماء الشهداء صفات أخرى تميزهم مثل: «الكامل - المغبوط - الطوباوى - السعيد» وغيرها من الألقاب التى أعطتها الكنيسة لشهدائها.

ومنذ زمن الآباء الرسوليين استخدم المسيحيون اسم «**الكاثوليك**» ليُعرفوا به المسيحيين كأتباع للكنيسة الجامعة ويميزوا بينهم وبين الهراطقة. وقد ورد هذا الاسم فى رسائل القديس أغناطيوس الأنطاكى وبوليكاربوس أسقف سميرنا وفى كتاب «المتنوعات» للعلامة كلمنضس السكندرى.

فعندما سأل الوالى الشهيد *Pionius* «من كنيسة أنت؟» أجابه: «أنا من الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية)» لأن المسيح ليس لديه كنيسة أخرى غير الكنيسة الجامعة الواحدة الوحيدة الرسولية.

واستخدم الآباء أيضاً اسماً غالياً عزيزاً نكاد ننساه فى هذه الأيام وهو «**الإنسان الكنائسى**» كما أكدت كتابات يوسابيوس القيصرى أبو التاريخ الكنسى وعظات كيرلس الأورشليمى فى تعليم الموعوظين. ويقصد بهذا الاسم الإنسان الليتورجى أو المولود من رحم الكنيسة المعمودية.

وكان هناك أيضاً أسماء استخدمها اليهود والوثنيون للتحقير من شأن المسيحيين، فأطلق اليهود على المؤمنين بالمسيح اسم «**أتباع الناصرى**» (أع٢٤ :٥) أو «**الناصريين**» نسبة إلى يسوع المسيح ربنا الذى من الناصرة. ويعتقد بعض المؤرخين أن اسم «**المسيحيين**» (أع١١ :٢٦) قد استخدمه المسيحيون فى أنطاكية كرد على اسم «الناصريين».

واستخدم الإمبراطور يوليانوس الجاحد اسم «**الجليليين**» ـ نسبة إلى ناصرة الجليل مسقط رأس الرب يسوع ـ ليصف به المسيحيين، بل وأصدر قانوناً حرم فيه استخدام اسم «المسيحيين» وأنه يجب ألا يُطلق على المسيحيين المؤمنين سوى اسم «الجليليين»، وأمر بنبش «قبور الجليليين»، حتى أنه ساعة موته ملأ كفه من دم جرحه ورشه فى الفضاء قائلاً: «أيها الجليلى، لقد غلبتنى». واستخدم الوثنيون اسم «**الملحدين**» ليحقروا من شأن

المسيحيين الذين رفضوا عبادة آلهة وثنية. فدافع الآباء المدافعون ضد هذه التهمة وضد الذين سموا المؤمنين بالمسيح «**مضلين** *Imposeors*» بحسب ما أُطلق على الرب نفسه «المضل».

وبسبب إجراء المعجزات والعجائب، أدعى الوثنيون أن المسيحيين سحرة، لذا سجل القديس أغسطينوس أن الوثنيين اعتقدوا بأن المسيح وضع كتاباً خاصاً بالسحر سلمه إلى بطرس وبولس الرسل. ويروى ايضاً القديس أمبروسيوس فى سرده لقصة استشهاد «أجنس *Agnes*» أن الغوغاء صرخوا ضدها قائلين «اقتلوا الساحرة». ومن كثرة المعجزات والظواهر الروحية التى صاحبت شهادة الشهداء دعى المسيحيين «**سحرة**» و«**أصحاب الخرافة الجديدة**».

وبسبب إحتقار المسيحيين للموت وشجاعتهم فى مواجهة كل صنوف العذاب، سماهم المضطهدون والغوغاء بـ *Self-murderers – Viathanatos* أى «**الذين يقتلون أنفسهم**». وسجل أحد الكُتاب المسيحيين الأولين وصف الغوغاء للمسيحيين: «ما أفظع هذه العقيدة وأتباعها الذين يحتقرون كل أنواع التعذيب فى العالم الحاضر. إنهم يخافون من موت آخر يأتى بعد موت أجسادهم. إنهم البرابرة الشجعان *Barbaron Tolmina*. إنهم يقتلون أنفسهم!!».

إن أسماء المسيحيين هى إعلان عن هويتهم وإيمانهم وحياتهم ووصف لسيرتهم ولمسيرة عائلة أهل بيت الله عبر التاريخ، فهم: «**التلاميذ، المؤمنون، المسيحيون، المختارون، القديسون، اليسوعيون، أهل المعرفة، أهل العقيدة، حاملى الإله، المسحاء، الكنائسيون، أتباع الكنيسة الجامعة، شهداء وشهود المسيح**».

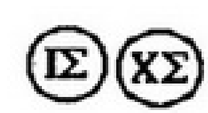
ويعمد القديس إيريناؤس كثيراً إلى إطلاق لقب «**تلميذ**» على المسيخيين وأحياناً يصفهم باسم «**التلميذ الحقيقى**» تمييزاً عن الهراطقة. وهو يرى مثل يوستين المدافع أن التلاميذ الحقيقيين هم الذين نالوا فى اسم ربنا يسوع المسيح نعمة التبنى لله ويعملون من أجل خدمة خلاص سائر البشر ويقودونهم للإنضمام إلى الكنيسة. وفى موضع آخر عرّف يوستين تلاميذ الرب بأنهم الرسل وعرّف تلاميذ الرسل بأنهم المسيحيون، فكل منهم حقيقى وروحى وهم تلاميذ للتعليم الحقانى والظاهر الذى للرب يسوع («تلمذوا جميع الأمم» مت٢٨ :١٩ + «تكاثر التلاميذ» أع٦ :١ + «تلميذة اسمها طابيثا» أع٩).

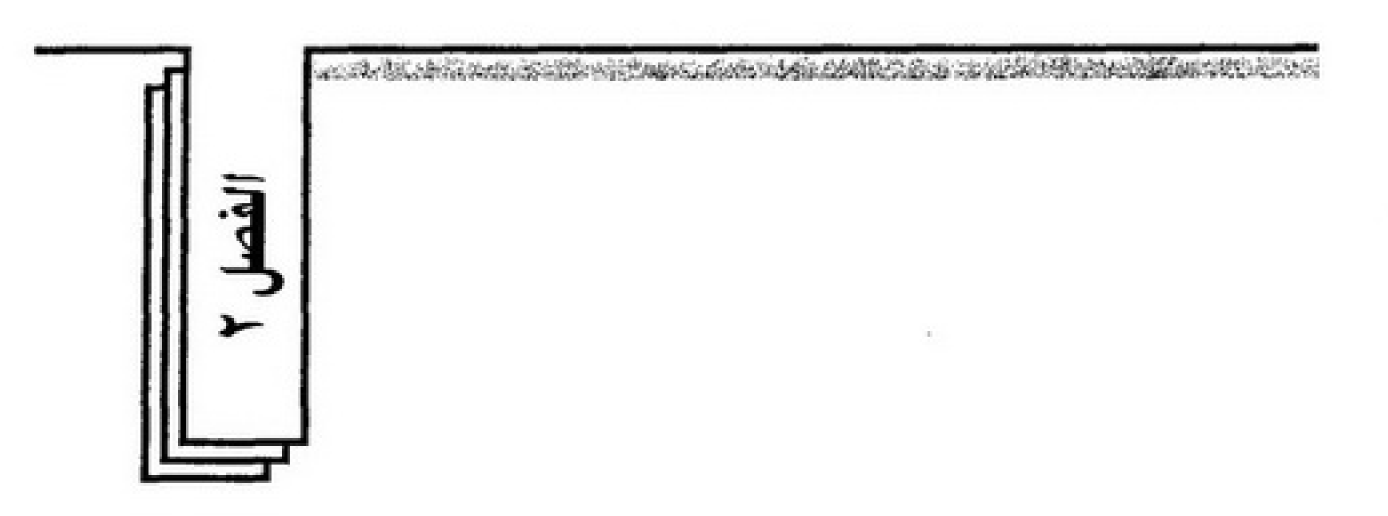
وتعتبر **الأسماء المقدسة** أحد أهم أبعاد دراسات علماء البرديات والمخطوطات الذين يبحثون فى أصول المسيحية المبكرة، ومنهم من كتب عن الوثائق التى تكشف عن بكور المسيحية فى مصر تحت ما أسموه بالـ *Nomina Sacra* أى «الأسماء المقدسة». ونقطة البداية فى هذه الأسماء هى اسم «يسوع» أو «إيسوس» باليونانية. فالتركيب القديم المبكر للاسم كان *IE* أو *IES* أو *IS*. وتركيب الاسم *IE* نجده فى برديات قديمة منها رسالة برنابا.

وبالجملة نستطيع أن نقول أن أول أسماء المؤمنين فى الكنيسة الأولى كان «**التلاميذ**»، تلك التسمية التى لم تكن قاصرة على الرسل الإثنى عشر، بل أُطلقت على جميع أعضاء الكنيسة الأولى (أع٩ :١، ١٠، ٢٥، ٣٦) وقد شاعت هذه التسمية بوجه الخصوص بين مسيحى فلسطين، هذا وقد دُعى المسيحيون أيضاً: «**مؤمنون وقديسون وإخوة**». وتعبّر هذه التسميات عن حياة أولئك المسيحيين الأوائل، إذ أنها تعبّر عن تلمذتهم للرب «التلاميذ» وتعبر عن إيمانهم الجديد الذى اقتبلوه «مؤمنين» وتعلن أنهم مكرسون ومفروزون لأجل الله «قديسين»، ولم تكن هذه التسميات إلا تعبيراً عن واقعهم القدسى الإيمانى والروحانى.

كذلك عبّرت تسميتهم «**إخوة وأخوات**» عن علاقتهم بعضهم ببعض كأعضاء فى جسد المسيح الواحد (أع١٤ :٢، ١٧ :١٠، ١٤، ٢٨ :١٤، رو١٦ :١٤، ١كو١٦ :١٢) أما اسمهم السرى «**السمكة ـ إكثوس**» فيعبّر عن حياتهم الجديدة بالماء والروح ونوالهم نعمة الولادة الجديدة بالمعمودية. كذلك تسموا بـ «أهل المعرفة» على اعتبار أنهم نالوا المعرفة الإلهية السماوية غير الكاذبة، وايضاً تسميتهم بـ «حاملى الإله» جاءت كتعبير عن إتحادهم بالله وسكنى الروح القدس فيهم خلال الأسرار الكنسية.

أما التسمية «**مسيحيين**» فقد بدأت فى أنطاكية حينما «دُعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولاً» (أع١١ :٢٦، ١بط٤ :١٦، أع٢٦ :٢٨) وبالطبع تعبّر جميع هذه التسميات عن سلوكهم المسيحى وعن علاقتهم بالله وعن علاقتهم الأخوية ببعضهم البعض، وحتى الأسماء التى أطلقها عليهم الوثنيون واليهود جاءت معبرة عن هويتهم وطبيعة حياتهم وإيمانياتهم وعن جنسيتهم ومواطنتهم السمائية.





عالم

المسيحيين الأوائل

عالم المسيحيين الأوائل

إن تاريخ المسيحيين الأوائل وحياتهم هو أفخر قصة سمائية تُسجل صفحاتها خيوط زاهية لتتجمع وتعطى مبادئ إلهية وكأنها النور الخارج من أمام عرش الله ليسقى أرض العالم الجديد، يغذيها سلوك وحياة وقيم المسيحيين الكارزين والتلاميذ فى كل العصور.

فالروح القدس ظل يعمل فى التلاميذ والمؤمنين ليصنع للكنيسة تاريخاً حياً يتكلم بلسان وحياة السيد المسيح له المجد وبلسان من يعملون لحسابه ولمجد اسمه من أجل تكميل تاريخ الكنيسة إلى أن يجئ هو ويكتب حينئذ «قد أُكمل» وتقول له الكنيسة «آمين تعال أيها الرب يسوع».

وبناءِ على ذلك صار عالم المسيحيين الأوائل إمتداد وتكميل لجميع ما إبتدأ يسوع يفعلِه ويعلم به، وستظل حياة المسيح حية تتكلم فى كل قلب وكل فم يقرأ ويؤمن ويعمل. لذا يعتبر عالم المسيحيين مفتوحاً ولم تكتمل صفحاته بعد، إذ أنه شهادة مفتوحة للسيد الرب يخط بروحه وبلسان وحياة المؤمنين باسمه كل يوم تكميلاً ولن يكمل إلا بمجيئه الثانى ليضع بنفسه الخاتمة التى ستفصح عن قيمة ما قيل وما كتب وما عمل، والتى ستبرز صورة الكنيسة مرسومة على أيقونة المسيح كإنطباق المثيل على مثيله.

فتاريخ عالم المسيحيين الأوائل كتبته النعمة والحكمة وكأنها تسجل بالصوت والصورة والحركة لبناء الكنيسة الأولى على أيدى المؤمنين، أما الخطة أو الرسم البيانى فليس أحد حراً فيها لأن كل مؤمن يعمل بحسب رتبته وبحسب ما قد تسلم من اليد الإلهية التى توزع أدوار الحكمة لبنيان بيتها وإقامة أعمدتها وترتيب مائدتها.

ولدراسة عالم المسيحين الأولين سندرس ما يلى:

١) منْ هم المسيحيون الأوائل؟

أ - ماذا يعنى مصطلح «المسيحيون الأوائل»؟

يستخدم الدارسون مصطلح «المسيحيون الأوائل» للإشارة إلى أتباع المسيح الذين عاشوا من القرن الأول وحتى القرن السادس تقريباً، ويأتى هذا المصطلح من التصنيف الثلاثى للتاريخ المسيحى: العصر المسيحى الأول - العصور الوسطى - العصر الحديث.

ب - أين عاشوا؟

عاش المسيحيون الأوائل بصفة عامة داخل تخوم الإمبراطورية الرومانية، ولكن كان هناك مسيحيون يعيشون فى بقاع أخرى خارج الإمبراطورية الرومانية فى أرمينيا وفى أثيوبيا وفى بلاد فارس (إيران) وفى أيرلندا. ويذكر العلامة ترتليان وهو من آباء الكنيسة الأولين فى شمال أفريقيا أنه كان هناك مسيحيون يعيشون فى بريطانيا خارج حدود الإمبراطورية الرومانية، ولكننا للأسف لا نعرف إلا القليل جداً عن هذه التجمعات المسيحية.

إن المسيحيين لم ينتشروا دفعة واحدة فى الإمبراطورية كلها، ففى العهد الجديد، خاصة فى رسائل بولس وأعمال الرسل والتى تتناول رحلات بولس التبشيرية، نجد إشارات وتأكيد على إنتشار المسيحية ووصولها إلى سوريا وآسيا الصغرى (تركيا) واليونان. وقد جعل لوقا الطبيب من أنطاكية المركز الثانى للمسيحية بعد أورشليم، وقد وصل بولس الرسول أيضاً إلى مدينة روما، بالرغم من أن سفر الأعمال والرسالة إلى أهل رومية يذكران بوضوح أنه كان هناك مسيحيون فى إيطاليا قبل أن يذهب إليها بولس الرسول.

ويخبرنا لوقا الإنجيلى أنه بعد أن إفترق بولس وبرنابا، ذهب بولس إلى آسيا الصغرى بينما ذهب برنابا ومرقس إلى قبرص وبذا نعرف أنه كان هناك مسيحيون فى قبرص فى القرن الأول.

وفى الرسالة إلى أهل رومية (رو١٥ :٢٤) يذكر بولس الرسول أنه ينوى الذهاب إلى أسبانيا، وإن كنا لا نعرف ما إذا كان قد ذهب هناك بالفعل أم لا، وتقول رسالة كلمنضس الرومانى الأولى إلى أهل كورنثوس أن بولس «سافر بعيداً جداً حتى وصل إلى الحدود الغربية» ولكن الدارسين لم يتأكدوا ما إذا كان بولس الرسول قد وصل إلى أسبانيا أم لا.

وفى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تلميذه تيموثاوس يقول أن مساعده كرسينس *Crescens* قد ذهب إلى بلاد الغال (فرنسا)، ومن هنا نستقى حقيقة هامة وهى أنه كان هناك مسيحيون فى فرنسا بحلول عام ١٠٠م.

وفى العديد من أسفار العهد الجديد، خاصة فى سفر أعمال الرسل، نرى تفاعلاً مسيحياً يهودياً مكثفاً، ومن الواضح أن الإرساليات التبشيرية المسيحية الأولى قد إقتفت آثار الشتات اليهودى، أى توجهت إلى اليهود الذين كانوا يعيشون خارج بلادهم، مما جعل الدارسون يعتقدون أن المبشرين قد ذهبوا إلى مدينة الاسكندرية والتى كان بها تجمع يهودى ليس بصغير، ويبرر الدارسون إعتقادهم هذا بقولهم أنه إذا كان هناك مبشرون مضوا إلى مدن وقرى صغيرة فى آسيا الصغرى، فبالتأكيد ذهب البعض منهم إلى الجماعة اليهودية الكبيرة فى الاسكندرية.

كذلك وصلت المسيحية إلى الهند نحو عام ٢٠٠م، ووصلت إلى أديسا (جنوب شرق تركيا). وقد إحتفظ لنا يوسابيوس القيصرى برسالة يُفترض أنها من أبجر *Abgar* ملك أديسا إلى المسيح يدعوه للحضور إلى مدينته، ولكن السيد المسيح اعتذر عن الذهاب هناك وأرسل تداوس الرسول بالنيابة عنه.

وقد إزداد عدد المسيحيين بنسبة كبيرة فى القرن الثانى، وانتشرت المسيحية فى شمال أفريقيا وبلاد الغال (فرنسا) ، ويظن بعض المؤرخين أن المسيحية وصلت إلى أسبانيا فى القرن الثانى، رغم أن الأدلة التاريخية الجازمة ترجع وصول المسيحية إلى أسبانيا إلى منتصف القرن الثالث. وأغلب الظن أن المسيحية قد وصلت إلى بريطانيا فى بدايات القرن الثالث.

أما فى القرن الثالث فقد استمر إنتشار المسيحية، فوصلت إلى شبه الجزيرة العربية وإلى الإمبراطورية الفارسية، وكذلك نمت الكنيسة فى شمال أفريقيا وسوريا وإيطاليا، وأصبح المسيحيون يمثلون شريحة لها وجودها فى الإمبراطورية الرومانية، وأول دليل على ذلك هو ــ للأسف ــ إضطهاد ديسيوس لهم.

وشهد القرن الرابع تغيراً هائلاً فى **جغرافية المسيحية الأولى**، فعندما قبل الإمبراطور قسطنطين الكبير الإيمان المسيحى وبدأ يساند الكنيسة، كان لذلك تأثيره الكبير على أعمال التبشير والكرازة. وبنهاية القرن الرابع، كان هناك مدن أصبحت بأكملها مسيحية (ومن

الأمثلة على ذلك أن إحدى مدن آسيا الصغرى أرسلت إلى الإمبراطور تطلب إعفاءها من الضرائب لأن كل سكانها مسيحيون). وفى ذلك القرن أرسلت إرساليات تبشيرية إلى منطقتين خارج الإمبراطورية الرومانية وهما چورچيا وأثيوبيا.

ويأتى بعد ذلك دخول المسيحية أيرلندا، فقد قام البابا سيلستين *Celestine* الرومانى (٤٢٢ – ٤٣٢) بإرسال الأسقف بالاديوس فى عام ٤٣١م إلى أيرلندا، ولكن كان هناك مسيحيون يعيشون بالفعل فى أيرلندا حتى قبل وصول هذا الأسقف إليهم.

ورغم أن المسيحيين قد إنتشروا فى سائر أنحاء بلاد البحر المتوسط، إلا أنهم قد تمركزوا فى البداية فى المدن الكبرى، والسبب وراء ذلك يكمن فى رغبة المبشرين فى الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ولأن الطرق البرية والبحرية كانت تربط بين المدن الكبيرة وبعضها البعض وليس بين المدن الصغيرة أو القرى، وبالتدريج عندما كانت مدينة كبيرة تقبل الإيمان المسيحى، كان الإيمان ينتشر فى المناطق والقرى المحيطة بها.

وفى أحيان كثيرة عاش المسيحيون فى سراديب نظراً لمطاردة السلطات الوثنية لهم، وكانت هذه السراديب عبارة عن ممرات ضيقة لكن طويلة تتقاطع مع بعضها البعض ويخيم عليها الظلام الدامس إلا من شعاع واحد خافت يتسرب من فتحة هنا أو هناك، وكانت جدران السراديب مغطاة بالصور والنقوش والرموز المفعمة بالمعانى العميقة والأصيلة. فكثيراً ما كُتبت عبارة «رقد فى سلام» «حى فى الله» «هنا الذين حفظوا إيمان وصبر يسوع» «حى إلى الأبد» «حى فى السماء» ورمز «أنا هو الألف والياء» وكذا علامة «مفتاح الحياة». وتزينت السراديب برسوم الراعى الصالح، السمكة (إكثوس)، الكرمة، القربانة، سعف النخيل، الزهرة، الحمامة، الطاووس، الصليب، والملائكة. فليس هناك تناقض بين ما أظهرته الآثار والرسوم من معان روحية سامية وبين حقيقة الحياة التى عاشوها أى أن الرسوم والرموز كانت تعبيراً متقناً عن حياة وعيشة هؤلاء الآباء إذ أن كل منهما يُعبّر عن الآخر ويصوّره.

فكل من الفن والرسوم على الجدران والحياة الحقيقية التى عاشها رواد هذه السراديب والكهوف يعرض لنا واقع **المسيحية الرسولية الأبائية** حتى القرن السابع: مسيحية الرسل، مسيحية الآباء، مسيحية المعترفين والشهداء، البسيطة العميقة غير المتفلسفة، القوية السعيدة وسط ضغوط اليهود والوثنيين.

وبالرغم من إتهام المسيحيين بـ «الإلحاد والكفر وعدم الولاء للدولة والعداء للجنس البشرى» إلا أن يوسابيوس المؤرخ يخبرنا أنه «كان هناك كثير من المسيحيين يعملون فى ساحة القضاء ومن كبار حكام الأقاليم فى الإمبراطورية. وبعضهم حصل على تصريح من الإمبراطور دقلديانوس بعدم الإشتراك فى الإحتفالات الوثنية». وتوجد أسماء فى بعض المنقوشات القديمة فى أماكن متعددة نستدل منها على أن كثير من العائلات التى كانت تشارك فى الحياة العامة نالت نعمة المعمودية ولكنها لم تكف بعد إيمانها بالمسيحية عن ممارسة الحياة السياسية، وكذلك كان هناك أعداد كبيرة من المسيحيين فى الجيوش الرومانية.

فالمسيحى إذا كان فلاحاً عليه أن يحرث الأرض ولكن فى حرثه لها يعترف بالله الكرام والبستانى الحقيقى والزارع الإلهى، وإذا كان المسيحى بحاراً عليه أن يبحر ولكن فى إبحاره يصلى للربان السمائى، وإذا كان المسيحى طبيباً، عليه أن يعالج مرضاه ولكن يصلى للطبيب السمائى. فالمسيحى هو الإنسان الذى تدعوه مثله وخلقه ليكون نموذجاً ومقياساً واجب إتباعه، فإيمانه بالمسيح يجعله يحيا حياة متميزة عن سائر مواطنيه ليس بالإنعزال بل بالإختلاط بهم كخميرة وكملح وكنور.

قدم المسيحيون نموذجاً للفضيلة: فى إحتقار الغنى، فى الطهارة وما يختص بالعلاقات الزوجية، فى قبول الألم حتى الموت، فى الأمانة، فى عمل الخير حتى للأعداء، فى الترفع عن الملذات والسكر والدنس والخلاعة. لذا كانوا أصحاب نظرة متسعة للعالم وللإرتقاء بحياة البشرية كلها فكانوا سنداً للحضارة الرومانية.

٢) ماذا نعرف عن حياتهم اليومية؟

لا يستطيع الدارسون أن يجزموا بتعداد المسيحيين الأوائل، ولكن هناك إشارات نستدل منها على الحجم التقريبى للجماعة المسيحية الأولى. ففى منتصف القرن الثالث، كان فى كنيسة روما ٤٦ كاهناً وسبعة شمامسة ونحو مئة من الخدام، وكانوا يخدمون نحو ١٥٠٠ أرملة ومحتاجاً، ورأى بعض الباحثين أن هذا يمكن أن يعنى أن التعداد المسيحى بلغ ثلاثين ألفاً.

ورغم أن بعض المسيحيين، مثل برنابا كاتب الرسالة التى تعود إلى القرن الثانى، اعتبروا

أنفسهم متميزين ومختلفين عن اليهود والأمميين، إلا أن معظم المسيحيين عاشوا حياتهم مثل باقى مواطنيهم غير المسيحيين.

ومن المفاهيم الخاطئة القول بأن المسيحيين كان يسرعون إلى الإستشهاد أثناء الإضطهادات، ولكن الحقيقة هى أن المسيحيين كانوا يحبون الحياة مثلهم مثل أى شخص عادى، بالرغم من أنه كانت هناك حالات فى شمال أفريقيا فيها أسرع المسيحيون إلى السلطات الحاكمة معلنين إيمانهم وشاهدين له. وقد حث الأساقفة ـ وهم قادة الكنيسة ـ شعوبهم على عدم الإندفاع إلى الموت إلا إذا طُلب منهم ذلك، ولكن لابد أن نؤكد هنا أن المسيحيين كانوا مستعدين تماماً وفرحين أن يتألموا لأجل إيمانهم وأن يموتوا حتى لأجله متى إضطروا لذلك.

لقد كان المسيحيون الأولون يحبون أن يعيشوا فى تعايش سلمى مع جيرانهم من اليهود والوثنيين، وأن يشتركوا فى سائر مناحى الحياة العامة، ولكن حتى عندما لم يكن هناك إضطهاد علنى على المسيحيين، كانوا يعانون من التمييز ضدهم ومن المضايقات والكراهية الصامتة والصمت ذى المغزى الذى يظهر على وجوه جيرانهم عندما يعلمون أنهم مسيحيون، والتفكهات والإستهزاءات الخفية بإيمانهم بنجار مصلوب يؤمنون أنه ابن الله... ويمكننا أن نتخيل أطفال المسيحيين الأوائل وهم يسألون والديهم قلقين: «لماذا نحن مختلفون؟» «لماذا لا يلعب الأطفال الآخرون معنا؟».

وقد كان أول إضطهاد شامل ضد المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية هو إضطهاد ديسيوس عام ٢٥٠م، وقبل ذلك كانت هناك إضطهادات محلية ضد المسيحيين من حين إلى آخر فى مواضع مختلفة مثلما حدث فى ليون عام ١٧٧م، وهناك من المسيحيين الأول من لم يقع تحت أى إضطهاد على الإطلاق. وبالطبع بعد قبول قسطنطين الإيمان وبعد إنتصاره على كل أنحاء الإمبراطورية عام ٣٢٣م توقف الإضطهاد...

وكان المسيحيون يشتغلون بسائر الأعمال مما قرب بينهم وبين غير المؤمنين من اليهود والوثنيين فى مجالات حياتهم وعملهم، فسفر أعمال الرسل يخبرنا أن بولس الرسول وبريسكلا وأكيلا (أع١٨: ٣) كانوا صناع خيام، وأن ليديا كانت تبيع الأرجوان (أع١٦: ١٤)، فهؤلاء المسيحيون كانوا يعملون مع زملاء لهم من وثنيين ويهود.

ومن الخطأ الإعتقاد أن التجمعات المسيحية الأولى كانت عبارة عن مجموعات من الفقراء والمستعبدين والمهمشين، فالأناجيل تخبرنا أن يسوع ابن يوسف النجار (مت١٣ :٥٥) كان من الطبقة المتوسطة، وأتباع يسوع كانوا صيادين أى يعملون بمهن من نفس طبقة يوسف النجار، وإثنان من هؤلاء التلاميذ ـ أى ابنى زبدى ـ كانا أبناء لأسرة تمتلك قارب صيد وتستأجر رجالاً للعمل عليه (مر١ :٢٠)، وكذلك متى كانت جابى ضرائب (مت٩ :٩). وقد تبع السيد المسيح العديد من النساء الثريات بما فيهن زوجة هيرودس الملك (لو٨ :٣)، وكذلك يوسف الرامى ونيقوديموس، وهكذا جاء تلاميذ السيد المسيح من طبقات إجتماعية متنوعة، ومن طبقة نسميها نحن اليوم «الطبقة المتوسطة».

وقد جاء المسيحيون الأوائل من طبقات إجتماعية متنوعة، فسفر أعمال الرسل يحدثنا عن قبول جماعات بجملتها للإيمان مثل الثلاثة آلاف الذين دخلوا الإيمان فى يوم واحد (أع٢ :٤١)، وضخامة هذا العدد تتضمن بلا شك تنوع الطبقات الإجتماعية لهؤلاء المنضمين الجدد، فأم يوحنا مرقس كانت تمتلك منزلاً فى مدينة أورشليم وكان لها خادمة (أع١٢ :١٢-١٣) بينما كان بولس صانع خيام (أع١٨ :٣) وكان لوقا الإنجيلى طبيباً ورساماً.

ونحو عام ١١٥م، ابتهج القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية بإستشهاده لدرجة أنه طلب من مسيحى روما أن لا يمنعوا موته (فى رسالته إلى أهل روما)، وإذ لا نفترض أنهم كانوا ينوون القيام بعمل عسكرى لتخليصه بالقوة، لذا نفترض أن الجماعة المسيحية فى روما كان لها من النفوذ والإتصالات أو المال ما يمكن أن يوقف حكم الموت هذا الصادر على أغناطيوس الأنطاكى.

وفى الواقع لا تخبرنا المصادر التاريخية الكثير عن الحالة الإجتماعية للمسيحيين الأوائل، فمصادر التاريخ الكنسى كانت تسجل دوماً الإنجازات اللاهوتية والروحية للأساقفة والآباء، ومع ذلك هناك إشارات قليلة إلى أعمال المسيحيين الأوائل ومهنهم فى العظات وفى الفن المسيحى الأول.

وأيضاً من الأدلة على أن المسيحيين الأوائل لم يكونوا من الطبقات الهامشية المستضعفة فى المجتمع كان مستوى أسلوب كتابة العهد الجديد. فبينما كان الدارسون قبلاً يرون فى الأناجيل وصفاً لحياة وخدمة يسوع، يرى الدارسون المحدثون أن أناجيل العهد الجديد هى

كتابات لاهوتية ذات مستوى عال للغاية من الدقة تعكس التعليم والمهارة الأدبية التى تمتع بها الإنجيليون، ولكن هذا لا يعنى أن الإنجيليين كانوا أثرياء أو نبلاء، ولكن يعنى أنهم كانوا على قدر كاف من التعليم والمعرفة يسمح لهم بكتابة هذه الكتابات.

بماذا إذاً اشتغل المسيحيون؟ اشتغلوا ـ حرفياً ـ فى كل شئ وكل مهنة، رغم أن ذلك كان يعتمد على المكان الذى كانوا يعيشون فيه وعلى الفترة التاريخية التى يُطرح فيها هذا السؤال.

وكما ذكرنا سلفاً انتشر المسيحيون أولاً فى المدن الكبرى فى العالم اليونانى الرومانى، وعكست مهن المسيحيين فى تلك الفترة البيئة الحضارية التى كانوا يعيشون فيها، فعلى سبيل المثال نقرأ عن مسيحيين يعملون فى تجارة النبيذ وصناعة الأحذية. وعندما انتشرت المسيحية فى الريف، عكست مهن المسيحيين الظروف الجغرافية الجديدة التى عاشوا فيها، فالعديد من مسيحى شمال أفريقيا كانوا يشتغلون بزراعة الزيتون ويعملون فى معاصر الزيوت. وعندما أصبحت الامبراطورية الرومانية بجملتها مسيحية فى القرن الرابع إنضم الكثير من النبلاء إلى الكنيسة، وبالتالى إرتقت الطبقة الإجتماعية للمسيحيين.

وقد كان هناك بعض المهن التى تجنبها المسيحيون وابتعدوا عنها مثل التمثيل والذى اعتبروه مهنة لاأخلاقية لأن الممثلين كانوا يعيشون حياة سيئة السمعة والأخلاق. ورغم أن المسيحيين الأولين كانوا مسالمين إلا أن منهم منْ عمل بالجندية مثل القديس موريس والكتيبة الطيبية، والكثير من المسيحيين الذين رفضوا أداء الخدمة العسكرية لم يرفضوا ذلك بسبب الجندية فى ذاتها، بل لأن الجندية كانت تتطلب منهم أن يبخروا للآلهة أو يمارسوا بعض الطقوس الوثنية.

وبعد دخول قسطنطين الكبير فى الإيمان، ساند المسيحيون الإمبراطورية وعضدوها هى وجيشها، وقد مدح القديس أغسطينوس أسقف هيبو الحياة الرهبانية مدحاً مطنباً، ولكن عندما قرر أحد قادة الجيش الرومانى أن يترك الجيش ليصير راهباً، وكان القديس أغسطينوس قلقاً بسبب هجمات البربر على شمال أفريقيا، تحدث معه وأقنعه بالعدول عن رغبته هذه.

والكنيسة القبطية لم تجزع من إضطهاد الدولة الرومانية لها ولم تصبح عدوة للدولة ولم

تقابل إحتقار الأباطرة والولاة للمسيحية بدعوة أبنائها إلى مقاومة سلطان قيصر أو أن لا يعطوه حقه.

وفى رسالة أحد البابوات الأقباط لشخص مسيحى كان يشغل منصباً رفيعاً فى الدولة يقول: «اعتصم بالوداعة واللياقة والأدب وإياك والتفوه بألفاظ نابية ليتمجد اسم مخلصنا يسوع المسيح فى كل ما تعمل وما تقول. أد واجبك على الوجه الأكمل وأحبب كل منْ هم معك فى القصر... تمنطق بالفضيلة... خصص من وقتك للصلاة والكتاب المقدس الذى تتخذه دستوراً لحياتك»...

فالمسيحيون دائماً مفعمون بروح الخير والمحبة لكل أحد مجاناً، مدافعين عن أوطانهم. وتمتلئ صفحات السنكسار القبطى بأسماء قديسين من الجند (داسيه الجندى، سنا الجندى، أبوفام الجندى، لاونديوس الجندى، تادرس الشطبى، تادرس المشرقى، مارمينا العجائبى، أبو سيفين.... وغيرهم كثيرون)...

أدرك المسيحيون منذ البداية أن الروح القدس الذى فيهم هو الذى جعل منهم ـ بحق ـ مسيحيين، لذا سلكوا وسط عالم مخالف حافظين وصايا الله واتخذوا من عدم المقاومة موقفاً عاماً. ولما أصبحوا متواجدين فى كثير من مناحى الحياة العامة فى الدولة الرومانية، فى مناصب الحكام والجيش وساحات القضاء وفى كل المهن، لم يفكروا فى القيام بأية مقاومة بل إلتزموا بمبدأ عدم مقاومة الشر، وهكذا نزلوا إلى السراديب والمناجم واعتلوا منصة الإعدام وواجهوا الولاة مما أثار دهشة الوثنيين ثم إعجابهم أمام هذه البطولات الهائلة.

وإزدهرت روح الصلاة والكتابات اللاهوتية والروحية، وهذه ظاهرة سماوية إذ أن الآلام ـ كما قال القديسون ـ هى بمثابة معصرة العنب أو فرك الزهور ذات الرائحة الطيبة، فهى تسفر عن رؤية ومعرفة إلهية لأعماق حقائق الإيمان، وكذلك ظهرت الكتابات الدفاعية التى إنتزعت الاعتراف الرسمى بالمسيحية كديانة شرعية فى البلاد.

ولم يكد القرن الثالث يأتى إلى نهايته إلا وكانت المسيحية ـ بالرغم من كل محاصرة الإضطهاد الرومانى لها ـ قد إنتشرت فى سائر أنحاء الإمبراطورية وفى كل المستويات مما أذهل الأباطرة أنفسهم.

٣) التسلية وقضاء وقت الفراغ عند المسيحيين الأوائل

نتساءل الآن: كيف كان المسيحيون الأولون يقضون وقت فراغهم؟ وإذ لم يكتب أى من المؤرخين الأولين عن هذا الموضوع، لذا يجب أن نجمع معلوماتنا من مصادر متنوعة، ولابد أن نذكر أن الأخلاقيات المسيحية التى حكمت المسيحيين فى إختيارهم لمهنهم وأعمالهم لعبت هى ايضاً دوراً هاماً فى حياتهم الإجتماعية وأسلوب قضائهم لوقت فراغهم.

لقد كانت الحمامات العامة فى الإمبراطورية الرومانية تعتبر مثل نواد إجتماعية تلعب دوراً هاماً فى حياة الناس، فكل مدينة كان بها حمام عام، وكانت هذه الحمامات تحتوى على حمامات سباحة وحجرات لعمل التمارين الرياضية وحمامات بخار، بل وكان ببعض الحمامات قاعات محاضرات ومتاحف، فكانت هذه الحمامات تمثل مركز الحياة الإجتماعية وكانت مفتوحة لكل المواطنين رغم أنه كان هناك حمامات منفصلة للنساء وأخرى للرجال.

وبالنسبة للرومانيين كانت هذه الحمامات تلعب دوراً إجتماعياً هاماً، أما بالنسبة للمسيحيين الأوائل فقد رأوا ـ وبالأخص العلامة ترتليان ـ فى الحمامات العامة أماكن للإنحلال الأخلاقى، وبالتالى تجنب المسيحيون إرتياد هذه الأماكن.

أما وسيلة الترفيه الأخرى فى الإمبراطورية الرومانية فكانت المجتلدات أو حلبات المصارعة التى يتصارع فيها أسرى الحرب أو مجرمون مُدانون أو عبيد يُشترون رخيصاً لهذا الغرض، بل وكان هناك بعض منْ يقومون بذلك كمهنة يرتزقون منها. وقد اعتبر المسيحيون ـ بالطبع ـ هذه المصارعات نوعاً من القتل المُقنن وأدانوا هذه الألعاب تماماً، وفى القرن الرابع عندما كان يُعين أحد المسيحيين حاكماً لإقليم ما، كان يقوم على الفور بوقف هذه المصارعات.

كذلك اعتبر المسيحيون الأوائل المسرحيات أعمالاً لاأخلاقية لا تقدم أية قيم سامية. أما عن الأعمال الأدبية الوثنية مثل أعمال هوميروس وآخرين، فليس من شك أن المسيحيين كانوا يقرأونها، إذ يذكر بولس الرسول إستشهادات من أعمال أدبية وفكرية وثنية (أع١٧: ٢٨)، وكذلك قرأ كُتاب مسيحيون آخرون مثل كلمنضس السكندرى الأعمال

الأدبية الوثنية واستشهدوا بها فى كتاباتهم.

ولكن عندما تحولت الإمبراطورية كلها إلى المسيحية أثار معلمى الفضيلة المسيحيون السؤال عن جدوى هذه الكتابات وتأثيرها على المسيحيين، وأبرز هؤلاء فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس كانا القديس جيروم والقديس أغسطينوس.

لقد أحب جيروم الأدب الكلاسيكى خاصة أعمال الخطيب اللاتينى سيسرو *Cicero* ولذا أصبح متخصصاً خبيراً فى اللغة اللاتينية وأساليبها، ولكنه رأى رؤيا فيها وجد نفسه مأخوذاً إلى العرش السمائى وسمع صوتاً يسأله منْ هو فأجاب: «أنا مسيحى» ولكنِ ذلك الصوت وبخه غاضباً: «أنت من أتباع سيسرو». فقرر جيروم أن يغير من قراءاته، وكان لإنتقاداته للأدب الكلاسيكى الوثنى أثارها على الأجيال اللاحقة من المسيحيين.

أما معاصر جيروم الأصغر منه، أى أغسطينوس، فقد مر بنفس هذه الخبرات عينها، ويدين فى اعترافاته الأدب الوثنى بشدة ويصفه بأنه باطل لأنه لا يقود الإنسان إلى الله، رغم أن أغسطينوس لم ينكر أنه تأثر بهذه الأعمال الوثنية عند قراءته لها.

وكان لأغسطينوس رأياً أكثر مرونة من ذلك الذى لجيروم، فبدلاً من أن يرفض الأدب الوثنى بجملته، وجد له مكاناً فى حياة المسيحيين، فهو يدين ويرفض الأعمال الوثنية إذا أثرت على فهمنا وتفسيرنا للكتاب المقدس.

أما بالنسبة للأدب والكتابات المسيحية، فإن ما وصلنا منه هو كتابات كنسية كتبها مسيحيون إلى مسيحيين، ولكن هذه لم تكن أدب «شعبى» أى لم تكن كتابات موضوعة بهدف تسلية القراء والترفيه عنهم فى وقت فراغهم، ومع ذلك كان هناك شعراء مسيحيون فى القرون الأولى كتبوا يرون قصة الخليقة وتطورها حتى الطوفان بالشعر وكذلك عمل المسيح المخلص.

وهنا لابد أن نذكر أن العديد من المسيحيين كانوا أدباء بارعين مثل برودنتيوس *Prudentius* (٣٤٨ – ٤٠٥م) وبولينوس من نولا *Paulinus of Nola* (٣٥١ – ٤٣١م). وهناك عملان أدبيان كان لهما أهميتهما وقيمتهما وهما «سيرة القديس أنطونيوس» بقلم البابا أثناسيوس الرسولى و«حياة مارتن الذى من تورز» بقلم سلبيسيوس ساويرس، وكلاهما روى حروب الرهبان مع الشياطين.

أما التسلية التى كان المسيحيون يفضلونها تماماً فكانت **سباق العربات التى تجرها الخيول**، خاصة مسيحى المدن ومسيحى القسطنطينية. فقد بنى قسطنطين مدينة القسطنطينية والتى تشتق اسمها من اسمه لتكون العاصمة المسيحية للإمبراطورية، ولذا كانت خالية تماماً من آثار التراث الحضارى الوثنى وحافلة بالكنائس ومساكن الرهبان والإكليروس، ولكنه بنى بها أيضاً حلبة سباق لعربات الخيول جاء إليها أعظم المتسابقين من سائر أنحاء الإمبراطورية وكان الإمبراطور يحضر بنفسه هذه السباقات.

وهكذا نرى أن المسيحيين الأولين كان لهم وسائل الترفيه التى يستمتعون بها فى وقت فراغهم.

٤) العالم الذى وُلدت فيه الكنيسة

وُلدت الكنيسة فى وسط المجتمع اليهودى بطوائفه (الفريسيون ـ الصديقيون ـ الأسينيون) وانتشرت المسيحية بكرازة الرسل فى البيوت وفى المدارس وفى بيوت الولاة والحكام وفى الأسواق وعند شواطئ الأنهار وفى الطرق والساحات (أع١٨ :٧، ٢٠ :٧، ٢٠ :٢٠، ٢٨ :١٧، ١٩ :٩، ١٣ :٧، ١٧ :١٧، ١٦ :١٣). وكانت الكرازة بالإنجيل بلا فتور ولا هدوء ليلاً ونهاراً (أع٢٠ :٣١) بقيادة الروح القدس للخدام، فكان الروح القدس يدعو ويفرز الخدام للخدمة (أع١٣ :٢) وكان يعلم الخدام ويتكلم على ألسنتهم (أع٤ :٧) وكان يحدد أماكن كرازتهم فيرشدهم إلى حقل ويمنعهم عن آخر، وكان الروح ينقلهم من مكان لآخر ويعمل بهم الآيات والمعجزات، وبالجملة كان الروح القدس يرشد ويملئ الكنيسة.

ولم تكن الكرازة بسمو الكلام والحكمة ولكن ببرهان الروح والقوة المصاحب للكرازة بإنجيل الخلاص، لذلك كانت كلمة الله تنمو وعدد التلاميذ يتكاثر جداً والجمهور يتشدد فى الإيمان وتزداد شدة إيمانه وتقواه.

٥) أشهر الكنائس الرسولية

نستطيع أن نميز بين أربع كنائس رسولية فى عالم المسيحيين الأوائل وهى كنائس:

١) أورشليم
٢) الاسكندرية
٣) أنطاكية
٤) روما

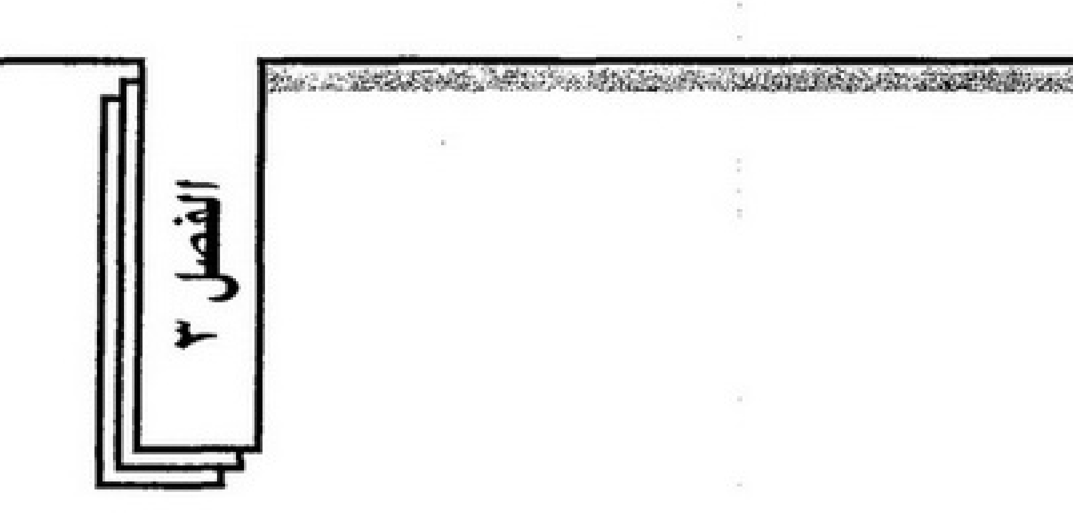
٦) إنتشار المسيحية فى العالم كله

لقد إبتدأ التلاميذ فى العمل الكرازى وتأسيس الكنائس وهم: بلا ثوب ولا أحذية ولا عصا ولا كيس ولا مزود وعليهم أن يظهروا وداعة الحملان رغم أنهم ذاهبون إلى ذئاب، ليس فقط ذاهبين إلى ذئاب بل ايضاً سيعيشون وسطهم!!

أمرهم الرب بوداعة الحملان وببساطة الحمام ليُظهر قوته بهم كأعظم ما يكون، وحينما تصبح الحملان أفضل من الذئاب، حينئذ تنهشها الذئاب لكن لا تستطيع أن تلتهمها، لأن الحملان ستترك تأثيرها عليها وتغيرها وتقوّم عقلها. هذا مع كونهم إثنى عشر رسولاً فقط وسط عالم مليء كله بالذئاب.

ومن هنا كان إنتشار المسيحية بعمل الحملان لأنها تغلب حتى ولو كانت الذئاب تحوم من حولها، إذ أنها بالصلاة والكرازة والشركة والخدمة والشهادة تنتشر وتمتد، والذين تشتتوا بسبب الضيق جالوا مبشرين بالكلمة.... ينشرون الكرازة كحملان لأنهم لو جعلوا أنفسهم ذئاباً لصاروا فى حال أسوأ، لأن معونة راعيهم ستتخلى عنهم لأن الله لا يعول الذئاب بل الحملان.

فكل النصرة والقوة هى من عند الرب لبنيان كنيسته وهو الذى قال: «تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل» (٢كو١٢: ٩)، وهو لا زال يظهر لطفه ويعلن مجده بإقتدار ولا زالت كلمة الرب تنمو وتثبت وتعتز فى كل جيل....



كيف نستقى معلوماتنا عن المسيحيين الأوائل

كيف نستقى معلوماتنا

عن المسيحيين الأوائل

١) مشكلة المعلومات

تعتمد العلوم جميعها على المعلومات، وفى العلوم الطبيعية يعتمد العلماء على الملاحظة، وفى العلوم الكيميائية والبيولوجية والفيزيائية يعتمد العلماء على التجارب التى يجرنوها ويخرجون منها بإحصائيات ونتائج، وفى هذه العلوم يستطيع الباحثون إستخلاص نتائج ومعلومات. أما فى الدراسات التاريخية ـ كما هو الحال مع دراسة حياة وفكر المسيحيين الأولين ـ فلابد أن يعتمد الباحث على كل ما تركه الماضى للحاضر، ورغم أن المؤرخين يمكن أن يكتشفوا مصادر تاريخية جديدة، إلا أنهم لا يستطيعون أن يبتكروا معلومات جديدة كما هو الحال فى العلوم الأخرى، فعلى سبيل المثال قرأنا أن برنابا ومرقس أبحرا إلى قبرص، وحتى اليوم لا نعرف إلا القليل جداً عن المسيحية فى قبرص قبل القرن الرابع، فإذا لم تكتشف مصادر تاريخية جديدة سيظل تاريخ المسيحية فى جزيرة قبرص قبل القرن الرابع مجهولاً.

ونحن نحتاج أن نستوعب هذا المفهوم خاصة وأننا نعيش فى عصر المعلومات، فعندما نقول «قرن» يظن الناس أن ذلك حدث منذ زمن بعيد، بينما يسمى المؤرخون القرن الماضى باسم «التاريخ الحديث» !! وفى عالم المسيحيين الأوائل كانت جميع الكتب تُكتب بخط اليد (مخطوطات) وعادة لا يذكر فيها تاريخ ومكان كتابتها، أما السجلات المرئية من رسومات ونقوش على الجدران والحوائط فلم تسجل الحدث مثل الكاميرا الفوتوغرافية التى نعرفها اليوم، فلكى نفهم العالم القديم، عالم المسيحيين الأوائل، لابد أن نبدأ بفهم مدى إختلاف المعلومات الخاصة به عن تلك التى نعرفها اليوم.

٢) طبيعة المعلومات المكتوبة

إن المصدر الأساسى الذى نستقى منه معرفتنا عن المسيحيين الأولين هو كتاباتهم هم أنفسهم، ولما كان المسيحيون الأولون قد عاشوا فى جماعات صغيرة ولم يكن لها تأثير كبير، لذلك لم يذكر عنهم الكُتاب الوثنيون الشئ الكثير. وأول ذكر حقيقى للمسيحيين يأتى فى كتابات المؤرخ الرومانى تاسيتوس *Tacitus* (حوالى ٥٦ – ١١٥م) والذى يروى قصة حريق روما العظيم عام ٦٤م، وكيف أن الناس قد شكوا أن الإمبراطور نيرون (٥٤ – ٦٨م) هو الذى أمر بإشعال هذا الحريق، ويروى محاولة نيرون لإلقاء اللوم وبالتالى الكراهية على جماعة دينية غير معروفة ومريبة أى المسيحيين، ولكن تاسيتوس وغيره من الكتاب الرومان فى القرن الأول والثانى لا يذكرون المسيحيين إلا عرضاً فى كتاباتهم.

وهذا ليس بالأمر الغريب، إذ أن المؤرخين القدامى قد إقتصروا فى كتاباتهم على تناول التاريخ السياسى وأنشطته، وركزوا على هؤلاء الذين صنعوا هذا التاريخ، وهم عادة الأرستقراطيين، فمثلاً لم يهتم هؤلاء المؤرخون بالتاريخ الإقتصادى أو بدور المرأة فى الحياة الرومانية أو بأوضاع التجار إلخ. وبالنسبة لهم لم يكن للمسيحيين أية أهمية وبالتالى لم تكن هناك قيمة للحديث عنهم فى كتاباتهم. لكن عندما ازداد عدد وأهمية المسيحيين بمرور القرون، بدأ المؤرخون الوثنيون ملاحظتهم أكثر فأكثر، ولكن بحلول ذلك الوقت كان المسيحيون قد بدأوا يكتبون تاريخهم بأنفسهم.

وقد جاءت كتابات المسيحيين فى شتى الأشكال، بعضها كانت عبارة عن تاريخ مكتوب، وهذا النوع من الكتابات يقدم أهم وأثمن المعلومات، لكن العلماء يستطيعون إستخلاص المعلومات من أى نوع من الكتابات، بل أن الدارسين يتعلمون الكثير من الكتاب حتى قبل قراءتها، ففى زمان المسيحيين الأولين كانت الكتب تُكتب أو تُنسخ باليد، وبالطبع لم ينسخ الناس إلا الكتب التى كانت ثمينة جداً لديهم، لذا فإن حقيقة وجود كتب مسيحية فى أى مكان هى فى ذاتها دليل على وجود المسيحيين هناك وعلى أنهم أرادوا عمل نسخ من هذه الكتب.

كذلك فإن وجود الكتب المسيحية يدل أحياناً على أمر هام. فلنفترض مثلاً أن الباحثين عثروا على عشرين نسخة من مخطوطة كتاب ما، وجميعها من القرن الرابع ومن مدينة

أنطاكية القديمة، ولنفترض أيضاً أنه فى باقى أنحاء الإمبراطورية فى باقى الحقبة المسيحية الأولى كان هناك عشرة نسخ فقط من هذه المخطوطة، فإننا نستدل من هذا على أن مسيحى أنطاكية فى القرن الرابع قد أعطوا أهمية خاصة لهذا الكتاب وأنهم اعتبروه أعظم أعمال هذا المؤلف.

ولكن مضمون الكتب ليس هو نهاية المطاف فى إستقاء المعلومات، بل هو البداية، إذ الكتاب يخبرنا بالكثير، فهو لم يأت إلى الوجود هكذا من لا شئ، بل لابد أن شخصاً ما كتبه فى زمان ما فى مكان ما إلى شخص ما. ولكى نفهم كتاب ما لابد أن نفهم الظروف التى كُتب فيها، فمثلاً إلى منْ كتب المؤلف هذا الكتاب؟، ولماذا كتبه فى ذلك الوقت بالتحديد؟، ماذا كان الكاتب يفترض فى قرائه؟، إلخ.

وهناك عنصر هام آخر فى دراسة الوثائق التاريخية المبكرة. فقد يحتفظ لنا كتاب ما بوثيقة أو نص هام يسرده كإستشهاد من كتاب آخر، ولعل من الأمثلة على ذلك رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبى إذ فيها (٢ :٦-١١) يسجل لنا بولس الرسول ترنيمة أجمع الدراسون على أنها كانت موجودة وتُستخدم بالفعل قبل أن يكتب بولس هذه الرسالة، وبذلك حفظ لنا بولس الرسول هذه الترنيمة. ومثال آخر على ذلك هو كلمنضس الرومانى الذى حفظ لنا فى رسالته إلى كنيسة كورنثوس ذكصولوجية أو مديحة كانت تُستخدم فى كنيسة روما فى القرن الأول الميلادى.

كذلك يجب أن يأخذ الباحث فى الاعتبار الشكل الأدبى الذى قدم فيه الكاتب عمله الفكرى، ويبحث عن السبب وراء اختيار الكاتب هذا الشكل الأدبى بالذات وليس أى شكل آخر. وقد جاء الأدب المسيحى المبكر فى العديد من الأشكال الأدبية المتنوعة: **عظات - رسائل - قصص - تنظيمات رهبانية - مذكرات رحالة - سير قديسين - مضابط جلسات محاكم رسمية - قرارات مجامع محلية ومسكونية - أبحاث لاهوتية وروحية - كتابات دفاعية - نصوص ليتورجية طقسية - قوانين - شعر - تفاسير - كتابات تاريخية - ميامر - شروحات.**

وقد كان لإتساع الرقعة الجغرافية للمسيحية وزيادة عدد المسيحيين تأثيره على الأدب المسيحى بينهم، إذ إزدادت المسافات بينهم تباعداً وكان من الضرورى أن يتبادلوا الرسائل كوسيلة إتصال بينهم، وبعد ذلك عندما ظهرت الهرطقات وازداد التعليم المسيحى دقة

وتفصيلاً، إضطر المسيحيون إلى وضع المزيد من الكتابات التى تشرح هذا التعليم، ولذا وصلنا قدر هائل من الكتابات المسيحية من القرن الرابع إذ فيه وصل الجدل اللاهوتى إلى ذروته، وبالتالى يعرف الباحثون عن القرن الرابع أكثر مما يعرفون عن القرن الثانى....

كما وقدم الإنتشار الجغرافى للمسيحية عاملاً آخراً فى فهم الأدب المسيحى المبكر، ذلك هو تنوع اللغات. فقد تحدث السيد المسيح وتلاميذه اللغة الآرامية، لأن اليهود كانوا يعتبرون اللغة العبرية لغة متقدمة ولذلك لم يستخدموها فى حياتهم اليومية واستخدموا الآرامية بدلاً منها، وإذ تقدم لنا الأناجيل السيد المسيح وهو يعلم فى مدن وقرى صغيرة، فلابد أنه كان يستخدم اللغة الآرامية، وكانت اللغة اليونانية هى الأخرى مستخدمة فى فلسطين وسرعان ما أصبحت لغة الكنيسة التى امتدت إلى البلاد الناطقة باليونانية فى منطقة البحر المتوسط بفضل العمل الكرازى لبولس الرسول والمبشرين الآخرين.

أما اللاتينية فإن أول كتاب كُتب بها فى الكنيسة يرجع إلى أواخر القرن الثانى، ولم يكن بفضل روما بل شمال أفريقيا، وذلك هو تاريخ إستشهاد العديد من المسيحيين فى مدينة سيلى *Scilli* والتى يُعتقد أنها كانت قريبة من قرطاج عاصمة الإقليم الرومانى فى شمال أفريقيا، وقد كان هؤلاء الشهداء يتحدثون اللاتينية، وورد فى سيرتهم أنهم أخبروا الوالى الرومانى أن عندهم كتابات بولس الرسول، الأمر الذى استنتج منه الدارسون أن رسائل بولس الرسول كانت متوفرة باللغة اللاتينية. وبعد ذلك أصبحت اليونانية واللاتينية اللغتين الرئيستين فى الكنيسة.

وسرعان ما لحقت لغات أخرى كثيرة بهاتين اللغتين فى إستخدامها فى الكنيسة. فقد انتشرت المسيحية فى القرن الأول فى الاسكندرية التى كان أهلها يتحدثون اليونانية، ثم أمتدت لتصل إلى الريف الذى كان أهله يتكلمون اللغة القبطية. وفى القرن الثالث وصلت المسيحية إلى أرمينيا فترجم أهلها الكتاب المقدس وكتبوا كتاباتهم بلغتهم الأرمنية، وحدث الأمر عينه مع چورچيا وأثيوبيا فيما بعد. وفى سوريا، عندما انتشرت المسيحية خارج أنطاكية إلى الريف، ظهرت الكتابات المسيحية باللغة السريانية.

وهنا يجب أن نذكر أن هؤلاء المسيحيين الذين لم يتحدثوا اليونانية ولا اللاتينية لم يقوموا فقط بترجمة الكتاب المقدس وأعمال كبار الآباء، بل ووضعوا هم أنفسهم العديد من الكتابات الهامة، فعلى سبيل المثال حُفظ الكثير من الأدب الرهبانى المبكر فى اللغة

القبطية لأنها كانت لغة الآباء العظام مؤسسى الرهبنة مثل القديس أنطونيوس الكبير والقديس مقاريوس الكبير والقديس باخوميوس والقديس شنوده رئيس المتوحدين، بينما كتب القديس مار إفرآم السريانى شعراً رائعاً باللغة السريانية. ومن الناحية الأخرى حفظت لنا هذه اللغات ـ وكذلك اللغة العربية فيما بعد ـ أعمال بعض الكتاب اليونانيين العظام وأحياناً اللاتين أيضاً.

ولسبب ما لم يترك المسيحيون الغربيون الذين لم يتكلموا اليونانية ولا اللاتينية أية كتابات بلغتهم المحلية بالرغم من أنهم تعلموا المسيحية بهذه اللغة المحلية، فكهنة شمال أفريقيا كانوا يعظون بلغة الـ *Punic* وهى لغة استخدمها أهل الريف هناك الذين لم يعرفوا اللاتينية، والقديس إيريناؤس أسقف ليون يقول أنه قد وعظ بعض المسيحيين الذين كانوا يتكلمون اللغة الكلتية *Celtic* (اللغة المستخدمة قديماً فى أيرلندا واسكتلندا). والقديس باتريك بشر أيرلندا باللغة الأيرلندية.

وتنوع اللغات التى كُتب بها الأدب المسيحى المبكر يعنى أن الدارس للمسيحية الأولى يجب أن يتعلم بعضاً من هذه اللغات، وليس جميعها بالطبع. ولكن هناك عامل آخر هام هنا، ذلك هو أن دلالات الكلمات والألفاظ فى لغة ما تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ومن عصر إلى عصر، ولذا لابد أن تدرس اللغة وتدرس مراحل تطورها فى الفترات التاريخية المختلفة وفى الأماكن الجغرافية المتنوعة.

وتلعب الدراسة التفصيلية دوراً هاماً فى تحديد أصالة أى كتاب وصحة نسبه إلى كاتبه من عدمها. ففى العصور الوسطى نُسخ الكثير من المخطوطات المسيحية الأولى، وحدث أن نسخ النساخ عن طريق الخطأ أحد الكتب تحت اسم كاتب آخر مشهور غير الكاتب الأصلى كإستخدام اسم كلمنضس الرومانى وأثناسيوس وچيروم وأغسطينوس وآخرين، إلا أنه بمقارنة أسلوب اللاتينية واليونانية التى إستخدمها هؤلاء الآباء فى الكتابات التى يجزم بصحة نسبها إليهم بأسلوب اللغة المستخدمة فى الكتابات المشكوك فيها، وكذلك مقارنة الأفكار الرئيسية، تمكن العلماء من إكتشاف الأعمال المنحولة، وهذا يعنى أنهم يستطيعون دراسة فكر الأب بدقة أكثر إذ يعتمدون فقط على الأعمال الأصلية التى كتبها.

أما الكتاب الذى يثبت عدم صحة نسبته إلى الكاتب فيُسمى «العمل المنسوب إلى» أو «الكتابات المنحولة لـ..» إلى ديونيسيوس الأريوباغى أو چيروم أو أغسطينوس أو غيرهم

لتوضيح أن هذا العمل وصلنا تحت اسم هذا الأب ولكن ثبت عدم صحة نسبه إليه، ويمكن أن يكون لهذا العمل المنحول أهمية وقيمة كبيرة.

ومن الأمثلة على ذلك، نجد الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس والمنسوبة إلى القديس كلمنضس الرومانى. فلفترة طويلة كانت رسالة كلمنضس الرومانى إلى أهل كورنثوس (والتى كتبها هو بالفعل) تسمى «الرسالة الأولى» وذلك إعتقاداً بأنه هو الذى كتب الثانية ايضاً، ولكن عند المقارنة الدقيقة التحليلية لأسلوب الرسالتين، تبين أن الرسالة الثانية هذه إنما هى عظة تعود لمنتصف القرن الثانى وأنه لا يمكن أن يكون كاتب هاتين لرسالتين شخصاً واحداً. وهكذا منْ يود أن يدرس القديس كلمنضس الرومانى ينبغى أن يعتمد على الرسالة «الأولى» فقط...

لكن ماذا عن الرسالة الثانية المنسوبة إلى كلمنضس الرومانى؟ أظهرت دراسات وتحليلات الدارسين أن هذه العظة تعود لتاريخ مبكر جداً، ربما نحو عام ١٤٠م، وهكذا أصبحت واحدة من أقدم العظات المسيحية بعد العهد الجديد وصارت عملاً له قيمة وأهمية كبيرة حتى بالرغم من أنها عمل منحول أى منسوب إلى كاتب آخر.

وأحياناً قد لا يصلنا كتاب فى لغته الأصلية ولكن فقط فى ترجمة له، وهنا نأتى إلى عنصر الترجمة فى الكنيسة الأولى، فترجمة الكتابات الأدبية العادية شئ، وترجمة الأبحاث اللاهوتية والفلسفية شئ آخر. ففى أغلب الأحوال يكون للكلمات معان دقيقة فى لغتها الأصلية لا يسهل نقلها إلى اللغات الأخرى، ولذا فغالباً ما يضع المترجم الكلمة فى لغتها الأصلية بجوار ترجمته للمعنى الأصلى لهذه الكلمة، وتصير الكلمة التى إختارها المترجم لنقل معنى الكلمة الأصلية هى الكلمة الأصلية بالنسبة للقارئ الذى لا يستطيع قراءة النص الأصلى، وبالتالى فإن أية ترجمات فى المستقبل لهذه الكلمة لن تكون سهلة. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث فى بدايات القرن الخامس عندما إستخدمت كنائس إفريقيا ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها القديس چيروم فثار شعب هذه الكنيسة رافضين هذه الترجمة، وقد كان القديس أغسطينوس قد سبق وحذر القديس چيروم أن لا يتوقع أن الناس سوف تترك الترجمة التى إعتادوا عليها.

وبالتالى عندما يدرس الدارس للمسيحية الأولى كتاباً وُضع أصلاً باللغة اليونانية ولكنه وصلنا فقط باللغة اللاتينية (مثل أعمال القديس إيريناؤس أسقف ليون)، فلابد أن يتساءل

عن مدى دقة الترجمة وكيف يمكن أن تكون قد تأثرت بالوسط اللاتينى الذى تُرجمت فيه.

ورغم أن سائر الكتابات التى وصلتنا لها قيمتها بالنسبة للدارسين، إلا أن بعض الأعمال لها أهمية مميزة، سواء لأن لها قيمة نادرة أو لأنه لم تصلنا أعمال أخرى غيرها، وهناك الكثير جداً من هذه الفئة، ولكن ضمن الفئة الأولى لابد أن نذكر «التاريخ الكنسى» ليوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين وأول مؤرخى الكنيسة، فكتابه هذا يمثل مصدراً ثميناً للمؤرخين ليس فقط لأنه يقدم تاريخاً شاملاً للمسيحية فى القرون الثلاثة الأولى (وقد نقل عنه المؤرخون القدامى)، ولكن ايضاً لأن يوسابيوس ضمنه عدداً كبيراً من المصادر الأصلية والتى تمثل ٢٠٪ من «التاريخ الكنسى»، وفى بعض الحالات يقدم هذا الكتاب النسخة الوحيدة من عمل ما ضمنه فيه يوسابيوس، بل وأيضاً الموضع الوحيد الذى يذكر فيه أب ما أو كتاب ما مثل سرابيون أسقف كنيسة أنطاكية فى النصف الأخير من القرن الثانى والذى لعب دوراً هاماً فى الجدال المونتانى. وفى الفترة التالية ليوسابيوس كتب المؤرخون تواريخاً عديدة مثل تاريخ سقراط وسوزومين والذى تضمن كل منها أيضاً أعمالاً لكُتاب آخرين لم تصلنا فى أى مصدر آخر.

وهكذا مما لا شك فيه أن الكتابات تعتبر من أهم مصادر المعلومات عن حياة الكنيسة التعبدية والكرازية والرعوية والإجتماعية فى القرون الأولى، ومعظمها مكتوب باليونانية واللاتينية والقبطية والسريانية ولغات أخرى، ولا زال بعضها محفوظاً فى المكتبات والمتاحف يحمل صدى أصيل لحياة المسيحيين الأولين.

٣) طبيعة المعلومات المادية المرئية

إن المصادر الأدبية تتناول بالأكثر الأفكار وكيف قدم المسيحيون أنفسهم للعالم وكيف رأوه ، ولكن هناك العديد من المصادر الأخرى التى يمكننا أن نراها أو حتى نمسكها.

أول هذه هو **الكتاب** والذى تحدثنا عنه بالفعل. ونحن ننظر إلى الكتب باعتبارها «حاويات للفكر»، وعندما نقول أن كتاباً ما خفيف أو ثقيل، نقصد أنه كان سهلاً أو صعباً عسيراً، ولكن الكتاب هو أيضاً شئ مادى، وبقاء كتاب ما حتى وصوله إلينا له دلالاته

ويخبرنا عن هؤلاء الذين إقتنوه وقرأوه كما نستقى منه معلومات عن مدى مهارتهم فى صناعة الكتب.

أما **النوع الثانى** من المصادر فهو الأرض. وفى القرن التاسع عشر سمى المفكر الفرنسى *Emst Renan* الأراضى المقدسة بـ «الإنجيل الخامس»، فرؤية المواضع التى مشى عليها ربنا يسوع مع تلاميذه وتحدثوا وعاشوا عليها تعطينا إحساساً بعالمهم وبالتالى إحساساً بهم.

لكن المشكلة هى أنه ما لم يكن المكان قد حُفظ كما هو بعد الأحداث التى أعطته شهرته، فإنه سيصعب على الإنسان المعاصر أن يتعرف عليه. فبعض المواضع المسيحية دمرتها عوامل طبيعية مثل الزلازل، وأخرى هدمتها الحروب، وأخرى عوامل الزمن والتقدم، وأخرى ببناء جديد عليها كما حدث فى بعض الحالات عندما قام المسيحيون بتجديد الكنائس القديمة لتفى بمتطلبات الزيادة العددية للمسيحيين بعد العصر المسيحى الأول. وبالرغم من هذا كله، هناك الكثير من المبانى المسيحية التى تعود للقرون الأولى والتى حُفظت كما هى ويستطيع زائرها أن يتعرف على الكثير من نواحى حياة المسيحيين الأولين الذين سكنوها.

أما **النوع الثالث** فهو الإكتشافات الأثرية أو الأركيولوچى، وتتطلب هذه الأعمال قدراً كبيراً من الوقت والمال والخبرة الفنية ولكن حتى وإن توفرت هذه العناصر، فإن هذا لا يضمن نجاح الحفريات.

وعند إكتشاف مبان أثرية فى أعمال الحفريات هذه، نستطيع أن نستقى منها الكثير من المعلومات، ليس فقط تركيبها وأقسامها بل وأيضاً الجو والمناخ الذى أراد بانيها لها أن توفره، فمثلاً: هل كان هذا المبنى مكاناً لإجتماع المؤمنين كأصدقاء، أو كانوا يقفون فيه بخوف ورعدة أمام الله؟ وقد أعطى الكثير من علماء الحفريات لدراساتهم بعنوان «الحجارة تتكلم».

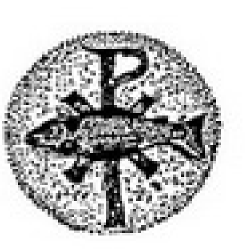
وفى كثير من الأحيان تكتشف أعمال الحفريات أشياء صغيرة تكشف أبعاداً هامة فى حياة الجماعة المسيحية الأولى فى ذلك الموضع، فأجران المعمودية ـ على سبيل المثال ـ تخبرنا الكثير عن طقس المعمودية.

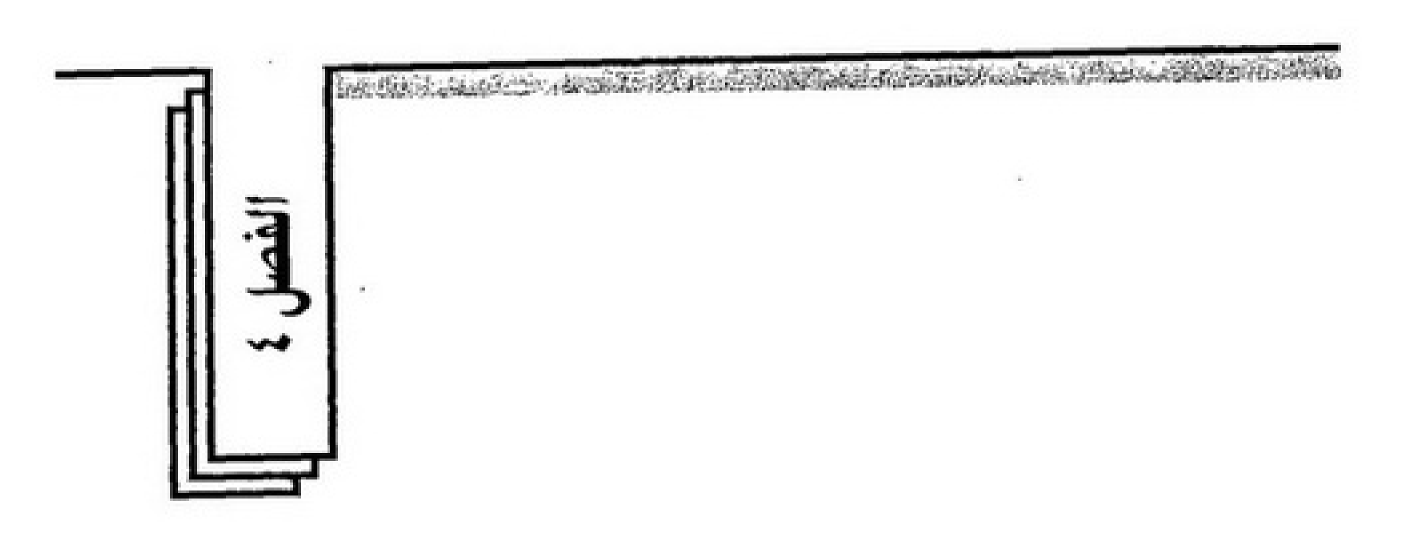
كذلك يخبرنا علم الحفريات عن الحياة اليومية للمؤمنين الأولين، فى أى نوع من المنازل كانوا يعيشون، أى نوع من المواقد كانوا يستخدمون، إلخ... كذلك الأوانى

المستخدمة والأدوات الكنسية والعملات المعدنية والقبور والجبانات. هذا ويجد الباحث متعة فى متابعة الدلائل الحقيقية خطوة بخطوة مع منطق علم الآثار والحفريات لإستخلاص المعلومات.

وتعتبر المقابر والتوابيت والكتابات والنقوش والقوارير والمصابيح والسرج والرموز والرسوم والملابس والمخطوطات من أقدم التسجيلات الأثرية فى مجال المعلومات.

وتعتبر الأيقونات من مصادر المعلومات الهامة لأنها تصور الأشكال فى قطع خشبية مستطيلة أو مربعة ويشمل معنى الأيقونة كل تصوير على الجبس أو الخشب أو الورق ليقدم مناظر كتابية أو شخصيات فى تاريخ الكنيسة. وأحياناً يعتبر تزيين الفسيفساء والتصوير على الخشب والمشمع بمثابة حروف تذكرنا بالمرسومين عليها وتشخصهم لنا سواء كانوا شخصيات أو أحداث.





طغمات

الكنيسة الجامعة

طغمات الكنيسة الجامعة

حسب أقدم الوثائق الأولى تظهر الكنيسة مكونة من: الأساقفة، القسوس، الشمامسة، الموعوظين، والمؤمنين. وقد وضع **القديس كلمنضس السكندرى** كتاباً عن الأساقفة والكهنة والشمامسة، معتبراً أن الدرجات الكنسية من أسقفية وقسيسية وشماسية هى إمتثال بالمجد الملائكى وبالتدبير الذى يقول عنه الكتاب المقدس أنه ينتظر الذين يتبعون خطوات الرسل أى هؤلاء الذين يعيشون فى كمال البر حسب الإنجيل إذ يرتفعون فى السحاب، فأولاً يخدمون كشمامسة ثم يحسبون أهلاً أن يكونوا كهنة، ويدخلون من مجد إلى مجد حتى يبلغوا الإنسان الكامل (أف٤ :١٣). كذلك أكد سميه الرومانى على أن الرتب جنود للملك العظيم، والرتب الكبيرة لا يمكن أن توجد بدون الرتب الصغيرة ولا الصغيرة بدون الكبيرة.

ويعتبر **كلمنضس** أن هذه الدرجات خدمة حقيقية لإرادة الله، لذا جاء تلميذه **العلامة أوريجين** ليقول: «كل إنسان يجب أن يُحاسب حسب درجته. إذا أخطأ أسقف الكنيسة وناظرها فسوف ينال عقوبة أكبر. أما الموعوظ فهو أهل للرحمة أكثر من المؤمن، وكذلك المؤمن العادى بالمقارنة بالشماس. أما الشماس فيعاقب بدرجة أقل من القسيس». وبهذا المنظور يحدد العلامة أوريجين مسؤولية كل درجة فى طغمات الكنيسة حتى أنه يرتعب من حكم الله على الكهنة الذين يخطئون فيقول: «أما ما يسقط تحته الكاهن فلا حاجة لى أن أخبر عنه». ويقول فى موضع آخر: «يوجد دين مستحق على الشماس وآخر على الكاهن، أما المستحق على الأسقف فهو أثقلهم».

ويؤكد **العلامة أوريجين** على مسؤولية رجال الكهنوت من جهة التعليم والتدبير والسلطان ككهنة الكاهن الأعظم الذين يتقبلون معرفة الشفاء من قبله ويتعلمون من الروح القدس ويعطون الحل لمغفرة الخطايا، فما يربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وما يحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء، وما يقولونه يكون صحيحاً ولا تقوى عليهم بوابات الجحيم حين يربطون ويحلون.

بينما يقسم **يوسابيوس** طغمات الكنيسة إلى: «النُظار ـ المؤمنون ـ الموعوظون». وبهذا يعتبر أن الكنيسة ثلاثة طغمات: النظار هم الأساقفة والكهنة، أما الإثنين الآخرين فيخضعان لهم.

ويقسم **چيروم** الكنيسة إلى خمس طغمات وهى: «الأساقفة ـ القسوس ـ الشمامسة ـ المؤمنين ـ الموعوظين» ومن هذا نفهم أن اسم المؤمنين يُقصد به هؤلاء الذين اعتمدوا وهم شعب الكنيسة الذى يسميه البعض خطأً «علمانيين».

ونستطيع من تقسيم الليتورچيا نفسها أن نعرف أن المؤمنين هم الذين يشتركون فى الأسرار لأنهم يحضرون «قداس المؤمنين»، أما الموعوظين فهم يحضرون الجزء الخاص بالتعليم والمعروف باسم «قداس الموعوظين». لكننا من المصادر القديمة نفهم أيضاً أن الموعوظين كانوا يُسمون مسيحيين حسب نص قانون مجمع القسطنطينية المسكونى الثانى (قانون٧).

ويقول **القديس أغسطينوس** عن الواقفين فى خورس الموعوظين أنهم ليسوا بعد أبناء لأنهم لم يُولدوا من المعمودية، ولكنهم عبيد لأنهم لم يأخذوا بعد نعمة التبنى فى بيت الله ولذلك لا ينالون امتيازات المؤمنين.

أما الذين تركوا اسم المسيح وأخذوا لأنفسهم اسماً آخر غير اسم المسيح، فقد كان من المتبع عند الآباء عدم إعتبارهم ضمن طغمات الكنيسة، بل تم حرمهم من اسم المسيحية نفسه مع قطع ودحض كل أفكارهم الهرطوقية (كما جاء فى كتابات البابا أثناسيوس الرسولى وكتابات القديس هيلارى أسقف بواتييه).

وهكذا لا يُدرج ضمن طغمات الكنيسة كل منْ تسمى باسم مؤسس شيعته مثل الأبوليناريين والآريوسيين والمونتانيين والنوفاتيين وغيرهم من الهراطقة.

لقد حددت الوثائق الآبائية الأولى امتيازات المؤمنين بإعتبارهم شعب الكنيسة الذى نال سر المعمودية ويشترك فى باقى الأسرار، لذا تسموا باسم «المستنيرين» أى الذين إستناروا بنعمة المعمودية فنالوا الإدراك والمعرفة. وأحياناً دُعى شعب الله المؤمنين باسم «الكاملين» أى الذين يشتركون بالكامل فى الأسرار وهم الذين سمحت لهم الكنيسة بمعرفة الأسرار الإلهية. وهكذا نجد أن معظم الإشارات إلى الأسرار الكنسية فى كتابات الآباء تنتهى بعبارة

تتكرر على الأقل خمسين مرة فى عظات **ذهبى الفم** وتلك هى: «**الكاملون** سوف يفهمون ما أقصده». وقد كتب القديس أمبروسيوس كتاباً خاصاً للكاملين أو المشتركين فى الأسرار، وكذلك القديس يوحنا ذهبى الفم والقديس مرقس الناسك.

وهؤلاء المؤمنون المعمدون هم شعب الله المقدس «شعباً مقدساً، مفدىّ الرب» (أش٦٢ :١٢) والذين يؤكد الشهيد يوستين على أنهم شعب الله المختار، ويقول عنهم **القديس كيرلس الأورشليمى**: «الكنيسة تسمى إكليسيا أى الاجتماع، لأنها تدعو وتجمع كل البشر.... فى اليوم الذى فيه اختارهم ليكونوا كنيسة».

ويؤكد **القديس يوحنا ذهبى الفم** على أن المسيحيين أصحاب الاسم الحسن هم الذين يتمتعون بالملكوت وعلى أنهم صاروا كهنة بتقديم أجسادهم ذبيحة لله (رو١٢ :١) وأصبحوا أنبياء لأن ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن (١كو٢ :٩) قد أعلنه الله لهم بروحه القدوس. ويشرح الوظائف الروحية الثلاث لشعب الله قائلاً: «لقد صرت فى المعمودية ملكاً وكاهناً ونبياً: ملكاً بمعنى أنك ألقيت وطرحت أرضاً كل أعمال الشر وتركت خطاياك ودست عليها، وكاهناً بمعنى أنك تقدم نفسك وجسدك لله ذبيحة، ونبياً إذ أنت تعرف ما سيكون وقد تعلمت من الله وقد ختمت، إذ كما يطبع على الجنود بختم، هكذا على المؤمن يطبع ختم الروح القدس». فكل إنسان يمسح بالمسحة إنما يمسح للملكوت، والملكوت الروحى هو الكهنوت الروحى بحسب تعبير القديس أمبروسيوس.

وشعب الله هو المزهر بالمسيح خلال المعمودية بعد أن كان يابساً بسبب الخطية والتعدى، وقد صاروا كهنة فى المعمودية بمعنى أنهم يقدمون أجسادهم ذبائح لله، ويقدمون ذبيحة جحد الذات وذبائح التسبيح والصلوات والرحمة والطهارة والقداسة أمام الله.

فشعب الله هم ورثة الملكوت الوارثون مع المسيح (يع٢ :٥ + رو١٨ :١٧) وكل شعب الله هم أتباع المسيح، ولابد أن يظهروا خلال حياتهم ما تتطلبه قوة هذا الاسم العظيم منهم بحسب تعبير القديس اغريغوريوس النيصى. كذلك يقرر **القديس أغسطينوس** أن الكنيسة تعطى القوة للجميع ليشتركوا فى نعمة الله، فعليهم أن يختاروا أن يكونوا قمحاً لا زواناً. ويحث أوريجين الإنسان المسيحى على أن يطابق نفسه على صورة المسيح.

كذلك كتب **القديس إيسيذروس البيلوزمى** كتاباً لـ «**الكاملين**» *Teleios* أى الذين

لهم حق الإشتراك فى الإفخارستيا، ويسميهم **العلامة ترتليان** الأفريقى «المفضلين عند السماء»، وهم الذين يقال لهم علانية فى القداس «القدسات للقديسين»، لأنه كان قبلاً يقال للموعوظين أن يخرجوا خارج الكنيسة. ولعل أول إمتياز للمؤمنين هو حضورهم الصلاة الليتورچية، حتى أن يوحنا ذهبى الفم وأغسطينوس يسمون الصلاة الربانية باسم «**صلاة المؤمنين**» وباسم «**صلاة المولودين من جديد**»، لأن هؤلاء قد نالوا إمتياز الميلاد الثانى وهم أهل لأن يستخدموا هذه الصلاة لأنهم يستطيعون أن يقولوا «أبانا الذى فى السموات» إذ ولدوا من جديد بالماء والروح القدس.

أما الموعوظين فيسمح لهم فقط بسماع الأسفار المقدسة التى تقرأ فى قداس الموعوظين ولا يسمح لهم بحضور الإجتماعات التى تتناول موضوع الأسرار ولا حضور المحاكمات الكنسية والتى كان الأصل فيها هو إشتراك الشعب لإظهار التعليم الصحيح أو الحكم على التصرف السلوكى الفاسد علناً.

وإقتصر تعليم الموعوظين على شرح السلوك المسيحى العملى والحياة الأخلاقية لهم مع أساسيات الإيمان، أما الكلام عن الأسرار فكان خاصاً بالمؤمنين وحدهم، ويقول **أمبروسيوس** أسقف ميلان: «التعليم العام الذى سمعتموه كان خاصاً بالحياة الأخلاقية لأنه خاص بغير المعمدين. أما عندما ينال أولئك سر المعمودية سوف يجئ الوقت الذى تشرح فيه الأسرار الإلهية والكنسية لهم».

ويقول أيضاً **القديس أغسطينوس** فى عظة خاصة عنوانها «الذين إعتمدوا حديثاً»: «بعد أن صرفنا الموعوظين طلبنا منكم البقاء لكى تسمعوا، لأن الكلام العام الذى يجب أن يسمعه كل المسيحيين مؤمنين وموعوظين لا يتضمن الشرح الخاص بالأسرار السمائية أو الأسرار الكنسية. لأن الموعوظين غير مؤهلين لأن يسمعوا عن هذه الأمور لأنهم لم يشتركوا بعد فى عطية الله». ويؤكد كثير من الآباء هذا الأمر عينه عندما يشرحون بشئ من الغموض الأسرار الإلهية طالما أنهم يتحدثون فى حضور غير المعمدين، أما متى غادر هؤلاء المكان فإنهم يتحدثون بإستفاضة مع المعمدين.

وكما ميزت كتابات الآباء بين المؤمن والموعوظ، هكذا ميزت بين الدرجات الكهنوتية الثلاث، لذا أشارت كتابات **أغناطيوس الأنطاكى** إلى الصورة المنظورة للكنيسة كنموذج لملكوت الله معتبراً أن الأسقف رمز لله والكهنة رمز لمجمع الرسل، والشمامسة مؤتمنين

على خدمة ربنا يسوع المسيح... ويؤكد على أن التعامل مع الأسقف المنظور هو تعامل مع الأسقف غير المنظور أى الله، إذ أن عملنا ليس مع إنسان بل مع الله.

ويوصى القديس أغناطيوس الأنطاكى بضرورة إتباع الأسقف كإتباع يسوع المسيح ربنا، والكهنة كإتباع الرسل، وإحترام الشمامسة كناموس الرب، بل ويرى أن كل عمل ينبغى أن يكون بإرادة الأسقف، ويُلقب الأسقف بعدة ألقاب تُعبر عن وضعه المتميز فى الكنيسة فهو الأب، وفى مكان الله، وله كمال قوة الله.

ويعتبر القديس أغناطيوس الأنطاكى أنه بدون الأسقف *Episkopos* والقس *Presve-teros* والشماس *Diakonos* لا توجد كنيسة، متحدثاً عن درجات الكهنوت الثلاث فى مواضع كثيرة من رسائله: «..... أسقف واحد مع القسوس والشمامسة رفاقى فى الخدمة وهكذا تتممون فى كل شئ مشيئة الله». كذلك تحدث **القديس بوليكاربوس** عن واجبات القسوس والشمامسة والشعب والجوانب التنظيمية فى كنيسة فيلبى وسميرنا.

ويكشف **القديس كلمنضس الرومانى** عن دور كل المؤمنين وعن أن لكل درجة من طغمات الكنيسة عملها فيقول: «أعطيت لرئيس الكهنة (الأسقف) خدمات خاصة، وحُددت للكهنة أماكن معينة، وللاويين (الشمامسة) خدمات خاصة بهم، وللشعب القوانين الخاصة بهم، ليشترك كل واحد منكم أيها الإخوة فى الإفخارستيا لله حسب رتبته». كما وذكر بعض الرتب الكنسية مثل الإبوذياكونيين (مساعدى الشمامسة)، والدياكونيين (الشمامسة)، والإبرسفيتيروس (القسوس)، والأساقفة الذين عملهم الرئيسى هو خدمة الليتورجيات وتقديم القرابين.

ويقول **العلامة ترتليان**: «قد إقتصر حق التعميد على رؤساء الكهنة (الأساقفة) ثم للكهنة والشمامسة فقط ولكن ليس من دون الأسقف».

ويقول **القديس إبيفانوس** أسقف قبرص: «لا يمكن أن يكون القس والأسقف متساويين، وقد علّم الكتاب الإلهى منْ هو الأسقف ومنْ هو القس بقوله لتيموثاوس: لا تزجر شيخاً، وفى موضع آخر: لا تقبل شكوى على قس إلا بشهادة إثنين أو ثلاثة».

كذلك يقول **العلامة أوريجين**: «يُطلب منى أنا القس أكثر مما يُطلب من الشماس، ومن الشماس أكثر من العلمانى، ولكن الذى يضبط بيده السلطة الكنسية (أى الأسقف)

يُطلب منه أكثر منا كلنا». ويقول أيضاً **القديس كلمنضس السكندرى**: «إن درجات الأسقف والكهنة والشمامسة تُشبّه بحسب رأىّ بالمجد الملائكى».

هذا وقد جاء فى **قوانين الرسل**: «لا يجوز للقسوس والشمامسة أن يفعلوا شيئاً البتة من غير رأى أسقفهم، لأنه هو المؤتمن على شعب الرب وهو العتيد أن يُحاسب عن أنفسهم».

وتكلمت تعاليم الرسل *Didcahe* عن درجات الكهنوت الثلاث:

١) **الأسقف**: بإعتباره الناظر والرقيب والمدبر كنائب للرسل. وإشتملت قوانين الرسل الكثير عن الأسقف وإقامته وعمله وخدمته (١تى٣ :٢-٧، تى١ :٦-٩).

٢) **القسوس**: (أع١٤ ٢٣، ٢٠ :١٧) كوكلاء لسرائر لله يقومون بالأعمال الرعوية والتعليم وخدمة الأسرار الكنسية المتصلة بالكهنوت.

٣) **الشمامسة**: (أع٦ :١-٨، ٨ :٥) كخدّام للخدمات الطقسية وممارسة التعليم والكرازة (أع٦ ،٧) (أع٨ :٥-٨) وكخدام للموائد وللخدمات الشماسية والدياكونية.

فالتقليد القديم جداً إستقر منذ تأسيس الكنيسة على أن لكل طغمة من الطغمات عملها وخدمتها وقوانين وشروط إقامتها، دون الخلط بين الرتب والوظائف.

وكلمة «**اكليروس**» قديمة مثل كلمة «**الشعب**»، فالقديس كلمنضس السكندرى يقول عن القديس يوحنا الحبيب أنه عندما ذهب ليستقر فى أفسس بعد منفاه فى جزيرة بطمس، أقام أساقفة وخصص عدداً من الإكليروس *Kleros* حسبما أرشده الروح القدس.

أما كلمة «علمانى» فقد استخدمها القديس يوحنا ذهبى الفم لوصف «الإنسان الذى يحيا فى العالم». كذلك يقول **الأسقف سينسيوس** أسقف القيروان: «إن العلمانى هو الذى لم يحصل على أية درجة من درجات الكهنوت»، وتحدث نفس الأسقف فى رسالته إلى البابا ثيؤفيلس عن عدد من القسوس الذين تم فرزهم من الإكليروس قائلاً أنهم سوف يُعاملون مثل «الذين يؤدون أعمالهم الخاصة» لأنهم فقدوا درجاتهم الكهنوتية.

وكلمة «**لاؤوس**» تعنى «شعب» وهى الاسم المسيحى الذى يُطلق على شعب الله المختار والمفرز والمؤمن بالمسيح إلهاً ومخلصاً. وكل مسيحى هو بالتعبير الكنسى «لائيكوس Laikos» أى عضو فى شعب الله الجديد. أما كلمة «علمانى» فهى ترجمة للتعبير

اليونانى «كوزميكوس *Kosmikos*» أى منسوب إلى «العالم *Kosmos*» وهذا مخالف للواقع المسيحى. فشعب الله يعيشون بحسب الدعوة التى دعوا إليها لأنهم ليسوا من هذا العالم (يو١٥ :١٩) بإعتبار أن كل مؤمن موسوم بالروح القدس بعد أن نال سر المسحة المقدس، لأن الله سبق فوسمنا للبنوة بيسوع المسيح ربنا كمسرة إرادته (قداس القديس كيرلس الكبير).

ومن هنا نستطيع أن نصف أعضاء شعب الله بأنهم «**طغمة**» أى رتبة أو فرقة من فرق القوات السمائية التى للكنيسة الجامعة، وقد تسموا «**طغمة اللاؤوس – شعب الله**» جنباً إلى جنب مع «**طغمة الإكليروس**»، وهو ما تؤكده صلوات المعمودية التى تجعل كل عضو فى شعب الله من رعية أهل بيت الله وبهم يتكون البناء الكنسى إذ أن كل واحد منهم هو «خروف فى القطيع المقدس الذى للمسيح ـ عضو مكرم فى الكنيسة الجامعة ـ إناء طاهر ـ ابن للنور ـ وارث للملكوت».

والكنيسة كلها هى الشعب والعائلة والجماعة التى إختارها وأسسها الله كأعضاء مكرمة نالت جميعها رتبة البنوة. وكلمة رتبة تصف كل طغمة من ألوية وقوات الكنيسة الجامعة الذين هم رعية مع القديسين وأهل بيت الله. لذا يصلى الكاهن بصيغة الجمع: «نسأل ونطلب» «نقدم» «نشكرك» «نمجدك» «نصعد» «ننال» باعتباره رافع قرابين الشعب «لاؤوس» كله والمتحدث عنهم أمام الله. لأن الإفخارستيا هى شركة الكل، فهى لا تقام بالكاهن وحده، بل بالشعب مع الكاهن، وهذه هى سمة الجموعية والشركة فى التقليد الليتورچى الأرثوذكسى.

ونؤكد هنا على أن طغمات البيعة المقدسة هى الشكل التنظيمى لبنيان وتدبير الكنيسة وهى قوات وضعها الله بترتيب إلهى (١كو١٢) لتكون بالصورة السمائية على الأرض، ساعية إلى الأبديات والإلهيات: الأسقف كراعى، والقس كمعلم، والشماس كخادم، والإيبوذياكونيون كأعوان، والأغنسطوسيون كقراء، والابصلتوسيون كمرتلين بفهم، وبقية الشعب مستمعين لكلام الإنجيل وعاملين بحرص.

فرعية الله عاقلة، ولكل خروف عمله وإذا لم يتبع الراعى الصالح فهو يكون طعاماً لذئاب الهلاك، فإن كان إثنا عشر قد خمّروا العالم أجمع، فكيف لا نستطيع نحن أن

نخمر ما لم يتخمر بعد ونحن بهذه الكثرة؟! إنها رسالة كل عضو فى جميع طغمات الكنيسة الجامعة.

وبالرغم من أن بعض الآباء قد أكدوا على أن كل مسيحى بعد المعمودية هو ملك وكاهن لله بالمعنى العام، إلا أن هذه الأقوال لم تلغ عند هؤلاء الآباء «الكهنوت الخاص» وتأكيدهم على طغمات الكنيسة وسرائرية الكهنوت، فالكهنوت العام الذين يناله كل من مسح بمسحة الميرون المقدسة ليصير كاهناً يقدم الصلوات والعبادة لا يعنى عدم وجود سر الكهنوت الخاص وعمل الكهنوت كسر كنسى.

وفى بعض المصادر القديمة يظهر أن كلمة «إكليروس» كانت تُستخدم لكل خدام الكنيسة ولم تكن قاصرة على الأساقفة والقسوس والشمامسة فقط بل وكانت تُطلق أيضاً على الرتب الأخرى الأقل، لذا يصف القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة إثنين من الإبيذياكونيين بأنهما «من الإكليروس».

وفى نفس الإطار لا تُطلق كلمة «إكليروس» فقط على الأساقفة والقسوس والشمامسة بل وعلى باقى الرتب مثلما يقال فى تحليل خدام القداس القبطى «عبيدك خدام هذا اليوم» حيث تأتى كلمة إكليروس بعد القس والشماس، مما يؤكد على قدم الصلاة نفسها: «أيها الإكليروس وكل الشعب...» «القارئون فليقولوا.. ».

وفيما بعد شاعت كلمة «إكليروس» وأصبحت تُستخدم للرتب الأقل من الشماس (الدياكون) أى الإبصالتس (المرتل) والأغنسطس (القارئ) والإبيذياكون (مساعد الشماس)، وهذا ما سجله القديس أمبروسيوس فى كتاب «درجات الكهنوت».

ويقول **القديس إبيفانيوس** عن عصر إضطهاد دقلديانوس أن الذين سقطوا فى خطية الإرتداد كانوا «من الجنود ومن الإكليروس من رتب مختلفة، والبعض من القسوس والبعض من الشمامسة».

وحسب الترتيب الكنسى القديم كان لدى كل كنيسة قائمة أو سجل خاص بأسماء الذين تم اختيارهم ضمن خدام أو رتب الكهنوت، وقد سجل لنا هذه الحقيقة المجمع النيقاوى المسكونى الأول.

وقد تحدث كتاب **الراعى هرماس** بطريقة غير مباشرة عن النظام الكهنوتى، فقد مدح محبة الأساقفة، ووبخ القسوس والشمامسة على أخطائهم، وكذلك تطلع إلى الكنيسة كأم للمسيحيين بغض النظر عما للإكليروس من فضائل أو ضعفات، إذ أن التدبير الكنسى لطغمات الكنيسة يتم بفعل روح الله القدوس ولا يرتبط بأخلاقيات أو فضيلة صاحب الرتبة.

وفى تركيز علق آباء كثيرون على الترتيب الكنسى والطغمات فتحدث **اغريغوريوس النيصى** عن أعمدة الكنيسة وأنهم ليسوا فقط التلاميذ والرسل بل أنهم كل الخدام الذين يخدمون فيها، ويعلق قائلاً: «ليست كل الأعضاء من نوع واحد ولكنها تعمل معاً. فالعين لا تحتقر اليد والرأس لا تزدرى بالقدم... على أن كل من أقامه الله لخدمة الكنيسة يشبه الحمامة، يجب أن يغسل نفسه من آثارالخطية إذا كان يريد أن يخدم بطهارة».

ويؤكد **القديس باسيليوس الكبير** على أن الكنيسة تزينت برتب ومواهب متنوعة حسب النعمة المعطاة لها، لكن الجميع معاً يكمّلون ويكوّنون جسد المسيح فى وحدة الروح القدس، فإذا ما قاسى عضو عانت معه كل الأعضاء، وإذا ما كُرم عضو تهللت له ومعه بقية الأعضاء، إذ لا قيام للكنيسة إلا ببعضها البعض.

ويرى الآباء أن نظام وجود رتب وطغمات فى الكنيسة له حكمة فى ترتيبه وفقاً لتوزيع المواهب التى من الروح القدس الذى ينظم وينسق ويقود حياة الكنيسة، وهو الفاعل فى الأسرار وهو الذى يقدسها بحلوله عليها.

إلا أنه لم يكن هناك على الإطلاق أى ذكر لوجود الهراطقة ضمن رتب الكنيسة وطغماتها، لذلك يجيب الآباء على من يتسائل: «لماذا يسمح الله بالهرطقات؟»، فيقولون بأن الأمر كان هكذا منذ البداية حيث الشيطان يقيم الضلال على الدوام مقابل الحق، بداية من غوايته لآدم وحواء، ثم فى وجود قايين وهابيل، ثم أبناء شيث وبنات الناس، ثم حام ويافث، ثم موسى وفرعون، ثم يعقوب وعيسو، ثم الأنبياء والأنبياء الكذبة، ثم الرسل والإخوة الكذبة، وسيجئ المسيح وضد المسيح. هذا ما كان قبلاً، وما حدث ويحدث إلى هذا اليوم. لهذا لم يُدرج الهراطقة ضمن طغمات الكنيسة ورتبها إذ ليس لنا نحن والهراطقة إله واحد ولا كنيسة واحدة ولا إيمان واحد.



طبوغرافية

مبنى الكنيسة

عند الآباء الأولين

(مبنى الكنيسة فى كتابات الآباء)

الكنيسة كمبنى

طبوغرافية مبنى الكنيسة

عند الآباء الأولين

مبنى الكنيسة فى كتابات الآباء

يرى **هرماس** فى كتابه «الراعى» أن الملائكة تفرح حينما يرون برج الله السمائى يكتمل أى يكتمل بناؤه فينا، ممجدين الله على بنيان الكنيسة الروحى المستمر، ويقول **القديس إيريناؤس** أسقف ليون: «حيث تكون الكنيسة يوجد روح الله، وحيث يوجد روح الله تكون الكنيسة وكل نعمة». لذا فى الكنيسة نجتمع معاً فى مساكن الرب إله القوات المحبوبة التى يُطوب كل الساكنين فيها (مز٨٤).

لذا رأى الآباء الأولون أن المبنى الكنسى ليس مجرد عمل هندسى إنما هو إنجيل مفتوح كُتب بلغة المنظورات كحديث لاهوتى بسيط وعميق فى آن واحد، وله فاعليته فى حياة الكنيسة وأعضائها، كمثال فلك نوح، فمع أنه فلك واحد لكن كل الأمور فيه كانت روحية ومرتبة ترتيباً حسناً.

١) الكنيسة كمعنى

تتكلم طبوغرافية مبنى الكنيسة بمعان وقيم روحية، إذ أن الكنيسة تُبنى لتبنى أولادها وتنطلق بهم نحو الشرق من خورس الموعوظين والتائبين إلى خورس المؤمنين فحامل الأيقونات ثم الهيكل المقدس حيث عرش الملك الإلهى واستحقاقات الدم. ويرتبط المبنى الكنسى فى كتابات الآباء بالجماعة الكنسية ليحمل طبيعتها وروحها ورسالتها فيلتحم الإلهى بالبشرى والأبدى بالزمنى والسماوى بالأرضى، وهذا ما يؤكده المبنى الكنسى بحسب الوثائق الأبائية الأولى.

ويقول المؤرخ **يوسابيوس القيصرى** أن الكنيسة المنظورة تُبنى على صورة الكنيسة غير

المنظورة... هى السماء على الأرض، ويقول **العلامة أوريجين** السكندرى أن الكنيسة هى «إمتثال بالملكوت العتيد» ويقول **القديس أغسطينوس** أن «كنيسة الله هى السماء» ففيها يسكن الله ويعيش.

وكذا أشار إليها البطاركة الأولون إبراهيم وإسحق ويعقوب، وقد تأسست على الرسل وتنبأ عنها الأنبياء وتقدست بالقديسين وتخضبت بالشهداء، لذا عندما نقف فيها نكون كالقيام فى السماء فى صحبة السيرافيم، محصيين مع السمائيين ومعدودين فى صفوف الملائكة، نتحدث مع الرب ونكون فى معيته، وعندما نخرج منها نكون كالهابطين من السماء عينها.

قرر **القديس هيبوليتس** أن إجتماع المؤمنين للصلاة كان يتم فى بيت الرب، وأشار **القديس كلمنضس السكندرى والعلامة أوريجانوس** فى كتاباتهما إلى وجود كنائس مُكرسة، فقد إعتاد المسيحيون حتى قبل القرن الرابع ممارسة العبادة الكنسية فى مبنى الكنيسة كبيت الله الخصوصى لدرجة أن المبانى الكنسية القديمة لم تعد تكفى الأعداد الكبيرة المحتشدة والجموع المجتمعة وصارت الضرورة ملحة لبناء الكنائس (بحسب تأريخ العلامة يوسابيوس القيصرى). كذلك يقول **العلامة لاكتانتيوس** أن الجموع المتزايدة لم تعد تكفيها المبانى القديمة ولذا أُقيمت كنائس أكثر إتساعاً وروعة.

٢) الكنيسة كمبنى

والكنيسة من حيث بنائها هى الموضع المشيد والمُكرس لله والمقدس بصلوات خاصة تدعى صلوات التدشين أو التكريس (١مل٨). فقد أعطى داود لسليمان ابنه مثال ما كان عنده بالروح لديار بيت الرب (أى٢٨ :٢٩) وبنى سليمان بيتاً للرب (١مل٦ :٢+أى٣ :٤) فكان أول كنيسة شُيدت بالحجارة وخُصصت وكُرست لعبادة الله فى العهد القديم وتدشن وتقدس بحلول مجد الله فيه (١مل٨ :٩+٢أى٦ :٧) وقد كان رمزاً إلى المسيح (يو٢ :٢١+عب٨ :٢) وقد أطلق على هذا البيت اسم «الهيكل» ـ من باب تسمية الكل باسم الجزء ـ الذى لا يزال ذكره يتردد فى الكتاب المقدس.

وكان أول مكان اجتمع فيه الرسل ككنيسة هو العلية (أع١ :١٣) حيث حل عليهم الروح القدس فيها (أع٢ :٢) واجتمعوا أحياناً فى الهيكل (أع٢ :٤٦) ثم شُيدت الكنائس

وأخذت فى الإزدياد وعلى الخصوص فى زمن الأنبا ثاؤفيلوس البطريرك السكندرى إذ ضاقت أماكن العبادة فشيد كنائس كثيرة حتى ضُرب به المثل وسُمى «**ثاؤفيلوس بانى الكنائس**»، وكما كثرت الكنائس فى مصر هكذا ازدادت فى أورشليم وغيرها بأمر الملكة هيلانة أم قسطنطين الملك التى بنت كنيسة القيامة.

وقد ميز **القديس إيسيذروس أسقف بيلوزيوم** بين الكنيسة جسد المسيح والتى تُدعى «الكنيسة *Ekklesia*» وبين مكان إجتماع الكنيسة أو مبنى الكنيسة *Ekklesiasterion* وهكذا تدعى الكنيسة إكليسيا *Ekklesia* أى جماعة المدعوين من الله، حسب شرح القديس **كيرلس الأورشليمى**، فهى ليست المبانى وإنما الحقيقة الحية. أما مبنى الكنيسة فيُسمى «**بيت الله**» أو «**بيت الرب** *Kiriakon*» ومن هذا الاسم جاءت كلمة *Kyrik* ثم *Kirk* وبعد ذلك فى اللغة الإنجليزية القديمة *Church*. و«بيت الرب» عند **القديس كبريانوس** هو مكان إقامة العشاء الربانى حسب شهادة المؤرخ الكنسى **روفينوس** الذى سجل لنا هذا الاسم القديم أيضاً.

لقد سجل لنا المؤرخ الكنسى **يوسابيوس** حرفياً أن الامبراطور مكسيميانوس قد أعاد الكنائس التى هى «بيوت الرب»، كما يذكر فى مدحه للامبراطور قسطنطين أنه بنى عدة «بيوت للرب». واحتفظ لنا العلامة **ترتليان** باسم جميل وهو «**بيت الحمامة**» أى مكان حلول الروح القدس أى الحمامة، وهو الاسم الذى نراه بعد ذلك عند القديس كبريانوس وعند القديس أغسطينوس.

يقول ترتليان: «أما بيت الحمامة الخاص بنا فهو مكان بسيط... يدخل منه النور الذى تحبه الحمامة (الروح القدس)» ويتجه البناء نحو الشرق حيث تشرق الشمس وهى مثال المسيح شمس البر وشمس الشموس كلها.

ومن القانون الرومانى القديم نعرف أن الكنائس كانت تُسمى أيضاً «**البيت الإلهى**»، ومن العهد القديم دخل اسم «**هيكل الله**» وأيضاً «**بيت الصلاة**» وهى الأسماء التى نراها عند يوسابيوس وسوزومين وسقراط المؤرخين.

ويُسمى مبنى الكنيسة «**بيت الملك**» أو «**قصر الملك**» أى «**بيت المسيح**» وهو الاسم اللاتينى «**بازيليك** *Basilicae*» الذى ورد عدة مرات فى كتابات الآباء أمثال أمبروسيوس وأغسطينوس.

هناك أسماء أخرى ذات دلالة وردت فى كتابات الآباء عن مبنى الكنيسة مثل «**مجمع الشهداء**» لأن الكنيسة شُيدت على دمائهم، ويرد أيضاً اسم «**المجمع**» فى سيرة إستشهاد كبريانوس. وظلت كلمة «مجمع» معروفة حتى زمن القديس يوحنا ذهبى الفم الذى استخدم كلمة «كنيسة» أو «مجمع» معتبراً أن كلاهما مرادف للآخر، لأن الكنيسة هى مكان إجتماع المؤمنين ومجمع القديسين.

تُسمى الكنيسة أيضاً «**مجمع** *Syndos*» لأنها المكان الذى تلتقى فيه جماعة المؤمنين، فالكنائس تُسمت بالمجامع أحياناً، لكن هذا الاستعمال القديم انتهى تماماً فى نهاية القرن الخامس وأصبحت كلمة اجتماعات ومجامع تُطلق على الذين إنفصلوا عن الكنيسة الجامعة أى الهراطقة المنشقين.

وهناك الكثير من الكنائس التى أُقيمت فى مواضع الشهداء وتسمت «**مارتيريوم** *Martyrium*» أى «**موضع الشهادة**» بل ويسجل لنا يوسابيوس القيصرى أن كنيسة القيامة التى بناها الإمبراطور قسطنطين كانت تُسمى «**شهادة المخلص** *Martyrium Salvatoris*» لأن رأس الكنيسة ربنا يسوع المسيح أكمل عمله الخلاصى فى ذلك الموضع.

وكانت الكنيسة عادة تُعرف باسم الشخص الذى بُنيت باسمه تذكاراً له، لذا تُدعى كنيسة القديس بطرس فى روما «الكنيسة الرسولية». وبالرجوع إلى الوثائق القديمة المعاصرة للإضطهاد نجد أن الكنائس كانت تُبنى فى السراديب *Catacombs* تحت الأرض أو فى المدافن *Socrosant* حتى كانت كلمة مقابر هى المرادف لاسم الكنيسة فى ذلك الزمان. ومن المعروف أن القديس أغسطينوس كان يعظ فى الكنيسة التى بُنيت فوق المكان الذى استشهد فيه القديس كبريانوس والذى كان يُعرف باسم «**قبر أو مزار كبريانوس** *Mensam Cypriani*» ومن المعروف أيضاً أن هذا المزار احتوى كذلك على نفس المذبح الذى كان الشهيد كبريانوس يصلى عليه، والذى نُقل إلى مكان إستشهاده ووُضع فى المزار حسب شهادة القديس أغسطينوس. وهكذا حوّل الإضطهاد القبر إلى كنيسة! ومن أهم أدلة الجيل الثانى المسيحى على وجود مبان تسمى «كنائس» هو مديح القديس أغريغوريوس النيصى واغريغوريوس العجائبى الذين بنوا كنائس كثيرة فى نواحى قيصرية الجديدة وبلاد أرمينيا.

ومما لا شك فيه أن **طبوغرافية الكنيسة فى العصور الأولى** كانت من أهم معالم الحياة

الأرثوذكسية حيث يتجه المبنى الكنسى ناحية الشرق حسبما ورد فى كتابات كثير من الآباء الأولين مثل القديس كلمنضس السكندرى والعلامة أوريجين والعلامة ترتليان. فغالباً ما روعى هذ التقليد فى الكنائس الأولى لكى نصلى متجهين نحو الشرق لأن مسيحنا دُعى بالشرق (زك٦ :١٢) كما دُعى «شمس البر والعدل» الذى يشرق بغير إنقطاع ليبدد الظلمة (ملا٤ :٢). وإتجاه مبنى الكنيسة جغرافياً ناحية الشرق إنما هو علامة إشتياقنا لرؤية الرب، معطين ظهورنا لظلمة الخطية ومتطلعين تجاه فجر النور شمس برنا وخلاصنا الذى يشرق على العالم الجديد الذى هو الكنيسة، مترقبين وطننا ومسكننا القديم فردوسنا المفقود، طالبين مدينتنا الأبدية، منتظرين مجيئه الثانى من المشارق، مجددين رجاء إيماننا مع كل شروق جديد، ناظرين نحو الشرق حيث المسيح المصلوب شرقنا الحقيقى، الذى أشرق علينا بمجده الأعلى ودعانا من الظلمة إلى نوره العجيب (١بط٢ :٩) وهدانا مع المجوس بالنجم الذى ظهر فى المشرق. فهو شمس البر والشفاء فى أجنحتها (مل٤ :٢) وهو قد ولد فى اليهودية حيث المشرق وصعد إلى السماء نحو المشارق (مز٦٧ :٨) وهو مزمع أيضاً أن يأتى من المشارق (مت٢٤ :٢٧).

لذلك كله تُبنى الكنائس ناحية المشارق لأنها صارت فردوساً جديداً كما كانت الجنة التى غرسها الرب الإله فى عدن شرقاً (تك٢ :٨) كى ننتظر قدومه من الشرق، مقدمين له التسبيح من مشارق الشمس إلى مغاربها (مز١١٣ :٣) ممجدينه فى المشارق (أش٢٤ :٣) وعندئذ نبصر رجوعنا إلى الفردوس ونتذكر وطننا الأصلى الذى نفينا منه.

وتفصح معالم طبوغرافية الكنيسة عن أننا أمام حقيقة سمائية فائقة يستوعبها العقل والقلب بالإيمان ويرى رموزها ومن ثم يعيش جمالها الروحى: **فالمعمودية** هى الأردن، **وبيت القربان** هو بيت لحم، **والهيكل** هو الفردوس وقدس الأقداس، **والمذبح** هو الجلجثة والقبر، **والشرقية** هى حضن الآب.... وجميعها تصير أماكن ظهور الرب وإعلاناته لنا.

٣) مبنى الكنيسة آبائياً

يُبنى مبنى الكنيسة على شكل صليب أحياناً ليعلن عن طبيعتها السرية كجسد المسيح المصلوب، كما وتُبنى أحياناً على شكل دائرة رمزاً لطبيعتها الأبدية، إذ لا بداية لها ولا نهاية، حاملة على الدوام طبيعة عريسها الأبدى، وأخذت مبانى الكنائس أحياناً شكل سفينة

متجهة نحو العالم الآخر إشارة إلى فلك نوح رمز مدينة الله فى رحلتها عبر التاريخ والتى لا خلاص لأحد خارجها، تبحر مقاومة أمواج الإضطهادات والتجارب يقودها الله الآب صاحب السفينة، ويسيرها المسيح قبطانها، وأساقفتها يشبهون الملاحظين النظار، وكهنتها هم البحارة، وشمامستها هم المجدفون، ومعلمو الموعوظين هم المضيفون، وحبالها المحيطة بها هى محبة المسيح التى تربطها، وشباكها هى جرن المعمودية التى تجدد المؤمنين، والروح القدس هو بحارها الماهر الذى يختم المؤمنين، ومراسيها هى الوصايا، وصاريها وعلمها هو الصليب علامة الغلبة والخلاص.

واختيار بناء الكنيسة على هذا الرسم دليل على أن المسيحيين داخل سفينة الرب فى الفلك الحقيقى ليس لهم على الأرض وطن باق، إذ أنهم فى سفر متواصل نحو الميناء الأبدى. كذلك فإن بناء الكنائس على شكل صليب هو إشارة إلى أن الخلاص قد تم به وهو عندنا نحن المخلصين قوة الله، ونحن نكرز بمسيحنا مصلوباً (١كو١٠ :١٨) والصليب هو موضوع فخرنا (غل٦ :١٤) وهو مجد الكنيسة وثبات المؤمنين وميناء الخلاص وسلاح الغلبة وكنز الخيرات.

٤) الهيكل والمذبح

وقد رسم واضعو جغرافية المبانى الكنسية أن يكون الهيكل خلف حامل الأيقونات حيث المذبح، ثم خارج الهيكلِ يوجد صحن الكنيسة وهو مخصص للمعمدين المؤمنين، أما القسم الثالث عند المدخل فيترك مفتوحاً للموعوظين.

فالهيكل يمثل السماء عينها بل سماء السموات حيث المسيح ملك الكل متربعاً على عرشه مع رسله، ويرتبط الهيكل بالمذبح إرتباط السماء بالذبيحة حيث الشرقية حضن الله المفتوح للعالم خلال المذبح والخدمة الكهنوتية، لذا يسمى بعض الآباء الهيكل «**بريسبتيريم** *Presbyterum*» أى «**موضع الكهنة**»، ووصفه العلامة ترتليان بأنه «**المذبح المسيحى** *Ara Dei*» أو «**مذبح الله**». واصطلح الآباء على تسمية المذبح بـ «**مائدة الرب**» لأننا منها نأكل خبز الله أى الإفخارستيا، وسموه أيضاً «**المائدة السرية**» لأن سر الأسرار موضوع عليها، و«**المائدة العقلية الهائلة**» لأن الكلمة أو اللوغوس يغذى حياتنا العقلية، ويسمى المذبح أيضاً بـ «**المائدة السماوية**» لأننا نأكل منه طعاماً وزاداً سمائياً، وسمى كذلك

ضد أبليس وهى خلاص للنفس والجسد، وفى إشارة الصليب كل روح الإيمان المسيحى، وعندما نرفع نظرنا إليها أعلى حامل الأيقونات نذكر مقدار الحب الذى أحبنا به الله حتى بذل ابنه الحبيب كى لا يهلك كل منْ يؤمن به.

وما أحلى أن تُوضع إشارة الصليب فوق حامل الأيقونات لأنها رسم الإيمان وينبوع النعم وعرش الملك وعلامة الظفر وسيف الروح وتهليل الأرثوذكسيين وفخرهم.

٦) موقع مبنى المعمودية

من كتابات آباء القرن الرابع نفهم أن مبنى المعمودية كان منفصلاً عن مبنى الكنيسة ولعل أهم وصف له هو وصف القديس كيرلس الأورشليمى فى مقدمة تعليمه للموعوظين، حيث يشير إلى الغرفة الكبيرة الخاصة بالمعمودية والتعبير اليونانى المُستخدم لوصفها يؤكد أنها كانت كبيرة، إذ كان يتم فيها جحد الشيطان والإعتراف بالإيمان. ومن وصف يوسابيوس القيصرى لكنيسة القديس بولس فى صور (أخر القرن الرابع) يذكر مبنى المعمودية كبناء مستقل متصل بمبنى الكنيسة نفسه وملحق به. والأسقف باولينوس أسقف نولا يمدح صديقه النبيل ساويرس الذى بنى كنيستين ومعمودية واحدة ملحقة ومتصلة بهما.

وفى شمال أفريقيا نفهم أنه كانت توجد غرفتان منفصلتان للمعمودية، واحدة للنساء وأخرى للرجال، حسب شهادة القديس أغسطينوس فى كتابه «مدينة الله». وجرن المعمودية مكان عميق كما هو ظاهر من بقايا الكنائس القديمة على طول ساحل أفريقيا الشمالى حيث كانت كنائس المدن الخمس الغربية التابعة لكرسى مارمرقس. ويصل أحياناً عمق الجرن إلى مترين، ومتصل بدرجات سلم حجرى ينزل إلى داخل جرن المعمودية نفسه. ويصف أوبتاتوس *Optatus* الجرن بأنه *Piscina* أى الحروف المقابلة للكلمة اليونانية **«إكثوس ΙΧΘΥΣ»** وهى علامة السمكة أى العلامة السرية للإعتراف بالإيمان المسيحى: **يسوع المسيح ابن الله مخلص.**

هكذا احتل موقع المعمودية فى مبنى الكنيسة اهتماماً كبيراً إرتبط بفهم الكنيسة اللاهوتى لسر المعمودية بكونه نذراً وجحداً للشيطان ودخول فى عهد مع المسيح وبدء للحياة الجديدة التى ينبغى أن تتجدد بالتوبة يومياً لحفظ نعمتها. ويذكر اغريغوريوس النزينزى أن

سبب تأخر البعض فى نوال العماد هو طول المسافات التى يتحملها المؤمنون للوصول إلى أقرب جرن معمودية. كذلك يقول القديس أمبروسيوس: «جرن المعمودية يظهر إلى حد ما بشكل قبر». لذا يخاطب المعمدين قائلاً: «حين تغطسون تنالون شبه الموت والدفن وتتقبلون سر الصليب».

وفى حكمة بالغة حدد الآباء موقع المعمودية فى الجانب الغربى الشمالى لتكون إعلاناً بأن الكنيسة تستقطبنا ناحية الشرق المستنير إذ لا يمكننا أن نعبر إلى صفوف المؤمنين لنتحد بالذبيحة الإلهية على المذبح ما لم ننال نعمة المعمودية. وقد وجد هذا الفكر صداه فى إقامة المعموديات لتكون فى مدخل الكنائس لأنها بداءة الأسرار وأساسها كما عبر عن ذلك الراعى هرماس عندما شاهد الكنيسة برجاً مُقاماً على الماء.

٧) مبنى أو غرفة الدياكونية

ربما تكون أقدم إشارة إلى غرفة خاصة ملحقة بمبنى الكنيسة هى تلك وردت فى تاريخ المؤرخ السريانى فلاستورجيوس *Philastorgius* إذ أشار إلى أن المسيحيين فى قيصرية فيلبس أحضروا تمثال المسيح الذى نصبته المرأة النازفة الدم إلى «**غرفة الدياكونية فى الكنيسة**». هذا وتشير أعمال الرحمة والمحبة التى كان يقدمها الآباء أثناسيوس باسيليوس وأمبروسيوس وأغسطينوس وذهبى الفم إلى وجود مثل هذه الغرفة فى كنائس الاسكندرية كبادوكيا وميلان وهيبو وأنطاكية.

٨) غرفة الإجتماعات العامة

أشار المؤرخ ثيودورت إلى «غرفة ملحقة بالكنيسة اسمها باليونانية *Oiko Apostiko* أى «**بيت المصالحة**» أو «**بيت السلام**» وهى الغرفة العامة التى لجأ إليها الامبراطور ثيؤدوسيوس عندما منعه القديس أمبروسيوس من دخول الكنيسة، بسبب سفك دم الأبرياء، وسُمح له بدخول هذه الغرفة لكى يقابل أسقف ميلان، وهى بمثابة غرفة أو قاعة للجلوس أو الضيافة بحسب فكرنا الحاضر.

٩) المكتبة

وردت أول إشارة فى كتابات الآباء إلى وجود «مكتبة» فى كتاب يوسابيوس القيصرى المؤرخ عن تاريخ الإسكندر أسقف أورشليم فى القرن الثالث، حيث بنى الأسقف مكتبة ملحقة بالكنيسة وهى ذات المكتبة التى استخدمها يوسابيوس فى نقل معلوماته من الكتب القديمة التى كانت فيها. وفى كنيسة قيصرية فلسطين جمع الشهيد الفلسطينى بامفيليوس جميع كتب العلامة أوريجانوس وحفظها فى هذه المكتبة، وهى ذات الكتب التى قرأها يوسابيوس القيصرى وجيروم. كذلك كانت هناك مكتبة بطاركة الاسكندرية التى ضمت مؤلفات علماء الاسكندرية، وقد أشار إليها القديس كيرلس السكندرى عدة مرات واختار منها الرسائل والنسخ الصحيحة لمؤلفات القديس أثناسيوس الرسولى. وكذلك كانت هناك مكتبات ملحقة بالمدارس اللاهوتية فى كل من الاسكندرية وأنطاكية وإديسا.

١٠) المدارس

كانت أول مدرسة ملحقة بكنيسة هى مدرسة الموعوظين فى الاسكندرية، وحسب نص القديس روفينوس تحولت هذه المدرسة إلى مبنى خاص ملحق بالكنيسة فى عهد البابا ديمتريوس الأول. واشتهرت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية بعلومها القدسية ودراساتها الموسوعية وبأعلامها (بنتينوس ـ كلمنضس ـ أوريجانوس ـ ديديموس ـ ديونيسيوس) الآباء الأجلاء معلمى البيعة.

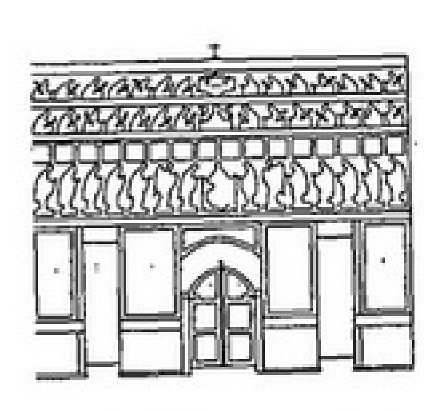
١١) منارة الكنيسة

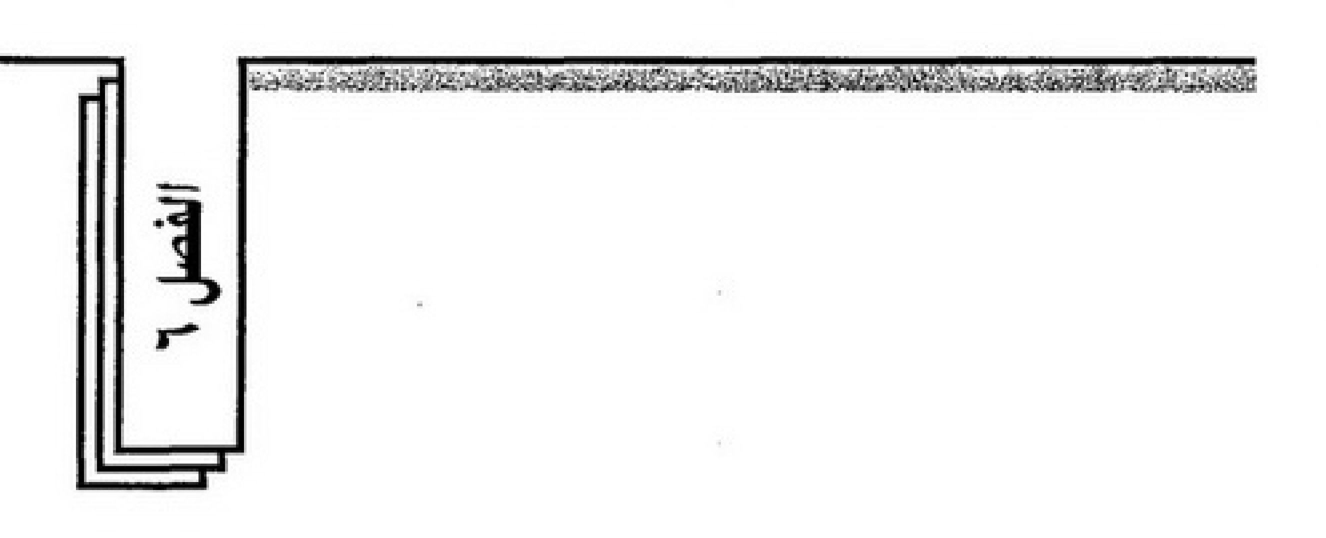
تُبنى منارة الكنيسة مقابل برج المراقبة فى السفينة. بهذا الفكر رأى هرماس فى كتابه «الراعى» أن الكنيسة برج مقام وسط المياه وأنها مبحرة تجاه السماء كسفينة كل منْ يدخلها ينجو من طوفان هذا العالم.

ويعلو هذه المنارة **«علامة الصليب»** كعلامة أبدية للخلاص وكعلم للمسيحية به نغلب، فيوضع أعلى المنارة كلواء إلهى يعلن تبعية الكنيسة وخضوعها للمسيح المصلوب، وأنها منتظرة مجئ الرب الأخير وعلامته الأولى فى البروسيا كما تشير الديداكية فى القرن الثانى.

كذا وتُوضع فى منارات الكنائس **«الأجراس»** عوضاً عن أبواق العهد القديم التى كانت تُستخدم فى إستلام الشريعة الإلهية وفى الحروب والاحتفال بالأعياد وفى تدشين الملوك. لكننا من دراسة أثار طبوغرافية مبانى الكنائس القديمة نفهم أن الأجراس لم تُستخدم إلا فى القرون المتأخرة حسبما هو ثابت من الكتب والدراسات.

وبالجملة فإن خيمة الإجتماع هى رمز للكنيسة ، وأما الكنيسة فهى رمز للسماويات، وقد أمر الله العبرانيين أن يزينوا الخيمة كمثال للكنيسة لكى يستطيعوا من خلال المحسوسات أن يعلنوا صورة الأمور الإلهية. فالكنيسة لا تضم مجرد حوائط أو مبان وإنما تضم حقائق تعاليمها التى هى الإيمان الحقيقى، كمدينة الرب وكنيسة القديسين ومجمع الأبرار وفلك نوح الجديد الحقيقى. لذلك الكنيسة كمبنى تبنى بالفن المعمارى الكنسى المتميز والذى ظل محتفظاً بأصالته منذ أيام الكنيسة الأولى وحتى الآن. وتبع ذلك الفن المعمارى الكنسى فن الأيقونات الذى استخدم الألوان والفرشاة للتعبير عن الحقائق اللاهوتية. وهكذا قدمت الكنيسة **«كتاباً مفتوحاً لإيماننا ليقرأه منْ لا يعرف القراءة»** كما قال أحد الآباء.





الكنيسة

فى فكر الآباء وكتاباتهم

الكنيسة كمعنى

الكنيسة

فى فكر الآباء وكتاباتهم

الكنيسة كمعنى

وضعت الوثائق الآبائية الأولى البنية الأساسية لعلم الإكليسيولوجى إذ أن ماهية الكنيسة ليست شيئاً تحصره المفاهيم والصياغات بقدر ما هى حياة وخبرة وممارسة (تعال وانظر *Come and see*). فالنورانى أغناطيوس الأنطاكى والقديس كلمنضس الرومانى وسميه السكندرى والقديس إيريناؤس والشهيد يوستين والعلامة أوريجين والقديس ديديموس الضرير والقديس كبريانوس يمثلون أعمدة الكنيسة وأعلامها وجنود العاصفة الذين شقوا الطريق فى قلب المدينة الوثنية ليؤسسوا كنيسة المسيح، ولتعبر من بعدهم صفوف المعلمين الروحيين الذين بنوا ملكوت الله على الأرض، ثم جاء البابا أثناسيوس الرسولى والقديس كيرلس الكبير عمود الدين وساويرس الأنطاكى والآباء الكبادوك الذين أرسوا قواعد المدينة السمائية المنيرة.

الكنيسة فى كتابات الآباء الرسوليين

إن الناظر إلى بدايات الإكليسيولوجى يرى التجمعات الكنسية فى طغماتها ودرجاتها، إلا أن هذه التجمعات كانت تعى جيداً وجودها ككيان واحد لكنيسة واحدة مسكونية يقول عنها **القديس أغناطيوس الأنطاكى** أنها مرتبطة بالمسيح إرتباط الجسد بالرأس. وهذا الكيان يمتد ـ كما تخبرنا كتابات الآباء ـ إلى أقاصى الأرض ويجمعه الله من أربعة رياح الأرض. وهكذا ترسل كنيسة سميرنا تقريرها عن إستشهاد **القديس بوليكاربوس** إلى جميع الجماعات الكنسية التى تشكل «الكنيسة المقدسة الجامعة فى العالم كله»، ثم يضيف الكاتب أن الكنيسة الجامعة توجد حيثما يوجد المسيح، والأمر كذلك أيضاً بالنسبة **للراعى**

هرماس إذ أن الكنيسة تجمع أعضاءها فى العالم كله موحدة إياهم فى جسد واحد فى وحدانية الفهم والفكر والمحبة والخدمة.

وعلّم القدس أغناطيوس الأنطاكى بأن الكنيسة هى إتحاد المنظور بغير المنظور وهى جسد واحد وروح واحد وشركة مقدسة فى عمقها يحيا الروح القدس ويعمل، لذا يعرّفها بأنها موضع الذبيحة وكنيسة المسيح الجامعة: مذبحها واحد وهيكلها واحد وجماعتها إفخارستية، كما يرتبط أعضاؤها بالأسقف إرتباط الأوتار بالقيثارة فى صلاة توسل وذهن واحد.

ويرى **كلمنضس الرومانى** أن الكنيسة روحية غير منظورة وأنها جسد المسيح وأم للمؤمنين وعلينا أن ننتسب لها لأنها كنيسة الحياة لكى نخلص.

وهكذا تركزت كتابات الآباء الرسوليين حول الكنيسة فرأوها شعب الله الجديد وإسرائيل الجديد الوريث للمواعيد وأنها قبل الشمس والقمر وأم كل المسيحيين وهى فى المسيح وهى أيضاً عروسه الروحانية وقد استعلنت فى الأيام الأخيرة من أجل خلاصنا، وهى المتقدمة فى الأيام والمخلوقة قبل كل شئ وقد خلق الكون من أجلها هى (بحسب «رؤى الراعى» لهرماس).

الكنيسة فى فكر وكتابات الآباء المدافعين

وبالرجوع إلى كتابات الآباء المدافعين نجد **الشهيد يوستين** يتحدث عن جميع الذين يؤمنون بالمسيح بإعتبارهم قد توحدوا «فى نفس واحدة، فى مجمع واحد، كنيسة واحدة أتت إلى الوجود باسم المسيح وتتشارك فى اسم المسيح لأننا جميعاً ندعى مسيحيين». ويشير يوستين إلى الكنيسة كمكان واحد تجتمع فيه كل يوم أحد من كل المدن والقرى المجاورة لترفع الصلوات والشكر وتتقدم لتتناول من الإفخارستيا تلك الذبيحة الروحية والعقلية التى نشتاق إليها، وهو بذلك يرى الكنيسة كجماعة مؤمنين إفخارستية.

ويرى **أريستيدس المدافع المسيحى** أن الكنيسة هى قطيع المؤمنين الصغير وأنها الشعب والجنس الجديد الذى سيخرج العالم من الفساد، بل ويقول أن العالم لا يستمر فى الوجود إلا بسبب صلواتها وتضرعاتها. أما **ميليتو المدافع** فيسمى الكنيسة «خزانة الحق».

الكنيسة فى فكر وكتابات آباء الغرب

وفى مزيد من تطور الفكر عن الكنيسة الغير منظورة، يأتى فكر **القديس إيريناؤس** الذى يرى أن الكنيسة دهر سرى ومنها صار كل شئ. ويجمع القديس إيريناؤس كل أفكار القرن الثانى الأساسية عن الكنيسة ويضفى عليها تحديداً أكثر وضوحاً وإشراقاً. ومثل سابقيه، يعتبر الكنيسة إسرائيل الجديد وجسد المسيح الممجد وأم المسيحيين وهى تزخر بالطاقات السرية بلا مقابل (مجاناً أخذتم) وتمنح المواهب التى لا تحصى، وهى المجال والوسط الفريد للروح القدس الذى أؤتمن بالحق عليها، إذ لا شركة لنا مع المسيح إلا فى الكنيسة، فحيث الكنيسة هناك روح الله القدوس وحيث روح الله هناك الكنيسة وكل ملء النعمة. والروح القدس هو الحق، لذلك فإن الذين لا يتشاركون فى الروح القدس لا يتغذون على صدر أمهم الكنيسة ولا يشربون من النبع الدافق الذى يجرى من جسد المسيح. كما ويربط إيريناؤس بين الكنيسة وبين مبدأ «**الإنجماع الكلى**» فى المسيح معتبراً أن المسيح، كرأس للكنيسة كلها، يستمر عمله فى التجديد من خلالها حتى نهاية العالم، إذ أننا ننال الحياة داخل الكنيسة لأن فيها يوجد روح الله وكل نعمة وهى المؤتمنة على عطية الله. وكل من لا يتشارك فى الروح لا يتغذى على صدر الكنيسة الأم، فخلاص الشخص تحققه أسرار الكنيسة باسم المسيح وفى المسيح لكونها باب الحياة.

كذلك يرى أنها فى مضمونها الأساسى ليست شيئاً آخر سوى العالم العائد إلى الله والسائر فى طريق التجلى، ويرى أن أعضاءها خليقة جديدة تحيا الحياة الفردوسية أى فردوس الحضرة الإلهية الحقيقية، لذا ينبغى أن نلجأ إليها ونحتمى فى حضنها ونرضع ونتغذى من أسفارها المقدسة الربانية، إذ أنها مغروسة فى وسط العالم كفردوس نعيم على الأرض.

ومن أكثر أفكار القديس إيريناؤس تميزاً تعليمه بأن الكنيسة هى نبع الحق الوحيد وذخيرته وذلك لأنها غنية بالكتابات الرسولية التى هى نبع الحق الوحيد المدون بحسب التقليد الشفوى للإيمان الرسولى. وبسبب كرازتها بهذا الإيمان الواحد الذى ورثته عن الرسل فإن الكنيسة، وإن كانت منتشرة فى العالم كله، إلا أنها تجاهر وتعيش ككنيسة واحدة، مؤكداً على أن قانون الحق والإطار التعليمى الكنسى الذى تسلمته الكنيسة، والذى يختلف عن إنحرافات الهراطقة، هو نفس التعليم فى كل مكان، ذاكراً التتابع الرسولى الذى لا ينقطع ولا ينفصل فى كنيسة الله والذى يرجع إلى الرسل أنفسهم مما يوفر

الضمان بأن هذا الإيمان هو نفسه الإيمان المسلم من القديسين والذى نادت به الكنيسة.

ثم طرأ تقدم ملحوظ على التعليم الإكليسيولوجى فى القرن الثالث نتيجة الدفاعيات والكتابات التى ترد على الأفكار الهرطوقية، فنجد **العلامة ترتليان** يقول: «نحن جسد ملتحم برباط التقوى وبوحدانية التعليم وبيقينية الرجاء، فلا يمكن أن يكون هناك إلا كنيسة واحدة تنتشر فى العالم كله تماماً كما أن هناك إله واحد، مسيح واحد، رجاء واحد، معمودية واحدة، وهى عروس المسيح المذكورة فى نشيد سليمان وأم المسيحيين». وفى هذا المفهوم الأخير تتضح محورية ما قيل فيما بعد عن أن الذى يتخذ الكنيسة أماً يأخذ الله أباً له. ويؤكد العلامة ترتليان أن الكنيسة هى البيت الوحيد والفريد للروح القدس والنبع الأوحد لذخيرة الإستعلان الرسولى بتعاليمها التى يضمنها ويؤمنها التسلسل الرسولى غير المنفصم. وفيما بعد تطور فكر العلامة ترتليان فأكد على روحانية قلب الكنيسة وطبيعتها ونقاوتها وعدم غشها، وأنها جامعة فيها رجال روحانيون، مؤكدا على التمايز بين الإكليروس والشعب كأعضاء فى جسد المسيح الواحد.

ويعتبر العلامة ترتليان من أوائل الكتاب المسيحيين الذين يدعون الكنيسة أماً «**أمنا الكنيسة**»، فمادام هناك آب، إذاً لابد أن يكون هناك أماً أيضاً، وهو يخاطب المعمدين الجدد قائلاً لهم: «فى بيت أمكم أرفعوا أياديكم للصلاة للمرة الأولى». ويعتبر ترتليان الكنيسة حارسة الاستعلان الإلهى ومستودع كل نعمة وهى وحدها وريثة الحق وتسجيلاته، وهى وحدها تملك الأسفار الإلهية التى لا يستطيع الهراطقة أن يقرأوها قانونياً ولها وحدها إيمان وعقيدة الرسل والتتابع الرسولى القانونى منهم، وبالتالى هى وحدها تعلم جوهر رسالتهم. وهذا المفهوم الإكليسيولوجى يشبه إلى حد بعيد مفهوم وفكر القديس إيريناؤس أسقف ليون الملقب بـ «أبو التقليد الكنسى».

ويشرح ترتليان كيف أن خلقة حواء من جنب آدم كانت رمزاً لميلاد الكنيسة من جنب الرب المصلوب. فكما أن آدم كان رمزاً للمسيح، كذلك كان نوم آدم رمزاً لموت المسيح الذى نام نوم الموتى، كى من الجرح الذى فى جنبه يمكن بنفس الطريقة التى خلقت بها حواء أن تتأسس الأم الحقيقية للحياة، مؤكداً على أن الكنيسة «أمنا» وعلى أنها تشبه بالسفينة التى تقاومها أمواج الإضطهادات والتجارب بينما الرب فى طول أناته يبدو نائماً حتى اللحظة الأخيرة، وعندما توقظه صلوات القديسين يبكم العالم ويرد السلام لأولاده

ولبيعته المقدسة.

ثم ننتقل إلى كتابات **القديس هيلارى أسقف بواتييه** المُلقب بـ «أثناسيوس الغرب»، لنجده يكتب عن الكنيسة أنها ـ بحسب الظاهر ـ وحدة المؤمنين المتناغمة المتجانسة، ثم يدخل بنا إلى عمق أكثر عندما يرى فى الكنيسة عروس المسيح وجسده السرى والفم الذى به يتحدث المسيح إلى الناس، ويشرح أن المسيح هو مؤسس الكنيسة بل أنه هو الكنيسة نفسها التى يحتويها كلها فى نفسه من خلال سر تجسده، لذا هى الجسد المتكامل المؤسس على الإيمان الواحد وإتفاق الإرادة والفعل.

الكنيسة فى فكر وكتابات آباء الشرق

بالرغم من كثرة الأقوال والكتابات الآبائية عن الكنيسة التى وضعها الآباء الرسوليون والمدافعون وآباء الغرب والشرق، إلا أنه فى الواقع لا يوجد فصل خاص يحمل عنوان «الكنيسة» ضمن كتابات الآباء، وهذا لا يعتبر نقصاً بقدر ما هو تأكيد على أن طبيعة الكنيسة ودعوتها كانت بالقطع حقيقة واضحة فى رؤيتهم الروحية وقناعتهم الإيمانية الكاملة، إذ أن الكُتاب والمعلمين لا يعطون فى الغالب تعريفاً لما هو معروف فى ذاته. فالكنيسة هى بالأحرى الحقيقية المعاشة والمعروفة التى لا تحتاج إلى بحث وتحليل.... لذا أدركوها عن طريق الخبرة والنعمة، فسر الكنيسة لا يُفهم إلا بالإيمان والمعايشة الإختبارية.

ويرتبط علم اللاهوت الخاص بالكنيسة (الإكليسيولوچى) بعلم اللاهوت الخاص بالسيد المسيح (الكريستولوچى)، فلا توجد «فكرة» اسمها الكنيسة حتى توجد الكنيسة بذاتها، لكن المسيحية هى الكنيسة لأنها مبنية على سر الثالوث والتجسد.

ويشرح القديس **كيرلس الأورشليمى** فى عظاته التعليمية للموعوظين أن الكنيسة مجتمع روحى وأن قد دعاها الله إلى الوجود لتحل محل الكنيسة اليهودية التى تآمرت على المخلص، وقد أعطى المسيح يسوع بكلماته الشهيرة للقديس بطرس (مت١٦: ١٨) الوعد بالغلبة الدائمة للكنيسة. وبحسب تعليم القديس بولس الرسول (١تيمو٣: ١٥) الكنيسة هى عمود الحق وقاعدته، والروح القدس هو معلمها وحاميها، وخدمتها هى أن تجمع المؤمنين معاً فى كل مكان من كل رتبة ونوع وجنس. لذلك سُميت الكنيسة «الجامعة»، وهى قادرة على تعليم الإنسان وعلى علاج كل الخطايا. ويصف كيرلس الأورشليمى

الكنيسة بأنها واحدة ومقدسة وبأنها بيت الحكمة والمعرفة والفضائل المتعددة وبأنها ممتدة عبر المسكونة، وكذلك هى عروس المسيح وأم جميع المسيحيين التى تستقطب كل طبقات البشر بإعتبارها صورة ونسخة من أورشليم السمائية أمنا جميعاً.

ويرى القديس كيرلس أسقف أورشليم أن الكنيسة المقدسة الجامعة تمتد قوتها الروحية بلا حدود فى كل العالم لأن الله ـ حسبما هو مكتوب ـ قد جعلها ملجأ سلام.... نتقبل منها التعليم ونسلك بتقوى لننال ملكوت السموات ونرث الحياة الأبدية.

وفى كتابات **القديس يوحنا ذهبى الفم** يقول: «إن المسيح، وهو الكامل بذاته، قد إرتضى أن يكتمل التدبير بالكنيسة وأن يربط نفسه بها كمخلص وفاد ورأس لها، وكما أن الرأس متمم بالجسد، هكذا الكنيسة هى تمام المسيح». وفى وصفه لسمو الكنيسة يقول لشعبه: «ليس شئ مثل الكنيسة. إنها خلاصكم وملجأكم!!! عالية أعلى من السموات، وقريبة أقرب من الأرض. إنها لا تشيخ بل تبقى مزهرة على الدوام....». وأوصاف كثيرة تحاول أن تصفها، فهى عروس وابنة وعذراء وخادمة وملكة وجسد المسيح، وهو رأس هذا الجسد. ويقدم ذهبى الفم بعضاً من أوصاف الكنيسة فيصفها بأنها بستان وأنها ولود وأنها سوسنة الأودية وأنها ينبوع، وهذه الأوصاف جميعها ليست مادية بل روحية. كما رأى ذهبى الفم أن الكنيسة هى بيت مبنى من نفوسنا نحن البشر، وأنها سماوية بل هى السماء، وكذا هى الفلك ونوح هو المسيح والحمامة هى الروح القدس، وأنها البيت الواحد لجميعنا. وأيضاً يقول أن الإنجيل هو سر الكنيسة وهى التى تعطى الإنجيل مفهومه الحقيقى وتفسيره السليم.

عندما نقرأ فكر **القديس أغسطينوس** أسقف هيبو عن الكنيسة نجده يشبهها بالفلك الذى كان رمزاً لمدينة الله فى رحلتها عبر التاريخ والتى خلصت بالخشبة التى عُلق عليها «الشفيع بين الله والناس» الإنسانِ يسوع المسيح، أما باب الفلك الذى فى الجنب فبالتأكيد يشير إلى الجرح المفتوح حيث طُعن المصلوب بالحربة فى جنبه. إنه الباب الذى يدخل منه القادمون إليه أى المؤمنين الداخلين الكنيسة خلال الأسرار النابعة من هذا الجرح، وعلى هذا المنوال تكون جميع تفاصيل بناء الفلك رمزاً للكنيسة.

ويصف أغسطينوس الكنيسة بأنها جنة مغلقة وأنها العروس وأنها النبع المختوم وأنها بئر الماء الحى وأنها الحمامة الجميلة، وأن فيها يوجد القديسون المختارون من قبل تأسيس

العالم، ولكن كثيرون يبدون داخلها بينما هم بالحقيقة خارجها!!.

ثم يتحدث أغسطينوس عن المسيح بكونه رأس الكنيسة وعريسها وبكونها هى متحدة به. ويصف الكنيسة بأنها هيكل الثالوث القدوس التى تجتمع من أربع جهات المسكونة (٣ × ٤) لذا هى جامعة، ويجتمع فيها الحمام الذى يطلب ما هو للمسيح ولكن أيضاً تجتمع الغربان التى تطلب ما لنفسها.

ويرى القديس أغسطينوس أن الكنيسة هى مثال الملكوت على الأرض فهى كالحقل الذى يحوى الحنطة والزوان، وكالشبكة التى فيها السمك الجيد والسمك الردئ، وهى الأم التى تلدنا للحياة الأبدية وتجعلنا أبناء للقيامة، ففيها نكون مع المسيح فى السماء بالرجاء وهو يحل فى وسطنا بالحب. وفى توصيفات متنوعة يصف أغسطينوس الكنيسة بأنها الفردوس وأنهارها الأربعة هى الأناجيل وأشجارها المثمرة هم القديسون وشجرة الحياة هى قدس الأقداس أى المسيح. وفى وصف آخر يرى أنها القميص الملون الذى إلتصق بالسيد المسيح وأنها القميص الوحيد صاحب الألوان الزاهية والمواهب المتنوعة.

كما يرى فى الكنيسة مملكة المسيح وجسده السرى وعروسه، وأنه هو رأسها ورئيسها ورأس الزاوية فيها، وأنها أم المسيحيين كمثال حواء أم كل حى، وأيضاً يقول: «عندما كان السيد المسيح على الأرض منظوراً، كانت الكنيسة مختفية فيه وكان يفعل كل شئ لحسابها، لكنه لما صعد إلى السماء، صار مختفيا فى الكنيسة جسده وصارت هى تعمل كل شئ باسمه ولحسابه».

ثم ننتقل من هيبو حيث أسقفية القديس أغسطينوس إلى قرطاجنة حيث أسقفية **القديس كبريانوس** الأسقف والشهيد، لنجد أن كتاباته عن الكنيسة تحمل روح وفكر الآباء السابقين له، إذ يرى أنها عروس المسيح النقية الطاهرة التى لا تزنى، ويرى أنه لا يستطيع أحد أن يأخذ الله أباً له ما لم تكن الكنيسة أمه، ولو استطاع أحد أن ينجو وهو خارج فلك نوح، لكان من الممكن أن ينجو منْ هو خارج الكنيسة فلك نوح الحقيقى التى لا خلاص لأحد خارجها، ومنْ يبقى خارجها هو خارج معسكر المسيح، فليس مسيحياً منّ هو ليس داخل كنيسة المسيح، إذ كيف يمكن أن يكون أحد مع المسيح إن كان لا يحيا داخل عروس المسيح وإن لم يوجد فى كنيسته؟

ويُعتبر القديس كبريانوس من أشهر وأكثر الآباء الذين تكلموا عن وحدة الكنيسة وإختص بالإدارة الكنسية وحل مشاكلها، لذا قدم فى كتاباته خبرة عملية قال فيها: «الكنيسة هى كمجموعة حبوب القمح التى تتحد معاً لتؤلف خبز الشكر، وهى الأم التى تضم فى حضنها جميع أولادها فتجمع شعباً كاملاً.... الكنيسة واحدة تمتد بثمارها المتنامية كأشعة الشمس الكثيرة من النور الواحد، وكأغصان الشجرة الكثيرة التى لها جذر واحد. ففى الكنيسة بيت الله الواحد يؤكل جسد الرب الواحد ويسكن ذوو الفكر الواحد، وقد قيل لراحاب التى كانت رمزاً للكنيسة: اجمعى إليك فى البيت أباك وأمك وإخوتك وسائر بيت أبيك، فيكون أن كل منْ يخرج من أبواب بيتك إلى خارج فدمه على رأسه (يش٢ :١٩)».

الكنيسة فى فكر وكتابات الآباء الكبادوك

وصف **القديس اغريغوريوس النيصى** الكنيسة بأنها بيت الخمر أى بيت الحب حيث تتزود العروس بالروائح وتتغذى بالتفاح (الأسرار) وعن طريق جروحات المحبة الغالية (الصليب) تستقبل سهمه الذى بيده اليمنى، وهذه هى رسالة الكنيسة حيث تستقبل الحق خلال نافذة الأنبياء وعمل الناموس وقدوم نور الكلمة إلى جماعة المؤمنين خلال التجسد الإلهى.

ويرى اغريغوريوس أسقف نيصص أن الرب يسوع يتحدث إلى العروس المتكئة أى الكنيسة حمامته كاملته التى ينعكس عليها جماله الإلهى لأنها جسده، إذ أنه صنعها من جسده وبناها على الحب وصار لها رأساً وأعطاها طهارته، لذا كل منْ يراها يبصر إنعكاس وجه شمس البر عليها.

ويصف الكنيسة بأنها عروس المسيح وأخته التى تصنع مشيئته، والقريبة جداً إليه والمتحدة معه بآن واحد، وفى إيضاح يقول: «لقد تم زفاف الكنيسة للمسيح الكلمة كما يقول يوحنا الحبيب: من له العروس فهو العروس (يو٣ :٢٩)».

أما **القديس باسيليوس الكبير** فقد كتب عن الكنيسة قائلاً أنها جسد المسيح وشركة الروح القدس، وأنها جماعة المحبة المُلهمة بالروح القدس الساكن فيها، وأنها جماعة المواهب التى أسسها ألروح القدس لتقوم بعملها فى تقديس الخليقة، حيث يُظهر السيد

المسيح شمس البر أسرار قوته العالية والسامية لكنيسته ويُعرفها مواضع مراعيه المفرحة وأماكن راحته، وتتقبل هى منه أشعة المعرفة الحقيقية.

الكنيسة في كتابات وفكر آباء الاسكندرية

وفى كنيسة الاسكندرية كان لآبائها منظور متميز، فالقديس **كلمنضس السكندرى** يؤكد على أن الكنيسة هى المكان المدخر فيه التقليد الكنسى الرسولى، وأنها تضم أولادها الذين يطلبون أمهم عروس المعلم، وهى ولدتهم وتغذيهم على اللوغوس كلبن مقدس، كما ويصفها بأنها جماعة المختارين والمدينة الخصبة الولود التى يملك عليها اللوغوس وهى صورة للسمائيين. فالكنيسة هى جسد المسيح السرى والذين بالحق يلتصقون بالرب يكونون الكنيسة المقدسة بكل ما يحمله المفهوم من حقيقة ومعنى عملى.

وكتب كلمنضس السكندرى عن الكنيسة بإعتبارها ممارسة الحياة السمائية وبإعتبار أن عضويتها الحقيقية تتمثل فى المعرفة الروحية وإدراك الحق الكنسى والتأمل فى مسيح الكنيسة بلا إنقطاع، إذ أنها واحدة ومكرمة جداً بسبب وحدتها وبكوريتها، كما وصفها بأنها أيقونة للكنيسة السمائية العليا والمثلى والتى أعضاؤها أبكار وأسماؤهم مكتوبة فى السماء.

وبالقراءة فى كتابات **العلامة أوريجين** نجده يصف الكنيسة بأنها جماعة شعب المسيح وجماعة المؤمنين، والتى فيها تخلُص كل الخلائق. كذا ويعتبرها حواء الجديدة أم كل حى التى وُلدت من جنب المخلص المفتوح كما طلعت حواء من جنب آدم. إنها الكنيسة التى خرجت من جرح جنبه وجعل هو منها عروساً له يرويها بماء الجرن المحيية وبدم الكأس المفاضة من الجنب المطعون.

وفى موضع آخر يعتبرها جسد المسيح المنظور ومدينة الله القائمة على الأرض التى لا خلاص لأحد بدونها، إذ لا يوجد الخلاص إلا فيها. كما ويصفها بكنيسة الله وبالفلك الحقيقى الذى فيه وحده يجد الناس الخلاص، أما مَنْ يبقى خارج حصونها فيؤسر ويُقتل بيد العدو الشرير.

ويرى أوريجين أنها كنيسة المسيح نفسه، والمسيح إنما هو مسيح الكنيسة الذى يضيئها

بنوره مثلما يستمد القمر نوره من الشمس. وإستطرد أوريجين فى شرحه لعلاقة الكنيسة ولزوميتها للخلاص فتحدث عن مصير الذين يعيشون خارجها، وكيف أنها قديمة قدم الخليقة، وكيف أن المسيح هو ضياؤها ورأسها ونهارها، معتبراً أنها بيت الخلاص ومعتزاً بأنه رجل الكنيسة.

ثم نأتى إلى كتابات **ديديموس الضرير** عن الكنيسة فنجده قد شرح أنها أم لجميع المؤمنين وأن المسيح رأسها هو أبوهم، ومنه تنبع كل أبوة فى السموات وعلى الأرض. ووصف الكنيسة بأنها جسد المسيح الرأس الذى أسسها على الأنهار جاعلاً إياها، بمقتضى قوانينه الإلهية، قادرة على قبول الروح القدس، ومنها كما من ينبوع رئيسى تتدفق كل النعم كأنها ينابيع مياه حية. ويعتبر القديس ديديموس أن الكنيسة هى معمل الخلاص التى تنجب أولاداً لتخلصهم كأم لكثيرين، عندما يحتمون فيها كصورة للكنيسة العليا المهابة التى تبرئ من لدغة الحية.

وفى كلمة واحدة، كان المسيح هو نفسه الكنيسة فى مفهوم **القديس أثناسيوس الرسولى** الذى اعتبر أن كل مَنْ لا يؤمن بالثالوث القدوس لا يُحسب أنه قد أنضم إلى الكنيسة. ويرى أن الكنيسة التى على الأرض هى بيت الله وباب السماء وبيت السلام وبيت الملائكة ونهاية الأتعاب والضيقات والتجوال، ومكان الشركة والأخوّة. فهى إسرائيل الحقيقى (الروحى لا الجسدى) وجسد المسيح حاضر فيها للمؤمنين، وحاضر بصفة المؤمنين، فهم يشتركون فيه وهم أيضاً جسده السرى.

ويرى البابا أثناسيوس الرسولى أن الكنيسة هى الشعب المختار الذى يقوده الله نحو أرض الموعد، وأنها بؤرة ومِركز الخليقة الجديدة، ففى الكنيسة وفى الكنيسة وحدها نقبل عطية الروح القدس الذى يُعطى للمؤمنين فقط خلال الأسرار السمائية.

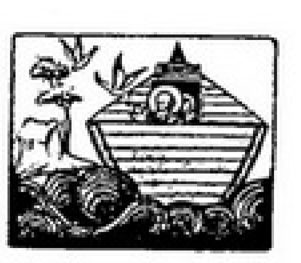
والقديس أثناسيوس الرسولى لم يقدم أبداً المسيح يسوع إلا متحداً بكنيسته من الداخل، وركز كثيراً على جسد المسيح أى أعضاء الكنيسة الذين إتحد بهم بروحه فضمهم إلى جسده ونفسه، وحملهم فى أحشائه وفداهم وتبناهم وغيّرهم وجدد خلقتهم وقدسهم ورفعهم ووحدهم بذاته بنعمته.

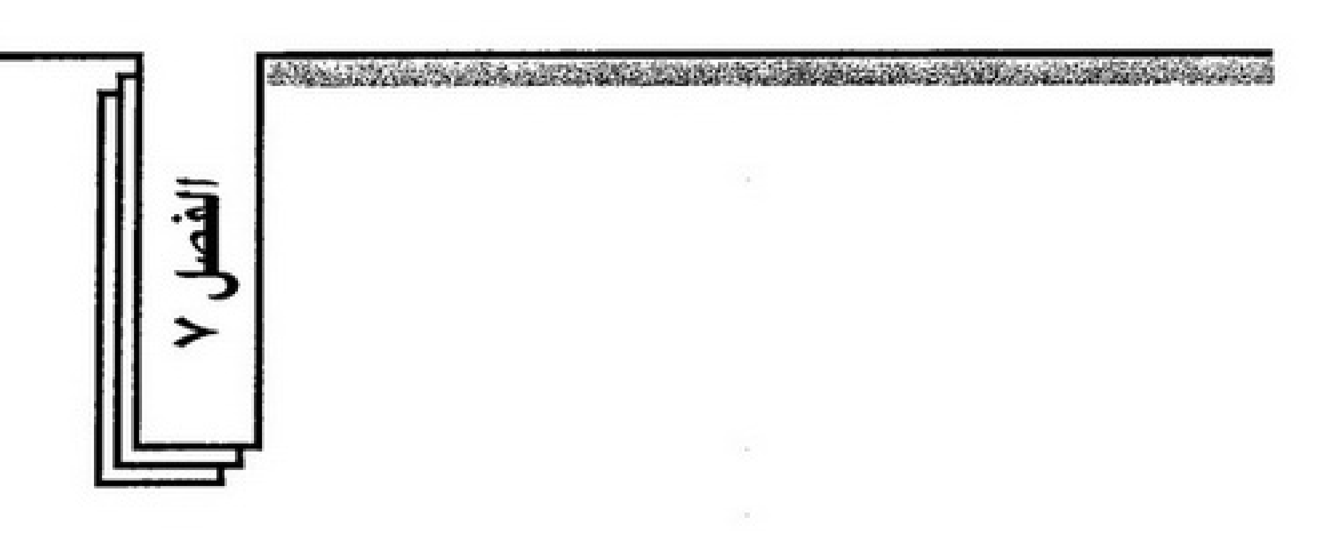
وعندما نأتى إلى تعليم **القديس كيرلس الكبير** ختم الآباء، نجد يؤكد على مفهوم

المسيح الواحد والكنيسة الواحدة، فهو رأسها وهى جسده المكوّن من الأعضاء الحية، ثم يُعرف الكنيسة بأنها المدينة المقدسة التى تتقدس بالإمتثال بالمسيح أصلها ومبدأها وحجر الزاوية فى بنائها.

رأى البابا كيرلس أن الكنيسة هى أم المؤمنين المؤسسة على الإيمان بالمسيح الراعى الأول والأبدى للمؤمنين، وهى التى تقوت الصالحين القديسين، كما إعتبرها الحظيرة والبناء المترابط ومدينة أورشليم الجديدة.

لا شك أن كتابات الآباء ذاخرة بالعظات والرسائل والأقوال التى تتناول اللاهوت الإكليسيولوچى، وبالرغم من أنه لم تفرد له كتابات خاصة، إلا أن التعاليم عن الكنيسة جاءت بغير فصل بينها وبين طبيعة المسيح، وكانت مرتبطة بالشروحات الكتابية والعقيدية لتلمس البعد الفعلى والتطبيقى لعمل التدبير الإلهى لخلاص الإنسان خلال كنيسة الله الحى عمود الحق وقاعدته.





الرموز

فى الكنيسة الأولى

اللاهوت الرمزى

الرموز فى الكنيسة الأولى

اللاهوت الرمزى

يقابل المؤمن فى الكنيسة الكثير من الرموز ويتطلع إلى الأيقونات ويشترك فى الطقوس، وهى فى جملتها رمزيات كنسية. والرمز فى الكنيسة هو ما يعبر به بطريقة غير مباشرة من خلال الصور والممارسات عما لا يمكن التعبير عنه بالأساليب المادية أو بالشرح الشفوى. ولغة الرموز تخفى داخلها حقائق طبيعة الكنيسة ورسالتها اللاهوتية، الأمر الذى يصعب إدراكه لغير المسيحين وللمتقدمين حديثاً للمسيحية، وكثيراً ما نخلط فى لغتنا اليومية بين «العلامة» و«الرمز» وكأنهما نفس الشئ، ولكن لابد من التفريق الروحى بينهما.، فالعلامة إنما تصور حقيقة ما فقط بينما الرمز يرتقى من حقيقة عادية إلى حقيقة أعلى وأرقى. فالصليب (+) فى علم الحساب والرياضيات هو «علامة» الجمع، أو هو فى الحياة العامة «علامة» تُرسم أمام مُفترق طرق، أما فى المسيحية فالصليب «رمز» يعبر عن كل مضمون المسيحية.

وتؤدى الرموز فى الكنيسة دوراً فى غاية الأهمية، لأنها بنوع ما مادية وروحية معاً، فما يظهر للعيان فى الكنيسة هو المادى المحسوس، أما ما هو روحى غير منظور فهذا هو ما يُشار إليه بالرمز.

وهذه الرموز لا يمكن فهمها خارج العبادة الكنسية الليتورجية، فالرموز كلها متصلة بعبادتنا، وآباء الكنيسة حينما شرحوها كانوا يفعلون ذلك من خلال العبادة والطقس الليتورجى. فخارجاً عن الخدمة الإلهية المقدسة تفقد الرموز معناها بل وقد تصير نوعاً من الإبهام والغموض.

وحيث أن الكنيسة تعد العالم للمجئ الثانى المملوء مجداً، لذلك هى البيت الذى على شبه السمائيات وهى تحقق كنيسة الله العلى القدوس فى السماء. فهى أيقونة الكنيسة السمائية التى تُعبر من خلال الرموز والطقوس عن ما لا يُعبر عنه.

والأيقونات المرسومة بالألوان والفرشاة إنما تعبر عن الحقائق اللاهوتية، والمبانى تفصح عن حياة الكنيسة. كما تناول الآباء ورقاً وقلماً وألفوا السيمفونية الجديدة وصنفوا تعليمهم المكتوب والمنطوق فى صورة ألحان جديدة وترانيم وتسابيح بأوزان وطرائق تطبع النفوس بالخشوع والفرح الروحانى، ثم أخذت الكنيسة من خلال الآباء أيضاً الزهرة من البستان وصنعت منها بخوراً زكياً لنتعلم الصلاة كرائحة سرور المسيح، ثم أخذت الشمع من خلايا النحل وصنعت منه الشمع لنتحد بالمسيح الذى يشرق على الكل. ثم أخذت الخيوط ونسجت منها الملابس الكهنوتية البيضاء لنتوشح نحن التراب بالقداسة والنقاوة. وهكذا جعلت الكنيسة من الكون كله هيكلاً مقدساً لله.

وتتميز الرموز الكنسية بأنها تشير إلى أحداث ووقائع ومدلولات سجلتها ذاكرة الآباء الأولين وحفظوها فى وجدانهم لتحمل فكراً كتابياً ولاهوتياً بالغ الأهمية فى تربية أعضاء الكنيسة ليتورجياً. وهناك كتابات كثيرة تتضمن علم «المثالات *Typology*» كأحد علوم لاهوت الكتاب المقدس الذى يتناول الرموز وإشاراتها إلى الغاية، والمدلولات التى تتجه نحو هدف الإنجيل الذى هو المسيح والكنيسة.

رمزية الألوان والأرقام والأحداث

حملت الطقوس الليتورجية فى جملتها رمزيات الكتاب المقدس، فعندما ننظر إلى **رمزية الألوان فى الكنيسة** نجد أن **اللون الأبيض** يشير إلى ثياب الرب البيضاء النورانية فى تجليه، ويشير إلى الملاك الواقف عند قبر القيامة وهو مرتدياً ثوباً أبيضاً كالثلج، كما اعتاد المعمدون فى الكنيسة الأولى وإلى الآن إرتداء ثياباً بيضاء. وهكذا أيضاً ثياب الخدمة الطقسية البيضاء التى يرتديها الكاهن ليختفى فى المسيح ويتشبه به ككاهن وشفيع وراعى لكل نفس من رعيته فيكون الرب يسوع هو الحاضر بكونه الكاهن الحقيقى وبكونه الذبيحة بآن واحد.

أما **اللون القرمزى** فإنه رمز للدم واهب الخلاص، وتستخدم كنيستنا الستور واللفائف الحمراء إشارة إلى استحقاقات الدم الإلهى القانى، كذلك **الأرجوان** يشير إلى ضياء المحبة وأحياناً إلى النار، وهو يُستخدم فى ملابس وستور ولفائف وزخارف البيعة المقدسة، ويستخدم **اللون الأسمانجونى الأزرق** فى الكنيسة كرمز للحياة السمائية وهو يزين قباب الكنائس

وشرقياتها (حضن الآب) وأيقوناتها... وتقدم الألوان صورة حية لسمات طبيعة السيد المسيح نفسه: «الكتان الأبيض»النقاوة، «الأسمانجونى والذهبى» الحياة السماوية، «الأرجوان» الفكر الملوكى، «القرمز» التقديس بالدم الكريم.

وتحمل **الأرقام** أيضاً مدلولات روحية وإشارات ومفاهيم لاهوتية تتجه نحو هدف الإنجيل الذى هو فكر المسيح والكنيسة، فالأرقام تعبر عن حقائق يصعب إدراكها لغير المسيحيين الذين لم يوهبوا أن يفهموا بالروح كل شئ. ورمزية الأرقام الكتابية ترتقى بنا من الحقيقة الحسابية المادية إلى الحقيقة الأعلى والأرقى، فى ذلك الروح الخفى أو الكنز المخفى، فوراء كل كلمة وحرف ورقم هناك معنى ومدلول روحى، إذ أن كل ما فى الكتاب هو سر خاص بالسموات رسمته الأسفار المقدسة.

الرقم ١: يشير إلى وحدانية الثالوث القدوس، أى يرمز لله الواحد، ثالوث فى واحد، وواحد فى ثالوث ١×١×١=١ ، كذلك أول عمل إلهى فى حياتنا كان فى اليوم الأول للخليقة عندما خلق الله الأشياء من العدم.

الرقم ٢: يشير إلى الحب لأن الحب جاء فى الوصيتين الأولى والثانية من الناموس «احب الرب إلهك، واحب قريبك كنفسك»، لذا دفع السامرى الصالح درهمين للفندق من أجل محبته لله وللقريب، كما قدمت الأرملة فلسين إثنين علامة حبها وعطائها. فرقم ٢ هو رمز الحب لله والناس. كذلك قيل أن إثنين خير من واحد، لذلك خلق الله السماء والأرض، الشمس والقمر، آدم وحواء، الذكر والأنثى.

الرقم ٣: يشير إلى الثالوث القدوس وأحياناً يشير إلى القيامة أى قيامتنا مع المسيح فى اليوم الثالث. وطوابق فلك نوح كانت ثلاثة وهى صورة حية للكنيسة المؤسسة على الثالوث القدوس وعلى قيامة الرب التى بدونها تصير كرازتنا باطلة. كذلك نسل نوح سام وحام ويافث. وأيضاً يرمز الرقم ٣ لطريق الفضيلة إذ أن الثمار الصالحة تنتج مئة ضعف وستين وثلاثين. هذا وقد أشار بولس الرسول إلى الفضائل الثلاثة الإيمان والرجاء والمحبة. وكذا المدينة السماوية الأبدية تضم المتزوجين والأرامل والبتوليين. وأيضاً التفاسير الكتابية ثلاثة تفسير حرفى وتفسير سلوكى أخلاقى وتفسير روحى. أخيراً يرمز رقم ثلاثة إلى الله وكلمته وحكمته، فالله واحد فى جوهره، مثلث فى أقانيمه، موجود بذاته، ناطق بابنه، حى بالروح القدس.

الرقم ٤: يشير إلى أربع جهات المسكونة، وأحياناً يشير إلى البشرية التى خلقها الله فى كل الأرض، والبعض يرى أنه يشير إلى محبة الله للعالم، إذ أن الرقم ٤ يرمز إلى تمامية المحبة العاملة (٢×٢). وكذلك يشير إلى البشرية التى صارت كالكواكب المنيرة التى تخضع للوصية الإلهية، وكذا يشير رقم ٤ إلى رتب اللاويين، وأحيانا يشير للجسد الذى هو من الأرض (٤ جهات المسكونة).

الرقم ٥: يشير إلى حواس الجسد الخمسة، وإلى الذبائح والتقدمات، وإلى النفوس المجاهدة سواء من العذارى الحكيمات أو الجاهلات، كما يشير إلى حكماء إسرائيل بفئاتهم الخمسة: ١) الكتبة ٢) الناموسيون ٣) الفريسيون ٤) الصدوقيون ٥) اللاويون.

الرقم ٦: يشير إلى اليوم الذى خُلق فيه الإنسان وكذا يشير إلى العمل الإنسانى وإلى تكوين العالم وإلى الحياة الزمنية حيث عمل الله لحسابنا (٦ أيام الخليقة)، وأحيانا يرمز رقم ٦ إلى الوحش لأن رقم ٦ أقل من ٧ أى أنه رقم ناقص لذا يرمز لعدم الكمال، إشارة إلى الوحش الذى هو ليس بناقص زمنياً فقط بل ناقص تمام النقصان، ورقم ٦٦٦ يشير إلى الوحش الذى يحمل كل صنوف الشر والخداع والأكاذيب الناقصة وكل قوى المقاومة. ويرى البعض أنه إذ خلق الله الإنسان فى اليوم السادس، لذا قدم السيد المسيح حياته فدية على الصليب ليعيد خلقته ويجددها روحياً فى اليوم السادس وفى الساعة السادسة.

الرقم ٧: يشير إلى المؤمن كعضو فى الكنيسة، وكذا يرمز إلى الخليقة الكاملة على الأرض وإلى أيام الأسبوع. فالمؤمن يتكون من النفس على صورة الثالوث القدوس (٣) ومن الجسد الصادر عن الأرض أو العالم ذى الأركان الأربعة (٤) وبهذا يكون المجموع «٧». كما ويشير الرقم ٧ إلى الكمال وإلى الوصايا الإنجيلية، وأحياناً يشير الرقم ٧ إلى الراحة الحقيقية وإلى المسيح كسر راحتنا وأيضاً يشير إلى روح الله فى ملئه وكمال قوته، ويرمز الرقم ٧ أيضاً إلى يوم الرب وأن السيد المسيح هو اليوم السابع أو السبت الحقيقى.

الرقم ٨: يشير إلى العالم الآخر أو إلى نهاية العالم أو للحياة السمائية أى الحياة الجديدة الأبدية إذ يتعدى أيام الأسبوع، وأحياناً يشير إلى أوكتاف القيامة أى اليوم الثامن،

وكذا يُفسر بأحد توما أى بعد ثمانية أيام من خبر القيامة، كما يرى بعض المفسرين أن اليوم الثامن يشير إلى الدينونة فاليوم السابع يوم الراحة ثم يأتى اليوم الثامن الذى هو نهاية العالم الحاضر، كما ويشير رقم ٨ إلى قيامة السيد المسيح لأنها أسمى من دورة الزمن بل هى فوق الزمن، أى أنه رمز لبداية جديدة بعد إنقضاء دورة زمنية كاملة، فهو إشارة لبداية عهد جديد، إذ هو اليوم الذى قام فيه السيد المسيح وظهر فيه لتلاميذه بعد القيامة، وهو اليوم الذى حل فيه الروح القدس على التلاميذ.

الأرقام ٦ ، ٧ ، ٨: فى اليوم السادس أكمل الرب يسوع فداءنا على الصليب (يوم الجمعة) واستراح فى القبر فى اليوم السابع (يوم السبت)، وقام من الأموات فى اليوم الثامن أو اليوم الأول من الأسبوع الجديد، أسبوع الخليقة الجديدة والحياة الأبدية الذى لا ينتهى والذى ليس من هذا الدهر، والذى فيه يستريح القديسون من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم (رؤ١٤ :١٣).

الرقم ٩: يشير إلى الإنسان الذى ارتفع من تحت الناموس لينطلق من الحرف إلى الروح. وهذا الرقم هو مضاعفات ٣: أبناء نوح الثلاثة – والفتية الثلاثة القديسون – والمجوس الثلاثة – ورؤساء الآباء الثلاثة – والرجال الثلاثة الذين جاؤا يقطعون العهد مع إسحق – والغرباء الثلاثة الذين إستضافهم إبراهيم.

الرقم ١٠: يشير إلى الناموس وإلى الوصايا العشر، وكذلك إلى حياة الكمال على الأرض أى الكمال الزمنى والإنطلاق للسيد المسيح خلال الإدراك الروحى للناموس (١٠ وصايا الناموس)، فقد شبه العالم بعشر عذارى (مت٢٥ :١)، وبعشرة عبيد لله أعطاهم عشرة وزنات ليتاجروا فيها (لو ١٩ :١٣) وشبهت الكنيسة بإمرأة لها عشرة دراهم (لو١٥ :٨).

الرقم ١١: يشير إلى عدم حفظنا للناموس أى كسرنا للوصايا (التعدى).

الرقم ١٢: يشير إلى ملكوت الله على الأرض وإلى الكنيسة المقدسة التى تجتمع من الأربع جهات المسكونة، عندما يملك الثالوث القدوس (٣) على أربعة أركان الأرض (٣×٤=١٢)، لذلك كان عدد الأسباط إثنى عشر، وكذلك عدد التلاميذ

الأطهار وأيضاً عدد أبواب أورشليم السماوية. فالثالوث القدوس يملك على البشرية فى المشارق والمغارب والشمال والجنوب، فيكون رقم ١٢ إشارة إلى ملكوت الله على البشرية كلها، أى إلى الكنيسة التى تضم أعضاء من كل الأمم والشعوب والألسنة، هذه الكنيسة الممتلئة بالأسباط الإثنى عشر (مت١٩ :٢٨) والإثنا عشر باباً لأورشليم العلوية (رؤ٢١ :١٢) وعيون الماء الإثنى عشر فى إيليم (خر١٥ :٢٧) والإثنى عشر عموداً التى بنى بها موسى مذبحاً للرب (خر٢٤ :٤).

الرقم ١٨: (يوتا وإيتا) يشير هذا الرقم إلى اسم يسوع المخلص «إيسوس».

الرقم ٢٢: يشير العدد ٢٢ إلى أنواع خليقة الله وإلى الحروف العبرانية بعددها الـ ٢٢، وكذلك نذكر ٢٢ أباً منذ آدم حتى يعقوب أصل الأسباط الإثنى عشر.

الرقم ٢٤: يشير إلى هيكل العالم الجديد الذى فيه تتجدد خلقة الإنسان (٦ تشير إلى اليوم الذى خلق فيه الإنسان ×٤ جهات المسكونة).

الرقم ٢٥: يجب ربط الرقمين ٢٥ ، ٥٠ بالرقمين ٥ ، ١٠، حيث أن اللاويين لم يستدعوا للعمل المقدس إلا من سن ٢٥ سنة حتى ٥٠ سنة. فالعدد ٢٥ يعنى كمال الخمس الحواس أو الإنسان الكامل، أما العدد ٥٠ فإنه يتضمن رمزاً مقدساً للعفو والرحمة (المديونان واحد خمسين والآخر بخمسمائة دينار).

الرقم ٢٨: يشير إلى كنيسة العهد الجديد (٧ كمال المؤمنين × ٤ جهات المسكونة).

الرقم ٣٠: يشير إلى إرتفاع الإنسان إلى الله (١٠ وصايا × ٣ الثالوث القدوس). والبعض يرى أنه يرمز إلى تدنيس الحواس الخمسة، فإن كان رقم ٦ يشير إلى النقصان، فإن رقم ٥ يشير إلى الحواس (٦ النقصان × ٥ الحواس = ٣٠) وكأنه خيانة للسيد المسيح وثمنها ٣٠ من الفضة وهى رمز لتدنيس حواسنا لحساب عدو الخير.

الرقم ٣٦: يشير إلى الملكية للثالوث القدوس (٣ يرمز للثالوث القدوس × ١٢ يرمز لملكوت الله على الأرض=٣٦) لذلك يدهن الكاهن العضو المعمد حديثاً ٣٦ رشماً بالميرون.

الرقم ٤٠: يشير إلى حياتنا الزمنية على الأرض وتفاعلنا مع وصايا الله (أيام الفلك ٤٠ +

صوم السيد المسيح ٤٠ + صوم موسى وإيليا ٤٠)، فرقم ٤٠ رمز لإلتزام المؤمن بأن يبقى حياته فى حفظ أوامر الله محفوظاً فى كنيسة المسيح.

الرقم ٤٨: يشير إلى المؤمنين الذين آمنوا بالمسيح فى أرجاء المسكونة من كل الشعوب والألسنة حيث يمثل كل جنس أو سبط (١٢×٤) وبهذا يرمز رقم ٤٨ إلى خاصة المسيح المؤمنين باسمه (الأسباط ١٢ × ٤ جهات الأرض= المختارين).

الرقم ٥٠: يشير إلى روح الحرية الكاملة والرجاء والوحدة لذا يُرمز به لليوبيل حيث سنة العفو العام والشامل وتحرير العبيد والأرض، وأيضاً فى اليوم الخمسين حل الروح القدس روح الحرية والإنطلاق والوحدانية. وكذا نجد أن عرض فلك نوح كان ٥٠ ذراعاً إشارة إلى التمتع بغفران الخطايا كما كان يحدث فى اليوبيل (السنة الخمسين)، وأيضاً يرمز إلى تقديس حواسنا الخمسة لتحمل سمات السيد المسيح وتتقدس لحسابه بروحه القدوس حسب وصاياه (١٠).

الرقم ٧٠: يشير هذا الرقم إلى المؤمنين الخدام العاملين، وكذا يشير إلى المنتخبين والكاملين (٧ المؤمن × ١٠ الملتزم بالوصايا)، لذلك كان السنهدريم أى المجمع العظيم يتألف من سبعين شيخاً من شيوخ اليهود على نسق السبعين شيخاً الذين كانوا يعاونون موسى النبى فى حكم اليهود فى سيناء (عد١١ :١٦)، وكذلك السبعين رسولاً الذين عينهم الرب يسوع مع الإثنى عشر تلميذاً للكرازة بملكوت السموات. ويحمل رقم ٧٠ معنى رمزى آخر وهو كمال العمل الإلهى فى حياتنا الزمنية، إذ أن رقم ٧ يشير للكمال ورقم ١٠ يشير إلى الحياة الزمنية التى تحكمها الوصايا العشر.

الرقم ٧٧: يشير إلى كمال الغفران (الخطايا والتعدى ١١× الكمال ٧)، وهو رقم يشير إلى الغفران الإلهى مقابل تعدى البشر، إذ أنه يسامحنا سبع مرات × ٧٠ مرة.

الرقم ١٠٠: يشير إلى قطيع المسيح العاقل (لو١٥ :٤) والذى يحرص الراعى الصالح ألا يضيع منه خروف واحد، فالراعى يترك الـ ٩٩ ليبحث عن الخروف الواحد. والرقم ١٠٠ هو أيضاً إجمالى عدد العذارى العشر × الوصايا العشر= ١٠٠، أى القطيع الذى يحيا بالوصايا الإلهية.

الرقم ٣٠٠: يشير إلى قطيع المسيح العاقل والذى يتقدس بالثالوث القدوس (١٠٠ القطيع × ٣ الثالوث = ٣٠٠) وكذلك يرمز إلى الـ ١٠ عذارى × ١٠ وصايا إلهية × ٣ الثالوث= ٣٠٠ ، الذين هم قطيع كامل يحيا حسب الوصية متقدساً خلال معرفته بالثالوث أو الإيمان به. ومن ناحية أخرى رقم ٣٠٠ فى اليونانية يبدأ بالحرف يوتا الذى يمثله الحرف تى (T) رمز وعلامة يسوع المسيح أى الصليب.

الرقم ٣١٨: يرمز إلى ربنا يسوع المسيح مع الصليب، فالعدد ١٠ يكتب بحرف (I) اليونانى، وحرف (H) يعنى ثمانية، فإذا وضعناهما بجوار بعضهما (IH) يصير معناهما «يسوع» (إيسوس فى اللغة اليونانية). فإذا أُضيف بعدهما حرف (T) وهو رقم ٣٠٠ يكون رمز العدد (IHT) دالاً على المسيح مع الصليب (رسالة برنابا ٩ :٩). وهى إشارة للذين يتعرفون على الرب يسوع وعلى شخصيته الإلهية وعمله الفدائى على الصليب.

الرقم ٦٠٠: يشير إلى عمل الله ستة أيام مع خليقته (٦ أيام الخليقة × ١٠٠ القطيع = ٦٠٠)، وكذا إلى عمل الله مع كنيسته المتغربة على الأرض، فهو يرمز إلى كل أيام تغرب الكنيسة، إذ أن الرب كمّل عمل الخلقة فى ستة أيام وهو لا يزال يعمل فى خليقته وقطعانه الناطقة الذين هم أعضاء كنيسته المجاهدة لكى يخلص قطيعه المئة (لو١٥ :٤).

الرقم ٦٦٦: يشير إلى الوحش وإلى عدم الكمال والنقصان (٧ الكمال – ١ =٦) لذا جاء السيد المسيح إلى الإنسان فى الحقبة السادسة ليجدد الإنسان ويرده إلى صورة الله إذ يُقسم تاريخ الخلاص إلى حلقات: الأولى من آدم إلى نوح، الثانية من نوح إلى ابراهيم، الثالثة من ابراهيم إلى داود، الرابعة من داود إلى سبى بابل، الخامسة من سبى بابل إلى كرازة يوحنا. ثم جاء المسيح فى المرحلة السادسة أو فى اليوم السادس، حيث جاء المسيح ليجدد خلقتنا التى خلقنا عليها فى اليوم السادس.

الرقم ٨٨٨: يشير إلى الحياة السمائية، فعدد الرب يسوع هو «٨٨٨» أى هو عدد سماوى بكل تأكيد وإلى التمام، وهو مضاعفات رقم ٨ ففى اليوم الثامن علامة العهد والتكريس للحياة السمائية والعبور بخلع محبة الزمنيات وقبول عمل المسيح الأبدى وملكوته السمائى.

الرقم ١٠٠٠: يشير إلى الفكر الروحى السمائى وإلى الحياة السمائية وإلى الروحيات والسمائيات (١٠ الوصايا × ١٠٠ قطيع المسيح).

الرقم ٢٠٠٠: يشير إلى الحب الحقيقى أو الحب على المستوى السمائى سواء كان الحب لله أم للناس.

الرقم ٥٠٠٠: يشير إلى تقديس حواس المؤمنين، أى إلى الذين تقدست حواسهم بالسمة الروحية السمائية (٥×١٠٠٠) فتصبح الحواس الإنسانية مقدسة ومدربة روحياً بالإيمان الحى.

الرقم ١٠,٠٠٠: يعنى أن الإنسان مدين بكسر العشر وصايا بدين أبدى لا يقدر أن يفيه عبر حياته الزمنية.

الرقم ١٢,٠٠٠: يشير إلى أن أولاد الله محصون ومعرفون بأسمائهم (يو١٠).

الرقم ٣٠,٠٠٠: يرمز إلى القطيع المؤمن بالثالوث القدوس والذى تمم الوصية ويعيش الحياة السمائية غالباً أبليس. رقم ٣ يشير للإيمان بالثالوث القدوس وبالحياة المقامة، ورقم ١٠ يشير إلى الوصايا العشر وكمال الناموس، ورقم ١٠٠٠ يشير للحياة السمائية (٣×١٠×١٠٠٠) إشارة إلى منْ أكملوا الوصايا وحققوها متممين الناموس بفكر روحى سمائى، لذلك يرمز رقم ٣٠ ألف إلى عدد المنتخبين (٢صم٦ :١) (يش١٨ :٢).

الرقم ٦٠,٠٠٠: يشير هذا الرقم لعبور الكنيسة إلى الله، فإنه يتكون من ٦×١٠٠×١٠٠٠ . رقم ٦ يشير إلى كمال العمل الإنسانى لأنه فى ستة أيام خلق الله العالم، وفى اليوم السادس خلق الله الإنسان، وأكمل خليقته على الأرض حاملاً كل إمكانياته البشرية، أما رقم ١٠٠ فيشير إلى كمال عدد الجماعة وكأنه يليق أن تنطلق الكنيسة بأجمعها ولا تترك عضواً حياً لا ينطلق خلالها نحو الله. أما رقم ١٠٠٠ فيشير إلى الحياة السمائية.

الرقم ١٤٤,٠٠٠: يرمز لعدد المختونين: ١٢ تلميذاً (رجال العهد الجديد) × ١٢ سبطاً (رجال العهد القديم) مضروباً فى ألف أى صار الكل بالمسيح سمائياً: ١٢

كنيسة العهد الجديد (٣ الثالوث × ٤ جهات الأرض) × ١٢ سبط (أسباط إسرائيل الإثنى عشر)× ١٠٠٠ = ١٤٤,٠٠٠ المختونين.

أما عن **رمزية الأحداث** فنجد أن الصليب يُشار إليه بذبح اسحق، وسلم يعقوب، وخروف الفصح، والحية النحاسية، وفلك نوح الخشبى، وشجرة الحياة فى الفردوس، وعصا موسى، أما لوحا العهد فيشيرا فى الكنيسة إلى كلمة الله الخلاصية، ووعاء المن يشير إلى جسد الرب، وعصا هارون تشير إلى العمل الكهنوتى الذبيحى، والتابوت المصنوع من خشب السنط يشير إلى خشبة الصليب، والسبعة السرج تشير إلى عمل الروح القدس النارى الذى يضئ الكنيسة خلال الأسرار السبعة. هذا وتستخدم الأنوار والسرج كأنها الأنوار السمائية وكأنها نجم المشرق، وكذا تُستخدم الشمعدانات على المذبح كأنهما الملاكان المرافقان لجسد السيد فى القبر واحد عند الرأس والآخر عند الأقدام. ونضع الشموع أمام أيقونات القديسين لأنهم نور العالم وكواكب مضيئة فى الفردوس، ونوقدها أثناء قراءة الإنجيل لأن كلام الله نور لسبيلنا وسراج لأرجلنا.

وهناك رمزيات كثيرة تتزين بها الكنيسة منها الكرمة (عنقود العنب) وهى تشير إلى الكرمة الحقيقية، وأيضاً رمز الراعى والخروف الذى يشير إلى الراعى الصالح، وكذلك رسومات ونقوش الحمل والتى ترمز إلى الحمل القائم وكأنه مذبوح. ووجدت رمزيات كنسية أخرى فى الآثار المسيحية الأولى من نقوش أثرية وأيقونات: معجزة الخبز والسمك كرمز للمعمودية ويرسم سبعة أشخاص حاضرين فيها إذ هو رقم مقدس ويمثلون جماعة المؤمنين _ أيقونات عرس قانا الجليل _ ذبيحة ابراهيم _ ملكى صاداق _ دانيال النبى _ الثلاثة فتية القديسين _ الأيائل التى تشرب من النبع _ الحمام يلتقط العنب _ وعاء اللبن

الأمر الذى يؤكد أن هذه الرموز تحمل فيضاً من المعانى الروحية تعجز الكلمات أن تعبر عنها، مثل الحمامة كرمز للروح القدس، وسعف النخيل كرمز للملوكية والسلامية، ثم المرساة رمز الرجاء المسيحى، والسفينة والفلك رمز الكنيسة، والسمكة كرمز للحياة المسيحية... وكما يقول القديس ميليتو أسقف ساردس: «إن الرموز أيها الأعزاء لا معنى لها إن بتر عنها ما ترمز إليه».

رمزيات كنسية

وكثيراً ما فسر الآباء الرمزيات الكنسية، فزينوا سر الهيكل الإلهى بغنى العقل، وقدموا لكنيسة الله علومهم الزمنية كنوع من التقدمة لتزيين الكنيسة خيمة الإجتماع الحقيقية، **فالشمس** رمز للسيد المسيح، **والقمر** رمز للكنيسة، **والذهب** هو الإيمان الذى يجعل القلب سماء لذا يشير الذهب إلى شبه السمائيات، كما يشير إلى القديسين بكونهم سماء يسكن الله فى قلبهم، وهو أيضاً رمز للمجد، أما **الفضة** فتشير إلى كلمة الكرازة المصفاة سبع مرات كما يرمز بها للفداء أيضاً، ويرمز **النحاس** إلى الصبر والقوة الذى به ندك كل ضيقات الحياة، ويرمز أحياناً إلى الدينونة والقضاء، أما **الخشب** الذى لا يسوس فيشير إلى العلم والعفة التى لا تشيخ. وعندما نقرأ فى كتابات الآباء عن رمزية العنصر البشرى فى الكنيسة نجد أن **الأعمدة** تشير للآباء الرسل أعمدة الكنيسة، أما **القواعد** فتشير إلى الأنبياء، ثم **العوارض** تشير إلى الخدام والكارزين الذين يخدمون بروح الشركة.

لقد أمر الرب العبرانيين أن يزينوا الخيمة كمثال للكنيسة، فالخيمة رمز للكنيسة وأما الكنيسة فرمز للسمائيات، وخلال المحسوسات أعلن العبرانيون مقدماً صورة الأمور الإلهية، لأنه حتى الآن لا تُسلم الحقيقية للبشرية كما هى فى الحياة الحاضرة، لأنها لا تقدر على رؤية الأمور الخالدة النقية كمنْ لا يستطيع التطلع إلى أشعة الشمس. لذلك نعاين صورة النظام السمائى عبر الأيقونات والأوانى والطقوس والشموع والبخور والملابس والكتب والستور والتقدمات والقرابين.

تلك الرموز التى تمثل حقيقة المسكن السمائى المدينة التى صانعها وبارئها الله، نراها وجهاً لوجه وليس فى الظلمة ولا خلال الجزئيات، لتعلن أسرار عمل الله فى وسط كنيسته، **فتابوت العهد** هو حلول الله نفسه داخل القلب، **ومائدة خبز الوجوه** هى الشبع بخبز الملائكة، **والمنارة** هى الإستنارة بالروح القدس.

ويتضح من كتابات الآباء الأوائل أنهم رأوا فى خيمة الاجتماع معان ورموز كتابية تشير إلى كنيسة العهد الجديد، لذا عملوها على المثال الذى كانوا قد رأوه، لتكون مسكناً سمائياً لله يشترك فيه كل الشعب بعطاياهم التى يقدمونها كفعل عبادة يصنعونه بمسرة قلوبهم، فى بناء المسكن الذى شاء الرب أن يكون له مقدساً ليسكن فى وسطهم.

ويؤكد آباء الكنيسة على أن **خيمة الاجتماع** هى مثال لمسكن الله السمائى ومثال لتجسد الله الكلمة، أما **التابوت** فإنه يرمز إلى رب المجد فى تجسده وهو مصفح بالذهب ومصنوع من خشب لا يسوس إشارة إلى اللاهوت القدوس والناسوت الطاهر الذى بلا خطية، فهو رمز لطبيعة المسيح الذى إتحد لاهوته بناسوته. وعندما نأتى إلى **العمودين المطليين بالذهب** اللذين بهما يحمل التابوت، نجد أنهما إشارة إلى المعمودية والتوبة، العمودين المقدسين اللذين بهما يكون تقديس النفس والجسد وبهما نستحق تناول الجسد والدم الإلهى.

وتشير **المنارة** ذات السرج السبعة إلى المسيح الذى فى بهاء مجد الله (عب١: ٣) المتكامل فى ضياء نوره حيث العدد «سبعة» يدل على الكمال، كما أن النور عند إنكساره يتحلل إلى ألوان الطيف السبعة، فالمنارة تشير إلى نور المسيح وفى نفس الوقت إلى سبعة أرواح الله. وهنا نذكر قنديل شرقية حضن الآب فى الكنيسة والذى يوضع فيه الزيت الضرورى لإيقاد السرج لكى تكون مضيئة أمام الرب ليلاً ونهاراً.... «فالله نور وساكن فى النور وتسبحه ملائكة النور». ويوضع **القنديل** كرمز علامة نجم المشرق. فكل من يريد أن يأتى إلى الرب يلزمه أن يسلك فى النور، وبالتوبة يضئ البيت (الزيت النقى).

لهذا نجد أن الألوان المستخدمة فى عمارة مبانى الكنائس وفى الليتورجيات هى بالأكثر الأسمانجونى (الأزرق السماوى) والأرجوان (الأحمر الملوكى) والقرمز (الأحمر القانى) والأبيض الناصع والذهبى والفضى، إذ أن هذه الألوان تنطبق على شخص المسيح رأس الكنيسة وعريسها، من حيث طبيعته الفائقة الطهارة والنقاوة والملوكية والذبيحية. فنجد هذه الألوان تُرسم بيد رسامى الأيقونات وصانعى الستور والملابس والأوانى الخاصة بالخدمة الليتورجية ليعبّروا باللون **الأزرق** عن الرب من السماء، وليعبروا **بالأرجوان** عن ملك الملوك ورب الأرباب، وليعبروا باللون **القرمزى** عن العمل الذبيحى الذى لفصحنا الحقيقى الذى «ذبح لأجلنا وفدانا على عود الصليب». وكذلك ليعبرّوا باللون **الأبيض** عن القدوس الذى بلا خطية، أما صورة ونقوش ومنسوجات الشيروبيم والسيرافيم فهى تشير إلى حضرة الله فى مجده حيث العرش الإلهى.

وتطريز البيارق والمراوح الليتورجية والملابس والستور بالألوان المتداخلة معاً فى نسيج واحد مبدع يشير إلى حياة المسيح التى عاشها بين الناس كإنسان، مخفياً مجد ألوهيته

عنهم، إلا أنها لم تخل من أعمال مجيدة وآيات ومعجزات باهرة لم يعملها أحد غيره تخللت كل حياته بالجسد.

كذا ويرمز وجود **حجاب الهيكل** إلى جسد المسيح الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جنده على الخشبة، وهو إعلان عدم إمكانية الدخول إلى حضرة الله إلا بتوسط ابنه الوحيد يسوع المسيح الذى كرس لنا طريقاً حديثاً بالحجاب أى جسده.

رموز سر الإفخارستيا

تحدثت كتابات الآباء عن خروف الفصح كرمز للمسيح الفادى فصحنا الحقيقى، كما يرمز المن للإفخارستيا وفى هذا يقول **القديس أمبروسيوس**: «كما أن النور أعظم من الظل، والحق أسمى من الرمز، هكذا يكون جسد الخالق بالنسبة للمن السمائى»، لذا يشار للإفخارستيا بأنها المن الحقيقى. كذلك إستفاض الآباء فى الحديث عن **تقدمة ملكى صاداق** كإشارة لذبيحة الإفخارستيا. فيقول **القديس كلمنضس السكندرى**: «قدم ملكى صاداق خبزاً وخمراً، الطعام المقدس، الذى يرمز للإفخارستيا». ويقول **كبريانوس**: «من هو بالأكثر كاهن العلى مثل ربنا يسوع المسيح، الذى قدم للآب تقدمة ملكى صاداق عينها، أى الخبز والخمر مقدماً جسده ودمه».

كشف الآباء عن **خبز المائدة** كإشارة للمائدة المقدسة السمائية، وعن **وليمة الحكمة** التى تكلم عنها سليمان أنها بنت بيتها بسبعة أعمدة كإشارة إلى ذبيحة الخبز والخمر المقدمة على المذبح، لذا اعتبر الآباء أن الكنيسة هى بيت وليمة الحكمة، ووليمة المسيا، حيث شركة الخلود التى يهبها جسده ودمه.

هذا وفسر آباء الكنيسة سفر المزامير تفسيراً سرائرياً فتحدثوا عن المائدة الإلهية وعن وليمة العرس والوليمة السمائية، كما فسروا رموز وإشارات سر الإفخارستيا معتبرين أن الجمرة الملتهبة التى لمست أشعياء النبى وقدست شفتيه هى جسد الرب الذى يقدس المؤمنين، وما ذكره ملاخى: «طعاماً جديداً نقياً يقدم باسم الله فى كل موضع» هو الإفخارستيا، وفسروا ذبائح العهد القديم كرموز لذبيحة الجلجثة والافخارستيا.

ذخرت كتابات الآباء بتفسير رموز العهد الجديد الأبدى، لأن ابن الله المتجسد لا

ينقض العهد القديم بل يكمله، مُقيماً عهداً جديداً روحياً سبق فتنبأ عنه الأنبياء، وقد اتبع العهد الجديد ذات الهيكل الذى للقديم، وإن كان قد فاقه كما تفوق الحقيقة الظل والرمز.

رموز سر المعمودية

فسر آباء الكنيسة المعانى المقصودة من سر المعمودية وقدموا تفسيراً إلهياً لكل طقوسه وممارساته، فمنذ القرن الأول كانت تعاليم الآباء الرسوليين عن المعمودية أنها **خليقة جديدة** على مثال ما حدث فى بداية خلق العالم معتبرين أن الله فى الأزمنة الأخيرة قد أتم خليقة جديدة. وهكذا اعتبر الآباء أن المعمودية تجعلنا نخلق من جديد على صورة الله ومثاله (تك١ :٢٦) وأظهروا العلاقة بين الماء والروح فى الخليقة الأولى وكذلك فى المعمودية «روح الله يرف على وجه الغمر». لذا اعتبر ترتليان وديديموس الضرير أن ما حدث عند بداية خلق العالم هو ما حدث عند نهر الأردن حينما كان الرب يسوع يعتمد فى المياه وروح الله نازلاً ومستقراً عليه مثل حمامة، وهكذا أيضاً نشأت الخليقة الجديدة من الماء والروح.

ويعتبر **الطوفان** رمزاً للمعمودية اكتشف فيه الآباء المعنى العميق لها (١بط٣ :٢٠) فكما أنه فى أيام نوح أُبيدت البشرية الخاطئة بمياه الطوفان وخلص البار لكى يصير باكورة الجنس البشرى الجديد، هكذا يخرج الإنسان الجديد مولوداً من الماء والروح.

وربط آباء الكنيسة بين **حمامة نوح وحمامة الروح القدس** التى حلت على رأس الرب والتى تقدس اليوم مياه المعمودية وتجعلها نهر أردن جديد، كما اعتبروا الرب يسوع **نوح الجديد** مؤسس الخليقة الجديدة الذى بخشبة صليبه سينقذ العالم من طوفان غضب الله الآتى تماماً كما أنقذت خشبة فلك نوح كل منْ إلتجأ إليها من الطوفان.

تضمنت كتابات آباء الكنيسة عن رموز المعمودية علاقتها **بعبور البحر الأحمر**، فاعتبروها سبب تحرير العالم من العبودية بفعل الماء، إذ فيها نترك خلفنا الشيطان هالكاً (بحسب تعليم **العلامة ترتليان**)، أما **العلامة ديديموس** فبعد أن يتكلم عن تقديس الماء بالروح القدس وعن الطوفان كرمز للمعمودية يذكر عبور البحر الأحمر كرمز آخر يكمل المغزى الروحى للولادة الجديدة، معتبراً أن عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر وخروجهم من

أرض مصر إنما هو رمز للخلاص الذى يتم فى المعمودية، فمصر هى رمز العالم الذى نصنع فيه تعاستنا بأنفسنا، والشعب هم أولئك الذين استناروا بالمعمودية، والمياه التى بواسطتها تم الخلاص للناس تمثل المعمودية، وفرعون وجنوده يمثلون الشيطان وأتباعه.

الواقع أن آباء الكنيسة شرحوا رمز عبور البحر الأحمر ليكشفوا لنا معنى جديد للمعمودية، إذ رأوا فى مياه المعمودية التحرير من العبودية ونوال الحياة والنجاة، هذا ويقول **القديس باسيليوس** أن «بنى إسرائيل» هم المعمدين الذين خلصوا بالمعمودية ، و«البحر» رمز المعمودية، و«فرعون» رمز للشيطان، وكما قتل البحر العدو، كذلك فى المعمودية تنهدم العداوة القديمة، وكما خرج العبرانيون سالمين كاملين، هكذا نحن نخرج من الماء كأحياء ناجين من الموت.

وقد أضاف **العلامة أوريجين** تفسيراً للسحاب الذى ظلل بنى إسرائيل معتبراً أنه إشارة واضحة للروح القدس ليكون ميلادنا بالمعمودية من الماء والروح، كذلك أكد القديس أمبروسيوس نفس المعنى معتبراً أن عبور البحر الأحمر يرمز لعبورنا من الظلمة للنور ومن الموت للحياة.

وربط الكثير من الآباء بين المعمودية وبين كل من الأردن ومياه مارة وصخرة حوريب وإيليا النبى وإليشع النبى ونعمان السريانى ونبوة حزقيال عن المياه التى تخرج من تحت عتبة بيت الرب. وهكذا تكلم **اغريغوريوس النيصى** عن المعمودية وعلاقتها بالأردن كنهر النعمة «الذى يجرى فى كل مكان ويحتوى المسكونة كلها ويندفع بقوة فى الفردوس فائضاً لكى يثمر أشياء أثمن جداً من التى كانت تنبت قبلاً، لأن تلك الأنهار كانت تنبت زهوراً ذات عطور حلوة، أما هذا النهر فيجدد البشر ليجعلهم مولودين من الروح القدس، تمثلوا بيشوع.... واعبروا الأردن إلى الحياة حسب المسيح، حيث الأرض التى تفيض بثمار الفرح وتجرى فيها أنهار اللبن والعسل، وحيث تسقط أسوار أريحا، ولا تتركوها محصنة» . فكل هذه الأشياء رموز وتصويرات مسبقة للحقائق التى تستعلن الآن، فعندما نقبل الأردن ننال ثمار التقديس والبركة، إذ أن الله وزع نعمة المعمودية على العالم كله، كما من ينبوع حقيقى وليس رمزى.

ويُرى **خلع المعمد لثيابه** على أنه رمز لخلع الموت والفناء للعودة إلى البراءة الأولى عندما يستعيد الإنسان صورته الأولى، وأنه عبارة عن خلع أوراق التين التى إرتداها آدم من

ورق الشجر بعد سقوط، وأنه خلع لثوب الفساد العتيق المتسخ لكى يلبس الفاخر الجديد.
كما رأى **القديس كيرلس الأورشليمى** أن خلع الموعوظ ثيابه يشبه تجريد المسيح على الصليب من ثوبه وهو الذى بعريه جرد الرياسات والسلاطين وانتصر عليهم، كما يُشار أيضاً إلى خلع الثياب بأنها ترك السيرة العتيقة والحياة القديمة وخلع ثياب آدم الأول التى من أقمصة الجلد.

أما **دخول المعمدين إلى الكنيسة** فيُرى كأنه عودة للفردوس، **وتغطيس المعمد** يرمز إلى الدفن والقيامة مع المسيح تحقيقاً لمشابهة موت الرب وقيامته، **وختم الميرون** يرمز إليه بالختم الذى يختم به المالك ممتلكاته، فهو علامة الإنتماء لقطيع المسيح والإنتماء لجيشه، وهو بمثابة ختم ضمان الملكية والحماية فالخروف المختوم ليس من السهل أن يُسرق أما غير المختوم فيكون فريسة اللصوص. إنه ختم الجندية للرب والختم الذى يختم به العبيد بعلامة سيدهم.

وفى الكنيسة الأولى كانت تتضح الرمزية عن طريق **الأيقونات المرسومة فى حجرة المعمودية**، وعادة كانت ترسم أيقونة المسيح الراعى الصالح وحوله خرافه فى منظر فردوسى ملئ بالأشجار والورود والينابيع. وفى أحد كنائس القرن الثالث نجد الأيقونات المرسومة فى معموديتها قد صورت سقوط أبوينا الأولين، وفى كنيسة أخرى نجد أيقونة للمسيح وهو يغسل خطية آدم فى النهر، وهكذا كان لأيقونات المعمودية ـ كما لبقية الأيقونات ـ معانيها ومفاهيمها اللاهوتية، إذ بالمعمودية يستعاد الفردوس الذى منه طُرد آدم.

وإحدى هذه الأيقونات تصور الأيائل وهى تشرب من مجارى المياه، وهى إشارة إلى المزمور (٤٢ :١) : «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله» ، وهذا يصور مقدار تعطش وتوق المعمدين لنوال نعمة المعمودية. وقد لوحظ فى بعض المعموديات أن الأيائل رُسمت وفى فمها حية، لأنه معروف فى العلوم الطبيعية القديمة أن الأيائل تأكل الحيات مما يثير عطشها الشديد إلى المياه، وبالمثل لا يتقدم الموعوظ إلى مياه المعمودية إلا بعد أن يهزم الحية، الأمر الذى تلخصه أيقونة الأيائل وهى تروى ظمأها من نهر الفردوس بعد أن إلتهمت الحيات.

كذلك **المرحضة** التى كانت تقوم بغسل الجسد وتطهيره فى خيمة العهد القديم هى إشارة إلى المعمودية فى كنيسة العهد الجديد، وبالمثل كل تفاصيل خيمة الإجتماع تؤكد

على إعمال الله الخلاصية، فالرموز والمثالات تكشف لنا الكثير من أسرار بيت الله حيث أُبتلع الرمز فى الملء.

رمزيات سفر الرؤيا

يعتبر سفر الرؤيا سفراً نبوياً مملوءً بالرموز والتشبيهات والأحداث التى تحمل معان عميقة وقف أمامها آباء الكنيسة فى دهشة وتأمل، فكل لفظ يحمل فى طياته سراً وبقدر كثرة ألفاظه بقدر ما يحمل من معان وأسرار. لذلك مدح الآباء ما فهموه من هذا السفر وما لم يفهموه، معتبرين أنه يحمل فكراً إلهياً رمزياً يفوق إدراكهم ويحوى أموراً عجيبة وعميقة يقبلونها بالإيمان والبساطة، ناظرين إلى حلاوتها ولذتها لأفهامهم وأرواحهم.

فالسبعة الأرواح هى السبعة الملائكة المخصصين لخدمة الكنائس السبعة، وكذا يُرمز بهم إلى الطغمات الملائكية أى الشاروبيم والسيرافيم والرؤساء والسلاطين والكراسى والربوبيات والقوات، ويرى البعض أنهم السبعة رؤساء الملائكة: ميخائيل وغبريال ورافائيل وسوريال وسراتيال وسداكيال وأنانيال.

والسحاب يرمز إلى بهاء مجد الله وكذا يشير إلى غضبه فى مجيئه الثانى ضد الشر وفاعليه، كذلك يرى بعض الآباء أنه يرمز إلى الناسوت الذى يخفى اللاهوت، أما **ثوب شبه ابن الانسان** فيرمز إلى ثوب الكهنوت، **والمنطقة الذهبية** التى عند الثديين تشير إلى إلتفاف الشعب حول صدر الله، أما **ثدياه** فهما العهدان، **ورجلا الرب** هما الرحمة والعدل بهما يسير الرب بين شعبه ليتمم خلاصهم.

والضيق عشرة أيام يرمز إلى العشر حلقات من الإضطهاد التى حلت على الكنيسة، أما **الحصاة البيضاء** فتشير إلى الكلمة المتجسد الذى هو مكافأتنا التى لا نقبل عنها بديلاً، ويشير **الفص الأبيض** إلى الملكوت المكتوب عليه بلغة أبناء الملكوت، أما **السبعة كواكب** فهم الأساقفة، ويرمز **مفتاح داود** إلى سلطان الحل والربط الذى وهبه الرب لعروسه خلال تلاميذه، **أما الباب المفتوح** الذى لا يستطيع أحد أن يغلقه فيرمز إلى باب الخدمة الفعال والكرازة وبشارة الملكوت.

ويرمز **الذهب المصفى بالنار** إلى الصبر المقتنى بالآلام وإلى الحب الحقيقى الباذل الذى

نناله بخلاص الرب يسوع، **أما الكُحل** الذى يفتح العينين فهو التأمل فى الوصايا الإلهية التى تنير العينين وتكحلهما، كذلك يشير **حجر اليشب** إلى مجد الله وبهاء قداسته، ويشير **حجر العقيق** الأحمر إلى رهبته وعدله، أما **قوس قزح** فيرمز إلى عهد المصالحة مع الله وهو كثير الألوان إشارة إلى إحسانات الله ومواهبه المتعددة التى يمنحها لأولاده.

ويشير **بحر الزجاج** شبه البلور إلى المعمودية التى كل منْ يعتمد فيها يصبح صلباً صارماً ثابتاً بلورياً تنعكس عليه إشعاعات الجالس على العرش كالشمس فيستنير بالرب ويلبس المسيح متطهراً بالدم الأحمر، مثمراً ثماراً خضراء، عالياً سماوياً كاللون الأزرق.

أما الأربعة قوات غير الجسدانية: الأول شبه الإنسان يشير إلى التجسد، والثانى شبه العجل يشير إلى الذبح على الصليب وإلى طقس الذبيحة والكهنوت، والثالث شبه الأسد يشير إلى القيامة وإلى قوة الملك وسلطانه وقوة قيادته وقيامته، والرابع شبه النسر يشير إلى الصعود وإلى إرسالية الروح القدس ليرفرف على الكنيسة ويقودها.

ويرمز **السفر المختوم** بسبعة الختوم إلى العلم الإلهى لتحقيق النبوات الواردة فيه منذ تجسد الرب إلى يوم مجيئه على السحاب للدينونة، كما يشير هذا السفر المختوم إلى الكتاب المقدس بعهديه كسفر واحد يعلن مقاصد الله ومحبته وتأديباته للبشر.

ويُشار **بالأسد الذى غلب من سبط يهوذا** إلى السيد المسيح لا لكونه مفترساً للبشر بل علامة ملكه وثباته والثقة فيه باعتباره الأسد الذى غلب الأسد خصمنا لينقذنا، محطماً العدو الذى يجول يزأر ليفترسنا.

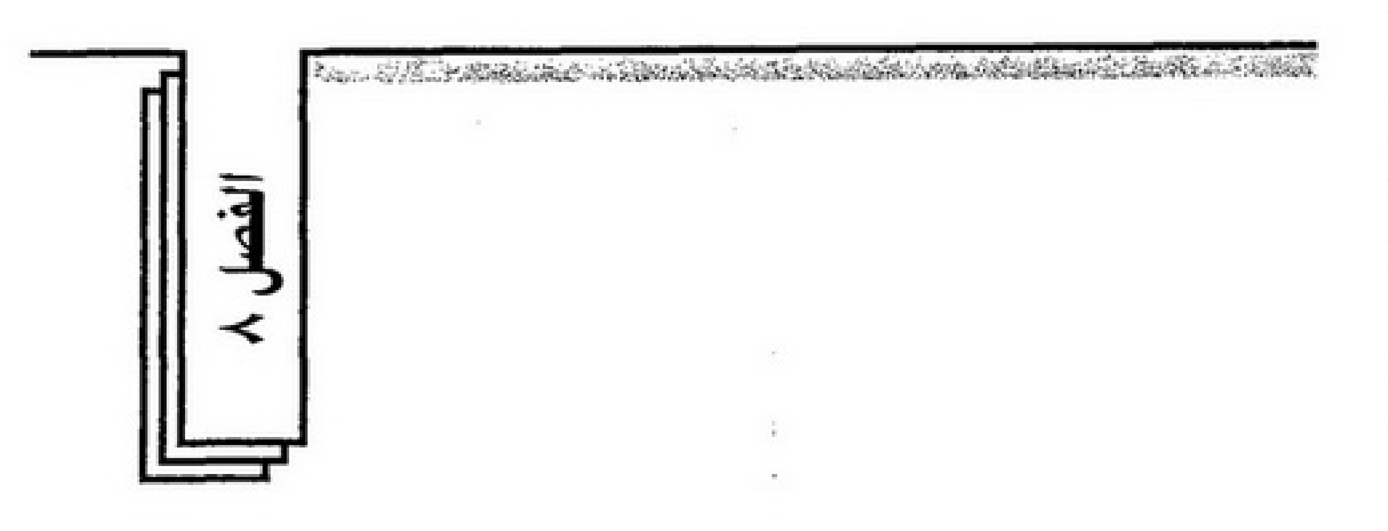
وسبعة قرون الخروف هى كمال القوة وكذا تشير **عيونه السبعة** إلى سبعة أرواح الله المرسلة إلى كل الأرض، أما **الفرس الأبيض** فهو رمز لجماعة الرسل والمبشرين بكلمة الإنجيل، حاملين شخص الرب ومنتصرين به على قوات الظلمة. أما عن **الفرسان الثلاث**: الفرس الأحمر يرمز إلى الحروب (مت٢٤: ٧ + لو٢١: ٩)، والفرس الأسود يرمز إلى المجاعات (مر١٣: ٨)، والفرس الأخضر يرمز إلى الموت (مت٢٤: ٧) وكذلك إلى ظهور الدجال وموت الأرواح.

كذلك ترمز **الأبواق** إلى الأوامر الصادرة من قبل الله والتبويق يشير إلى تنفيذها، كما

وتُفسر **المرأة المتسربلة بالشمس والقمر** بأنها كنيسة الآباء والأنبياء والرسل والآباء والتى تتسم بالآلام والجهاد والسعى.

أما الوحش فيرمز إلى النبى الكذاب ومملكة ضد المسيح وإلى جيش الدجال، وهو قرمزى بسبب أعماله الدموية وسفك الدماء والتجاديف والغزوات، ثم أخيراً يرمز **إنفتاح سفر الحياة** إلى فتح سرائر كل البشرية (قلوبهم وضمائرهم) حتى يدرك الكل عدل الله، عندما يُعلن الرب نفسه كشجرة حياة منْ يأكلها فى أيام جهاده على الأرض يعيش إلى الأبد عندما تنفك كل الرموز وتعلن كل الأسرار.





الفن والأيقنة

فى التقليد الكنسى

الفن والأيقنة

فى التقليد الكنسى

قبل نهاية القرن الثانى، بدأ المسيحيون فى التعبير عن إيمانهم بأشكال فنية عديدة منها الرموز والأيقونات والنقوش والتصوير والرسومات، لذا يذكر **ترتليان** العلامة الأفريقى وجود كؤوس مرسوم عليها الراعى الصالح وهو يحمل خرافه، ويقدم العلامة كلمنضس السكندرى تعليماً عن الصورة المناسبة لخاتم المسيحى الذى يختم به أوراقه ومراسلاته. إذ فى ذلك الزمان كان الخاتم أو الختم ضرورة حتمية للمراسلات. ويوصى كلمنضس المسيحيين بأن يستخدموا صوراً ورموزاً ليست بالضرورة مسيحية لكن يمكن أن تفسر مسيحياً مثل الحمامة، سعف النخيل، الحية النحاسية، العنقاء، النسر، النجم، السمكة، السفينة، المرساة، الكرمة، وأن يبتعدوا عن الرموز التى تشير إلى الخلاعة والسكر والفجور والوثنية.

ومن الجدير بالذكر أن **كلمنضس السكندرى** إقترح صوراً للأختام يستخدمها الوثنيون أيضاً، أى صوراً محايدة لكنها ذات مدلولات مسيحية، مثل صورة الراعى الصالح وهو يحمل خرافه والتى كانت بالنسبة للوثنيين رمزاً للأعمال الإنسانية الخيرية، وهكذا كان المسيحيون يستخدمون الرموز القائمة بالفعل ويضفون عليها معنى جديد بالإشارة إلى المسيح الراعى الصالح.

وقد استخدم المسيحيون الأولون: الحمامة كرمز للروح القدس، والسمكة كرمز للمسيح والمسيحيين، والسفينة كرمز للكنيسة، والمرساة كرمز للرجاء مرساة النفس، وكأن حياة الإنسان المسيحى تشبه رحلة بحرية وسط العواصف والأمواج العالمية لتنتهى فى الميناء السمائى.

فبدلاً من الأشكال الأسطورية كانوا يزينون بيوتهم وقبورهم برموز فنية ذات دلالة

مسيحية، حتى الأختام التى كانت تستخدم بصفة خاصة فى ختم الوثائق الرسمية والوصايا الخاصة بالإرث. ويقول القديس بولس الرسول عن أهل كورنثوس أنهم «ختم رسالتى فى الرب» (١كو٩:٢) أى أنهم العلامة الشاهدة والمؤكدة على رسوليته، ولكن على وجه أخص كان المسيحيون الأولون يصنعون أختامهم من رموز وعلامات مقدسة كعلامة الحمل وعلامة الصليب وعلامة السمكة وعلامة السلم السمائى.

كذلك استخدم المسيحيون الأولون الفن فى صناعة أختامهم ونقش قبورهم وأبوابهم وحوائطهم وحليهم وكؤوسهم وقواريرهم ومنسوجاتهم وآنيتهم وكراسيهم، فصارت رموز الحياة السمائية تقوم بدور فعال فى الحياة اليومية، بعد أن صارت الصور الرمزية عبارة عن كتابة مصورة تمثل فيضاً من المعانى الروحية والإيمانية واللاهوتية، فالرمز دائماً يستمد قوته من المرموز إليه.

وللفن المسيحى مدلوله الروحى، وقد إنتقل من الناحية التصويرية إلى مرحلة الرمز إلى مرحلة الواقع ثم مرحلة التأريخ لنقل الحقيقة الإلهية من جيل إلى جيل، لأن الله كما هو أمس هو اليوم وإلى الأبد، وذلك من خلال الفن الرمزى والواقعى معاً. وحينما نتأمل الفن التصويرى المسيحى لا نقف عند حدود الألوان والمواد بل ننتقل إلى المفهوم والحدث فى حقيقته السرية كرسالة إنجيلية لها دورها التعليمى وفاعليتها فى حياة الكنيسة التقوية والطقسية، لذا لا نكرم الرموز والأدوات المستعملة فى الكنيسة لذاتها لكن لعلاقتها بالله الحى.

الفن أحد أدوات العبادة الكنسية

لقد أغنت الفنون التصويرية الرؤية الروحية للكنيسة الأولى، وكانت الأيقونات من أهم وسائط التنشيط الروحى لليتورجيا المسيحية، عندما أصبحت كتاب مقدس مفتوح بلغة الألوان وتصوير الأحداث التى ترسم الإنجيل «**الأيقونة المكتوبة**» لتوضح أسراره ومفاهيمه وتعاليمه الإلهية وتجعله «**أيقونة مرسومة**».

كان الغنوسيون متقدمين فى تعبيرهم الفنى إذ قد رسموا أيقونات للسيد المسيح كما يخبرنا عن ذلك **القديس إيريناؤس**: «كانوا يمتلكون أيقونات بعضها مرسوم بالألوان

وبعضها مُرصع بمواد مختلفة (موزاييك) مؤكدين أن صورة المسيح التى يملكونها هى أصلية وأنها رُسمت بمعرفة بيلاطس».

وانتشرت الصور التعبيرية عن أمثال المسيح مثل «المسيح الراعى الصالح» كما ورد فى كتابات **العلامة ترتليان وكلمنضس السكندرى ويوسابيوس المؤرخ**، وكذلك تصوير العذراء حاملة الطفل يسوع، وصور المسيح وهو يبارك الأطفال، وصوره وهو يقيم لعازر، وكذا وهو يمسك قضيب سلطانه كملك على الأحياء والأموات، وأيضاً صور المسيح وهو يحمل كتاباً مفتوحاً يمثل العهدين القديم والجديد.

وبينما إنتقل الفن من مرحلة الرموز إلى المرحلة الواقعية والتاريخية معاً فى القرن الرابع، نجد أنه يتجه ناحية الأشخاص فى القرن الخامس، فيخبرنا **القديس أغسطينوس** عرضاً عن الأيقونات المرسوم عليها الرب يسوع ومعه بطرس وبولس الرسولان، كما يخبرنا أيضاً عن صورة إبراهيم وهو يقدم إسحق كمنظر جليل ونبيل مرسوم فى كافة الأرجاء معتبراً أنه يستحق أن تترنم به كل الألسنة.

ويخبرنا **القديس اغريغوريوس النيصى** عن صورة شاهدها بنفسه: «لقد شاهدت صورة آلام المسيح ولم استطع أن أتحول عن الصورة بدون أن أذرف الدموع بغزارة لأن الرسام الفنان قد أبرز القصة أمام العين بدرجة رائعة».

لقد صارت الأيقونات المقدسة إنجيلاً مفتوحاً، فبالتجسد أظهر الله نفسه على الأرض بشكل منظور إذ حمل جسداً يمكن تصويره، وصارت حياته على الأرض أحداثاً يمكن رسمها فى أيقونات كما يمكن تسجيلها بالكلمات. ويقول **يوحنا الدمشقى**: «إذ أخذ غير المنظور جسداً منظوراً نستطيع أن نرسم لهيئته شبهاً»، ويشير الأنبا يوساب الأبح إلى الأيقونات الخاصة بالسيد المسيح وإستخدامها فى طقس العبادة كثمرة من ثمار التجسد الإلهى.

ففى ضوء التجسد الإلهى صار للأيقونات المقدسة إمكانية الكشف عن الأبعاد الروحية السمائية، وما نراه منظوراً فى الفن المقدس إنما يعيننا على التمتع بالأبديات غير المنظورة، لذلك اعتبر الآباء أن فن الأيقونات يرتبط بالوعظ والكتابة حتى أن **القديس اغريغوريوس النزينزى** كثيراً ما يشير إلى العظة كلوحة فنية وللمتكلم كرسام، فالأيقونة كالكتابة

تستحضر إلى ذهننا ابن الله وحياته الخلاصية لأجلنا.

وإذا كانت العظة أيقونة لفظية فإن الأيقونة بدورها هى عظة مرسومة ومسجلة بلغة الألوان، لذا تُعبر لغة الكنيسة عبر الأجيال، وكأن الأيقونات تفسر لنا الإنجيل عملياً، والأب **نيلوس السينائى** يبعث برسالة يقول فيها: «ليت يد الفنان تملأ الكنيسة فى كل جوانبها بصور من العهد القديم والجديد وتصور الأعمال المملوءة شجاعة التى قام بها خائفو الله بإخلاص، وهكذا تلتهب فى المؤمنين الغيرة على القيام بأعمال بطولية مجيدة تستحق المديح على الدوام مستبدلين الأرض بالسماء ومفضلين غير المنظورات عن الأمور المرئية».

الأساس الخريستولوچى للأيقونات

لقد ظهر الله فى العهد القديم وتكلم بأفواه الأنبياء، أما فى العهد الجديد فقد تجسد كلمة الله وحل بيننا ورأينا مجده، أى أن الآب أظهر نفسه للبشر بابنه الوحيد (يو١٤: ٩) وعن هذا يقول **يوحنا الدمشقى**: «فى العهد القديم لم يكن تصوير الله ممكناً، لأنه لم يكن قد إتخذ جسداً ولا شكلاً. أما الآن، بعدما ظهر الله بالجسد وعايش البشر، فإننى أصور الله الذى يمكننى أن أراه والذى تجسد من أجلى، ولن أنقطع عن إحترام المادة التى بها أكمل خلاصى».

ويوضح **ثيؤدوروس الستوديتى**: «إننا لا نصورطبيعة المسيح بل شخص المسيح الذى هو صورة الله غير المنظور، فهذه الأيقونة علامة منظورة لحضور الله غير المنظور».

لهذا يستند إكرام الأيقونات إلى عقيدة تجسد ابن الله الكلمة، وعندما نكرم الأيقونات فإننا نعلن عن إيماننا بحقيقة التجسد، فالأيقونة تقودنا إلى النموذج أى إلى المسيح نفسه، ومَن ينكر تكريم الأيقونات إنما ينكر تجسد المسيح وعقيدة التدبير الإلهى، ومَن يرفض تصوير «الذى حل بيننا» يكون قد أنكر على الكنيسة التى هى جسد المسيح صفتها الإلهية ـ الإنسانية.

وعن أخذ بركة الأيقونات، يقول **يوحنا الدمشقى**: «حيث تكون العلامة، هناك يكون أيضاً صاحب الصورة، فنحن نكرم الأيقونة لكن لا نعبدها». وقد ذكر الدمشقى نفسه أن «كل مَن يؤله الأيقونة يُلعن». وهناك فرق بين عجز الشعب اليهودى فى القديم عن التمييز

بين العبادة *Lateria* الخاصة بالله وحده، والتكريم *Prokynesis* الذى يمكن تقديمه لغير الله. أما المسيحيون، وقد اجتازوا مرحلة الطفولة، فقد صاروا قادرين على التمييز بينهما، فليس هناك مانع من إستخدام الأيقونات، إذ هم يستطيعون ألا يمزجوا بين العبادة للسيد المسيح وبين توقيرهم لأيقونته المقدسة، فالله كطبيب حاذق يقدم العلاج حسب حالة المريض وعمره، فيمنع عن بنى إسرائيل أموراً يبيحها للمسيحيين.

ويؤكد الآباء على أن الأيقونات تساعدنا على التأمل فى الإلهيات، لأننا حينما نراها ونكرمها لا نعبدها كمن يعبد اللاهوت، وإنما نتذكر الخلاص الثمين فنلتهب حباً لمَنْ تمثله الأيقونة ونتمنى أن لا تفارق هذه الصورة أذهاننا وقلوبنا، فما دمنا فى الجسد تحتاج الحواس إلى أشياء ملموسة تتطلع إليها لتنقلها داخل قلوبنا وممارساتنا. هذا هو سبب إحتفاظنا بهذه الأيقونات أمام عيوننا فى كنائسنا وبيوتنا لتكون شركتنا مع الله من خلال المنظورات.

فحينما نقف أمام الأيقونات تكون أذن رب الجنود مصغية إلينا من الأيقونة ذاتها وكثيراً ما يستعلن فينا أكثر وضوحاً من الصورة المرسومة أمام عيوننا، لذلك يقول **القديس باسيليوس الكبير**: «الكرامة التى تقدم للأيقونة إنما تعبر إلى الأصل».

وبهذا يكون الفن المسيحى قد صار أحد أدوات العبادة الكنسية لا بمفهوم أننا نعبد الأيقونة المادية بل الله المرموز له فى الأيقونة، إذ أن الأيقونة ليست مجرد لوحة فنية تذكارية، بل هى تحمل قوة روحية فعالة فى حياة الكنيسة، ولهذا تدشن الأيقونات بالميرون كختم الروح القدس فى طقس خاص يسمى بصلاة التكريس لتكون للأيقونة صفة الأقداس المقدسة فى الكنيسة، وتصير الأيقونة كخشب وألوان وفن ومواد عبارة عن أدوات مميزة ومقدسة ومدشنة ومكرسة ومفرزة للعبادة الكنسية الليتورجية.

مكانة أيقونات المسيح فى الكنيسة

بعد أن انطبعت صورة المسيح على منديل القديسة فيرونيكا، وقيام القديس لوقا الطبيب بتصوير العذراء مريم والطفل الإلهى يسوع، انتشرت أيقونات كثيرة تصور السيد المسيح باعتباره محور الفن المسيحى، فهو جميل فى السماء وجميل على الأرض، جميل حين تألم، جميل حين يضع نفسه وجميل حين يأخذها، جميل على الصليب، وجميل فى

القبر، وجميل فى السماء (بحسب تعبير القديس أغسطينوس). ويقول **القديس چيروم**: «اختفى لاهوته ببهائه وعظمته تحت حجاب الجسد، وبعث بأشعته على ملامحه الجسدية، فسبى كل الذين كان لهم غبطة التطلع إليه»، وهو «أبرع جمالاً من بنى البشر وقد انسكبت النعمة على شفتيه» (مز٤٥: ٢)، كذلك حلقه حلاوة وكله مشتهيات (نش٥: ١٦) وهو الحسن والجمال نفسه، فطوبى لمَنْ يدخل إليه وينظر منظره العجيب ويتعجب من جماله البهى الذى يظهره لمحبيه.

ظهور أيقونات القديسين

بحلول القرن الرابع أخذت الأيقونات التى تمثل بطاركة العهد القديم والرسل والشهداء والمعترفين والقديسين تحتل مكانة أيضاً داخل الكنيسة جنباً إلى جنب مع الأيقونات المقدسة التى تصور المسيح والتلاميذ. وقد أكد الآباء أن نعمة الله التى سكنت فى هؤلاء القديسين هى نفسها لا تزال تعمل فى أشكالهم وأيقوناتهم، لذا أيقونات كنيستنا لا ترسم طبيعة الإنسان الساقط بل الإنسان الجديد.

فيخبرنا **اغريغوريوس النيصى** عن مناظر تمثل حياة وإستشهاد القديس ثيؤدوروس فى كافة مراحلها، وكذلك **اغريغوريوس** أسقف مدينة تورز يخبرنا عن أيقونة رآها تمثل الرسل وبعض القديسين، ونقرأ أن صوراً للقديس سمعان العمودى قد انتشرت فى روما عام ٤٠٠م، وكذا يقول **القديس باسيليوس الكبير**: «امتثلوا أمامى يا صانعى الأيقونات الخاصة باستحقاقات دم الشهيد برلعام». هذا وقد إنتشرت أيقونات القديسين لأنهم أهل للكرامة المضاعفة ولأنهم ورثة الله الوارثون معه وشركاء مجد عظمته الإلهية، وكل أيقونة قديس هى اسمه وسيرته وإمضاؤه الذى تركه لنا كشاهد للرب سواء بفضائله أو بعذاباته أو بجهاده.

وحينما يرفض البعض تكريم أيقونات القديسين إنما هم لا يحاربون الأيقونات بل يشنون حرباً ضد القديسين، وكل منْ يكرم أيقوناتهم يعتبرهم أصدقاء الله الذين قاوموا حتى الدم ضد الخطية وتبعوا السيد المسيح بسفك دمائهم وبكلمة شهادتهم، لذا تحاط رؤوسهم بهالات المجد كمفهوم إلهى ومطوب.

كذلك اهتم فن الإيقونات برسم الطغمات والعساكر الملائكية، فقدم رسام الأيقونات المسيحى الفكر السمائى بحسب الكتاب المقدس، ولذا حوت الكنائس تصويرات للخليقة

السمائية لتقودنا إلى الشركة معهم (شركة السمائيين).

وبالجملة نقول أن آباء القرن الرابع بصفة عامة تحدثوا عن الأيقونات كأمر مستقر، ثم أشار آباء القرنين الخامس والسادس إلى عادة إنتشارها فى أيامهم، معتبرين أن الأمور الجميلة التى يعبر عنها الفنانون إنما مصدرها الجمالى هو الله الذى هو فوق كل النفوس، ذلك الجمال الذى لا يُعبر عنه والذى نلهج به ليلاً ونهاراً.

وعندما نأتى إلى القرن السابع نجد حركة مقاومى الأيقونات، إلا أن آباء كثيرين دافعوا عن الأيقنة معلنين أن العبادة تقدم لله وحده، أما القديسون فيُكرمون فقط، هذا وسُميت الأيقنة **بالفن الليتورجى**، أى الفن الخاص بعبادة الكنيسة الطقسية.

وتتسم ملامح **الأيقونة القبطية** بالعيون الواسعة وضخامة الرأس (إشارة للخدمة الروحية) وضعف الجسد (إشارة إلى النسك والجهاد) والحياة المفرحة وروح الغلبة والثقة وروح الحب واللطف وقوة الروح وإنفتاح البصيرة الداخلية والروحانية، وهى تصور عناية ربنا والخليقة السمائية والأيادى المرفوعة المبسوطة (إشارة للعبادة) مع تصوير الشيطان فى حجم صغير (إشارة للنصرة)، وعدم تصوير آلام القديسين، وبالطبع يصور السيد المسيح منتصراً يدوس الحية والتنين تحت قدميه، مع التأكيد على أن الآب لا يُصور لأن «الأب لم يره أحد قط» لكن الابن هو الذى تجسد.

رسامو الأيقونات

يفترض الآباء فى الذين يرسمون الأيقونات أن يصوموا ويحيوا حياة نسك وتكريس وصلاح ليحصلوا على الخبرات الروحية الضرورية ثم يعبّرون عنها بالألوان ويصنعوا أعمال الروح القدس الذى أعاروه أيديهم، ثم يكتبوا عليها «صُنعت بيد...» أى بيدهم التى سلموها للروح القدس. يا لها من بركة ونعمة تكتمل عندما تُدشن الأيقونة بدهن الميرون لتتكرس للعبادة الطقسية.

لاهوت الأيقونة فى كتابات الآباء

يقول القديس **بطرس السدمنتى**: «أمر معلمو البيعة برسم صورة المسيح مصلوباً».
«فلتكن أيقونة الصلبوت مرتفعة خارج الخورس الأول لأن المسيح تألم خارج المدينة».
«كذلك أمر معلمو الكنيسة بعمل صورة الدفن فوق المذبح وأيقونة القيامة لزفة القيامة».
«رتبت الكنيسة كل الصور اللائقة بتذكار المسيح، وأيضاً صور الملائكة والقديسين تذكاراً لهم».

ويقول **الأنبا يوساب الأبح**: «الصور لابد من تكريسها». «السجود هو لروح الله، وأما صاحب الصورة فينبغى له الإكرام وطلب شفاعته قدام الرب».

ويتحدث **يوحنا كرونستادت** قائلاً: «إن الله يُسر كثيراً بأن نحتفظ بأيقونة للمخلص ونصلى أمامها. إنه نوع من التعطش الروحى ونداء النفس... فكيف أتصور المسيح فى قلبى إن لم أره أولاً بعينى؟ لذلك نحن نقتنى صور المخلص وأم ربنا والملائكة والقديسين، فمن أجل عظم حبنا لهم نود أن لا تفارق صورهم أذهاننا أو قلوبنا، إذ أن حواسنا فى حاجة إلى شئ ملموس يطبع عليها وينقل لها داخل القلب حضورهم، لذلك نحتفظ بهذه الأيقونات أمام عيوننا وفى بيوتنا وكنائسنا».

ويقول أيضاً: «إن كل منْ يتأمل في الأيقونة يرى فيها السيد الرب شاخصاً إليه بعينيه، فهو الآن وكل آوان شاخص إلينا، ومنْ يقف أمام الأيقونة يتصور أنه واقف أمام الله الحى الذى يسمع الصلاة ويأتى إليه كل بشر، فأذنى رب الجنود مصغيتان إلينا لأنه قريب منا، أقرب من الأيقونة ذاتها، وكثيراً ما يستعلن أكثر وضوحاً من الصورة المرسومة أمام عيوننا».

«فالأيقونة توحى إلينا أن الرب قريب ويسمع وينظر إلينا، وكثيراً ما صنع الرب معجزات وآيات بواسطة الأيقونات. كذلك حينما ننظر إلى أيقونات القديسين نراهم حولنا كسحابة شهود محيطة بنا ينظرون إلينا كما ننظر نحن إليهم ويسمعوننا. إنهم شهادة يسوع الحقة وهم يقفون كشاهد قوى ضد روح هذا العالم المستهتر موبخين كل سيرة منحلة».

«هؤلاء القديسون إنما يضيئون بنورك يا رب الذى سكبته على رؤوسهم. هم تقدسوا بنعمتك بعد أن جاهدوا وغلبوا الخطية، والآن هم يتمجدون عندك ويرون المجد العظيم الذى لك ويتنعمون فى عدم فسادك الذى أشركتهم فيه، إذ جعلتهم واحداً معك فى قداستك

ونورك وبهائك. المجد لك يا رب يا منْ أعطيت مثل هذا المجد والنور والرفعة لهؤلاء الغيورين على مجدك».

«هذه أيقونات الآباء البطاركة الذين رعوا خرافك المقدسة يا رئيس الرعاة الأعظم وجازوا عالمنا محملين بخيرك وحكمتك وقوتك. هؤلاء هم الشهداء الذين جازوا معركة العذاب واشتركوا فى آلام صليبك وغسلوا ثيابهم وبيّضوها بالدم. هذه هى صورة قديسيك الذين غسلوا ذواتهم بدموعهم وطهروا أجسادهم بأصوامهم، فنالوا مواهبك العظمى واستؤمنوا على أسرارك، بعد تقووا فى جهادهم بشدة قوتك، وداسوا الخطية بأقدامهم وكسروا فخاخ العدو بنعمتك... ها حسنك وضياء وجهك ينبعثان من وجوههم بضياء عجيب».

ويقول **يوحنا الدمشقى**: « عندما نعمل صورة ما لله غير المنظور لا نضل ولا نعبد آخر سوى الرب يسوع المسيح الذى أظهر لنا صورته جهاراً إذ تجسد وظهر على الأرض كإنسان بين بنى البشر، آخذاً شكلاً ومنظراً محدداً». ويفرق الدمشقى بين التوقير والتكريم وبين العبادة، فالله وحده هو المستحق العبادة من كل منْ فى السماء من فوق ومنْ على الأرض من تحت. وهو يقول: «نحن نسجد لله ونعبده ونوقر قديسيه ونكرمهم إكراماً للروح القدس الذى ملأهم: "منْ يقبلكم يقبلنى". فنحن لا نعبد الصورة المادية وإنما نعبد الله المرموز له بالصورة».

ويؤكد يوحنا الدمشقى على أن **«الصورة قصة مقروءة وتذكار دائم»**. ويقول: «منْ يرفض أن يعطى لصورة الله أو أحد قديسيه ما تستحق من كرامة، فإنه مؤيد بفكر شيطانى، لأن الصورة هى تذكار وإعلان عن أمر إلهى وتسبيح صامت له، فلن يكمل فرحنا الروحى بدون ذكر الرسل والقديسين وأعمالهم لأنهم تعبوا ونحن دخلنا على تعبهم. فإذا كانت عصائب ومناديل وظل الرسل تشفى المرضى وتخرج الأرواح الشريرة، فكيف لا تكون صورهم مقدسة وممجدة معاً؟؟».

كما يقول أيضاً: «إذا كانت صورة الملك تُحترم كالملك ومنْ يستهزئ بها يُعاقب بشدة، فكيف لا تكون صورة المسيح مستوجبة السجود والوقار، وصور القديسين مستحقة الاحترام والكرامة؟! فالشياطين يرتعبون من صور القديسين ويفرون من أمامها.... وعندما نتأمل فى صورهم المقدسة تمتلئ نفوسنا سلاماً وقداسة».

تقليد الأيقونات الكنسية وتقنينها

إستقرت الأيقونات فى الكنيسة كتقليد محسوس يمثل أمام عيون المؤمنين حقائق خلاصية ثمينة، كوسيلة حسية ندرك بها الأمور الإلهية غير المنظورة لترتسم فى أذهاننا ومن ثم نسمع ونرى ونلمس مع توما الرسل (يو٢٠ :٢٥).

ويستند تقليد الأيقونات إلى ظهور الرب لإبراهيم فى هيئة ثلاثة رجال (تك١٨ :١)، ولأشعياء فى شكل رجل جالس على كرسى عال وأذياله تملأ الهيكل (أش٦ :١)، ولدانيال فى صورة شيخ ذى لحية بيضاء (دا ٧ :٩)، وقد شبه الرب يسوع نفسه بالشمس (مل٤ :٢) والنور (يو٨ :١٢) والراعى (لو١٥ :٥+يو١٠ :٨)، وبولس الرسول يصفه بأنه صورة الله غير المنظورة (١ كو١ :١٥). هذا وقد ورد فى الكتاب المقدس ما يثبت إستخدام الأيقونات ورسمها (خر٢٥ :٢٨ +١ مل٦ :٢٣ + مز١٧ :١٥ + غل٣ : ١+ عد٢١ :٩).

ويؤكد التقليد على صناعة الأيقونات منذ القرن الأول واستخدام الصور فى الأوسمة والأختام والتحف الأثرية، لينظر المؤمنون إلى تلك الصور ويقتنوا السير فى طريق الكمال (غل٣ :١) ويقرأون فيها صور الفضيلة ويمجدون الله فى خلاصه وقديسيه الذين جعل مسرته بهم (مز١٦ :٣)، مسبحين الله فى جميع قديسيه (مز٥٠ :١)، كخريطة موصلة للملكوت تقربنا لخلاصنا وكدليل يرشدنا للطريق إلى الدهر الآتى وإلى أن يتصور فينا المسيح (غل٤ :١٩) ويُرسم بيننا مصلوباً (غل٣ :١) ناظرين إليه كرئيس للإيمان ومكمله.

إننا ننظر إلى إيقونات القديسين لنتمثل بهم لأنهم تمثلوا بالمسيح، ونتعلم ونتسلم قدوتهم ذاكرين فضلهم للبركة (أم١ :٧) ذكراً أبدياً (مز١١٢ :٦)، فليست قيمة لصورهم من حيث كونها ألوان على خشب أو ورق مرسوم، بل هى كتاب يعلمنا بأبلغ عبارة ـ وهو صامت ـ ما كان عليه أولئك القديسين من جهاد ودموع ودم وعطاء.

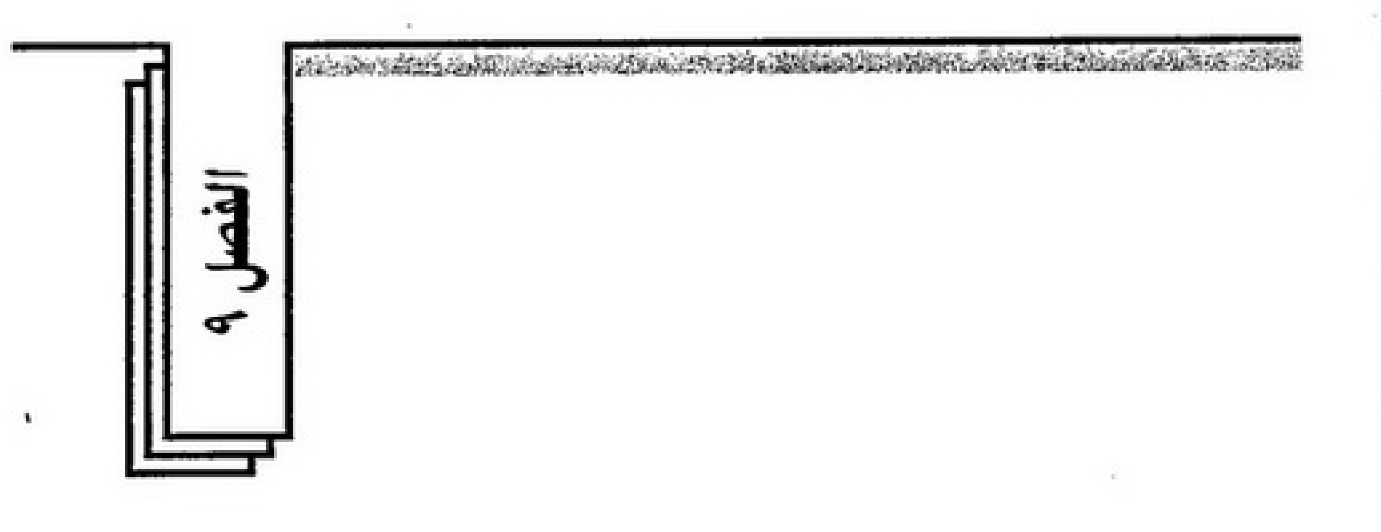
فصور القديسين حروف هجائية تذكرنا بالمرسومين عليها وتشخّصهم لنا بل وتتقدس الأيقونات بتكريسها بالميرون والصلوات لتصبح واسطة بركة وإستشفاع. وفى صلاة تكريس الأيقونات وتدشينها يقول الأب الأسقف: «أيها السيد الرب ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى من قِبل عبده موسى أعطانا الناموس منذ البدء ليضع فى قبة الشهادة مثالات الشاروبيم، هؤلاء الذين يغطون بأجنحتهم على المذبح، وأعطيت حكمة

لسليمان من قبل البيت الذى بناه لك فى أورشليم وظهرت لخواصك الرسل بتجسد ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح ليبنوا لك كنائس وأديرة على اسم قديسيك الشهداء. من أجل هذا نسأل ونطلب منك يا محب البشر أرسل روحك القدوس على هذه الصورة التى للقديسين.....» ثم يرشم بالميرون وينفخ فى الأيقونات قائلاً: «ليكونوا ميناء خلاص، ميناء ثبات لكى كل منْ يتقدم إليهم بأمانة ينال نعمة من الله عنهم فى مغفرة الخطايا لأنه مبارك ومملوء مجداً اسمك القدوس».

وكما أن الخيمة رمز للكنيسة، كذلك الكنيسة رمز للسمائيات. والكنيسة هى تمثيل حقيقى للمسكن السمائى وللملكوت ولمدينة الله التى صانعها وبارئها هو الله. وإذا كانت الخيمة هى شبه السمائيات وظلها فالكنيسة هى الحقيقية والأصل، مملوءة بالسمائيين وبالقديسين وفوق كل هؤلاء مملوءة بحضرة العرش الإلهى خلال الأيقونات المقدسة التى تمثل هذه الحضرة.

فالبيت هو بيت ربنا المقدس الخصوصى الذى يسكن فيه مع شعبه، وهو الذى حدد شكل وحجم وأوصاف كل شئ فى بيته والعاملين فيه، لأجل هذا يشارك كل مؤمن حسبما يسمح قلبه فى التقدمة التى تستخدم فى صنع البيت الذى يسكن فيه الرب وسط شعبه. ولابد أن يشترك كل أحد فى التقدمة، لأن هذا الأمر لا يهمله الله بل قد أوصى به، ويالى كرامة كل منْ يشترك فى بناء البيت لأن كل منْ يبنى إنما يبنى له ملكوتاً ويترك له ذكرى أبدية وينال نصيبه بحسب تقدمته.





مصادر
التاريخ الكنسى

مصادر التاريخ الكنسى

مفهوم التأريخ فى الكنيسة الأولى

يتقدم التاريخ فى المسيحية إلى الأمام ليربط فى النهاية الزمن بالأبدية. وفى تاريخ الكنيسة تقف يد الله مختفية وراء الأحداث لتصنع المواقف، تلك اليد الإلهية العالية، يد الله سيد التاريخ وخالق الزمن، هى التى باركت تاريخنا الزمنى وقدست حياتنا على الأرض لننطلق إلى اللازمن حيث الأبدية التى لا يحصرها ولا يحدها التاريخ.

لقد عرّف الآباء التاريخ والزمن مؤكدين على أن دورات التاريخ التى بلا رجاء قد انتهت، وعلى أننا قد تركنا الزمن لننشغل بالأبدية الدائمة، ومن ثم علموا بأن التاريخ لا تدفعه الأيادى البشرية وحدها كما قد يبدو فى الظاهر، بل يد الله التى هى فوق الكل لكى تتم مقاصده الإلهية الخلاصية العالية عن الأفهام.

لذلك رسم المنهج الأبائى صورة مبسطة للتاريخ الكنسى على اعتبار أن ذروة التاريخ ومركزه هى «المخلص» الذى به إنفتحت النبوات وإكتملت وتحقق كل رجاء البشرية كمشتهى الأجيال كلها. هذا واعتبر الآباء أن غاية التاريخ هى الكشف عن علاقة العالم بملكوت النعمة الأبدى، والكشف عن عمل الله الخلاصى وخطته الإلهية عبر الأجيال وحتى نهاية التاريخ البشرى وإعلان «الله الكل فى الكل» (كو١ ١٦:) على اعتبار أن السيد المسيح هو مفتاح التاريخ كله.

والتاريخ حسب فهم آباء الكنيسة هو إكتشاف العمل الكرازى والإيمان الرسولى والخدمة الرعوية وخبرة العبادة والشركة والشهادة والجهاد الروحى، فموضوع التاريخ الكنسى هو عنصر الكنيسة البشرى، وعلم التاريخ الكنسى يصور حياة الكنيسة التاريخية خلال مصادرها المتنوعة (الكتب المقدسة ـ القوانين ـ قرارات المجامع ـ دساتير الإيمان ـ الليتورجيات ـ رسائل الآباء وأقوالهم وكتاباتهم وفكرهم ـ تاريخ حياة القديسين وأعمالهم...). ولم ينظر علم الباترولوچى للتاريخ على أنه مجرد سرد أحداث ماضية ميتة أو تسجيل لوقائع منتهية، لكنه يرى التاريخ كعلم كنسى يحيط بحياة الكنيسة من كل

نواحيها بترتيب متصل ومتواصل، لأن المسيح هو ماضى الكنيسة وحاضرها ومستقبلها.

لذلك أصبح تسجيل التاريخ الكنسى فى كتابات الآباء يهتم بالمفاهيم الروحية والمدلولات الرمزية بفكر كنسى وإسخاتولوچى هادف خلال الحياة والسيرة والعبادة والسلوك، ومن ثم صارت الكتابات التاريخية عبارة عن فهم لعمل الله وسط كنيسته عبر الأجيال، وإدراك لحقيقة الكنيسة وطبيعتها ورسالتها خلال تاريخها. وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة بهذا المفهوم الأبائى، فإننا نستطيع أن نتبين الحقب المتتالية التى كان الروح القدس الرب المحيى ـ وما زال ـ يوجهها .

وتناول آباء الكنيسة تاريخها عبر الحقب الممتدة من عصر الرسل ثم عصر الآباء الرسوليين وبعد ذلك عصر الإستشهاد والإضطهاد وبعده عصر الرهبنة ثم عصر الهرطقات والمجامع، فتضمن بذلك تاريخ الكنيسة منذ القرون الأولى كل نظمها وروحانيتها وطقسها وليتورچياتها وتاريخ اللاهوت والعقيدة والمجامع المسكونية والتقليد والقوانين والعمل الكرازى والرعوى. ولأن الإنسان ينسى (أش٤٩ :١٥) لذلك سمح الروح القدس وألهم الآباء والمعلمين بأن يسجلوا تاريخها جيلاً إثر جيل، منذ أن خط القديس لوقا الطبيب أول حرف فى سفر أعمال الرسل، ومروراً بصفوف المؤرخين والكُتاب الكنسيين الذين واصلوا تسجيل «أعمال الروح القدس» كل جيل بمؤرخيه.

لقد تحقق معنى وقيمة التاريخ، لأنه ما زال حياً فى الكنيسة يشكل الحاضر كمصدر دائم للإلهام، ليس بطريقة مجردة ولكن كإستعلان مجدد لروح الله، وكأبعاد أبدية للحياة المعطاة لنا فى المسيح يسوع والمنقولة إلينا بواسطة الرسل الأطهار والآباء القديسين.

رأى الآباء أن التاريخ ينبوع قوة روحية وتراث مقدس له معنى لاهوتى يظل ينبوعاً للقوة الروحية وميراثاً غنياً دائم التدفق. أما الآباء الذين كتبوا تاريخ الكنيسة فقد صوروا بكلماتهم وأقلامهم نسيج حياتها على الأرض، مقدمين أيقونة مجسمة ومتألقة للكنيسة عبر العصور.

كان للآباء مفهوم خاص عن التاريخ والزمن، باعتبار أن الرب بتجسده بارك تاريخنا الزمنى، وهو خالق الزمن الذى ينطلق بنا إلى الأبدية واللازمن. لذلك كانت غاية التاريخ عندهم هى الكشف عن خطة الله الخلاصية، مما أوجد نوعاً جديداً من الكتابة التاريخية فى شكل ميامر لها مسحة روحية، وفى شكل سير وقصص القديسين والشهداء والبطاركة.

مصادر التاريخ الكنسى فى كتابات الآباء

استمر التأريخ حتى بدايات القرن الرابع عملاً وثنياً، فبإستثناء سفر أعمال الرسل لم تكن هناك أية محاولة لتسجيل تاريخ الكنيسة المسيحية، وفى مستهل القرن الرابع أدرك يوسابيوس القيصرى أهمية كتابة تأريخ يتضمن وصفاً وسرداً كاملاً لتاريخ الكنيسة حتى أيامه، ولذا لُقب وبحق بـ «**أبو التاريخ الكنسى**». ولأن عمله كان كافياً وشاملاً لمعاصريه ولمنْ بعده مباشرة، لذا لم يفكر أى منهم فى كتابة تاريخ آخر، وكان يوقرون شمولية وكمال هذا العمل جداً، لكن إحترامهم هذا والذى زاد العمل عظمة فى عيونهم، بعث فيهم أيضاً الرغبة فى محاكته.

وهكذا نشأت مدرسة من المؤرخين تم فيها كتابة عدد من الأعمال المُكملة لتاريخ يوسابيوس، ومن هذه الأعمال وصلتنا ستة فقط:

١) تاريخ فيلبس المؤرخ.

٢) تاريخ فيلاستورجيوس.

٣) تاريخ هيسيخيوس.

٤) تاريخ سقراط.

٥) تاريخ سوزومين.

٦) تاريخ ثيؤدورت.

وقد جاءت أعمالهم متقاربة إلى حد ما مع التاريخ الكنسى ليوسابيوس القيصرى والذى أُعتبر أبو التاريخ الكنسى ومن أول مؤسسى علم الباترولوچى. وفى الغرب قام روفينوس بترجمة تاريخ يوسابيوس إلى اللاتينية وأضاف إليه بعض الأحداث حتى عصر ثيؤدوسيوس الكبير حتى عام ٣٩٢م. كما كتب هسيجيوس أيضاً عن التاريخ المبكر لأورشليم، وبعد ذلك وضع القديس چيروم الكتاب التالى فى الأهمية من حيث تاريخ الكتابات الأبائية وهو «**مشاهير الرجال**».

أما بالنسبة لأهم كتابات الآباء فى التاريخ الرهبانى القبطى فهى:

١) التاريخ اللوزياكى للقديس بالاديوس.

٢) الهستوريا موناخورم أو تاريخ الرهبنة فى مصر ويُنسب إلى روفينوس.

٣) مناظرات يوحنا كاسيان.

أما بالنسبة لأهم الكتابات التاريخية فهى:

١) السنكسار القبطى الذى وضعه القديس يوليوس الأقفهصى كاتب سير الشهداء، وأكمله القديس يوحنا أسقف البرلس فى القرن السابع فى عهد البابا دميانوس (البابا الـ ٣٥) ثم أكمله القديس ميخائيل أسقف أتريب، ثم القديس بطرس المُلقب بالجميل أسقف مليج.

٢) القديس يوحنا النيقوسى الذى كان من علماء التاريخ القبطى فى القرن السابع، كتب تاريخاً من الخلقة إلى عصره باللغة القبطية ثم تُرجم إلى الحبشية.

٣) ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الذى جمع تاريخ البطاركة الأقباط، ثم أضاف الأنبا ميخائيل أسقف تانيس على هذا الكتاب تاريخ البطاركة حتى عام ١٢٤٣م.

٤) الشيخ المؤتمن أبو المكارم الذى وضع كتاباً فى تاريخ الأديرة والكنائس القبطية عام ٩٢٥م. وأكمل سيرة البطريركين مرقس الثالث (البابا ٧٣) ويؤانس السادس (البابا ٧٤).

٥) أولاد العسال الذين وضعوا جداول تاريخية فى القرن الثالث عشر.

٦) ابن الراهب الذى وضع كتاباً عن التاريخ منذ آدم وحتى عام ١٢٥٧م قدم فيه تاريخ البطاركة والملوك.

٧) ابن كبر والذى كتب كتاب «مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة» متضمناً مقتطفات تاريخية.

٨) كذلك ظهر فى القرن الرابع عشر مؤرخ عربى من مصر يدّعى «المقريزى» كتب ما يسمّى «الخطط المقريزية» ويشمل فصولاً عن تاريخ الأقباط وأديرتهم وبطاركتهم حتى زمانه.

مشاهير المؤرخين والكتابات التاريخية

١) يوليوس أفريقانوس *Julius Africanus*

وهو كاتب مسيحى عاش فى الفترة من عام ١٦٠م - ٢٤٠م، ويحتل مكاناً هاماً فى حركة التأريخ المسيحية، إذ يعتبر عمله الأدبى الرئيسى «تاريخ العالم حتى ٢١٧م» والذى اشتهر باسم «**الحوليات** *Xonographia*» أول محاولة لترتيب تاريخ العالم، وقد جاءت فيه أخبار التوراة وأخبار اليونانيين الهيلينيين وأخبار اليهود فى أنهار متوازية مرتبة ترتيباً تاريخياً منذ الخليقة وحتى عام ٢١٧ بعد الميلاد. وقدّر أفريقانوس المدة بين الخليقة وميلاد المسيح ٥٥٠٠ سنة. كما أعد موسوعة من أربعة وعشرين كتاباً سماها «الوشاء» أو «الأحزمة المُطرزة *Kestoi*» كموسوعة فى التاريخ الطبيعى.

٢) العلامة يوسابيوس القيصرى *Eusebius of Caesarea*

كتب عمله الذى يُسمى دوماً «**التاريخ**» نحو عام ٣٠٣م ويتكون من قسمين:

القسم الأول وهو فى الواقع مقدمة يسرد فيها أهم الأحداث التاريخية فى كل أمة.

القسم الثانى وهو عبارة عن جداول تاريخية *Χρονικοι Κανονεσ* مرتبة وفقاً لتوافق الأحداث وتزامنها معاً، ومعها ملاحظات عن أهم أحداث تاريخ العالم بصفة عامة والتاريخ المقدس بصفة خاصة. وقد اتخذ يوسابيوس من تاريخ ميلاد ابراهيم أبو الآباء (عام ٢٠١٦ -- ٢٠١٥ ق.م.) نقطة بدايته، ثم قسّم التاريخ إلى خمس حقب متتبعاً تواريخ الكتاب المقدس حتى صلب المسيح ثم حتى عام ٣٠٣م بالمقارنة مع تواريخ العالم السياسية. ووصل هذا الكتاب إلى الغرب وكان له تأثيره على مؤرخى القرون الوسطى، فهو أحد المصادر الأساسية التى يعتمد عليها أى باحث فى تاريخ البشرية.

أما العمل الذى أعطى ليوسابيوس شهرته الخالدة فهو «**التاريخ الكنسى** *The Ecclesiastical History* - Εκκλησιαστικη Ιστορια» والذى يتكون من عشرة كتب تغطى الفترة من تأسيس الكنيسة وحتى هزيمة ليسينيوس سنة ٣٢٤م وإنفراد قسطنطين بالحكم.

ولم يقصد يوسابيوس بهذا الكتاب أن يسجل تاريخ الكنيسة منذ تأسيسها وحتى يومه،

ولا يسعى ليقدم وصفاً كاملاً لإنتشار المسيحية ونموها، بل يقدم مجموعة غنية جداً من الحقائق والوثائق التاريخية ومقتطفات من عدد كبير من الكتابات التى تعود إلى السنوات الأولى للمسيحية. فهذا الكتاب هو تأريخ للكتابات المسيحية المبكرة أكثر من كونه تأريخاً للأعمال والأفكار المسيحية الأولى. ونجد فيه مراجع لكتابات ٣٥ مؤلفاً مسيحياً تقريباً بالإضافة إلى قوائم بكتابات فيلو (٢: ٨) ويوسيفيوس (٣: ٩).

وكان يوسابيوس يقصد بهذا العمل أن يقدم الدليل على أن الله هو الذى قاد وأرشد الكنيسة إلى هذا الانتصار النهائى على قوة الدولة الوثنية. ولأن حياة يوسابيوس نفسها كانت مليئة بالأحداث التاريخية الجليلة الأهمية، لذا إضطر إلى إدخال الكثير من الإضافات على عمله الأصلى عدة مرات، حتى يظل عمله العظيم هذا شاملاً حتى أيامه هو، وهكذا ظهر «التاريخ الكنسى» فى أربعة إصدارات بحسب ما أثبت علماء الآباء.

وقد قال فى كتابه هذا: «إن هدفى هو أن أكتب تقريراً عن خلفاء الرسل وأن أشير إلى أولئك الذين فى كل جيل نادوا بالكلمة الإلهية سواء شفاهة أو كتابة».

كما قدم يوسابيوس فى كتابه «**شهداء فلسطين** *Martyrs of Palestine*» وصفاً لمن رآهم بنفسه من هؤلاء الشهداء، وقد اتبع يوسابيوس القيصرى فى ذلك العمل ترتيباً تاريخياً يغطى الفترة الكاملة للإضطهاد من سنة ٣٠٣م إلى سنة ٣١٣م. وعلى أساس هذا العمل نستطيع أن نتعرف على الإضطهادات التى وقعت فى فلسطين وعلى شهدائها، معرفة أفضل من معرفتنا عن أية منطقة أخرى فى هذا المنحى.

كتب يوسابيوس أيضاً كتاباً عن «**حياة قسطنطين** *Vita Constantini*» وهو يقع فى أربعة كتب. وقد أُنتقد يوسابيوس بسبب تماديه فى مدح قسطنطين بإطناب، إذ أنه وصف حكم الإمبراطور بأنه صورة لحكم الله أو ما يُسمى بالحكم الثيؤقراطى، حيث يصير الإمبراطور هو حلقة الوصل بين الله والعالم. ويقدم يوسابيوس وصفاً تفصيلياً لرؤية قسطنطين للصليب، مؤكداً أن الإمبراطور أكد له وأقسم بهذه الحقيقة. وقد ضمّن يوسابيوس فى عمله هذا ستة عشر أمراً ورسالة إمبراطورية تمثل ربع العمل كله وهى فى غاية الأهمية.

٣) القديس چيروم *Jerome*

وتتمثل إسهاماته فى الكتابات التاريخية فى كتاب «**مشاهير الرجال** *De Viris Illus-tribus*» وهو تأريخ لسير وأعمال الكتّاب الكنسيين، ويقول فى مقدمة هذا العمل: «سأكتب أولاً عن هؤلاء الرجال المشاهير ورسائلهم إلى الأمم وعن كل الذين لهم مؤلفات وتأملات عن الإنجيل المقدس بداية من آلام السيد المسيح وحتى السنة الرابعة عشر من عهد الإمبراطور ثيؤدوسيوس».

ولأن چيروم اعتمد على «التاريخ الكنسى» ليوسابيوس القيصرى، لذلك وقع فى نفس أخطائه، لكنه على أية حال قدم لنا فى عمله هذا مرجعاً هاماً وثميناً فى دراسة علم الباترولوچى.

كما يذكر التاريخ لچيروم ترجمته لكتاب «التاريخ» ليوسابيوس القيصرى، وأيضاً ترجماته للأعمال الجدلية ذات القيمة التاريخية الفائقة، كما نجد بين رسائل چيروم وثائق هامة خاصة بالقديس ثيؤفيلس السكندرى، ومضابط مجمع محلى عقد فى أورشليم، ورسائل ونصوص كثيرة وكذلك سير الآباء السواح «الأنبا بولا أول السواح، القديس هيلاريون الكبير، القديس ملخوس».

٤) جناديوس المؤرخ *Gennadius of Marseilles*

وقد نال شهرة كبيرة بعمله الخالد «**مشاهير الرجال**» وهو تكملة لكتاب چيروم الذى يحمل نفس الاسم، وقد أكمله نحو عام ٤٨٠م، وهو يتضمن ١٠١ ملاحظة عن الكتاب الشرقيين والغربيين من القرن الخامس على الأخص، وبالرغم من أن تفاصيل السير قليلة إلا أن العمل نفسه ذو أهمية كبيرة. وفى سيرة حياة جناديوس نفسه (رقم ١٠٠) نقرأ عن كتابات عقائدية ألفها هذا القس، ولكن لم يصلنا منها إلا بقايا قليلة.

٥) روفينوس المؤرخ *Rufinus of Aquileia*

قام بترجمة كتاب «التاريخ الكنسى» ليوسابيوس القيصرى ترجمة منقحة ومزيدة، ويُعد عمله هذا من الإسهامات الكبيرة فى التاريخ المسيحى، إلا أن العمل العظيم الذى ينسب إليه هو «**الهستوريا موناخورم**» أو «**تاريخ الرهبنة فى مصر** *Historia Monachorum*

in Aegypto» وهو يروى قصة زيارة سبعة من الإخوة ـ من بينهم كاتب هذا العمل ـ لبرارى مصر أثناء شتاء عام ٣٩٤م ـ ٣٩٥م، ويصف الكثير من النساك والمتوحدين من أقصى الصعيد إلى أقصى الشمال.

ويستعرض هذا الكتاب أحاديث مع آباء صعيد مصر وآباء نتريا والقلالى وشيهيت مع وصف لأقاليم أكسيرينكوس (البهنسا) ونتريا والرهبان المقيمين بها، ومجموع الآباء المذكورين فى هذا العمل هو ٢٥ أباً.

ولهذا الكتاب مكانة هامة متميزة، وكان له أكبر الأثر فى التعريف برهبان مصر فى الشرق والغرب، فلعب دوراً مثيلاً لذلك الذى قام به كتاب التاريخ اللوزياكى لبالاديوس.

٦) يوحنا كاسيان *John Cassian*

قام بدوره التأريخى الهام من خلال كتابيه «**المناظرات**» و«**المؤسسات**» ففى الأول سجل مقابلاته وأحاديثه هو وجرمانوس مع مشاهير الآباء الأقباط والتى يقدمون فيها التعاليم الرهبانية القبطية، أما كتابه الثانى «المؤسسات» فيشرح فيه القوانين الرهبانية والسلوك الروحى النسكى.

ويُعد هذان العملان من الأعمال الهامة فى التأريخ الرهبانى والنسك القبطى فى القرن الرابع، إذ يمدانا بصورة حية عن الأنظمة والتقاليد الرهبانية فى ذلك الوقت مع التعريف بآباء تلك الفترة، هذا ويُنظر لهما كمرجعين ومصدرين موثقين. ويعد كاسيان المنظم والمدبر الأول للرهبنة الغربية إذ نقل لها التراث القبطى بما فيه من تعاليم وتسابيح وصلوات وأنظمة.

٧) بالاديوس *Palladius*

وقد وضع كتابه «**التاريخ اللوزياكى** *Historia Lausiaca*» وهو من أهم الوثائق التى تمدنا بالمعلومات عن تاريخ الرهبنة القبطية فى القرن الرابع، وقد سمى «لوزياكى» لأنه أهداه إلى «لوزوس Lausus» الذى كان يعمل فى بلاط الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى. وكان قد كتبه عام ٤١٩م عن «**أصدقاء الله** *φιλοθεοσ*» أى الرهبان، وهو يقدم وصفاً للحركة الرهبانية فى مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى فى القرن الرابع، ولذلك يعد

مصدر جل هام لتاريخ الرهبنة المبكر. ويأخذ هذا العمل شكل سلسلة من سير أهم وأشهر آباء ورهبان مصر. ويتحدث بالاديوس فى الجانب الأكبر من العمل عن الرهبان الذين عرفهم شخصياً، أو عن هؤلاء الذى استطاع أن يجمع عنهم شهادة أناس يعرفونهم خاصة فى برارى نتريا والقلالى أو الأسقيط. أما معرفته بالأديرة الباخومية فقد استمدها من إحدى الوثائق القبطية. وبجانب هذا العمل التاريخى الهام جداً، وضع بالاديوس عملين آخرين كان لهما أيضاً قيمتهما التاريخية العالية:

١) حوار عن حياة القديس يوحنا ذهبى الفم
٢) عن شعب الهند أو البراهمة.

٨) سلبيسيوس ساويرس *Sulpicius Severus*

تتركز أهمية ساويرس التاريخية فى عمله «**التاريخ** *Chronicle*» والذى أصدره بعد عام ٤٠٠م، ويصف فيه التاريخ المقدس منذ الخلقة وحتى عام ٤٠٠م بأسلوب كلاسيكى راقٍ، مستعيناً بالأعمال الوثنية بجانب الأعمال المسيحية.

وقد اعتمد فى عمله هذا على الكتاب المقدس، ولكنه إهتم بالتاريخ أكثر من اللاهوت والعقيدة، فعندما يتحدث عن الهرطقات، إنما يفعل ذلك لكى يسرد تتابع الأحداث فقط، كما اعتمد على ترجمة چيروم لكتاب «التاريخ» ليوسابيوس القيصرى.

٩) سقراط *Scorates*

كتب تكملة للتاريخ الكنسى الذى وضعه يوسابيوس القيصرى، ويذكر سقراط فى عمله هذا أن دوافعه لكتابته كانت محبته للتاريخ ـ خاصة تاريخ الأيام والأحداث التى عاصرها هو نفسه ـ وإحترامه للعلامة يوسابيوس القيصرى وطلب ثيؤدورس الذى يهدى إليه هذا العمل.

ويستهل كتابه بشرح هدفه وهو المعالجة التاريخية لما أغفله يوسابيوس فى تاريخه، وإعادة شرح كل ما لم يشرحه يوسابيوس شرحاً وافياً (بحسب رأى سقراط)، وهكذا يبدأ عمله بعام ٤٣٩م. فتضمن تاريخه ١٣٣ عاماً. وينتهى عمله بجلوس الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير على العرش، وهى نفس نهاية عمل سوزومين. وتعتبر الفترة التى أرخ لها مليئة

بالأحداث إذ عُقدت فيها أهم المجامع المسكونية: مجمع نيقية عام ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية عام ٣٨١م، ومجمع أفسس الأول عام ٤٣١م، ومجمع أفسس الثانى عام ٤٤٩م، ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١م، ففى هذه الفترة استراحت الكنيسة من الحروب الخارجية وبدأت تواجه حروباً داخلية من الهراطقة والمبتدعين والمنحرفين عن الإيمان.

ومن الناحية الجغرافية، كان عمل سقراط محصوراً فى الشرق، فلا يتحدث عن الكنيسة الغربية إلا فى الأمور التى تتصل بالكنيسة الشرقية. كما ويتضح من عنوان الكتاب «**التاريخ الكنسى** Εκκησιαστικη Ιστορια» أن هدف العمل الأساسى هو التأريخ للأحداث الكنسية، لكنه يجمع بين التأريخ للكنيسة والتأريخ للأحداث السياسية وأمور الإمبراطورية.

وكان سقراط يسعى دوماً للوصول إلى المصادر الأولية، وجانب كبير من هذا العمل مأخوذ من التقليد الشفاهى، إذ كان يحاول الوصول إلى وصف شهود العيان بقدر الإمكان. ومن أهم السمات المميزة لتاريخ سقراط الموضعية التامة، فهو أكثر الكُتاب المسيحيين فى أيامه موضوعية فى تأريخه للهراطقة والمبتدعين، كذلك يتميز أسلوبه بالبساطة والسهولة، فمن بداية الكتاب وهو يعلن رغبته فى استخدام لغة سهلة واضحة غير متكلفة.

١٠) سوزومين *Sozomen*

وضع ملخصاً لتاريخ الكنيسة منذ صعود المسيح وحتى عام ٣٢٣م، ويتكون التاريخ الكنسى لسوزومين من ٩ كتب، ويتضمن تاريخ الكنيسة أثناء حكم قسطنطين وحتى حكم ثيؤدوسيوس. وأراد فى تاريخه أن يثبت أن العناية الإلهية تقود الكنيسة وترشدها، كما أكد على أن عقيدة الكنيسة الجامعة هى العقيدة الأصلية الحقيقية، ورأى أن قانون الإيمان هو نهائى أى لا يُضاف إليه شئ أو ينقص منه شئ، لكنه لم يكتبه ضمن تاريخه خوفاً من أن يطلع عليه غير المؤمنين.

ونجد فى تاريخه دليلاً علي تكريم أجساد القديسين وعلى أهمية البركات الروحية لصليب المسيح والمسامير التى دُقت فى يديه باعتبارها كنوز مقدسة روحية تصنع العجائب. واعتبر أن المسيحية ديانة مسكونية وهى الديانة الوحيدة، ولذا كان أول مؤرخ يقدم وصفاً أشمل للمسيحية فى سوريا وفلسطين. ويروى القليل جداً عن الكنيسة فى الغرب وذلك فقط فيما يتعلق بصلتها بالشرق، ويهتم بالحديث عن العمل الكرازى فيروى قصة الكنيسة

فى أيبيريا وأرمنيا والهند وبلاد القوط.

وكان سوزومين يوقر الرهبنة كمثال ونموذج وغاية للحياة المسيحية، وكان يرى فيها فلسفة جهاد من أجل نصرة الروح على الجسد ومن أجل إقتفاء الكمال، وأنها أعظم فلسفة نالها الإنسان من الله وتفوق كل معرفة أخرى، وأعظم وأهم أعمال الرهبنة هى تلمذة النفس وضبطها وتحرير الروح من أمور هذا العالم.

ويرى البعض أن تاريخ سوزومين يتشابه مع تاريخ سقراط، ويرى البعض الآخر أن أسلوبه أفضل من أسلوب سقراط رغم أن حسه التاريخى ورؤيته النقدية تبدو أضعف من معاصره سقراط. هذا وقد جاءت أعمال سقراط وسوزومين وثيؤدورت متقاربة إلى حد ما.

١١) فيلبس المؤرخ *Philip Sidetes*

وقد أصدر عملاً ضخماً باسم «**التاريخ المسيحى** Χριστανικη Ιστορια» يقع فى ٣٦ كتاباً، ويضم تاريخاً منذ خلقة العالم وحتى عام ٤٢٦م، ويشمل هذا التاريخ وفرة من الموضوعات المتنوعة والمتشعبة.

١٢) فلاستورجيوس *Philastorgius*

وضع «**تاريخ الكنيسة**» فى ١٢ كتاباً وأرخ فيه للفترة من عام ٣٠٠م إلى عام ٤٢٥م، ورغم أن هذا العمل كان يبدو فى ظاهره كتكملة لتاريخ الكنيسة الذى وضعه العلامة يوسابيوس، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر يبدأ كل كتاب بحرف من اسمه كى فى النهاية تكوّن الحروف الأولى من الكتب الإثنى عشر اسمه كاملاً. ويوصف هذا العمل بأن أسلوبه وروحه مختلفان عن باقى المؤرخين.

١٣) ثيؤدورت أسقف قورش *Theodoret of Cyrus*

كتب أعمالاً تاريخية عن:

١) «**تاريخ الرهبان** *History of the Monks*» وهو أول أعماله التاريخية ويسرد فيه فى ٣٠ فصلاً سير ٢٨ ناسكاً وسير ثلاث أمهات ناسكات، وقد عاش أغلب هؤلاء المجاهدين بالقرب من أنطاكية وكانوا معروفين شخصياً لثيؤدورت. والعشرون فصلاً

الأولى تتحدث عن «مصارعى المسيح *Athletes of Christ*» الذين إنتقلوا للعالم الأبدى. أما العشرة فصول الأخيرة فتتحدث عن المجاهدين المعاصرين له ونساك إيبارشية قورش. ويمكن أن يُقارن هذا العمل بالتاريخ اللوزياكى لبالاديوس، لكن الأخير أكبر بكثير. وقد كتب ثيؤدورت هذا العمل نحو عام ٤٤٢م.

٢) «**التاريخ الكنسى**» ويقدم فيه الأخبار التى أغفلها يوسابيوس، ويشمل هذا العمل الفترة من ٣٢٣م وحتى عام ٤٢٨م، وتتمثل الأهمية التاريخية لهذا العمل فى أنه يحفظ عدداً من الوثائق الهامة جداً والتى لم يحفظها أى عمل آخر سواه، فبدأ بالجدال الأوريجانى وأبرز نصرة الكنيسة على الهرطقة الآريوسية.

٣) «**تاريخ الهرطقات**» وهو آخر أعمال ثيؤدورت التاريخية ويصف فيه كل الهرطقات معتمداً على كتابات إيريناؤس ويوستين ويوسابيوس القيصرى وإبيفانيوس وكلمنضس السكندرى ويوسابيوس أسقف إديسا وآخرون.

٤) «**عن مجمع خلقيدونية**» إذ يخبرنا زكريا المؤرخ أن ثيؤدورت وضع كتاباً عن مجمع خلقيدونية.

١٤) كاسيودورس *Cassiodorus*

كتب كتاباً باسم **التاريخ الكنسى الثلاثى** *Tripartita Historia Ecclesiastica* وهو عبارة عن تجميع لتاريخ سقراط وسوزومين وثيؤدورت معاً، وكان صديقه إبيفانيوس قد ترجم مؤلفاتهم التاريخية الثلاثة إلى اللاتينية لهذا الغرض.

١٥) إيڤاجريوس المؤرخ *Evagrius Scholasticus*

وضع عمله المعروف باسم «**تاريخ إيڤاجريوس**» فى ٦ كتب، وأرّخ فيه للفترة من مجمع أفسس الأول ٤٣١م إلى عام ٥٩٤م. وهكذا تأتى أهميته من كونه تكملة لعمل يوسابيوس القيصرى.

١٦) زكريا البليغ *Zacharias Rhetor*

وتتمثل أهميته التاريخية فى عمله «**التاريخ الكنسى**» وهو تأريخ للفترة من عام ٤٥٠م

إلى عام ٤٩١م، ولهذا العمل قيمته الثمينة خاصة للكنائس غير الخلقيدونية لأنه يؤرخ لمجمع خلقيدونية من وجهة النظر الأرثوذكسية المستقيمة، وقد حفظ باللغة السريانية، إذ كان زكريا البليغ سريانياً ويرجع إليه الفضل فى النمو الروحى لساويرس الأنطاكى وفى معموديته.

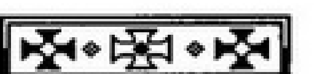
١٧) يوحنا النيقيوسى

وقد ترك مؤلفاً ضخماً أرّخ فيه للعالم من بدء الخليقة إلى ما بعد الفتح العربى بقليل، ويُعد من أفضل كتب التاريخ وخاصة فى التأريخ لبطاركة كرسى الإسكندرية.

١٨) القديس ساويرس بن المقفع

ومن أهم أعماله التاريخية كتابه عن تاريخ بطاركة الإسكندرية الذى يحوى سير الآباء البطاركة من مارمرقس الرسول وحتى الأنبا شنوده البابا الـ ٥٥ . وقد تُرجم كتابه هذا إلى لغات كثيرة ويعتبر من أهم مصادر التاريخ القومى والكنسى المصرى.

إن كنيسة الله لا تحيا بالظن ولا بالرأى بل بخبرة القديسين، كما فى البداية هكذا حتى فى أيامنا هذه، إذ أن خبرة القديسين صحيحة دائماً لأنها الله ذاته الصادق والعجيب فى قديسيه، فكما كان هكذا يكون من جيل وإلى جيل وإلى دهر الدهور آمين.





رواية سير القديسين

فى القرون الأولى

رواية سير القديسين

في القرون الأولى

تُعتبر كتابة السير عملية تجمع بين الكاتب والقارئ في عملية يمكن أن تُسمى «إتصال روحي *Spiritual Communication*» يختبرا فيها شركة حياة وقداسة سيرة القديس أو القديسة.

إن العلاقة متعددة الأبعاد التي تجمع بين القديسِ وكاتب سيرته والسيرة ذاتها تُذكر عادة بطريقة ضمنية في مقدمة السير، وعندما يتأمل كُتاب السير في دورهم، يشرحون عادة رغبتهم وإشتياقهم إلى حفظ هذه السير الثمينة التي دفعتهم للكتابة.

وفي أحيان كثيرة يكون كاتب السيرة تلميذ للقديس، وهنا تكون له صفة شاهد العيان للأحداث التي يصفها، وقد ظهر هذا النوع من رواية السير بصورته القوية في الحياة الرهبانية حيث يعيش التلميذ مع أبيه ويقتبس روحه الإيماني العملي وينصت إلى تعليمه ويسترشد بنصائحه، وبين الحين والآخر يقوم التلميذ بتسجيل ما يراه أو يسمعه من أبيه كمذكرات يسترشد بها في حياته المقبلة.

وفي دفعات كثيرة كان التلميذ عند نياحة أبيه يكتب سيرة أبيه وكل ما سمعه منه أو عنه لينتفع بها هو وإخوته. فكتب چيروم سيرة الأنبا بولا أول السواح، وكتب القديس أثناسيوس الرسولي سيرة الأنبا أنطونيوس، كذلك تم تسجيل أقوال الأباء الشيوخ (٣٠٠٠ قولاً) وهي كلمات منفعة رداً على سؤال صار تقليداً في البرية: **«قل لي كلمة منفعة يا أبي»**.

والتلميذ حتى لو لم يكن له إتصال مباشر مع القديس لكنه انتفع من أقواله وسيرته وأعماله المعجزية وقدوته، ربما يتحمس للقيام بكتابة السيرة لأنه يشعر بالعرفان والتقدير

للقديس، وبهذه الطريقة يقدم كاتب السيرة نفسه كنموذج للذين تعاملوا مع القديس وبالتالي كنموذج للقراء المثاليين للسيرة التي يكتبها.

كذلك لأن كاتب السيرة قد إنتفع هو نفسه من سيرة القديس، لذا يتخذ دور الشاهد لحياة ومثال القديس موضوع الرواية مقتفياً أثاره الروحية متتلمذاً وممثلاً لحاضر حي ولحياة صادقة عاملة في الكنيسة، وبهذا تكون رواية سير وقصص حياة قديسي الكنيسة في القرون الأولى ليست مجرد أدباً روحياً لأجيال ماضية، أو تسجيل لتاريخ حياة القديسين بحبر وقلم إنما هي تلمذة كل جيل على آباء الجيل السابق.

ويقول القديس إيريناؤس: «منْ علمني حرفاً صرت له ابناً وصار لي أباً»، وهو بذلك يلفت نظرنا إلى أهمية فهم فعل رواية سير القديسين في كنيسة القرون الأولى لا بلغة العقل فقط لكن بلغة الحياة العملية بجملتها، تلك التي تحفظ الإيمان المسلم للقديسين.

ونستطيع أن نقول أن الذين سردوا قصص القديسين من الكُتاب والرواة كانت أهم ملامح منهجهم في الكتابة أنهم «رأوا» و«شهدوا» ثم «أخبروا»، وبذلك تكون كتاباتهم شهادة رؤية ومعاينة، وفي جملتها قصة حياة الكنيسة الأولى من كل جوانبها.

فالآباء طاقة روحية هائلة تتكلم بلغة عصرها ليسمعها الجميع، لذا نجد أن الذين كتبوا سير القديسين كانوا يطلبون معونة القديسين في مقدمة كل سيرة، فالكاتب الذي يطلب بركة القديس ويشعر أنه عاجز عن إيفاء أعمال القديس حقها من الشرح والمديح ويطلب من القديس أن يلهمه ويرشد قلمه، إنما يقدم النص المكتوب نفسه على أنه معجزة تمت بشفاعة القديس صاحب السيرة.

وهنا يكون كاتب السيرة قد قام بدورين، أولهما أنه المنتفع من قداسة السيرة، وثانيهما أنه هو ايضاً الذي يعلنها ويرويها. كذلك يتخذ من جماعة المؤمنين عبر الأجيال شهوداً عليها، وهكذا يثبت فاعلية بركة القديس وفي الوقت عينه يعطي مصداقية وصحة للنص الذي كتبه. وقد تضمن فعل رواية سير القديسين في الكنيسة الأولى – إلى جانب السيرة – أحياناً بعض الأقوال والكتابات سواء مقالات أو كتب أو رسائل أو مشاهدات سجلها للقديس أبناؤه الروحيون أو بعض الرحالة من خلال مناظراتهم معه.

وإحدى الطرق التي ساعدت على إنتشار النصوص الآبائية كان إستخدام نوع معين من

الرواية، فالعديد من الكُتاب فى القرن الرابع وحتى القرن السابع يشيرون إلى كتاباتهم على أنه «سيرة» وأنهم كُتاب سير أو رواة.

والرواية بحسب الكلمة اليونانية التى استخدمها الآباء (*Diegeisthai, Diegesis*) تشير فى الأدب المسيحى بالتحديد إلى قصة لها سمة تعليمية. واستخدام هذه الكلمة سائد فى السير التى تقدم مجموعات من هذه القصص عن عدد من القديسين والقديسات مثل تاريخ الرهبنة «الهستورياموناخورم» أو «التاريخ اللوزياكى» الذى كتبه بالاديوس أسقف هيلينوبوليس نحو عام ٤٢٠م.

وهناك أمثلة على إستخدام هذه الكلمة اليونانية *Diegeisthai* «أن يروى ـ أن يخبر» فى قصص السير كافية لأن تؤكد أن فعل الرواية والإخبار هو أساس كتابة سير القديسين الأولين. وفى مقدمة التاريخ اللوزياكى يشير القديس بالاديوس إلى عمله على أنه «كتاب صغير فى شكل سيرة »ثم بعد ذلك يقول أنه سيبدأ الآن فى رواية السير.

كذلك كاتب «الهستوريا موناخورم» أو «تاريخ الرهبنة» قبل أن يبدأ روايته، يُعبر عن أمله فى أن يثير هذا العمل فى القراء الرغبة فى الإقتداء بالقديسين أو على الأقل أن يرتقوا فى حياة الفضيلة.

لاشك أن رواية سير القديسين كان أحد فنون الكتابة فى كنيسة القرون الأولى والذى بدوره علّمها فن الحياة الروحية الذى هو فن الفنون، فحياة الأنبا أنطونيوس بقلم البابا أثناسيوس الرسولى بمثابة نموذج حى للقانون الرهبانى فى صورة عملية حية خلال رواية حياته وسيرته.

والسيرة ـ حسب كُتّاب السير الأولين ـ هى رواية، سواء يرويها شاهد عيان أو مبنية على تقرير شاهد عيان، لعدد من القصص التهذيبية بأسلوب متميز عن الأنواع الأخرى من الكتابة فى الأدب الآبائى.

ويرجع تقليد رواية السير وإنتشارها إلى بداية الحركة الرهبانية فى برارى مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث، عندما كانت السير تنتشر عن طريق الإتصال الشفاهى (شفاهة).

فقد كان آباء البرية الأولون مستعدين لأن يُشركوا فى خبراتهم وحكمتهم تلاميذهم وزوارهم الذين يرغبون فى التعلم منهم، وهكذا صار لهم تلاميذ ومحبون يتتلمذون أحياناً عدة أيام وشهور وبعضهم لعدة سنوات أو ربما حتى لباقى حياتهم. وعندما كان يُطلب منهم «يا أبى اعطنى كلمة منفعة»، كان قديسو البرية يقدمون من كنوز حكمتهم إجابة تنفذ على الفور إلى قلب السامع. وكانت إجابتهم فى أغلب الأحيان تخاطب إحتياج داخلى غير مُعلن لدى السائل. وهكذا تتجلى موهبة الأب الفائقة فى التمييز والإفراز، وهذه «الكلمات» كانت مرشداً لحياة المستمع تحثه على القيام بأعمال روحية معينة وتعمله كيف يكون السير فى الطريق الملوكى فى ممرات الحياة الروحية فتكون له بمثابة معالم الطريق.

أحياناً كثيرة كان الأب القديس نفسه، من خلال نمط حياته، يقدم «كلمة منفعة» بمجرد النظر إليه إذ بمجرد التطلع إلى حياته المجاهدة وجسده الذى ترك عليه النسك بصماته وحفر علاماته عليه، يكون الزائر قد تلقى الرسالة.

لقد كانت كلمة المنفعة العملية بالقدوة مادة أساسية فى الإنتفاع وبالتالى فى رواية وسرد سير القديسين وقصص حياتهم، إذ أنها وسيلة إتصال شخصية للغاية ومباشرة جداً خلال المقابلة الشخصية والحوار الشفاهى الذى يؤثر فى طالبى المنفعة ويثمر فى تحولهم وتعلمهم.

وهنا يكون هناك بُعد جديد فى تطور سرد سيرة الآباء ليشمل لوناً جديداً من القصص التى تصف أبوة الكلمة وأبوة القدوة، فيكون فعل رواية السير تفسيراً حياتياً للكتاب المقدس وإنجيلاً معاشاً ـ سماه الدارسون «الإنجيل الخامس» ـ مختبراً فى كتابة هذه الروايات التى تصف قصة حياة وسير قديسى الكنيسة الأولين.

وسرعان ما جُمعت «كلمات ـ أقوال» آباء وأمهات البرية فى مجموعات ووُضعت فى شكل مكتوب، ورُتبت بتصنيف أبجدى أو صُنفت بحسب الفضائل التى توضحها أو تشرحها، هذا بالإضافة إلى المجموعات الأبجدية والنظامية لـ «أقوال آباء البرية». كما نتج عن إنتشار الرهبنة مجموعات عديدة محلية من الأقوال تعتمد على أقوال الآباء المؤسسين للأديرة.

هذه «الكلمات ـ الأقوال» غالباً ما ترد وتأتى فى شكل قصص بسيطة ومختصرة توضح الظروف التى قال فيها القديس هذا القول. وفى شكلها المستفيض، تقدم السيرة قصة تعليمية تهذيبية عن حياة وسلوك القديس. وهذه العلاقة بين القول والعمل نجدها مذكورة ضمناً فى مقدمة المجموعة الأبجدية لأقوال آباء البرية، إذ تقول «معظم الناس قاموا فى أوقات مختلفة بجمع كلمات وأعمال القديس فى شكل رواية أو فى شكل عظة بسيطة بدون تزيين أو تجميل».

وقد صارت هذه القصص أو السير هى مادة القراءة المفضلة لهؤلاء المشتاقين إلى حياة القداسة عبر الأجيال اللاحقة. وفى قصة وردت فى مجموعة من الأقوال نقرأ أن الأب زوسيما، وقد عاش على الأرجح فى النصف الثانى من القرن الرابع، كان مع شيخ وقور فى دير صور وكانا يقرأن معاً فى «أقوال آباء البرية» لأن هذا «المبارك أحب أن يقرأها دوماً، حتى أنه كان تقريباً يتنفسها، ومنها أخذ ثمرة كل فضيلة».

وهناك العديد من الدلائل والشواهد على إنتشار السيرة المكتوبة وعلى ذيوعها وشهرتها كقراءة رهبانية، فعلى سبيل المثال يذكر بالاديوس مراراً فى كتابه «التاريخ اللوزياكى» أنه قرأ هذه السيرة أو تلك فى كتاب قديم.

كذلك يمكن أن تتناول السيرة وصف لفضيلة أو سلوك بار فى حياة إنسان طوال حياته، ولعل أشهر السير وأكثرها تأثيراً على الإطلاق هى سيرة القديس أنطونيوس الكبير بقلم القديس أثناسيوس الرسولى. وهذا العمل فى الواقع مقدم بأسلوب رسائلى: «رسالة أثناسيوس، رئيس أساقفة الاسكندرية، إلى الرهبان فى الخارج عن حياة المبارك أنطونيوس الكبير». وعندما يتكلم أثناسيوس عن حياة أنطونيوس، إنما يعنى أسلوب حياة هذا القديس.

واغريغوريوس النزينزى يشير إلى كتاب القديس أثناسيوس هذا بقوله أنه «قانون للحياة الرهبانية فى شكل سيرة». كذلك نجد أن سيرة القديسة ماكرينا بقلم اغريغوريوس النيصى هى ايضاً مقدمة فى شكل رسالة، وكاتبها يسميها «سيرة ـ رواية».

لقد أسهم فعل رواية قصص وسير قديسى الكنيسة فى صياغة الحياة الروحية، فسيرة القديس أنطونيوس بقلم البابا أثناسيوس ساهمت فى إنتشار الرهبنة فى الغرب، واقتبسها القديس أغسطينوس فى اعترافاته وتأثرت بها حياته الشخصية، ولا يوجد نص أثر فى مصر

وآسيا وأوربا مثل سيرة الأنبا أنطونيوس، لذا يقول القديس أمبروسيوس: «إن كثيرين من أعيان رومية رجالاً ونساءً لما قرأوا ترجمة أنطونيوس التى كتبها القديس أثناسيوس هجروا العالم ورفضوا أباطيله وحملوا صليب سيدنا يسوع المسيح فى الرهبانية».

والملفت للنظر أن فعل رواية السير فى الكنيسة تضمن فكراً لاهوتياً دسماً، فسيرة أنطونيوس هى ترجمة حية للاهوت الكريستولوچى كما جسده أثناسيوس الرسولى وهى وسيلة إيضاح عملية للرد على الهرطقات. وقصة حياة كل قديس وسيرته هى نموذج لممارسته الروحية والليتورچية والسلوكية، لذلك أصبحت القصص والسير المكتوبة زاداً روحانياً فى الأوساط الكنسية منذ القرون الأولى.

إن الروحانية المسيحية بقوالبها اللغوية المكتوبة تجسدت فى واقعية سير حياة القديسين التى هى فى واقع الأمر لاهوتاً حياً متجسداً فى حياتهم ورواية سيرتهم، ولذلك يعتبر فعل رواية القصص من أهم الكتابات الباترولوچية.

ورواية السير تتميز على وجه الخصوص بملمحين:

١) أسلوبها البسيط غير المنمق

٢) مصداقيتها

فغياب المحسنات البديعية والبلاغية والأسلوبية يساعد القارئ على التركيز فى مضمون القصة، واغريغوريوس النيصى فى مقدمته لسيرة القديسة ماكرينا يعلن أنه سوف يروى عن أخته «رواية بسيطة غير منمقة». كذلك كان الاهتمام بالتفاصيل يزيد من قيمة السيرة ومتعة قراءتها ويزيد من مصداقيتها ودقتها.

كما أن تأكيد الكاتب على أنه يكتب نقلاً عن خبرة مباشرة مع القديس، سواء خبرته هو نفسه أو المصدر الذى استقى منه، يدعم مصداقية السيرة. وحديث الكاتب عن كونه شاهد عيان أو أنه يعتمد على شاهد عيان أمر ذائع فى السير. فغريغوريوس النيصى يؤكد على صحة ومصداقية وصفه لحياة أخته القديسة ماكرينا لأنه لا يعتمد على سماع سيرتها من آخرين بل من خبرته هو نفسه معها.

ومفهوم شاهد العيان كراوى للسيرة يرد ايضاً فى «سيرة ميلانيا الصغيرة» بقلم چيرونيوس الذى يقدم نفسه على أنه مصدر ثقة فى هذا الموضوع، لأنه قضى وقتاً طويلاً

ملازماً لهذه القديسة وبذلك أصبح شاهد عيان لسيرتها.

وتتداخل أدوار كل من راوى السيرة وشاهد العيان وتلميذ القديس بطريقة عميقة. ويقدم لنا بالاديوس أسقف هيلينوبوليس دليلاً هاماً على ذلك، ففى مقدمته للتاريخ اللوزياكى يوضح أن لوسوس *Lausus*، وهو الياور الملكى لبلاط الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى، قد كلفه بهذا العمل لإشتياقه إلى معرفة القديسين ومعرفة «هؤلاء الذين **رأوهم**، وهؤلاء الذين **سمعوا** منهم، وهؤلاء الذين **عاشوا** فى الوحدة فى البرارى». وهنا يقدم بالاديوس نفسه فى الأدوار الثلاثة:

١) كمستمع لسير رواها آخرون.

٢) كشاهد عيان مباشر.

٣) كشخص اشترك فى حياة هؤلاء الذين يروى سيرتهم.

ومن بالاديوس نفسه ايضاً نعرف أن إيفاجروس البنطى (مار أوغريس) ـ والذى كان مرشده ومعلمه لسنوات طويلة ـ قال له أنه يريد أن يسمع بالتفصيل من شاهد عيان عن طريقة حياة القديس يوحنا الأسيوطى (التبايسى). وبهذا التشجيع زار بالاديوس القديس يوحنا وعند عودته قدم تقريراً إلى الإخوة. وهكذا كان بالاديوس أول كاتب يشير إلى الرابطة المتداخلة الهامة بين سماع سيرة قديس، ورؤية القديس، ومشاركة القديس فى حياته.

وهذه الرابطة ثلاثية الأبعاد حاسمة وأساسية للغاية لفهم ديناميكية كتابة السير، وعملية «الاتصال الروحى» فى الوسط الرهبانى كان لها أهمية حاسمة فى موضوع كتابة السير. فبقدر ما كان كتاب السير شهود عيان وتلاميذ، بقدر ما تأثرت حياتهم هم أنفسهم بمقابلتهم مع هؤلاء القديسين.

وحتى إذا كانوا قد سمعوا أو قرأوا وصفاً من شهود عيان ثم قدموه فيما بعد فى كتاباتهم، فمع ذلك ينتفعون هم أنفسهم بطريقة غير مباشرة من حضور القديس عن طريق المصادر التى إستقوا منها سيرته. فراوى السيرة يتخذ دور شاهد العيان الذى تأثرت حياته بهذه السيرة ويروى عن خبرته هذه للجميع.

وبقدر ما تأثرت حياة الكاتب بسيرة القديس، بقدر ما يقدم نفسه للقراء كمثال عن كيف يجب أن يتلقى قراؤه هذه السيرة وينتفعوا بها، وكاتب الهستوريا موناخورم (تاريخ

الرهبنة) يذكر أنه يأمل أن يجنى لنفسه منفعة روحية من خلال تذكار أسلوب حياة الوحدة التى عاشها رهبان مصر. وهكذا أصبح فعل سرد السير وروايتها فس صورة مكتوبة نوعاً من المشاركة فى الأحداث التى ترويها السيرة (أقوال وسير يكتبها تلاميذ ـ أقوال وسير يكتبها رحالة وزوار ـ عظات وأقوال وسير ومشاهدات يرويها ويكتبها مؤرخون) كمرآة للحياة المسيحية فى صورة قصص، ويكفى أن الأنبا بولا أول السواح قضى تسعين سنة فى وحدته، ثم انتقلت كل خبراته فى ساعة من الزمن ليرثها أنطونيوس ليورثها للكنيسة.

لم يكن كاتب السيرة مجرد ناقل لرسالة أو مدون لسيرة، لذا أصبح سرد السيرة ووصفها فى شكل رواية هو الرسالة نفسها، لأن السيرة نفسها تمثل حدث له قوته وتأثيراته الروحية التى تربط بين صاحب السيرة وبين شاهد العيان أو كاتب السيرة، وبين القارئ.

وطبقاً لمنهج كُتاب السير اليونانيين الذى إستخدموه وفهموه، تتميز رواية السيرة بإختصار المحتوى وبساطة الأسلوب والاهتمام بوصف التفاصيل وروايتها، من أجل التدريب الروحى كفن الفنون وعلم العلوم على دروب الرب.

وبهذا الفكر نرى بوضوح صدى ودافع الآباء الأولين من رواية القصص والسير كما عبرت عنها مناهجهم وطرقهم فى الكتابة، حتى صارت كتاباتهم مرشداً فى حد ذاتها عندما عكست فكر ونمط حياة الآباء السابقين لهم خلال سرد قصة سيرتهم.

وهكذا رسمت لنا هذه الروايات صورة للعادات الروحية ولممارسة الفضيلة ولنهاية سيرتهم، لننظر إليها ونتمثل بها، ندرسها ونتأمل فيها، وهى تعلمنا (أى السيرة) بحياتها الفاضلة أكثر مما بكلماتها، إذ أنهم معلمون ومرشدون لكل أحد.

لقد قام رحالة ورهبان كثيرون برحلات طويلة على الأقدام، سواء وحدهم أو مع مجموعة من الإخوة، كى يقابلوا أباً مشهوراً ومعروفاً فيجدوا فى كلماته منفعة وإرشاداً، ثم أثمرت رحلاتهم هذه عن كتابة مقابلاتهم ومحادثاتهم ورؤيتهم البهيجة لهؤلاء القديسين الذين تكلموا بأعمالهم وعملوا بأقوالهم، وكانوا رمزاً لربنا نفسه يقتدون به.

ويقول جناديوس عن مار أوغريس: «وضع ايضاً عقيدة للحياة المشتركة مناسبة لرهبان الشركة والمجمع، ووضع للعذراء المكرسة لله كتاباً صغيراً مناسباً لجنسها». كذلك تم تسجيل العظات والرسائل والمحاورات «قل لى كلمة» «إخبرنى» والإرشادات والتشبيهات

والأمثلة والتفاسير والأقوال والمناظرات.والأعمال ضمن سير وتاريخ الآباء القديسين فى إطار قصة حياتهم ومثالها.

وبالجملة صارت سير القديسين وقصص حياتهم من أهم الوسائل التى أعطت مصداقية للتاريخ وللأدب الآبائى المبكر،، لما تضمنته من قدوة ومثال شخصى عملى ليس كتعاليم ووصايا فقط بل وأيضاً أعمال وحياة ونموذج حى معاش. ومن لا ينتفع بمثالهم لن ينتفع من تعاليمهم أيضاً. فلاهوت الآباء كائن فى حياة الكنيسة وسير قديسيها، **لذا تضمنت أعمالهم تراث بعض الشخصيات الآبائية الذين عرفوا بخصوصية إنتاجهم:**

١) قال كاتب ترجمة القديس أغناطيوس الأنطاكى: «إننا نحن كنا شهوداً لهذه الميتة المجيدة فقد سكبنا لأجلها العبرات السخينة وأقمنا الليل كله بالسهر والصلاة متوسلين إلى الرب ونحن ساجدين أمام بقايا الجسد طالبين من الرب أن يشدد ضعفنا، فظهر لنا الشهيد بهيئة مجاهد خرج ظافراً من القتال ومنتصراً أمام الرب مكللاً بمجد غير موصوف».

٢) كُتبت وثيقة إستشهاد القديس بوليكاربوس بعد إستشهاده بفترة وجيزة وتسجلت بها سيرة حياته ورواية وقائع شهادته بعد مدة قصيرة جداً لأن الكاتب «مرقيون» تذكر الساعة واليوم والسنة والأحداث والكلمات والمشاعر والوصف والإنطباعات والأقوال الذهبية والصلوات. وهذه الرواية هى من أقدم وثائق أعمال الإستشهاد-*Acta Martyrum* إذ أنها تقدم تقارير شهود العيان وتعتبر من السير القصصية فى الأدب الإستشهادى المسيحى.

٣) كتب القديس إيريناؤس أسقف ليون عن بعض تفاصيل حياة بوليكاربوس الشهيد، والتى تكشف عن معرفة دقيقة به لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لعشرة ومعرفة شخصية.

٤) كتب القديس باسيليوس الكبير قصة إستشهاد «برلعام ويواصف»، كما روى ايضاً قصة إستشهاد «الأربعين شهداء سبسطية».

٥) كتب القديس اغريغوريوس النيصى عظة مطولة روى فيها قصة الشهيد «ثيؤدور» والتى سُجلت فيما بعد كقصة روت بلسانه، كما كتب سيرة أخته «القديسة ماكرينا» فى صورة قصصية رائعة.

٦) كتب القديس أثناسيوس الرسولى سيرة القديس «أنطونيوس الكبير».

٧) كتب أنتيروس *Anteros* أسقف روما فى سنة ٢٣٥م سجلاً رسمياً للكنيسة يحتوى أسماء الشهداء وتاريخ استشهادهم فى صورة قصصية روائية جمعها من كافة مسجلى الكنيسة واستودعها أرشيف الكنيسة.

٨) كتب الشماس «بونتيوس» سيرة معلمه القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة الشهيد، فصارت رواية بونتيوس عن حياة كبريانوس المصدر الأساسى لهذه السيرة.

٩) كتب القديس أمبروسيوس قصة حياة «أجنس» وكذلك قصة تكريس أخته «مارسيللينا».

١٠) كتب القديس يوحنا ذهبى الفم سيرة شماسته «أوليمبياس».

١١) كتب بالاديوس وروفينوس عن سيرة القديس «يوحنا التبايسى الأسيوطى».

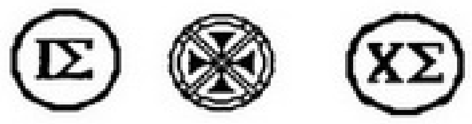
١٢) كتب چيروم سيرة «الآباء السواح» (الأنبا بولا أول السواح، القديس هيلاريون الكبير، القديس ملخوس).

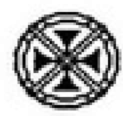
١٣) كتب چيروم تأريخ وسير وأعمال كُتاب كنسيين فى كتابه «مشاهير الرجال».

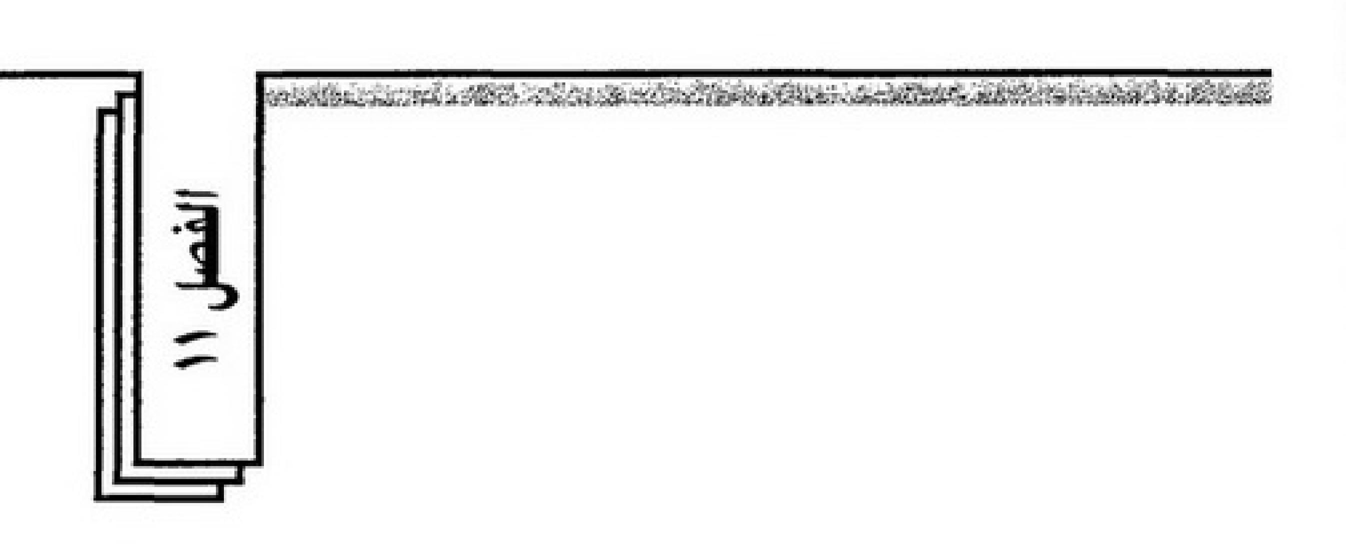
١٤) كتب كاسيان فى كتابيه «المؤسسات» و«المناظرات» قصص وسير قديسين كثيرين إلتقى بهم فى برارى مصر.

١٥) كتب يوسابيوس سيرة معلمه بامفيليوس الشهيد تكريماً لذكراه واعترافاً بمحبته له.

١٦) كتب القديس يوليوس الأقفهصى سير شهداء الكنيسة الأقباط.







تقنين

القديسين والشهداء

فى الكنيسة الأولى

تقنين القديسين والشهداء

فى الكنيسة الأولى

قديسو الكنيسة

إن حياة القديسين صورة لحياة المسيح، فهم أعضاء جسده الذين يحيون حياته نفسها ويمتلأون بالنور الإلهى مقتدين به ويحيا هو فيهم... لذا عندما نتأمل فى حياة القديسين نرى أن عقائد كنيستنا ليست حقائق ذهنية بل هى حياة إنسان الله فى جوانبها الثلاثة: الحروب الروحية والنعمة الإلهية والتمتع بالأمجاد الأبدية.

إن حياتهم بجملتها هى ثمرة عمل الروح القدس فى داخلهم، وأفكارهم وأقوالهم هى أفكار المسيح وأقواله وأعماله، متسربلين بنور المسيح، حارسين العالم بصلواتهم، وهم يصلون لأجلنا ويتشفعون من أجل خلاص العالم، وكأن صلواتهم مرفوعة فى جامات من ذهب مملوءة بخوراً (رؤ٥ :٨)، أى ثمينة جداً فى عينى الله الذى يحفظ وعده للقديسين ويستمع إلى طلباتهم.

وحددت الكنيسة أياماً للتعييد لأولئك المجاهدين المنتصرين الذين جاهدوا الجهاد الحسن وأكملوا السعى وحفظوا الإيمان وأخيراً حُفظ لهم إكليل المجد الذى لا يبلى (٢تى٤ :٧ + ١بط٥ :٤)، وهم قيام حول عرش الله ويتبعون الخروف حيثما ذهب (رؤ١٤ :٤). لأن ذكر القديسين يدوم إلى الأبد (مز١١٢ :٦)، وهو للبركة (أم١٠ :٧)، وفيه نذكر مرشدينا الذين كلمونا بكلمة الله، ناظرين إلى نهاية سيرتهم متمثلين بإيمانهم (عب١٣ :٧)، فلا شئ أنفع لنا من التأمل فى سير القديسين وإمعان النظر فى أعمالهم بحسب قول القديس يوحنا ذهبى الفم.

وتقوم الكنيسة بإكرام القديسين (خر٢٣ :٢٠) لأن مَنْ يكرمهم يكرم المسيح ومَنْ يحتقرهم يحتقره (لو١٠ :١٦ + ١تس٤ :٨) وقد حذر الله من إهانتهم (تك٢١ :٢٤) قائلاً: «لا تمسوا مسحائى» (مز١٠٥ :١٥). فالله عجيب فى قديسيه وموتهم كريم فى عينيه

(مز١١٦ :١٥). ويقول القديس اغريغوريوس: «إن ذكر القديسين هو فى ذاته بركة وتقديس وأمر عظيم للحث على الفضيلة». ويقول مار اسحق السريانى أن سيرة القديسين تكون كالغروس المثمرة وأن أخبارهم شهية فى مسامع الودعاء.

وقد اشتعل القديسون بالروح القدس وحفظوا نعمته متوقدة، وأعطوه فرصة ليعمل فيهم دون أن يعوقوه، ومن ثم إقتنوا فرح الخلاص ونالوا الشركة الإلهية والبصيرة الحية بالنعمة المُعطاة لهم من الله، لذا تقدسوا مقدمين لله خدمة مَرضية بخشوع وتقوى وشكر فنالوا ملكوتاً لا يتزعزع.

وفى الكنيسة الأرثوذكسية لا يتضمن المصطلح الغربى المُستخدم **«تقنين»** كل المضامين القانونية الموجودة فى الكنيسة الرومانية. فبحسب الكنيسة الأرثوذكسية، هذا المصطلح يعنى **«تمجيد»**، ويقصد به أمران:

١) رفع رفات القديس مع خدمة ليتورجية وتمجيد للقديس يرأسهما الإكليروس، وعندئذ يعلن أنه «قديس» (إعلان قداسته).

٢) قيام المجمع المقدس للكنيسة بإدخال اسم القديس فى السنكسار وفى تقويم الكنيسة (الأچندة الطقسية الليتورجية) وهذا يعنى الإحتفال بتذكار القديس فى عيده كل عام.

وبعد الفحص والدراسة والتوثيق بالنظر فى قداسة السيرة وسلامة التعليم والوعظ وفى التقوى والنسك والورع وفى نهضة وتجديد الحياة الروحية وإثراء الوعى اللاهوتى وكذلك المعجزات والعجائب إن وجدت، أى عندما تبحث قانونية قداسة سيرة القديس، تقر بقداسته الكنيسة ممثلة فى مجمعها المقدس، ويرأس الآباء الأساقفة الأرثوذكسيون هذا الإحتفال للمرة الأولى، وهذا يعنى **«تقنين أو تمجيد»** القديس، وتُعلن قداسته وتطويبه من قِبل جماعة المؤمنين.

ويعتبر الآباء أن تكريم القديسين فى الكنيسة وتمجيدهم ليس بمثابة مكافأة لهم، وإنما باعتبارهم الأيقونات الكاملة للمسيح بإيمانهم ومحبتهم وسيرتهم العطرة، لهذا يوقرون فى الكنيسة كـ **«أصدقاء الله»** و**«أيادى الله»** إذ بهم يتمم أعماله فى الكنيسة. والقديسون بعد نياحتهم يقومون بأعمال محبة كشفعاء ومعاونين وممهدين لطريق إخوتهم الذين فى

العالم إلى الخلاص، وهم دليل أرضى يشير إلى الكنيسة السمائية، وهم جسر الكنيسة الأرضية المنظورة الذى به تتحد مع الكنيسة العليا.

وتكريم القديسين يؤكد على أن حياة القداسة ممكنة وعلى أن القداسة لها أشكال عديدة، فهى تقدس طبيعة كل أنماط الشخصيات ولكن فقط فى هؤلاء الذين يتجاوبون مع عمل النعمة الإلهية.

كذا تكريم القديسين لا يعنى أنهم يُوقرون بعيداً عن عظمة شخص المسيح وأعماله، بل بالأحرى كل توقير يُقدم لهم إنما هو أصلاً موجه لشخص ربنا يسوع المسيح، ولذلك فإن أيقوناتهم هى إنعكاسات لصورة المسيح والتى هى بدورها صورة الله المغروسة فى الإنسان الجديد.

ومن المثير للإهتمام أنه فى العصر الرسولى الأول، كان جميع أعضاء الكنيسة يُدعون «قديسون» «كهنوت ملوكى، أمة مقدسة». وكذلك فإن الكنيسة السمائية والمسيحيين الأتقياء المتنيحين يُدعون «قديسين» والملائكة أيضاً يُدعون «قديسين».

وفى بداية القرن الرابع، كان الأعضاء المؤمنون فى الكنيسة والمشتهرون بحياتهم المقدسة الناسكة يوقرون كقديسين، وكانت الجماعة المسيحية تحتفل بيوم إستشهاد القديس على إعتبار أنه «يوم مقدس» و«عيد ميلاد مجيد». وفى ذلك اليوم كان المسيحيون يجتمعون حول مكان إستشهاد القديس حيث يبنون كنيسة مكرسة على اسمه: كنيسة الرسولين بطرس وبولس ـ كنيسة الشهيد مارجرجس ـ كنيسة القديسة مارينا.

وبعد الإحتفال بالليتورجيا، كانوا يسمعون عظة يلقيها الأب الأسقف يمتدح فيها سيرة القديس ويمتدح الإيمان البطولى والحياة المقدسة للشهيد. وقد حُفظت بعض هذه العظات وهى فعلاً جواهر الروحانية المسيحية الأولى.

ويقول القديس كبريانوس الشهيد: «إن سلام الشهيد هو من سلام الله، وكل مَنْ ينال سلاماً من شهيد فكأنه قد ناله من الله». لذا تضع الكنيسة الذكصولوجيات (التماجيد) والمدائح والألحان لتطلب سلامهم وشفاعتهم وصلواتهم لكى نبلغ إلى ما بلغوه حيث مجد إلهنا وحيث لا تقف أمامه خليقة صامتة. «السلام لك أيتها العذراء...... طوباكِ أنتِ يا دميانة عروس الختن الحقيقى.....» وهكذا.

كذلك يقول القديس اغريغوريوس النيصى: «تذكار رجال الله القديسين مثل المنارة المضيئة التى تقود نفوسنا إلى ميناء الفضيلة لكى نجتاز عواصف الشتاء فى الحياة». فالكنيسة تتلمس بركة هؤلاء القديسين الذين جعل الله مسرته فيهم (مز١٦: ٣) والذين أهلهم لشركة ميراث القديسين فى النور (كو١: ١٢) وحفظ لهم إكليل المجد (١بط٥: ٤) وجعل لهم مكانة الجلوس معه فى عرشه (رؤ٣: ٢١).

والسؤال الصعب هو: ما هى المعايير التى تُقنع الكنيسة أن شخص ما قديس أم لا، أى هل يتم تقنينه أم لا؟ فى القرن الثانى لم يكن هناك أى إجراء رسمى لإعلان الكنيسة لقداسة قديس ما. فالإكليروس والعلمانيين كانوا «شعب الله»، وكانت الجماعة المسيحية كلها تعبر تلقائياً عن اعترافها وتوقيرها للقديس. وهكذا، كان القديس يُعرف أولاً كـ «إنسان فريد لله» فى ضمير الكنيسة، أى فى قلوب كل أعضائها، وعندئذ كانت الكنيسة تؤكد رسمياً هذا الاعتراف الجماعى التلقائى.

فحرصت الكنيسة على أخذ الشهادة العامة والضمير العام للكنيسة، وبعد ذلك يقوم الأساقفة والإكليروس بإعلان قداسة القديس أى «التقنين» أو ما يُسمى «التطويب»، ويعلن المجمع المقدس قانونيته كنسياً.

وتنظر الكنيسة إلى سيرة القديس وحياته ومعجزاته وكتاباته إن وجدت، آخذة فى الاعتبار إعترافات القديسين وآلامهم ونسكهم وجهادهم وشهادتهم ودفاعياتهم وتعاليمهم وسيرتهم، فالذين يخلصون حقاً هم الذين يحملون الصليب مع المسيح، وهؤلاء الذين يعترفون الاعتراف الحسن بشجاعة يؤهلون للدخول إلى الأبدية السعيدة.

وفى تقنين الشهداء، وجدت الكنيسة أن الجزاء الذى يناله الشهيد هو أعظم من كل ما يتركه وراءه على الأرض، فالذين يعترفون بالمسيح علناً، يأخذهم هو معه فى الفردوس تواً، لأن الذين يبغضون هذا العالم هم فقط الذين يؤهلون لميراث ملكوت السموات.

وبعد إعلان قداسة القديسين والشهداء وتقنينهم كنسياً، تُصنع لهم تذكارات كنسية فى يوم ذكرى نياحتهم أو إستشهادهم «عيد نياحة القديس...» «عيد استشهاد الشهيد.....»، فالإستشهاد والنياح ميلاد جديد لهم بربحهم للحياة الأبدية أى ميلادهم للسماء وللسعادة الدائمة.

شفاعة القديسين والشهداء فى الكنيسة الأولى

يقول القديس باسيليوس الكبير: «اذكروا الشهداء يا منْ تمتعتم برؤياهم فى الأحلام. اذكروهم يا منْ أتيتم لتوقدوا الشموع ليكونوا لكم عوناً فى صلواتكم. اذكروهم يا منْ أخذتموهم عوناً لكم فى أعمالكم إذ تطلبون بأسمائهم. اذكروا الشهداء وتذكروا أعمالهم واجمعوا مديحكم جميعاً واكتبوا أسماءهم فى سجل فخرهم».

كذلك يحث القديس اغريغوريوس النيصى سامعيه ليطلبوا شفاعة الشهيد ثيؤدور: «حارِب عنا كجندى، وكشهيد أسرع بالمعونة لإخوتك العبيد». كذلك نجد صلاة توسلية للقديس مار افرآم السريانى وهو يتشفع بالأربعين شهيداً من أجل نفسه. ويتحدث القديس كيرلس الأورشليمى عن شفاعة الشهداء فيقول: «ونذكر أيضاً الذين سبقوا فرقدوا، أولاً البطاركة (ابراهيم واسحق ويعقوب) والأنبياء والرسل والشهداء حتى بصلواتهم وشفاعتهم يقبل الله توسلاتنا». ويؤكد القديس باسيليوس الكبير على مدى إيمانه بشفاعة الأربعين شهداء سبسطية: «إن الناس يجتهدون لكى يجدوا واحداً يصلى عنهم، وها هنا أربعون مرة واحدة!! هؤلاء الأربعون يدافعون عن بلدنا كخط دفاع من حصون وقلاع! لكنهم لا يغلقون على أنفسهم، إنما يجولون فى كل موضع. والعجيب أنهم يزورون البيوت غير متفرقين كلما يستضيفهم أحد من الذين يتشفعون بهم، فهم يسيرون معاً كخورس واحد!!».

وتتحدث كتابات الآباء عن تقنين وتمجيد القديسين والشهداء وعمل تذكاراتهم، لذا نقرأ عن تقاطر الشعب على مقبرة القديس يوستين الشهيد الذى أُستشهد عام ١٦٥م، ويعطينا القديس أثناسيوس الرسولى صورة واضحة لمقدار توقير الكنيسة للشهداء وأعيادهم فى قانونيه رقمى ٩١ و ٩٢ واللذين يوصيان بالتعييد لهم بترتيب عظيم.

ويوصى القديس يوحنا ذهبى الفم بضرورة التردد على أماكن الشهداء، إذ أن تذكارالشهداء يوثر تأثيراً مذهلاً على أفكار الشعب، لأنه يشددهم ضد محاربات الشيطان ويحصنهم إزاء الأفكار والتصورات الشريرة ويهبهم هدوءً وسلاماً كبيراً، فشهادة الشهداء وسيرتهم هى بذاتها عظة للإنسان المسيحى، وعون للكنيسة، وتثبيت للإيمان المسيحى، وغلبة لأوهام الموت، وعينة للقيامة، وتوبيخ للشيطان، وتعليم للفلسفة الحقيقية، وإحتقار لأباطيل الدنيا، وراحة وعزاء للنفس الحزينة، وملهمة للصبر، ودخول فى مجال القوة،

وبإختصار فإن سيرة الشهداء ملهمة لكل الأمور الصالحة.

وطلب شفاعة الشهداء والقديسين هو بمثابة طلب معونة أصدقاء العريس، وتكريمهم هو إكرام للسيد المسيح الذى وعد بأنه يكرم الذين يكرمونه والذين يحتقرونه يصغرون. ويذكر التاريخ الكنسى أن القديس اغريغوريوس النيصى قد ذهب على مضض ليحضر إحتفال عيد شهداء سبسطية الأربعين، ولما نام فى الإحتفال رأى بستاناً جميلاً أراد دخوله فمنعه الأربعون شهيداً، عندئذ إستيقظ من نومه نادماً على ما صدر منه.

لقد علّم الآباء بأن الرب هو الذى أضاء حياة القديسين كمصابيح مضيئة وبهية، لذلك لا يريد الرب أن نخفيها تحت مكيال الصمت بل يود أن نبرزها على قمة مشرقة لتنير لجميع الذين يجاهدون فى العالم، لكى عندما يعاينونها يمجدون الآب السمائى. وهؤلاء القديسون مستحقون للمديح لأنهم هربوا من كل مجد بشرى، وجديرون بأن نطلب صلواتهم لأنها مسموعة عند مخلصنا.

ويرى الكثير من المعلمين الأولين أن سيرة قديسى وشهداء الكنيسة هى حافز وإرشاد لنا، وأن تتويج وتكريم محبى الفضيلة هو قانون فى كنسيتنا، لأنهم عاشوها طوال حياتهم، ومن ثم صارت حياتهم كتمثال تذكارى حى لها. وكيف لا تفرح بهم الكنيسة وهم أكاليلها المنقوشة بالذهب؟

تكريم رفات القديسين والشهداء

فى تعليم الآباء يعتبر تكريم رفات القديسين مؤسس على الإيمان بأن أجساد القديسين هى هياكل ومساكن لله، وأنه بالرغم من أن نفوسهم قد إنتقلت إلى مواضع الراحة والنياح، إلا أن النعمة تظل حاضرة فى رفاتهم، حتى فى أصغر جزء منها. لكن «التوقير الخاص» لأجساد القديسين يجب ألا يُساء فهمه على أنه فعل عبادة لرفات القديسين، فهم أعضاء ممجدون بصورة إستثنائية فى جسد المسيح السرى. وتكريم الأجساد القديسة هو عمل آخروى وإمتداد ليوم التجلى فى الدهر الحاضر، وهو حياة بالإيمان لحياة الدهر الآتى.

لقد حُسبت أجساد الشهداء منذ العصر المسيحى الأول كودائع مقدسة تُوضع فى أثمن الأكفان وتُستودع فى أعظم وأقدس الأماكن، وكانت أجسادهم تُوضع تحت مذابح

الهياكل تشبهاً بما جاء فى سفر الرؤيا (٦ :٩) ، فأرواحهم تؤدى خدمة كهنة يشفعون من أجلنا ويتزينون بلباسهم لإكليل البر، بل أنهم سيدينون العالم مع المسيح، لذلك نحن نطلب منهم أن يصلوا من أجلنا (بحسب قول القديس أغسطينوس) .

وبعض الشهداء لم يمانعوا أن تُحفظ أجسادهم كما جاء على لسان الشهيدة بربتوا. هذا وقد اُعتبرت ذخائر الشهداء كودائع ثمينة، لذا يقول العلامة يوسابيوس القيصرى: «إن إمتلاك أى كنيسة لجسد شهيد أصبح بمثابة كرامة وشهرة، بالإضافة إلى كون ذلك تأكيد وضمان لصحة إيمانها وعقيدتها» .

فصارت لأجساد القديسين والشهداء قيمة عالية فى حياة الكنيسة الأولى، حتى أن يهود العصر المسيحى الأول عيروا المسيحيين بأنهم كانوا ينوون ترك عبادة ربنا يسوع ليعبدوا جسد بوليكاربوس أسقف سميرنا الشهيد!!

ونستطيع أن نحصل على صورة لتعليم الآباء فى هذا الصدد من أقوال القديس اغريغوريوس النزينزى فى عظته عن القديس والشهيد كبريانوس إذ يقول: «إن تراب كبريانوس يستطيع بالإيمان أن يعمل كل شئ، والذين لجأوا إلى ذلك يعلمون صحة ما أقول» .

ومن كلمات القديس اغريغوريوس النيصى نستطيع أن نرى عقيدة الكنيسة من نحو تكريم الشهداء وبركة أجسادهم الموجودة فى الكنائس، وذلك فى عظته المطولة عن الشهيد «ثيؤدور» : «لقد صارت رفاته مصدر تهذيب للكنيسة تطرد الأرواح النجسة. لقد صارت رفاته بمثابة مصدر إستشفاء لكل الأوجاع، وملجأ أميناً للذين داهمتهم المحن، وكنز خيرات للفقراء والمعوزين، ومنارة تهدى الضالين، وعيداً لا يفرغ لمحبيه، ومكان زيارة لا يفرغ من الآتيين والذاهبين كالنمل الذى يسعى بنشاط لا يهدأ» . وقد وضع اغريغوريوس أسقف نيصص أكثر من عظة فى مدح الشهداء والقديسين (عظتان عن القديس إسطفانوس، ومديح لاغريغوريوس اللاهوتى النزينزى، ومديح للشهيد ثيؤدور، وثلاث عظات عن شهداء سبسطية، وسيرة القديسة ماكرينا) .

ويعبر الأب مكسيموس من تورين عن القيمة الثمينة لوجود أجسادنا بالقرب من أجساد الشهداء بقوله: «إن أسلافنا أوصونا أن نلصق أجسادنا بعظام الشهداء حتى عندما يشرق

المسيح على الشهداء يرفع عنا ضمناً ما فينا من ظلام» .

وعن إكرام الرفات المقدسة يقول أحد اللاهوتيين القدامى: «نحن نكرم الذخائر المقدسة لأنها لم تتجرد من القوة المقدسة، كما أن اللاهوت لم ينفصل عن جسد الرب» . هذه القوة المقدسة هى نتيجة شركة القديسين وعلاقتهم مع المسيح علاقة كيانية تشمل كل الإنسان بما فى ذلك الجسد. فالقديسون يصيرون مقدسين «بكاملهم» ، وتحفظهم نعمة الله بلا لوم. فالمسيح يبدل جسدنا الحقير ويجعله على صورة جسده المجيد والممجد. إذاً قوة الذخائر التقديسية التى لرفات القديسين تنبع من علاقتها بجسد الرب الذى لبسه القديسون بالمعمودية وحافظوا عليه بلا لوم حتى آخر حياتهم.

وهكذا لم يكن إكرام ذخائر القديسين عادة متأخرة لدى المسيحيين وإنما يعود إلى الأزمنة المبكرة الأولى بل ومنذ العصر الرسولى الأول، عندما جمع المسيحيون الأولون عظام بوليكاربوس الشهيد معتبرين أنها أكرم من الحجارة الكريمة وأثمن من الذهب ووضعوها فى مكان لائق لكى يحتفلوا فرحين مبتهجين بتذكار شهادته.

فالذين آمنوا بالله حتى وإن رقدوا لا يكونون أمواتاً لأن المخلص قال عن نفسه أنه إله أحياء والجميع عنده أحياء، وعظام الأحياء لله تحيى الأموات كعظام إليشع الذى أقام الميت وكعظام يوسف الصديق الذى كان معانقاً لجسد يعقوب بعد موته. وقد كان موسى ويشوع بن نون يحملان جسد يوسف معهما (خر١٣ :١٩ + يش٢٤ :٣٢) ، فصارت عظام يوسف أفضل من الغنائم واُعتبرت كنزاً.

ويعلق الأب أفراهات السريانى على وصية يوسف لموسى رجل الله بأن يأخذ عظامه معه: «كانت عظام الرجل البار أثمن وأفضل فى عينيه (أى موسى) من الذهب الذى أخذه بنو إسرائيل من مصر... لقد بقيت عظام يوسف أربعين سنة فى البرية، وعندما رقد موسى أورثها ليشوع بن نون... هذا الذى دفنها فى أرض الموعد ككنز» . هكذا كانت العناية بالرفات بحسب وصية يوسف لبنى إسرائيل من جهة عظامه (عب١١ :٢٢ + تك٥٠ :٢٦) .

وبينما نحن نعبد ابن الله الحى، نكرم القديسين والشهداء كتلاميذ له اقتفوا آثاره، لذا نحن نحبهم لأنهم خليقون وجديرون بهذا، بسبب إلتصاقهم المنقطع النظير بملكهم

ومخلصهم، فنكون بذلك شركاءهم وزملاء لهم فى هذه التلمذة، إذ أنه كريم فى عينى الرب موت أتقيائه.

هذا ويكتب يوحنا كاسيان فى وصفه لرحلته مع زميله جرمانوس وزيارتهما لقديسى برارى مصر قائلاً: «بعض الرهبان الذين بلغوا درجات عالية فى الكمال والقداسة، هاجمتهم غارة وحشية من البربر اللصوص الذين يدعون "ساركين Σαρακηναι" وقتلوهم، فحملت أجسادهم بكرامة عظيمة بواسطة أساقفة الإيبارشيات المجاورة لهم وكل الشعب المسيحى وحفظت مع رفات الشهداء، ومن شدة حب الناس لهم تنافس أهالى مدينتين على أحقية كل منهما فى الإحتفاظ برفاتهما المقدسة. فإحدى المدينتين كانت تفتخر بقربها من مكان سكنى هؤلاء الشهداء، والثانية بأنهما قريبة من موطن ميلادهما».

وفى قصة إستشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء رئيس أساقفة الاسكندرية الذى أستشهد فى ٢٥ نوفمبر ٣١١م، نقرأ أن الجنود قد أخذوا البابا إلى «بوكولو» حيث تركوه يصلى عند قبر «القديس مارمرقس الكاروز وأول الشهداء السكندريين»، ثم بعد ذلك قطعوا رأسه. ويعتبر العالم ليبسيوس أن مخطوطة إستشهاد البابا بطرس هى شاهد من القرن الرابع لحياة الكنيسة الأولى، وفيها تبرز شفاعة القديسين والشهداء وفعل التبرك برفاتهم.

ويقول القديس اغريغوريوس النزينزى: «بنى المسيحيون كنيسة على اسم القديس العظيم فى الشهداء بابيلا ووضعوا فيها رفاته المقدسة، وكان يقام فيها سنوياً فى يوم عيده إحتفال كبير». ثم يصف القديس اغريغوريوس أسقف نزينزا هذا الاحتفال قائلاً: «اجتمع آلاف المسيحيين عندئذ فى ضاحية أنطاكية فى الكنيسة ونقلوا من هناك الصندوق الحاوى الرفات المقدسة وحملوه فى عربة وهو يرتلون : "ليخز جميع الساجدين للمنحوتات المفتخرين بأصنامهم" (مز ٩٦:٧)». وحمل الصندوق على طول الطريق وعاد القديس الشهيد عودة المجاهد إلى مدينته حتى أن كل من يشك فى القيامة يخزى وهو يرى أعمالاً أبهى وأبهر يأتيها الشهيد بعد موته، وقد تم نقل رفات القديس الشهيد بابيلا فى عام ٣٦٢م.

كما وصف القديس اغريغوريوس أسقف نيصص مناظر إستشهاد ثيؤدور التى يبدو أنها كانت مرسومة على حائط الكنيسة الموضوع فيها رفاته: «لقد صور الفنان بألوان زاهية أعمال الشهيد المملوءة بطولة: جهاده وآلامه وصرامته كجندى للمسيح». فأيقوناته وإن كانت صامتة إلا أنها كمن يتحدث من على الحائط ليقدم نفعاً عظيماً.

ورفات القديسين تصنع معجزات وعجائب كثيرة ويفوح منها أريج الروح القدس وتفيض منها الروائح الزكية. ونجد فى الكتاب المقدس دلائل كثيرة على هذا التكريم، فقد ورد أن عظام يوسف قد حفظت بعناية واهتمام (يش٤٩ :١٥) وأن عظامه نقلت باحترام عظيم (تك٥٠ :٢٥ + خر١٣ :١٩)، كذلك حادثة النبى الشيخ الذى كلم بنيه طالباً منهم أنه عندما يموت يدفنونه فى القبر الذى دفن فيه رجل الله بجانب عظامه ليكون إلى جواره (٣مل١٣ :٢٥)، وأيضاً عندما لامس جسد الميت عظام إليشع عاد إلى الحياة ووقف على قدميه (٤ مل١٣ :٢١ + يش٤٨ :١٤). والكنيسة فى تكريمها لرفات القديسين لا تتبع خرافات مصطنعة لكنها تستند إلى شاهد أبدى من سفر الرؤيا فتضع فى أحيان كثيرة أجساد الشهداء والقديسين تحت المذبح (رؤ٥ :١١)، وتضعها فى الكنيسة كمصدر بركة وشفاء لكثيرين وكنعمة وقوة الروح القدس التى لم تفارق هذه الأجساد حتى بعد موت أصحابها، لأن تقديس الروح القدس للآباء القديسين كان لأجسادهم ونفوسهم معاً، إذ أن تقديس الروح لم ينفصل لا عن النفس ولا عن الجسد، ولذا تحمل رفاتهم فعل الروح القدس وقوته وتقديسه.

السنكسار وتقويم أعياد القديسين والشهداء

منذ أيام بوليكاربوس الشهيد، تم تحديد استشهاده عيداً رسمياً فى الكنيسة فى يوم ٢٣ فبراير ١٥٥م وبدأت الكنيسة تتنبه لإقامة أعياد تذكارات القديسين. ومن رسالة سجلها يوسابيوس المؤرخ يتضح لنا كيف تقام تذكارات قديسى الكنيسة وشهدائها: «بمعونة الله سوف نجتمع فى مقبرته ونحتفل بتذكار ميلاده (إستشهاده) بالفرح والتهليل متذكرين أنواع آلامه ليكون ذلك عبرة لنا».

وقد تم وضع تقويم للإحتفال بذكرى أعياد القديسين والشهداء يتضمن أسماءهم وتواريخ أعيادهم وذلك لإقامة تذكارات لنياحتهم ولإستشهادهم، فتم تحديد تذكاراتهم بإهتمام وتدقيق فى السنكسار بحسب الأجندة الطقسية الليتورجية للكنيسة.

ويتضمن كتاب «السنكسار» سجل أعمال القديسين والشهداء على مدار السنة الطقسية لترسم أعيادهم وتذكاراتهم فى أذهاننا صورة لعمل النعمة الإلهية ولإستجابتهم لعملها وطاعتهم للوصية، فتكون للكنيسة بمثابة آثار الغنم الواجبة الإقتفاء، وبقدر ما هى شهية

بالحق أخبار وتذكارات القديسين مثل الماء للغروس الجديدة (كما يصفها مار اسحق السريانى)، كذلك هى أيضاً باعث لنا نحن الأحياء على التشبه بسيرتهم وإقتفاء فضائلهم والنمو فى محبة الله ومحبة القريب.

ولا يمر يوم فى سنة الكنيسة الطقسية إلا وتُذكر فيه سيرة شهيد أو قديس أثرت الكنيسة ورسخت إيمانها، فقراءة هذه السير الحية والتلامس مع هذا الإنجيل المُعاش هو أبلغ عظة تؤكد على أن عقائد كنيستنا ليست حقائق نظرية، بل هى حياة عملية مع المسيح وفى المسيح. وقد وضعت الكنيسة منذ البدء تقويماً لأعياد القديسين والشهداء معتبرة أن شهادة أو نياحة القديس هى «يوم ميلاده» وتعيد له تذكاراً لجهاده وسيرة إيمانه وحبه لشخص الرب، وأيضاً لتهيئة الذين عليهم أن يجاهدوا فى مسيرة حياتهم الآن ليكون لهم نفس نصيب وميراث هؤلاء الشفعاء.

فالكنيسة تستعرض أمام أبنائها حياة القديسين لكى تُظهر حياة المسيح نفسها المُعلنة فى قديسيه، وتظهر عمل النعمة الإلهية التى تؤازر كل منْ يجاهد قانونياً، فلا تكون الوصية ثقيلة له بل بحق نور حقيقى وسرور أبدى لمنْ أكمل طاعتها (بحسب تعبير القديس أنطونيوس الكبير).

وقراءة هذه التذكارات فى السنكسار إنما تنقل لنا شخص الرب نفسه العامل فى قديسيه والعجيب فيهم، فنطلب بركة صلواتهم وطلباتهم ليؤازرنا الرب بروحه القدوس ويكمل حياتنا حسب مسرة نعمته. وهكذا نصير أغنياء لأننا نسير فى نور القديسين ولأن لنا مجموع المواريث التى نلناها عبر الأجيال وخبرة ربوات القديسين لنسير فيها. إنه زاد ورثته الكنيسة كأضواء وكحزمة من شعاعات النور وكسحابة شهود مضيئة تضئ لنا عالمنا، فهم يحيطون حول وجه يسوع شمس البر الحقيقية الذى يجمع فى نفسه كل الأنوار الهادية والأشعة ذات الجمال الفائق.

وفى تقويم سنكسار الكنيسة نتقابل مع قوة عمل الله عندما نشاهد هذه القوة فى اللصوص والقتلة والزناة الذين إمتلأ السنكسار بأسمائهم وسيرتهم وكيف أنهم كانوا يعيشون أولاً فى خزى وبعد ذلك بقوة الله وقبولهم للنعمة تحولت سيرتهم من مستوى لعنة الخطية حتى صارت مكتوبة لهم فى السموات، فنستنشق رائحتها وننظر إلى نهايتها ونتشبه بها ونتشفع بقوتهم هذه التى لا زالت لهم والتى بها يمارسون أعمال المجد.

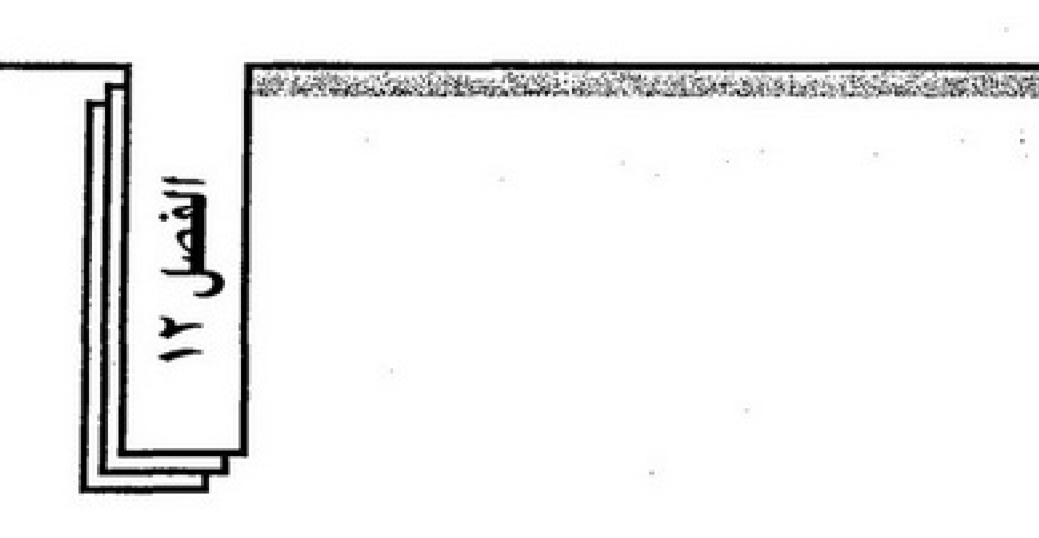
وهنا نلمس الدور التعليمى لسنكسار الكنيسة الذى يعلمنا توبة هؤلاء القديسين ورجوعهم إلى الله من كل القلب وإنسحاقهم وإتضاعهم وبذلهم وصومهم وجهادهم ومحبتهم وعبادتهم ودموعهم وصلبهم أنفسهم للعالم وصيرورتهم شهود وشهداء، يشهدون شهادة بيضاء بسيرتهم وشهادة حمراء بدمائهم وشهادة الإيمان باعترافهم (قديسون وشهداء ومعترفون).

وتعتبر الكنيسة قراءة السنكسار أحد معالم الرحلة نحو الله، والتى تأتى ضمن الخريطة التى من خلالها نفهم أبعادنا ومركزنا بالنسبة لله ومركزه هو بالنسبة لنا، فبدون شركة القديسين نفقد سبل كثيرة، لذا نسمع صوت الله خلال أعمال الكنيسة (السنكسار) لننصت إلى كلمة الله خلال حياة أعضاء الكنيسة فى العهد الجديد والقديم.

ويقول مستر ليدر الكاتب الإنجليزى الذى زار مصر: «تعتبر قراءة سير القديسين من الملامح العميقة لخدمة القداس الإلهى القبطى. وقد أُخذ هذا عن التقليد القديم الذى يرجع إلى القرن الرابع الميلادى». ويقرأ السنكسار بعد سفر أعمال الروح القدس (الإبركسيس) كتكملة لعمله عبر الأجيال.

إنه كتالوج للقديسين والشهداء الذين يجب الإحتفاظ بتذكاراتهم الإنتصارية لإبراز حياة جسم الكنيسة ونموها وبلوغها إلى هدفها النهائى فى أشخاص أعضائها أحصاء الرب من رسل وأنبياء وشهداء وقديسين ومعترفين ومدافعين ونساك ومعلمين وآباء بطاركة، هؤلاء الذين كملوا فى الإيمان المسيحى منذ البدء.

فلنطلب شفاعتهم وبركتهم المقدسة وننظر إلى أنفسنا ونهتم بكرمنا حتى لا يتلف، ونلتفت إلى شجرة حياتنا حتى لا يبدد طرحها طير السماء، وإلى كنزنا حتى لا ينقبه سارق، وإلى مركبنا لئلا يفسد العدو خطتنا، ولنذهب إلى تلك المواضع المقدسة التى لهم ونعيد لتذكارهم ونتمثل بسيرتهم التى لن تكف عن أن تعطى أثمارها من جيل وإلى جيل وإلى دهر الدهور.



تعليم الموعوظين

فى الكنيسة الأولى

تعليم الموعوظين فى الكنيسة الأولى

١) تسجيل أسماء الموعوظين

كان النظام المتبع فى الكنيسة الأولى أن الموعوظين الذين يستعدون لنوال نعمة المعمودية لابد أن يقوموا بتسجيل أسمائهم، فمن يريد أن يتعمد كان يعطى اسمه قبل الصوم الكبير، ويسجل الكاهن جميع الأسماء فى بداية الصوم الأربعينى، ثم يفحص سلوكهم وسيرتهم حتى يتسنى لهم تسجيل أسمائهم بيد الأسقف.

ويتقدم طالبو العماد ومعهم أشابينهم ليستفسر الأسقف عن سيرتهم ليُخرج منهم غير المستعدين قائلاً: «فليغير حياته ثم يقترب إلى جرن المعمودية». أما المستعدون فيسجل الأسقف أسماءهم بيده ليضموا إلى سجل أسماء الموعوظين الجدد، ويقوم الأسقف برشم كل منْ يقبله بعلامة الصليب ويضع يديه عليه ويباركه ويعطيه بعضاً من الملح بين أصبعيه كرمز للحكمة «ليكن لكم فى أنفسكم ملح وسالموا بعضكم بعضاً» (مر٩: ٥٠).

وقد كان شائعاً عند آباء القرون الثلاثة الأولى أن يعقدوا إجتماعات خاصة بالمتقدمين للإنضمام للمسيحية معتبرين أنها مدرسة للموعوظين لتقدم فيها الكنيسة التعليم الوعظى لغير المؤمنين الراغبين فى الإنضمام إليها. وكان هذا التعليم الوعظى عبارة عن تفاسير وشروحات كتابية مع تسليم الهيكل العام للإيمان، وهذه التعاليم تسمى *Catechism* أى «**تعليم العقيدة**»، وكان الموعوظ يلقن قانون الإيمان مع شرحه جملة جملة، وبهذه الطريقة يتعلم قانون الإيمان (كما شرحه القديس كيرلس الأورشليمى فى عظاته التعليمية أرقام ٦ - ١٨ لتعليم بنود الإيمان).

وبينما يتعلم الموعوظين تفسير الأسفار المقدسة والشرح الشامل للعقيدة وأهمية الصلاة الربانية، لا يستطيعون أن يتعلموا الأسرار الإلهية الأكثر عمقاً إذ أنهم ما زالوا موعوظين (الأحاديث الخمسة التى ألقاها كيرلس الأورشليمى فى أسبوع عيد الفصح عن الأسرار الثلاثة: المعمودية والميرون والإفخارستيا)، إلا أنهم يستمعون إلى شرح الأسرار بعد معموديتهم كمعمدين ومؤمنين جدد.

وفى هذا التعليم الخاص بجماعة الموعوظين *Κατηχουμενοι* وضعت الكنيسة ترتيباً بخصوص التعليم الوعظى لهم كأحد المهام الرئيسية لها، لتحقيق رغبة القلب التائب المستعد لمعرفة سر الحياة الجديدة ونوال الغفران عن خطايا الجهالة والحياة السالفة ولتوثيق العهد بالمخلص الفادى دخولاً إلى الحياة الأبدية والإستنارة الروحية بعد عهود الظلمة.

وتُسلم هذه التعاليم بتدقيق شديد حتى أن بعضها يُشرح بعد نوال الموعوظ نعمة المعمودية لأنها لا تُشرح إلا للمؤمنين فقط، كما لا يصح أن يكون تقدم أحدها على الآخر سبباً للفصل بينها، لأن مصدرها واحد وهو الإتحاد بالمسيح الحى والعلاقة التبادلية بين الله والإنسان.

لقد وجدت الكنيسة الأولى أن معظم الذين يريدون قبول الإيمان كانوا من أسر وعائلات وثنية وبالتالى لم يكونوا قد تلقوا تعليماً مسيحياً أولياً ولا كانت لهم معرفة بالإيمان الجديد، وكى تعالج الكنيسة ذلك، أخذت على عاتقها مهمة تعليمهم قبل معموديتهم، وكان ذلك التعليم المنهجى - وهو مرحلة إعدادية للمعمودية - يسمى «وعظ». وأثناء فترة الوعظ، كان الشخص يتعلم الأوليات البسيطة فى الإيمان والأخلاقيات المسيحية (تهيئة وإعداد). وفيما بعد فى القرن الرابع، كان الموعوظ يعطى شرحاً للأسرار المسيحية العميقة كما يتضح من العظة الرابعة من عظات القديس كيرلس الأورشليمى للموعوظين. وكان لابد يقوم أحد المؤمنين - ويسمى أشبين - بتقديم طالب المعمودية، ثم يختبره المعلمون المسؤولون عن الموعوظين لكى يتأكدوا من أن الدوافع التى قادته للكنيسة وللإيمان المسيحى دوافع روحية خالصة، وكان الأشبين الذى يزكى الموعوظ للمعمودية يلعب دوراً هاماً للغاية أثناء تلقينه تعليم الموعوظين بل وحتى بعد معموديته.

٢) خورس الموعوظين

كان يُسمح للموعوظين بحضور قداس القراءات الكنسية (ليتورچيا الموعوظين)، وبعد العظة يباركهم الأب الأسقف ثم ينادى الشماس قائلاً: «اخرجوا أيها الموعوظون بسلام» وبعد ذلك تُستكمل الليتورچيا (قداس المؤمنين). فتعليم الموعوظين وتعليم المؤمنين مرتبطين دوماً بالعبادة إرتباطاً صميمياً لدرجة يصعب معها بينهما.

وليتورچيا الموعوظين ذات طابع كرازى وعظى، لكن دون أن تتجاهل الجانب التعبدى

الذى فيه ينصت الموعوظون إلى القراءات والعظة مع بعض الصلوات التى ترفعها الكنيسة عنهم لكى يهبهم الله فهماً وحكمة وإيماناً ليدركوا الكلام الذى وُعظوا به.

وقد سمى بعض الكُتاب هذا القسم من القداس باسم «سيناكسز *Synaxis*» وهى كلمة يونانية تعنى «إجتماع»، وقد قُصد بها ما نعنيه نحن بلتيورچيا الموعوظين، وهو القداس الذى يحق للموعوظين حضوره والإشتراك فيه قبل خدمة الأنافورا الإفخارستية الخاصة بالمؤمنين الذين نالوا فعلاً نعمة المعمودية والمستحقين التقدم للقدسات.

هذا ووضعت الكنيسة ليتورچيا الموعوظين لا لتُقدم للموعوظين وحدهم بل وللمؤمنين أيضاً، فيتنبه الموعوظين إلى إعلان كلمة الله بهذه الخدمة لتعمل فيهم وتعدهم لنوال روح التبنى فى المعمودية، كما تعمل فى المؤمنين لنوال جسد الرب ودمه، ويقول **العلامة أوريجين أنه فى** قداس الموعوظين تخطب النفس للرب يسوع المسيح، وفى قداس المؤمنين تدخل النفس معه فى رباط الإتحاد الزيجى، فلا يستطيع أحد أن يتقدم ليأخذ الكلمة المذبوحة على المذبح دون أن يتقدس بالكلمة المقرؤة على المنجلية.

وفى نهاية قداس الموعوظين يطلب الكاهن من أجلهم فى «سر الإنجيل» بطلبة إلحاحية خاصة بالذين يُهيأون للمعمودية قبل أن ينصرفوا لكى يقبل الله توبتهم وإعترافاتهم ويجعلهم مستحقين لسماع الأناجيل المقدسة ويحفظوا الوصايا والأوامر الإلهية، ولكى يذكرهم ربنا ويرحمهم ويثبتهم فى الإيمان، ثم يطلب من الله أن ينزع كل بقية عبادة الأوثان من قلوبهم ويثبت فيهم ناموسه وخوفه ووصاياه وحقوقه، وأن يمنحهم أن يعرفوا قوة الكلام الذى وُعظوا به.

ويحتل خورس الموعوظين والتائبين الجانب الغربى للكنيسة والملاصق للمدخل الرئيسى، وفيه يجلس الموعوظون والتائبون ليشتركوا فى نصيب من القداس الإلهى (ليتورچيا الكلمة أو الموعوظين) ليتأهلوا لنوال سر المعمودية، أما التائبون فهم الذين سقطوا فى بعض الخطايا وسألهم آباء إعترافهم أن لا يتقدموا إلى الأسرار الإلهية إلا بعد توبتهم أى أنهم أُقصوا مؤقتاً من المشاركة فى السر، إذ لا يتقدم إليه «المستعدون للإستنارة، ولا التائبون (الذين تحت عقوبة قانون توبة) ولا الدنسون».

لقد كان لقب «موعوظ» يُطلق فى الماضى على كل شخص فى طور الإستعداد

للمعمودية، وكانت مدة تحضير الموعوظ تمتد فى أحيان كثيرة، ليمضيها فى تعلم حقائق الإيمان ودخول الحياة الليتورچية الكنسية تدريجياً.

ويمثل خورس الموعوظين وقداس الموعوظين تعبيراً ليتورچياً عن الرسالة الأساسية للكنيسة والتى هى البشارة المفرحة والكرازة بالإنجيل للخليقة كلها عبر الأجيال جميعها، لهذا بقى قداس الموعوظين وقداس المؤمنين لكى تجمع البنية الليتورجية بين البشارة وثمرها.

وفى صلاة حارة يقدمها الأب الكاهن الخديم فى سر الإنجيل يقول أيضاً من أجل الموعوظين: «وفى الزمان المحدد ليستحقوا حميم الميلاد الجديد لغفران خطاياهم، إذ تعدهم هيكلاً لروحك القدوس». فهى تهيئة بالتعليم وتهيئة بالصلاة لأولئك المقبلين على نوال نعمة سر المعمودية.

هذا ويُنظر إلى قداس الموعوظين كجزء إعدادى للقداس يُسمح فيه بالحضور للجميع سواء الموعوظين أو التائبين بدرجاتهم المتنوعة (مستمعين، راكعين، باكين...) بإعتبار أنه قداس الكلمة المقرؤة، وبإنتهاء هذا الجزء ينادى الشماس عليهم بالخروج ليبقى فى الكنيسة فقط المؤمنون المستأهلون لإستكمال الإفخارستيا.

٣) مدرسة الموعوظين *Catechumenal School*

كان تعليم الموعوظين يتم عدة مرات فى الإسبوع فى رواق الكنيسة، وكان المدرسون من رجال الإكليروس أو من المؤمنين العاديين، وكانت هذه المدارس تُسمى مدارس الموعوظين، وكانت توجد فى كل مكان يوجد فيه مسيحيون منذ بدايات المسيحية، وكانت مفتوحة لأى إنسان جاد يتقدم طالباً الإلتحاق بها من أى طبقة إجتماعية ومن أى جنس أو سن.

وعلى أية حال، لم يكن هذا التدريب أو الدراسة ينتهى بالمعمودية، بل كان يستمر طوال الحياة، متعمقاً أكثر فأكثر فى معنى وجوهر الحياة المسيحية، فبجانب مدارس الموعوظين، كانت هناك مدارس تعليمية *Catechetical Schools*، وهذه كانت مؤسسات تقدم مستوى متقدم من التعليم اللاهوتى المسيحى ومن التعليم الكلاسيكى أيضاً.

أ) مدرسة الاسكندرية

شهد القديس چيروم أن القديس مارمرقس الرسول قام بتأسيس مدرسة الاسكندرية من أجل تثبيت الموعوظين الجدد على أساس راسخ، سواء هؤلاء الذين من أصل أممى أو من أصل يهودى، وكانت هذه المدرسة التعليمية مركزاً للدراسات المسيحية وللعلوم القدسية. ومن أشهر علمائها بنتينوس وكلمنضس وأوريجانوس وديديموس الضرير.

وبدأت مدرسة الاسكندرية كمدرسة للموعوظين = *Katichoumenos* *Catechumes* طالبى العماد من أجل تعليمهم الإيمان المسيحى بالدراسات التى تؤهلهم لنوال سر المعمودية. وفتحت المدرسة أبوابها أمام الجميع ليلتحق بها أناس من ديانات وثقافات متباينة وذوو مراكز إجتماعية مختلفة وأعمار متفاوتة.

وتعتبر هذه المدرسة من أشهر المؤسسات التعليمية فى التراث المسيحى على الإطلاق، وفى منتصف القرن الثانى صارت مدرسة هامة للغاية للاهوت المنهجى والموسوعية الشاملة، لذا سميت الديدسكاليون *Διδασκαλειον* أى مدرسة تمثل حركة لاهوتية ومركزاً للدراسة والحياة الإيمانية التقوية كجزء لا يتجزأ من الحياة الكنسية التى هى فى صميمها حياة تلمذة.

ب) مدرسة أنطاكية

وكانت هذه ثانى أهم مدرسة، وقد أسسها لوسيان وكانت مركزاً للمعرفة اليونانية، وإتسمت بتعليم الموعوظين الجدد وبإستخدام المنهج الحرفى والنقدى فى التفسير، ومن أشهر علمائها القديس يوحنا ذهبى الفم والقديس إبيفانيوس أسقف سلاميس والقديس كيرلس أسقف أورشليم.

جـ) مدرسة نصيبين وإديسا

كانت مدرسة أديسا أشهر المدارس غير الناطقة باليونانية، ويروى التقليد أن القديس مار إفرآم السريانى هو الذى أسسها عندما نقل مدرسته من نصيبين إلى أديسا والتى كانت داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية. وكانت تغلب على مدرسة أديسا السمة الرهبانية، بل وحتى مبانيها كانت منظمة كأنها دير، وكان منهجها يتضمن تعليم الموعوظين مع تقديم دراسات كتابية وتاريخية وتفاسير.

وبجانب هذه المدارس، كانت هناك مدارس أخرى عديدة مثل مدرسة قيصرية التى أسسها العلامة أوريجين ومدرسة سلوقيا ومدرسة روما، وبعض من هذه كانت معاهد للإكليروس لكن لم يضاه أى منها مدرسة الاسكندرية أو مدرسة أنطاكية فى الأهمية.

ولهذه المدارس جميعها أهمية عظيمة فى تعليم الموعوظين، فالمسيحية تريد أن تقدس العالم، واتخذت من تعليمها وسيلة أساسية لتحقيق ذلك، لذا إحتاجت الكنيسة كمؤسسة تربوية أن تقدم تعليمها أولاً للموعوظين ثم للمؤمنين من أعضائها حتى تستطيع أن تقوم بعملها ومهمتها، ومتى كان الأعضاء غير متعلمين، كانت الكنيسة تقوم بتعليمهم، وهكذا قدمت المسيحية إنجيلها ولاهوتها وأسرارها إلى الإنسان العادى البسيط وكذلك للفلاسفة والمفكرين.

٤) عظات وكتابات الآباء للموعوظين

إن أغلب المقالات والعظات الموجهة للموعوظين خاصة لم يقم أحد بتسجيلها، إذ كانت هذه المقالات والعظات تقدم المبادئ الأساسية الأولية للإيمان المسيحى، وقبل القرن السادس عشر لم تكن هناك حاجة لدراسة اللاهوت السرائرى، خاصة وأن الحديث عن الأسرار كان قاصراً على المؤمنين دون الموعوظين، ومع هذا سجل **لنا علم الباترولوچى أهم أعمال الآباء للموعوظين** ونذكر منها:

١) مقالات القديس كيرلس الأورشليمى لطالبى العماد
٢) مقالات القديس كيرلس الأورشليمى عن الأسرار للمعمدين حديثاً
٣) مقالتان للقديس يوحنا ذهبى الفم لطالبى العماد
٤) ثمانية مقالات للقديس يوحنا ذهبى الفم لطالبى العماد
٥) مقال للقديس أغسطينوس عن قانون الإيمان للموعوظين
٦) عدة مقالات للقديس أغسطينوس عن الصلاة الربانية للمستعدين للعماد
٧) عظة لسينسيوس *Synesius of Gyrene* فى عيد الفصح للمعمدين حديثاً.
٨) أحاديث وإرشادات موجهة إلى معلمى الموعوظين للقديس اغريغوريوس النزينزى
٩) كتابات وعظات القديس أمبروسيوس عن الأسرار
١٠) عظات الأب ثيؤدور أسقف العراق وهى عبارة عن تعاليم وعظية للمعمدين حديثاً

٥) ملامح برنامج تعليم الموعوظين

لما كانت الحياة المسيحية تبدأ بالميلاد الجديد من الماء والروح بالمعمودية، والعماد فى العصور المبكرة جداً كان فى معظمه للبالغين، لذلك كان يتم مرة واحدة فى السنة بإحتفال مهيب وعظيم فى ليلة عيد القيامة أى الليلة ما بين سبت النور وأحد القيامة حيث تدور القراءات الإنجيلية حول موت الرب وقيامته وحول لاهوت النور والقيامة والإستنارة.

وقد كان المتقدمون للمعمودية يقضون فترة كبيرة كموعوظين ليتعلموا المبادئ الأولى للمسيحية إستعداداً لمعموديتهم الآتية. وكانت فترة إستعدادهم هذه تكتمل بدورة للتعليم المكثف أثناء الصوم الأربعينى المقدس. وقد سجلت لنا كتابات آباء الكنيسة الكثير من تلك العظات والتى كانت تلقى على الموعوظين والتى شملت عظات موجهة إلى: ١) طالبى العماد ٢) المعمدين حديثاً.

وركز الآباء على أهمية تعليم الموعوظين على اعتبار أنه غرس وفلاحة وزراعة وتأسيس وتأصيل وتثبيت، لذا حثوا سامعيهم على الحرص والجدية، هذا وذُكرت قصة سيمون الساحر وعدم جدوى ممارسته للمعمودية التى كان قد نالها لأن قلبه لم يكن مستقيماً أمام الله (أع٨ :١٣). لذلك فإن الآباء الذين قدموا تعليماً وعظياً للموعوظين إنما كانوا يقدمون المعمودية وقوتها للخلاص، وهم لم يقصدوا مجرد ممارسة طقس السر بل بالحرى السلوك الإيمانى للمعمد فى إطار عملية خلاصه الأبدى.

شرح الآباء للموعوظين علاقة السيد المسيح بالمُعمد الجديد بإعتبارها علاقة تمثل:

١) الكرمة بالأغصان (يو١٥ :١)
٢) الراعى بالغنم (يو١٠ :١)
٣) الأحجار بحجر الزاوية (١بط٢ :٤)
٤) رئيس الكهنة بالكهنة (عب٢ :١٧)
٥) آدم الثانى بالخليقة الجديدة (١كو١٥ :٤٥)
٦) الرأس بأعضاء الجسد (١كو١٢، أف٤ :٤)
٧) العريس بالعروس (رؤ١٩ :٧)

وعبّر الآباء للموعوظين فى تبسيط وتركيز عن سر الخلاص الذى أكمله المسيح، وقدموا

لهم صورة عن عدم الفساد والإنتصار على الموت بإعتبار أن المعمودية موت وقيامة وعبور للخلاص، فنجد لدى هؤلاء الآباء صوراً معبرة عن سر الخلاص:

١) صورة «**الراعى الصالح**» رمزاً لعمل المسيح الرعوى (مت١٨ :١٢، لو ١٥ :٤، يو١٠ :١)

٢) صورة «**الرجل الأقوى**» الذى غلب الرجل القوى وربطه واستولى على سلاحه، رمزاً لموت المسيح الذى دخل به إلى عمق أعماق بيت القوى أى القبر والجحيم والموت وهناك عثر على غنيمته أى الإنسان الذى سبق أن أسره الشيطان وأضله بعدم طاعته له (لو١١ :٢١).

٣) صورة «**المسيح المنتصر**» رمزاً لنصرة الرب على الشيطان عندما حطم أبواب الجحيم وجعل الصليب رمزاً لإنتصاره. وهذه الصورة الحربية العسكرية شرح بها الآباء لطالبى المعمودية عقيدة الخلاص الثمين الذى قدمه لنا المسيح فدية عن كثيرين (مر١٠ :٤٥) عندما إبتلع الشيطان صنارة اللاهوت المخبأ فى طعم الجسد (بحسب تعبير القديس اغريغوريوس النيصى).

٤) وفى الصورة الطبية يظهر «**المسيح الطبيب**» الذى جاء ليشفى الطبيعة البشرية التى مرضت بالسقوط، فهو خلصها بالعقار المضاد للموت أى بمصل الحياة.

٥) وفى الصورة الدبلوماسية يُصور **ابن الله المتجسد** كمنْ يصطاد الشيطان بإخفاء لاهوته عنه وبالموت يبيد مملكة الشيطان.

٦) وفى الصورة القضائية يُصور دفع الفدية التى قدمها **المسيح كفاد** ومحارب منتصر على الموت، لأنه كان من الضرورى لنا أن يتجسد الله ويموت ثم يقوم، ولا شئ يمكن أن يقارن بمعجزة خلاصنا إذ بقطرات من الدم الإلهى إفتدى العالم كله.

واشتلمت أيضاً برامج تعليم الموعوظين على:

١) بنود الإيمان المسيحى
٢) معانى سرى المعمودية والميرون
٣) شرح الموعظة على الجبل

٤) تفسير الصلاة الربانية.

كما تضمن برنامجهم أيضاً الجانب السلوكى العملى المترتب على المعمودية، والتزامات الحياة المسيحية العملية للمؤمن، بقصد إرشادهم للسلوك المسيحى والأخلاقيات والفضيلة. فهى عظات رعائية لبنيانهم فى المسيح على المستوى العقيدى والحياتى السلوكى.

وكما كان من المعتاد أن تُلقى هذه العظات أثناء الصوم الكبير حيث تتم المعمودية فى نهايته، هكذا كانت تُلقى أحياناً فى أسبوع القيامة، وهى الأيام السبعة التى تبدأ بعيد القيامة المجيد، فبعضها أُلقى قبل إتمام سر المعمودية والبعض الآخر بعد إتمام السر.

ومن اللافت للنظر أن مهمة تعليم الموعوظين شغلت قادة الكنيسة الأولى أى الآباء الأساقفة ، فنجد القديس يوحنا ذهبى الفم يعلم موعوظى شعبه فى أنطاكية والقديس أمبروسيوس يعلم موعوظى شعبه فى ميلان والقديس كيرلس الأورشليمى يعلم موعوظى شعبه فى أورشليم والقديس أغسطينوس يعلم موعوظى شعبه فى هيبو والقديس اغريغوريوس النزينزى يعلم موعوظى شعبه فى نزينزا..... وحسن قيل: «من شاء أن يسأل فليسأل الله بالصوم والصلاة والدموع فيكشف له الحقيقة التى كشفها دائماً لهؤلاء القديسين».

٦) محتوى تعليم الموعوظين

ركز الآباء فى توجيهاتهم للموعوظين على أن المعمودية ليست طقساً شكلياً خارجياً بل هى سر الإتحاد مع المسيح لا ليتسمى الإنسان مسيحياً فحسب بل ليكون فعلاً مسيحياً، معتبرين أن السر الكنسى والحياة العملية ليسا نقيضين و لا منفصلين، فالسر الكنسى هو الأساس والحياة المسيحية العملية مؤسسة عليه، فهى ليست منفصلة عنه بأى حال.

وتحدثوا عن فاعلية غير المنظور الذى يصير منظوراً عندما تصير قوة الله ونعمته منظورة فى حياة الذين يتحدون به ويختبرونه مثل الجنود فى إلتزامهم ومثل الإتحاد الزيجى فى علاقتهم بشخص المسيح، فيسعون فى طريق التقوى والإتحاد الزيجى الديناميكى الفعال كعروس لعريسها، هكذا بين النفس والمسيح.

وإستفاض الآباء فى شرح العقيدة والأخلاقيات ورمزيات المعمودية وفى تعريف السر،

لكى يكون الموعوظ مسيحياً فعلاً بالمعمودية وليس فقط على مستوى الاسم، أى أن يدخل فى شركة مع المسيح، وهذه الشركة هى فى حد ذاتها سر وهى زرع الله فينا.

عبّر الآباء عن السر السرائرى الخفى والمعلن من قِبل الله، إذ عندما يتعمد الموعوظ يلبس المسيح ويكون المسيح معه أينما كان، لذا لابد أن يعمل كل شئ بيقين وبمعرفة لأنه فى حضرة المسيح ومعيته الدائمة بدفن العتيق وبلبس الإنسان الجديد المتجدد حسب صورة الخالق...

إنه لبس المسيح نفسه الذى يكون مع المعمد فى كل مكان ولا يُخلع أبداً عنه، إذ أنه إتحاد يجحد الشيطان ويتمم عقد العهد الذى ليس بحبر وورق بل بالروح القدس، عندما نلبس المسيح وعندما يحل فينا فى ثوب المعمودية الذى نلبسه الآن ونصير خليقة جديدة.

ويطالب الآباء المعمدين الجدد فى إنتهاء فترة موعوظيتهم بأن تكون لهم عيون الإيمان ليجعلوا غير المنظور منظوراً ويتفكرون فى الأمور التى هى من فوق ويطلبونها، وعندئذ تتغير أفكارهم من الأرض إلى السماء حيث سيرتهم ومواطنتهم الجديدة الأبدية، إذ أنهم ماتوا وحياتهم مستترة فى المسيح حيث القداسة والسلام والأمان والتسليم واليقين فى مدبر وبانى الكل.

فبجحدنا الشيطان نترك الأرضيات ونسلك فى حياة تليق بالنذر الجديد وبالإتحاد بالمسيح، وهنا نتعجب من عظمة السخاء الفائق للوصف لمنْ سفك دمه كهبة لكل منْ يأتون إلى الإتحاد به فى طاعة، هذا ويطالب الآباء أولادهم موعوظى الكنيسة والمعمدوين الجدد بتأسيس حياة التقوى وترك الشهوات وإقتناء ثمار الروح (غل٥: ٢٢) والإمتناع عن السكر (أف٥: ١٨) والإحتشام (١تى٢: ٩) وأن ينسوا ماضيهم كمثل مواطنى عالم جديد، وأن يغيروا نمط حياتهم ويضعوا فى اعتبارهم كرامة المسيح الحال فيهم وهم ينطقون بكل كلمة وعندما يأتون أى فعل، وأن تكون شركتهم مع السيد قوية غير متزعزعة، لأنها لم تتم بحبر وورق بل بالإيمان وبالإعتراف.

ويوصى الآباء أولادهم المعمدين حديثاً لكى ينموا فى السر الذى دخلوه ولا يكونوا ساكنين أو يلقوا عنهم الإتحاد الذى صاروا فيه شركاء للمسيح ولُقبوا فيه بالمعمدين الجدد والمستنيرين الجدد، كما وحثوهم على أن لا يقتصروا على الإحتفاظ بالبريق الأول لهذه

الإستنارة بل يجعلوا النور يشع فيهم ببريق أكثر.

ويستهجن الآباء مسلك أولئك الذين يُدعون مسيحيين لكنهم ما زالوا يعيشون مفتونين بالعالم بينما الله أعد لهم الدخول فى مسرات لم ترها عين وخيرات لم تسمع بها أذن، فالذين نالوا وعود الخيرات الروحية تبدو لهم الأشياء الوقتية كمجرد ظلال وأحلام، وعندئذ لا يعتبروا مسيئين للأسرار بل مصورين لها.

وفرق الآباء بين أن **يتسمى** الإنسان مسيحياً وبين أن **يكون** مسيحياً عندما يكون قادراً على تحديد لمنْ يعطى ولاءه، وهنا يشرحون جانباً آخر للذين إختبروا سر الإتحاد مع المسيح أى أنهم سوف يعيشون بطريقة مختلفة لأن غير المنظور صار منظوراً لهم بل ومنظوراً للآخرين بواسطتهم. لأن دخولنا فى شركة مع المسيح يتطلب مشاركة نشطة من جانبنا، فكما فى سر الزيجة يشترك العريس والعروس معاً، العريس بما يقدمه من هدايا والعروس بما تقدمه من طاعة، هكذا فى سر الإتحاد بالمسيح الذى سيدخله المعمد، فما تقدمه النفس هو الطاعة والعهد الذى تعقده مع العريس السمائى.

تحدث الآباء كثيراً فى عظاتهم للموعوظين عن كيف يصير المسيحى مسيحياً وعن ثمار سر الإتحاد بالمسيح وكيف أن المؤمنين الجدد يعكسون مجد الرب على وجوههم، وعن حتمية السلوك فى الحياة الفضلى مع عمق الإنتباه والمسؤولية فى الإلتزام بالولاء للمسيح. فأن تصير مسيحياً هو أن تجعل غير المنظور منظوراً فى الحياة التى تحياها، وتحمل ثمار الروح بدلاً من أعمال الجسد، وتعطى المجد لله على كل شئ.

تكلم الآباء كثيراً عن الأسرار من غير فصل بينها وبين الحياة فى المسيح كخبرة رسولية حية من أجل بنيان الموعوظين والمعتمدين حديثاً وكتهيئة لهم حتى يتمكنوا من الإشتراك مع الكنيسة فى نور وفرح القيامة، كما تحدث الآباء عن واجب المعتمد فى ممارسته للسر وعن حضور الرب فى المعمودية وعمل الروح القدس فى الماء، والإيمان بعمل الله الخفى وبالنعمة التى لها قوة أعظم من الطبيعة، كما يشرحون سر مائدة الرب الإفخارستية التى هم مزمعون أن ينالوها وما الذى يلزمهم أن ينالوه كل يوم. فعظيمة حقاً هى الأسرار المقدسة بل وسامية جداً ويليق بها المهابة، فما يُستعلن لنا هنا سيظل باقياً إلى الأبد وسنراه بوضوح فنفرح فرحاً أبدياً لا ينتهى.

وحث **العلامة أوريجانوس** الموعوظين أن يثبتوا فى الدعوة التى دعاهم الرب يسوع إليها، فدعوتهم لم تأت بواسطة إنسان، بل الرب يسوع هو المسؤول شخصياً عن إفتقادهم وغرس بؤرة الإيمان فى قلوبهم، وإن كان قد أعدهم للإنضمام إلى الكنيسة المنظورة الكائنة حالياً على الأرض، فسوف يجذبهم إلى كنيسة الأبكار وإلى مدينة الله الحى أورشليم السمائية مكتوبين فى السموات.

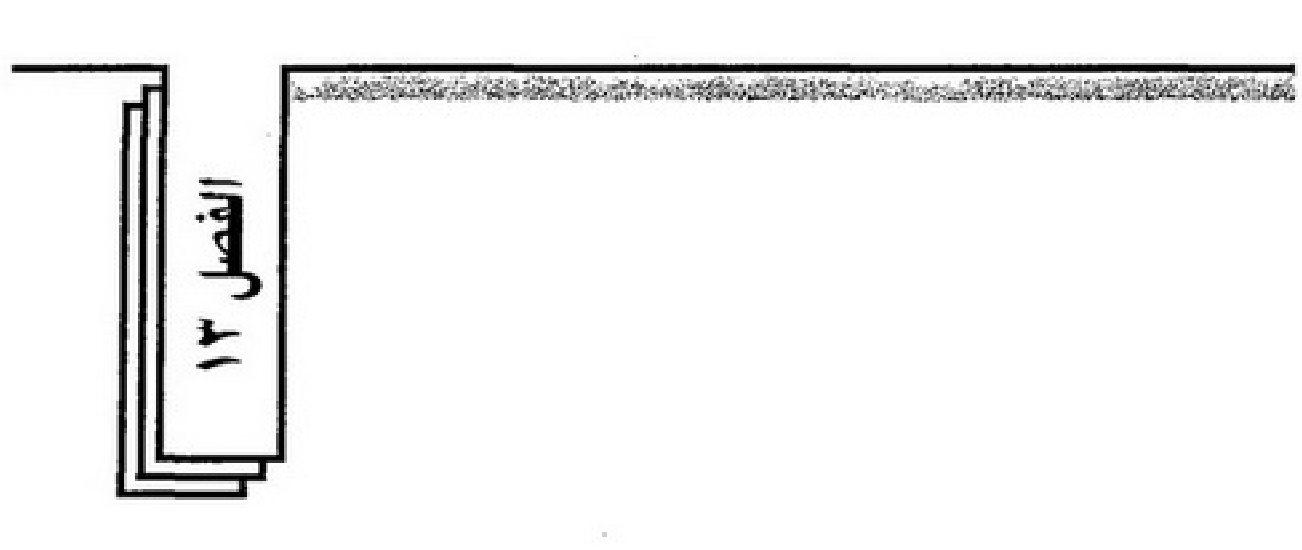
الصلاة الربانية فى تعليم الموعوظين

منذ العصر الرسولى بدأ الآباء يشرحون الصلاة الربانية للموعوظين لكى يعدوهم للعماد وأيضاً للمعمدين حديثاً لكى يعمقوهم أكثر فى الإيمان وفى العلاقة الحية الفعالة مع الرب، وأكثر منْ شرحوا صلاة «أبانا الذى فى السموات» بإستفاضة من آباء الكنيسة هم القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة، والقديس يوحنا ذهبى الفم، والقديس أغسطينوس أسقف هيبو، والعلامة الأفريقى ترتليان، والقديس كيرلس الأول السكندرى عمود الدين، والقديس اغريغوريوس النيصى، معتبرين أنها صلاة المؤمنين الذين يستطيعون أن ينادوا الله قائلين «أبانا الذى».

العظة على الجبل فى تعليم الموعوظين

لأن الموعظة على الجبل عند آباء الكنيسة هى شريعة العهد الجديد المقابلة لشريعة موسى، لذلك أعطاها كثير من الآباء اهتماماً خاصاً وصارت موضع دراستهم وتأملهم وتطبيقهم العملى فى حياتهم. هذا وقد حرص الآباء أن يتضمن برنامج تعليم الموعوظين شرح التطويبات باعتبارها الطريق الذى فيه نجد خلاصنا، فيسوع المسيح الكاهن الأعظم لتقدماتنا ومؤسس العهد الجديد والمدافع والمعين لضعفنا يمسك بأيدينا ويرفع أنظارنا إلى أعالى السماء، وبه تنفتح أعين قلوبنا وتستنشق رئتنا أوكسجين الروح وإكسير الحياة فتستضئ أذهاننا بالنور بعد أن كانت قبلاً حمقاء مظلمة، وهنا نذوق المعرفة الخالدة.

أخيراً: كان الآباء يشرحون بنود الإيمان ويفسرون الكتاب المقدس وخاصة الصلاة الربانية والعظة على الجبل ومزمور «الرب لى راعى»، مع تقديم المعانى العميقة للأسرار الإلهية، حاثين الموعظين على الفهم العملى للأسرار وضروريتها للخلاص.



الأسرار الخفية

لجنب المسيح

فى الكنيسة الأولى

الأسرار الخفية لجنب المسيح

فى الكنيسة الأولى

إن الكنيسة هى حياة المسيح نفسه منقولة إلينا بالروح القدس خلال الأسرار التى لا تعنى شيئاً أخر غير السر الإلهى الأزلى أى سر الحياة الإلهية الذى يتحقق الآن فى عمل الكنيسة. فأسرار الكنيسة هى إمتداد لحياة المسيح فى تجسده، بحيث ننال قوة الحياة نفسها التى كانت فى المسيح عن طريق الأسرار، فالمسيح يطعم كنيسته بهذه الأسرار وهى بدورها كحاملة للنعمة العظيمة تحت أولادها «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز٣٤). والمسيح رئيس كهنة الخيرات العتيدة الحى والممجد فى السماء حاضر فى كل الأسرار الكنسية بل هو الفاعل الأصلى الذى يقدسها بروحه القدوس، فالذى بارك وقدس وقسم وأعطى فى ذلك الزمان هو أيضاً الآن يبارك ويقدس ويقسم ويعطى.

بهذه الأسرار تتدفق نعمة الروح القدس والتى فيها يعطينا الرب ذاته لنتحد به ونعيش معه لا بقوتنا لكن بالقوة التى ننالها خلال هذه الوسائط، وبها نتذوق بعين الإيمان قوة الدهر الآتى حيث الخبز المكسور جسد المسيح الحى، الذبيحة التى تحيى الكل والتى للحمل القائم وكأنه مذبوح والذى من جنبه يفيض الدم والماء.

فالحياة النابعة من جنب المخلص هى أساس الحياة السرائرية فى الكنيسة، ففى جرن المعمودية تفيض المياه المحيية من الجنب الإلهى، وفى الكأس المقدسة الدم النابع من الجنب المطعون، إذ أن طعنة الحربة هى التى فتحت لنا باب الحياة. إنها كلمة ملهمة ذات معنى تلك التى إستخدمها يوحنا الإنجيلى فهو لا يقول: «طعن» أو «جرح جنبه» أو شيئاً من هذا القبيل، بل «فتح» بمعنى أن باب أو «صمام» الحياة قد أمكن فتحه حيث فاضت منها أسرار الكنيسة التى بدونها لا يمكن الدخول إلى الحياة أى الحياة الحقيقية. فالدم قد سفك

لمغفرة الخطايا، والماء يُقدم فى كأس ترياق الخلاص (أى الماء الذى يُضاف إلى عصير الكرمة فى سر الإفخارستيا) وهو الذى ينسكب فى جرن المعمودية ليكون ماء أردن جديد وماء الحياة الأبدية.

وقد أُستعلن هذا مسبقاً عندما أُوحى إلى نوح أن يعمل باب الفلك بجانبه (تك٦ :١٦) حتى تدخل منه الكائنات التى أراد الله عدم هلاكها فى الطوفان، وهذا الفلك كان مثالاً للكنيسة. لهذا أُخذت المرأة الأولى من جنب الرجل بينما كان نائماً ودُعيت حواء (حياة) وأم كل حى (تك٣ :٢٠) إذ قد تعينت للخير قبل أن تقع فى جسارة التعدى. وها آدم الثانى يحنى رأسه كمنْ يستسلم للنوم على الصليب لتنبثق من جنبه شريكة الحياة أى الكنيسة التى نشأت على الدم المهراق من جنبه.

إنه الموت الذى يبعث الأموات إلى الحياة، إذ ليس هناك ما هو أقدس وأطهر من هذا الدم الزكى الكريم، وليس هناك ما يجدد القوى أكثر من هذا الجرح الذى خرج منه الماء، ذلك الماء الذى به ننال النعمة والإحسان والذى به نخرج من الظلمة إلى النور ومن العدم إلى الوجود الحى الكامل الخالد، والذى ننال به ولادة النهار الولادة الحرة الذاهبة بالشهوات، ذلك الماء الذى ننال به الإستنارة وضياء النفوس وبهاؤها ونأخذ الهدايا ونتبع الروح القدس.

إنه **ماء الجنب المطعون** الذى وهبه المخلص لنا كعربون للعهد الجديد، وفيه ندفن الإنسان العتيق كما فى قبر، فكما أن جسد الرب لما دُفن فى الأرض أثمر خلاصاً للعالم، هكذا نحن بالدم والماء نحمل ثمار البر والتقديس التى لا تحصى، وبالدم والماء تولد الكنيسة خلال الأسرار.

وهكذا فإن المسيح قد خلق الكنيسة وأوجدها من جنبه كما خُلقت حواء من جنب آدم، وتأسست الكنيسة بهذين السرين أى المعمودية والإفخارستيا، وبعد أن كنا من التراب صرنا من الذهب وأُعيد سبك نفوسنا من جديد، وبعد أن كنا أسرى تمتعنا بالحرية والبنوية، وبعد أن كنا جوعى شبعنا من المائدة المفعمة بالبركات.

إنه الماء الذى يلدنا من جديد ويعيد تشكيل الأنا الداخلى لنفوسنا، والذى بدونه لن نكون كاملين، ففيه ننزل أمواتاً فى الخطايا ونصعد أحياء فى البر، نُدفن لنقوم سالكين فى

جدة الحياة ببركة مياه المعمودية الشافية المنسكبة من الجنب الإلهى، إذ ما هو الماء بدون صليب المسيح؟ إنه عنصر عادى بدون أى فعل سرائرى.

إنه الماء الذى به تُنقش أسماؤنا للدخول إلى المعسكر الروحى فنُحسب مع القديسين وبين قطيع المؤمنين، وتنفتح أمامنا أبواب الفردوس ونعود به ثانية إلى موطننا الأصلى حيث مسكننا الحقيقى وشركة اللوغوس ونوال النعمة الملوكية. إنه الماء الذى يزرعنا فى فردوس الله ويهبنا حياة ويحرق عتيقنا ويلهب أرواحنا. إنه ماء الراحة الذى يوردنا إليه راعينا الحقيقى وأسقف نفوسنا.

لأن الماء بدون ماء الجنب المطعون لا فائدة منه للخلاص العتيد، ولكن بعد أن تكرس بسر الصليب أصبح مناسباً لإستعماله فى الجرن الروحى (المعمودية) وكأس الخلاص (الإفخارستيا)، فغير المنظور يُرى فى الحقيقة أكثر من المنظور، لأن ما يُرى هو زمنى أما الذى لا يُرى فهو أبدى لا يدرك بالعين بل بالقلب والروح.

وهكذا المياه هى قبر للقيامة وأماً للولادة إذ:

١) فى التكوين كانت **بدء العالم**
٢) وفى الأردن صارت **بدء الإنجيل**
٣) ومن الجنب الإلهى صارت **بدء الكنيسة**.

إنه ماء جنب المسيح المسكوب فى جرن المعمودية والذى فيه إغراق للخطية وإنحلال للظلمة ومشاركة للنور ودفع لبهيميتنا إلى الخارج. إنها أجمل عطايا الله وأجلّها قاطبة وهى أقدس من كل شئ آخر فى مقدساتنا. إنه ماء الجنب منبع الفرح وسند الإيمان وكمال العقل ومفتاح ملكوت السموات، والذى به ننتقل إلى الحياة وتنفك القيود وتلغى العبودية بماء النعمة والإستنارة والإحسان ووشاح الخلود ومغطس الولادة الجديدة.

ذلك الماء نسميه **عطية النعمة الإلهية** لأنه عطية تُعطى لنا مجاناً، ونسميه **معمودية** لأننا به نُدفن مع المسيح، ونسميه **مسحة** لأنه ملوكى ومقدس، ونسميه **إستنارة** لأنه ضياء وبهاء ،ونسميه **وشاحاً** لأنه يستر حياءنا، ونسميه **إغتسالاً** لأنه يغسلنا من أوساخنا. إنه ماء الغبطة والتطهير والتقديس، وماء العقد والعهد والميثاق. إنه ماء واحد للجميع تأتينا نعمته بلا عناء ويساوى الكل فى القيمة والكرامة إذ أن نعمته هى نصيب الجميع كنصيب كل واحد من الهواء والنور والوجود.

إنه الماء الذى به نتسلح بالمعمودية فنطفئ سهام الشرير الملتهبة، فهو ماء لكنه يذيب الجبال ويطفئ النار وبه يختنق لجيئون كما فى بحر طبرية. أنه ماء اللمعان والضياء والصبغة المقدسة والتجديد وغفران الخطايا. إنه الماء الذى يخلق الأحياء الجدد للمسيح يسوع ليكونوا أولاد الخالد الأبدى الذى لا يموت، وبه ننال التبنى وأيقونة السمائى.

إن الدم والماء المُفاضين من الجنب المفتوح يهبان شركة فى مياه الغسل التطهيرية التى تنقى أفضل من الناموس ومن دم الثيران الذى كان يُرش على المدنسين ويمنحهم تطهيراً مؤقتاً وأرضياً. فهذا هو الدواء الإنقاذى وعطية البنوة السمائية والسلاح الذى يخاف منه العدو الشرير. إنه أسلحة حربنا الروحية وميراث الحياة الأبدية وإرتباط المجد، فالماء والدم والروح هم واحد (١يو٥: ٧) لأننا لو إنتزعنا واحداً منها لما وُجدت أسرار الكنيسة المقدسة.

فالدم المسفوك من الجنب فى الكأس نُعطى الحياة الأبدية اللامائتة ونُمنح دواء الخلود وترياق عدم الموت، لنحيا مع الرب إلى الأبد. إنه دم الكلمة الإلهى الذى متى ناله المؤمن ثبت المخلص فيه ومن ثم صار واحداً مع المسيح وبه مع الآب. إنه دم الذبيحة الروحانية المقدسة الأكثر رهبة ومجداً والتى قُدمت على الجلجثة والتى تتجدد سرائرياً على مذابحنا كل يوم.

إنه دم الجنب المسكوب فى كأس الكنيسة الذى يمنح شركة لكل المقدسين مع الفادى ومع بعضهم البعض. إنه إكسير الحياة الذى ينكسب فى عروقنا بالسر الإلهى المخوف والغير منطوق به. فما بالكأس هو بعينه الذى فاض من جنب المسيح.

وبهذا الدم الذى تتزين نفوسنا وتتجمل وتلتهب وبه نصير ملازمين الملائكة بل نكون متحدين بالمسيح مصطبغين بدمه الذى نتناوله من كأس الخلاص، لأن كل من يشرب منه يُعطى الخلاص وغفران الخطايا وشركة الحياة الأبدية.

هذا الدم الإلهى يصور فينا صورة المسيح ملكنا ويعطى نفوسنا بهاءً فائقاً لا يزول طالما هو يرويها ويغذيها متواتراً. هذا الدم المنسكب من الجنب فى الكأس يروى نفوسنا وينعشها ويمنحها أعظم قوة، فتهرب الشياطين خائرة عندما ترى فينا علامة هذا الدم الإلهى.

هذا الدم المسفوك هو الذى غسل المسكونة كلها من أقذارها. هو تقديس نفوسنا وخلاصها وهو يزيدها بهاء ويشعلها كالنار. إنه يعطينا فهماً مستنيراً أكثر من لهيب النار

ونفساً لامعة أكثر من الذهب. إن هذا الدم لما سُفك على الأرض جعل السماء فى متناول أيدينا.

فما أرهب أسرار الكنيسة وما أرهب الجنب المقدس، فمن الفردوس الأرضى تنبع عين مياه وتتفرع إلى عدة أنهار مادية، والآن من هذا الجنب يخرج نهر مياه روحية وتندفع منه ينابيع نعم روحية فائقة.

وبهذا الدم الثمين إفتدى المسيح العالم وبه إقتنى كنيسته (أع٢٠: ٢٨)، وبه زينها بكل موهبة روحية، والذين يتناولون من دم جنب المسيح المسكوب فى الكأس إنما يلبسون المسيح نفسه ملكهم الذى يغذيهم بدمه الخاص.

لقد كشف لنا المخلص حبه الفائق من نحونا عندما قدم لنا حياته بملئها على الشجرة (الصليب)، فصارت لنا هذه الشجرة عرش خلاص أبدى، منها نقتات وبجذورها نتأصل فى الإيمان وبأغصانها نمتد فى الشركة، نداها يفرحنا ونسيمها ينعشنا ويثمرنا ويسندنا ويجمعنا ويحصننا بالقوة الإلهية التى إنسكبت من الجنب الإلهى المفتوح.

فالماء والدم هما العنصران الجوهريان العاملان فى المعمودية (الماء والروح) وفى الإفخارستيا (القدسات للقديسين)، حتى أن بعض اللاهوتيين المحدثين يسمون الكنيسة **مؤسسة معمدانية إفخارستية**.

١) الحربة التى فتحت الفردوس مرة ثانية

عندما يصل القديس مار إفرآم السريانى فى تفسيره للأناجيل المتوافقة (الدياتسيرون *Diatessaron*) إلى ما كتبه القديس يوحنا الإنجيلى (يو١٩: ٣٤) «لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء» يكتب متعجباً:

«لقد أسرعتُ إلى سائر أعضائك ومنها جميعاً نلتُ كل نوع من العطايا. فمِن الجنب الذى طعنته أنا بالحربة دخلتُ الجنة التى يحرسها السيف. فلتدخلنا من ذلك الجنب الذى طُعن لأننا قد تعرينا بمشورة ذلك الضلع الذى أُخذ (أى حواء). إن النار التى إحترقت فى آدم أحرقته فى ضلعه هذا، لذا طُعن جنب آدم الثانى ومنه خرج ماء ليطفئ ويخمد نار آدم الأول».

وبعد ذلك بقليل فى تفسيره يسترسل مار إفرآم قائلاً:

« "وخرج دم وماء" أى كنيسته التى تأسست على جنبه، تماماً كما أن زوجة آدم قد أُخذت من جنبه. فكما أن زوجة آدم كانت "ضلعه"، كذلك فإن "دم" ربنا هو كنيسته. من ضلع آدم خرج الموت، ومن ضلع ربنا خرجت الحياة».

وهذه العبارات التى كتبها مار إفرآم السريانى تمثل جوهر موضوعنا هنا: **الأسرار الخفية لجنب المسيح.**

إن آية يوحنا «خرج دم وماء» يمكن أن تُوصف بأنها أساس ومحور التفسير السريانى المبكر لقصة الجنة الواردة فى سفر التكوين، ولتناوله للفردوس الجديد أى الحياة السرائرية فى الكنيسة. وتنطوى هذه الآية على مدلولات رمزية ثرية بشكل فائق، وسوف نتناول هنا بعض أهم هذه النقاط فقط.

تقدم هذه الآية نقاط ثلاث هامة ينطلق منها التفسير الرمزى: **الجنب ـ الطعن بالحربة ـ الدم والماء.** وأول هذه النقاط أى الجنب يمثل إرتباطاً مع الماضى وبداية تاريخ الخلاص، بينما تشير النقطة الأخيرة أى الدم والماء إلى المستقبل فى بانوراما تاريخ الخلاص.

فجنب المسيح له إرتباطه الوثيق بجنب آدم أى ضلعه الذى خُلقت منه حواء بطريقة معجزية (تك٢: ٢١)، وكذلك الحربة لها إرتباطها بسيف الشاروبيم الملتهب الذى يمنع الإنسان الساقط من دخول جنة عدن (تك٣: ٢٤).

أما الدم والماء فهما إشارة مسبقة إلى الكنيسة وسرى المعمودية والإفخارستيا، وطعن جنب آدم الثانى يفتح للإنسان ـ آدم الأول ـ الطريق إلى الفردوس حسبما يقول القديس مار إفرآم فى إحدى قصائده: «"خرج دم وماء" منه وبذلك غُسل آدم وأُحيى وعاد إلى الفردوس».

وفى كتاب سريانى من القرن السادس معروف باسم «**كهف الكنوز** *The Cave of Treasures*» نقرأ كيف تم هذا فيقول:

«إن الدم والماء اللذين خرجا من جنب المسيح المطعون نزلا فى فم آدم

(والذى هو مدفون تحت الصليب بحسب التقليد) فخلُص آدم ولبس ثوب المجد (أى نال نعمة المعمودية) وكتب المسيح قرار عودته (إلى الفردوس) بدمه وأرسله إلى الشاروبيم الذى يحرس الفردوس مع اللص اليمين».

وهنا نجد الخلفية الفكرية لأيقونة الصلب فى القرون الوسطى والتى رُسمت فيها جمجمة آدم تحت الصليب تماماً.

وقبل أن نستطرد فى مناقشة هذه الشبكة الهائلة من الرمزيات، يجب أن نوضح أنه بسبب التوافقات الرمزية بين «السيف» المذكور فى سفر التكوين و«الحربة» المذكورة فى إنجيل يوحنا، وبسبب العلاقة بين «ضلع» آدم و«جنب» المسيح، فإن أى من هذين المصطلحين فى كل من هاتين الحالتين يمكن أن يستخدم بالتبادل مع الآخر، ونرى هذا عندما نقرأ **الأبيات الأولى من قصيدة مار إفرآم السريانى عن الصلب**:

«طوباك أنت يا خشبة الصليب المحيية
لأنك صرتَ سيفاً للموت مخفياً
إذ بذَلك السَيف الذى طعنه
ذبحَ الابنُ الموتَ عندما
طُعن هو نفسه بهذا السيف
فالسيفُ الذى طعن المسيح أبطل السيفَ
الذى يحرس الفردوس
ومزق غفرانه صكَ ديننا».

كما يتحدث القديس مار إفرآم السريانى عن **إرتباط العودة إلى الفردوس بالأسرار** فيقول:

«مبارك هو الرحوم الذى رأى السيف
بجانب الفردوس مغلقاً الطريق
إلى شجرة الحياة، فجاء وإتخذ له
جسداً وجرح كى بفتح جنبه
يفتح الطريق إلى الفردوس».

٢) جنب المسيح وضلع آدم

إن جنب المسيح قد ولد «العروس» أى الكنيسة وأسس الأسرار، لأن هذا «الجنب» أو «ضلع» آدم الذى ولد حواء يقدم لنا رمز العهد القديم الذى تحقق فى العهد الجديد. ويشرح **يعقوب السروجى**، وهو شاعر سريانى أرثوذكسى من أوائل القرن السادس، ذلك بقوله:

«لقد طُعن جنب العريس ومنه خرجت العروس
محققاً الرمز الذى قدمه آدم وحواء.
إذ منذ البداية عرف الله وخلق
آدم وحواء فى شبه صورة ابنه الوحيد.
لقد نام على الصليب مثلما نام آدم فى سباته العميق
وطُعن جنبه ومنه خرجت ابنة النور.
خرج الماء والدم كصورة للأبناء الإلهيين
الذين هم ورثة الآب الذى يحب ابنه الوحيد.
حواء فى النبوة هى أم جميع الأحياء،
ومنْ هى أم الحياة إلا المعمودية؟
لقد حملت إمرأة آدم أجساداً بشرية خاضعة للموت
أما هذه العذراء فقد حملت كائنات روحية تحيا إلى الأبد...
إن جنب آدم ولد إمرأة وهى بدورها ولدت مائتين
وفى الصليب قام (المسيح) بتحقيق الرموز التى سبقت فرُسمت
وأستعلن السر الذى كان مخفياً...».

وفى هذه السطور ينحصر إهتمام يعقوب السروجى فى المقارنة بين حواء والعروس، بينما فى مواضع أخرى من كتاباته ينشغل بالأكثر بالطبيعة المعجزية للولادة، وبالتالى يقدم عنصرين جديدين لهذه الرمزية:

١) ميلاد آدم المعجزى من الأرض العذراء
٢) ميلاد المسيح المعجزى من مريم العذراء

ويقول مار يعقوب السروجى:

«الأرض العذراء ولدت آدم بطريقة مقدسة
حتى تشير بوضوح إلى ولادة مريم.
لقد نام آدم وطعن جنبه
ومنه خرجت حواء لتكون أماً للعالم كله
وهذا كان صورة لذلك النوم على الصليب
ولذلك الجنب الذى ولد المعمودية.
لقد نام آدم وأعطى أماً للعالم كله
والمخلص مات ومنه خرجت مياه المعمودية.
وإذا كان الجنب قد ولد حواء كما هو مكتوب
إذاً فإن العذراء أيضاً قد ولدت الابن،
كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالرمز».

هذه إذاً بعض النقاط الرمزية الهامة المكتوبة بالشعر والتى تتناول قصة آدم وحواء فى الفردوس من ناحية وميلاد المسيح المعجزى من مريم العذراء من ناحية الأخرى، مما يعطينا فهماً أفضل لآية يوحنا (١٩: ٣٤).

ويجب أن نعير إهتماماً خاصاً إلى نقطتين من تفاصيل كلمات الإنجيل وهما الفعل «خرج» وكلمتى «دم وماء»، فكل منهما يستخدم أحياناً قبل الأخر للتأكيد على أبعاد وأفكار مختلفة فى قصائد الآباء. وإذ فسر الآباء دائماً «الماء» على أنه ماء المعمودية، و«الدم» على أنه دم الإفخارستيا، لذلك كان هناك دائماً إتجاه غالب إلى كتابتهما بالطريقة التالية «ماء ودم» وليس «دم وماء».

وهناك نقطة أخرى هامة ومعقدة أيضاً، تلك هى أنه هناك إشارات كثيرة فى الشعر السريانى تتحدث عن ماء ودم «يفيضان» وليس «يخرجان» من جنب المسيح، والهدف من تغيير الفعل هذا من «خرج» إلى «فاض» هو ربط هذا النص بالتفسير الكريستولوجى لآية يوحنا ٧: ٣٧-٣٨، فبدلاً من فهم «أنهار ماء حى» على أنها تفيض من المؤمن الممتلئ بالروح (طبقاً لأكثر التفاسير إنتشاراً)، فإن العديد من الآباء اليونانيين والسريان قد وضعوا علامات ترقيم وتشكيل للآية بطريقة أخرى «دعوا كل منْ يؤمن بى يأتى إلىّ ويشرب كما

يقول الكتاب المقدس "من بطنه ستجرى أنهار ماء حى"»، وهكذا نجد مار يعقوب السروجى فى إحدى رسائله يتحدث عن «الخراف» (أى المعمدين) التى تجتمع «لتشرب من الماء الذى فاض من الصليب».

كما وتحدث مار يعقوب السروجى عن الإرتباط بين النبع الذى تفجر من الصخرة التى ضربها موسى وبين جنب السيد المسيح، وكذا عن الأنهار الأربعة التى تخرج من جنة عدن (تك٢: ١٠) وإرتباطها بالماء الذى سال من جنب المخلص.

٣) العروس التى خرجت من جنب المسيح

كثيراً ما قارن الآباء السريان بين ميلاد حواء من جنب آدم وميلاد الكنيسة أو المعمودية من جنب المسيح كما يقول **مار يعقوب**: «من جنبه خرجت الأم الثانية أى المعمودية» وفى موضع آخر يقول بوضوح أكثر:

«لقد جاء المسيح وأسس المعمودية على صليبه
حتى تصير أماً لجميع الأحياء عوضاً عن حواء.
وفاض الماء والدم ليخلقا الأطفال الروحانيين
وصارت المعمودية "أم جميع الأحياء"...»

ومن المثير للإنتباه أن إحدى الخدمات الطقسية فى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية تستخدم بالفعل هذه الإشارات فى صلوات تقديس الماء:

«... قدس هذا الماء، وعوضاً عن رحم حواء التى ولدت أبناء مائتين وفاسدين، فليلد رحم هذا الماء أبناء سمائيين روحانيين غير مائتين. وليحل روحك القدوس المحيى يا رب ويسكن ويستقر على هذه المياه ويقدسها ويجعلها مثل المياه التى فاضت من جنب ابنك الوحيد على الصليب».

ويصف يعقوب السروجى حواء الجديدة التى وُلدت من جنب آدم الثانى بأنها **«العروس»**:

«لقد نام المسيح على الصليب ومنه خرجت المعمودية،
نام العريس وفى نومه طُعن جنبه.

لقد ولد العروس مثلما وُلدت حواء من آدم الذى كان رمزاً له.
إن سبات نوم الموت جاء عليه على الصليب
ومنه خرجت الأم التى تلد كل الكائنات الروحية.
لقد ولد رب آدم فى نومه حواء الجديدة
لتصير أماً لأبناء آدم عوضاً عن حواء.
إن الماء والدم اللذين يخلقا أطفالاً روحانيين
فاضا من جنبه وهو الحى الذى مات حتى يهب الحياة لآدم.
ذلك الميت الذى كان حياً صنع أعجوبة بعد موته.
إذ خرج منه دم ليشهد أنه حى
وخرج منه ماء ليظهر أنه ميت
وفاض الدم أيضاً كى يعلمنا أنه كان حياً رغم أنه ميت.»

وعند الآباء السريان تتكرر كثيراً **صورة الزواج** عند الحديث عن المعمودية إذ هى خطبة النفس للمسيح، والعهد القديم يقدم رمزاً لذلك فى خطبة راحيل ليعقوب عند البئر (تك٢٩):

«لقد رأى المسيح الخطية جاثمة فوق بئر العالم
حتى لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى تيار مياه الحياة المنعشة.
لقد رأى المسيح الأمم مثل الخراف يتعذبون من الجفاف
لأن الخطية تغطى نبع الحياة مثل صخرة.
لقد رأى الكنيسة ـ مثل راحيل ـ وابتهج بحضورها
وأزال ثقل الخطية التى كانت مثل الصخرة فى ثقلها
مؤسساً لعروسه نبع المعمودية كى تستحم فيه.»

وفى تعليقه على الأناجيل المتوافقة (الدياتسيرون *Diatessaron*) يذكر مار إفرآم السريانى الخطوبات التى تمت فى العهد القديم بجوار آبار أو بجوار المياه مثل خطبة رفقة وخطبة راحيل وخطبة صفورة، فهذه جميعها ـ كما يقول مار إفرآم ـ كانت رموزاً لمخلصنا الذى خطب الكنيسة لنفسه فى مياه الأردن.

٤) الأردن والجلجثة والنبع

فى قصائده عن المعمودية يتخذ مار يعقوب السروجى من خطبة الكنيسة ومعمودية المسيح ـ وليس الصليب ـ نقطة البداية. لكن هذا التناقض ظاهرى فقط، إذ أن نبعا المعمودية بالنسبة للآباء السريان هما: معمودية المسيح فى الأردن وجنبه المطعون على الصليب، فهذا الحدثان الخلاصيان، منفصلان فى الزمن، لكن متحدان فى وحدة واحدة فى الزمن المقدس.

كما يشرح مار يعقوب أن الكنيسة هى التى خُطبت للمسيح فى معموديته وصلبه، أما فى كل معمودية مسيحية، فإن الإنسان الفرد العضو فى الكنيسة يصبح «**عروساً**» للمسيح بوجه خاص، ويكتب **يعقوب السروجى** عن ذلك بأسلوب رائع قائلاً:

«لقد أقام ابن الملك حفل عُرس بالدم فى الجلجثة
وهناك خُطبت له ابنة النهار لتصير إمرأته
وصُنع الخاتم الملوكى بمسامير يديه
وبدمه تمت خطبته.
هناك أمسك بيديها إذ رأى أنها أظهرت حبها
له فى ساعة عاره.
فأجلسها عن يمينه لتكون معه
وقادها إلى البستان ـ المخدع العرسى الذى أعده لها».

وكذلك فى عظته عن برقع موسى يقول:

«من مياه المعمودية خرج الإتحاد العفيف المقدس
للعروس والعريس المتحدان بالروح فى المعمودية،
عندما إتحدت الكنيسة مع ابن الله.
هل منْ عريس يموت لأجل عروسه إلا ربنا؟
هل منْ عروس تطلب رجلاً مذبوحاً ليكون زوجها؟
منْ ذا الذى ـ منذ تأسيس العالم ـ أعطى دمه هدية عرسه
إلا المصلوب الذى ختم زواجه بجراحاته؟

منْ ذا الذى رأى جثة موضوعة وسط حفل عرس
والعروس تحتضنها كى تتعزى بها؟
فى أى عرس غير هذا كسروا
جسد العريس للضيوف بدلاً من أى طعام آخر؟
إن الزوجات ينفصلن عن أزواجهن بالموت
لكن هذه العروس بالموت إتحدت بالحبيب.
لقد مات على الصليب وأعطى جسده لعروسه المجيدة
التى تكسره وتأكله كل يوم على مائدته.
لقد فتح جنبه وملأ كأسه بدمه المقدس
معطياً إياها لتشرب حتى تنسى أصنامها الكثيرة.
لقد لبسته فى الماء وأكلته فى الخبز
لقد شربته فى الخمر حتى يعرف العالم أنهما الإثنان قد أصبحا واحداً.
لقد مات على الصليب، ولكنها لم تقبل آخر عوضاً عنه.
إنها مملوءة بالحب إذ تعرف أن من هذا الموت وُهبت لها الحياة.

٥) الخمر الجديد الذى للعنصرة

لما كانت الإفخارستيا هى ذروة الخدمات الطقسية، لذا فعندما يتحدث آباء مثل مار يعقوب السروجى عن جنب المسيح وهو «يلد المعمودية» وأنه هو «الأم الجديدة»، يحملون فى أذهانهم بالتأكيد سر الإفخارستيا ومياه المعمودية معاً. وبالفعل كان «الدم» يعطى دماً تفسيراً إفخارستياً كما سنرى، وهكذا يعلق **مار فلكسينوس** فى إحدى رسائله: «خرج دم وماء... مياه المعمودية مع الدم الذى يعطى الحل والمغفرة. بالماء كانت الإشارة إلى الجرن، وبالدم كانت الإشارة إلى الأسرار المقدسة التى تطهرنا من الخطية فى كل مرة نتناولها فيها».

وفى عظته عن العنصرة، يقدم **مار يعقوب السروجى** عدداً من الأبعاد الجديدة لهذا الموضوع، فعندما يتحدث عن العنصرة وسكر التلاميذ المزعوم والمذكور فى أعمال (٢ :١٣): «وكان آخرون يستهزئون بهم قائلين أنهم قد إمتلأوا سلافة (سكراً)»، يقول أن

هؤلاء الذين رأوا التلاميذ ظنوا أنهم سكارى بخمر جديدة، ولكن هذا غير صحيح إذ هم مخطئون فى ظنهم أن هذه الخمر الجديدة قد عُصرت فى معاصر العنب العادية:

«إذ أى خمر يمكن أن تعطى مثل هذه الحكمة؟
لا، إنه الصليب الذى جعلهم خمره حارين فى الكلام،
فمنه نالوا نوعاً جديداً من الحكمة لم يتطلب أى تعليم.
إنه ذلك العصير الذى داسه اليهود على الجلجثة
هو الذى أعطاهم هذه الحرارة وعلمهم كل لسان.
إنها تلك «الخمر الجديدة» التى سالت من جنب
ابن الله هى التى علمتهم وأغنتهم بعطاياه لهم».

وهكذا نأتى إلى بُعد جديد فى الرمزية التصويرية المفضلة عند الآباء السريان، فبجانب «الكرمة» (يو١٥)، المسيح هو أيضاً «عنقود» العنب الذى أحضره كالب من أرض الموعد (عد١٣ :٢٣) وهو «السلاف» فى العنقود المخفى فيه البركة (أش٦٥ :٨).

والنص التالى هو من كتابات **كيرلونا** *Cyrillona* وهو من الشعراء السريان الأولين:

«لقد نضجت الكرمة سراً
بعد أن انتظروها ثلاثين عاماً.
لقد سمع الجوعى وجاءوا مسرعين.
جاء آدم يجرى من القبر
وحواء أيضاً جاءت من الهاوية
واجتمعت الكنيسة معاً من الجبال
والأمم المختارة من كل صوب
ورأوا العنقود معلقاً
على قمة الصليب....
بشفاههم أخذوا دمه
وبأياديهم قطفوا حقه.
الكرمة هى المسيح الذى جاء إلينا
معطياً لنا العنقود فى حبه...

لقد أحنت الكرمة رأسها فى فرح
تماماً كما أحنى ربنا رأسه
أمام العبد لاطمه.
إن الكرمة لا تصرخ
عندما يقطفها الحاصد
ولا المسيح نطق كلمة
عندما جلس قيافا ليقضى....».

٦) الكنيسة والأسرار ومريم العذراء

بالنسبة للآباء السريان، هناك بُعدان أساسيان فى الكنيسة:
فمن ناحية: الكنيسة تُستعلن فى سرى المعمودية والإفخارستيا
ومن الناحية الأخرى: الكنيسة تمثل مجموع الأفراد الأعضاء فيها.

والعلاقة بين هذين البعدين لها أهميتها ودلالتها، فالكنيسة تُستعلن فى الأسرار، والأسرار هى وسائل تقديس المؤمنين الذين يكوّنون الكنيسة، وبكلمات أخرى، الإفخارستيا التى فيها يقدس الروح القدس الخبز والخمر هى نموذج لما يجب أن يحدث للإنسان المسيحى، فبإستجابته لعمل الروح القدس يسمح له أن يقدسه هو أيضاً فيصبح أيقونة للمسيح، مثلما الخبز والخمر هما أيقونة للمسيح، وهكذا فإن المثال والنموذج (أى الإفخارستيا) أصبح وسيلة أيضاً لتحقيق ذلك الهدف.

كذلك هناك نموذج ومثال آخر يجب أن يقتدى به الإنسان المسيحى، تلك هى **العذراء مريم** حواء الجديدة التى بتعاونها وإستجابتها التامة لعمل الروح القدس ولدت الله المتجسد. والحديث عن العذراء مريم هنا يتوافق تماماً مع ما ورد فى يوحنا (١٩: ٣٤) ، وكذلك يرتبط دورها هنا فى نواح عدة مع العروس التى خرجت من جنب المسيح، فهناك تشابه بين دور العذراء فى التدبير الإلهى وبين دور الكنيسة والأسرار، فالعذراء قد ولدت المسيح، والكنيسة والأسرار يلدون «أيقونات للمسيح» أى المؤمنين. فالعذراء هى حواء الجديدة لأنها ولدت المسيح للعالم عوضاً عن الخطية، والكنيسة هى أيضاً حواء الجديدة لأنها العروس المولودة من جنب آدم الثانى. وبالطبع العذراء مريم ليست مثيلة تماماً للكنيسة، لكنها تمثل

نموذجاً ومثالاً للأعضاء الذين يكوّنون فى مجموعهم الكنيسة. وتتضح طبيعة العلاقة بين دور مريم العذراء ودور الكنيسة والأسرار فى شرح الآباء السريان لرمزية جنب المسيح.

إن نزول الله وميلاده المعجزى فى العالم كان يتطلب تعاون إنسان بشرى مع الروح القدس، وعندئذ فقط يمكن للميلاد المعجزى للأسرار من جنب المسيح أن يصعد بالإنسان إلى الله، وهكذا فإن دور مريم العذراء لابد أن يعتبر مكملاً لدور الكنيسة والأسرار فى عملية التدبير الإلهى.

وهناك نصان يرد فيهما الحديث عن العذراء مريم وعلاقتها الوثيقة بما ورد فى يوحنا (١٩: ٣٤). وأول هذين النصين هو من كتابات يعقوب السروجى الذى بإختياره لكلمات ذات مدلولات كتابية محددة، يعبر عن علاقة العذراء مريم بالأسرار المخفية فى جنب المسيح:

«مريم هى النبع الجديد الذى منه يفيض الماء الحى
وبالرغم من أنها لم تُطعن إلا أنها ولدت
مجارى فائضة للعالم الظمآن».

أما النص الثانى فيقدم تفسيراً لما ورد فى (لو٢: ٣٥) وهى نبوة سمعان الشيخ للعذراء «يجوز فى نفسك سيف». وفى الأناجيل المتوافقة المعروفة باسم «الدياتسيرون *Diatessaron*» ترد هذه الآية بطريقة مختلفة تكون فيها العذراء هى الفاعل فى الجملة: «سوف تجعلين سيفاً يجوز فى نفسك». وفى تعليق مار إفرآم على الدياتسيرون يقدم عدة تفاسير محتملة لهذه الآية قائلاً:

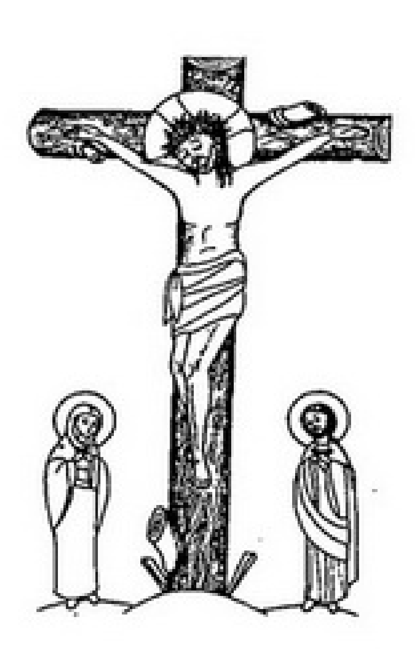
«سوف تجعلين سيفاً يجوز.... أى السيف الذى يحرس الفردوس لأن مريم صارت عوضاً عن حواء».

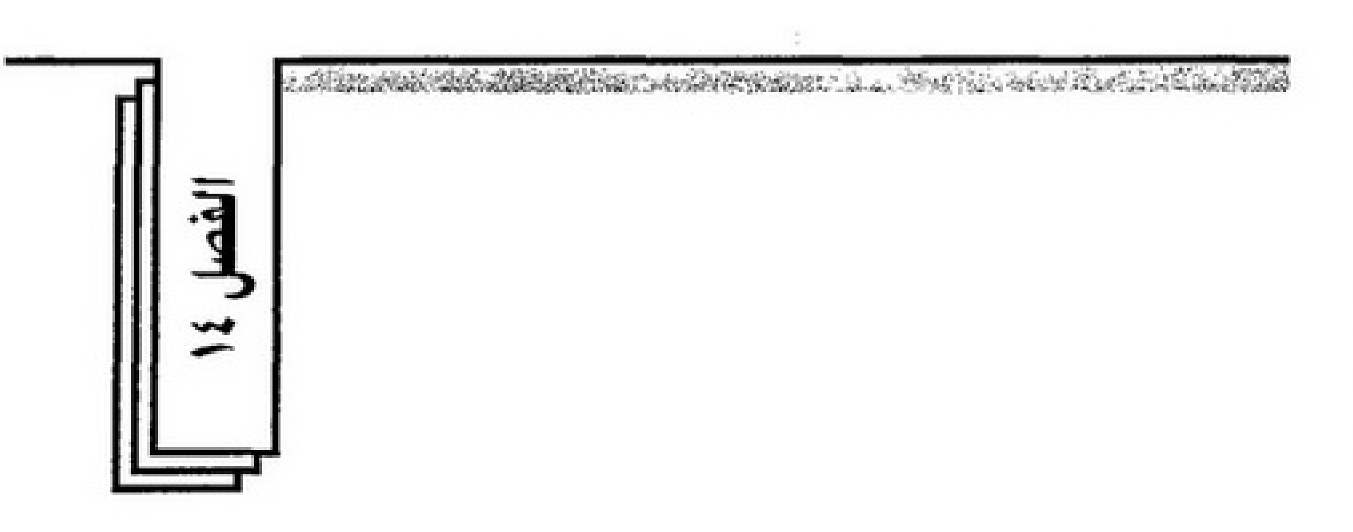
وهنا تأثر مار إفرآم بفكر مار يعقوب السروجى الذى قال:

«بمريم فُتح ثانية الطريق إلى عدن بعد أن كان قد أُغلق.
لقد هربت الحية وصار فى مقدور الإنسان أن يصل إلى الله.
بمريم وضع الشاروبيم سيفه جانباً، ولم يعد بعد يحرس
شجرة الحياة (أى المسيح) والتى أعطت نفسها الآن لكى تؤكل».

ونختم هذه المقالة بما يقوله القديس مار إفرآم السرياني:

«من الصخرة تفجرت مياه للشعب اليهودى الذى شرب وتقوى
ومن الخشبة على الجلجثة تفجر نبع الحياة للأمم.
بحد السيف كان الطريق للحياة محروساً
لكن الآن أعطى رب الشجرة نفسه للأمم طعاماً.
وبينما أُعطى آدم الأول شجر عدن ليأكل منه،
لنا نحن أعطى غارس عدن نفسه ليصير طعاماً لنفوسنا.
لقد خرجنا من الفردوس مع آدم عندما تركه
أما الآن فإذ قد أُزيلت تلك الحربة (السيف) بأخرى
فلنتمنطق وندخل».





طقس الإنضمام
إلى الكنيسة الأولى

طقس الإنضمام

إلى الكنيسة الأولى

١) تسجيل الأسماء

كانت المعمودية فى القرن الرابع تتم أثناء ليلة أحد القيامة، إلا أن الإستعدادات الخاصة بالمعمودية كانت تبدأ بالفعل فى بداية الصوم الكبير، ففى بدايته كان الراغبون يسجلون أسماءهم ويبدأون فى الإستعداد لنوال هذا السر، وكانوا يعتبرون منذ تسجيل أسمائهم وحتى نوالهم السر مجرد «**موعوظين** *Catechumen*»، وكثيراً ما تحدث الآباء ونصحوا الذين يؤجلون نوالهم لهذا السر. ومنذ اللحظة التى يسجلون فيها أسماءهم، يشكل المتقدمون جماعة جديدة تسمى «**المقبلون إلى النور** *Photizomenoi*».

يبدأ الإستعداد للمعمودية بطقس التسجيل الذى نجد وصفاً له فى مذكرات القديسة إيثيريا والتى تقول فيها: «كل من يريد أن يسجل اسمه يسجله فى عشية الصوم الكبير، ويقوم أحد الكهنة بتدوين الأسماء. وفى اليوم التالى، أى أول أيام الصوم، بداية الثمانى أسابيع، يقدم هؤلاء الذين سجلوا أسماءهم إلى الأسقف فى وسط الكنيسة الرئيسية التى هى كنيسة المارتيريم *Martyrium* (أى كنيسة على اسم شهيد)، ويقدم إليه المتقدمون كل على حدة، يصحبهم أشابينهم. وعندئذ يسأل الأب الأسقف عن كل متقدم قائلاً: هل يحيا حياة صالحة؟ فإذا شهد الذين سؤلوا فى حضور الشهود أنه بلا عيب، يسجل الأسقف اسمه بنفسه، ولكن إذا كان المتقدم لا يحيا حياة مستقيمة، يخبره الأسقف أن يخرج قائلاً: «ليصلح حياته ثم بعد ذلك يتقدم إلى المعمودية».

وهكذا نجد أن طقس التسجيل كان يتكون من:

١) يقدم الراغب فى نوال سر المعمودية اسمه إلى الكاهن وأحياناً إلى الشماس فى العشية.

٢) فى اليوم التالى يتقدم ومعه أشبينه ويجوز نوعاً من الإختبار لكى يتم التأكد من إستقامة وسلامة دوافعه وإشتياقاته.

٣) بعد ذلك يسجل الأسقف اسمه رسمياً فى السجلات.

ويرى الآباء أن هذا الإختبار الذى يسبق تسجيل الاسم يعنى أن الشيطان فى هذه اللحظة يحاجج ضدنا بحجة أنه ليس من حقنا أن نهرب ونتحرر من سلطانه معتبراً أننا ملكه، فنسرع إلى القاضى لنقيم دعوانا ونقدم أدلتنا.

وهنا نتقابل مع أحد أبعاد لاهوت سر المعمودية، وهو **الحرب مع الشيطان**، فطقوس المعمودية هى دراما يجاهد فيها المتقدم ـ والذى ما زال فى مملكة الشيطان حتى ذلك الحين ـ لكى يهرب من سطوة أبليس، وتبدأ هذه الدراما بالتسجيل ولا تنتهى إلا بالتعميد أى بالمعمودية الفعلية. ويربط أحد الآباء بين المحاكمة التى يجوزها المتقدم وتجربة آدم من ناحية وبين تجربة السيد المسيح آدم الثانى من الناحية الأخرى، وهكذا نجد أنفسنا وسط الرمزية الكتابية، عندما تكون تجربة المتقدم للمعمودية هى بدورها شركة فى تجربة المسيح، وهكذا هناك إرتباط بين مشهد آدم الأول فى الفردوس ومشهد المتقدم للمعمودية وبينهما مشهد تجربة المسيح آدم الثانى الجديد ويتضح هذا الفكر فى تعليم الموعوظين فى «أحد التجربة» أثناء الصوم الكبير.

بعد الإختيار يأتى التسجيل نفسه وتدوين الأسماء، ولهذا أيضاً تفسيره الرمزى، ففى عظة عن «هؤلاء الذين يؤجلون إقتبالهم المعمودية» يقول **القديس اغريغوريوس النيصى**: «إعطونى أسماءكم لأكتبها بالحبر، لكن الرب نفسه سوف ينقشها على ألواح لا تبلى، ويكتبها بأصبعه كما كتب شريعة العبرانيين». فالكتابة المنظورة فى سجل الكنيسة هى رمز لكتابة أسماء المختارين على ألواح السماء

ويرى أسقف نيصص أن الكتابة فى سجلات الكنيسة هى رمز للكتابة فى الكنيسة السمائية: «أنتم يا من تتقدمون للمعمودية: إن ذاك المفوض لهذه الخدمة يكتبكم فى كتاب الكنيسة حتى تعرفون أنكم منذ الآن مكتوبون فى السماء، وسيهتم أشبينكم إهتماماً عظيماً بتعليمكم ـ أنتم الغرباء فى هذه المدينة التى لم تدخلوها إلا حديثاً ـ كل ما يخص الحياة فى هذه المدينة لكى تعتادوه».

وهكذا، فى الأحد الأول من الصوم الكبير، كان المتقدمون يختبرون ويتسجلون، وكانت فترة الأربعين المقدسة التى تليها هى فترة إستعداد، فنسمع **القديس كيرلس الأورشليمى**

يقول: «بدءً من هذا اليوم ابتعدوا عن كل عمل شرير، ولا تتفوهوا بأى كلمات باطلة غير نافعة» بل «ارفعوا عيون نفوسكم وتأملوا فى الخوارس الملائكية وفى رب الكون الجالس على عرشه»، ويجب أن تُكرس هذه الفترة بكليتها للإستعداد للمعمودية: «إذا اقترب يوم عرسك، ألا تترك كل شئ آخر وتُكرس نفسك بالتمام للإستعداد له؟ أنت الآن فى طريقك لتكرس نفسك لعريسها السمائى، أفلا يجب أن تترك هذه الأمور المادية لكى تربح الأمور الروحية؟».

وهذا الإستعداد يتضمن تثبيت وتقوية الإيمان ضد حروب الخطأ والإنحراف ـ والذى هو هدف تعليم الموعوظين ـ من ناحية، ومن الناحية الأخرى يتضمن تنقية وتطهير فيها «يجب أن يُزال صدأ النفس حتى لا يبقى إلا المعدن الحقيقى فقط».

ويقول **القديس اغريغوريوس النزينزى**: «مادمت موعوظاً فأنت على عتبات الملكوت، يجب أن تدخل إلى الداخل، أن تجتاز الساحة الملوكية، أن تتفرس فى المقادس، وأن تنظر إلى أقداس القديسين وأن تأتلف مع الثالوث القدوس... إشهر حربة المؤمن فإن عدوك يخافك حين تقاتل بالسلاح، ولأجل هذا يريد أن يعريك من النعمة لكى يغلبك بأوفر ما تكون الغلبة، فليُصد بكل وسيلة حتى يرتد ويُقهر».

٢) جحد الشيطان

وفى هذه الأثناء يحضر الموعوظون يومياً إلى الكنيسة فى الساعة الأولى من النهار. ويتضمن الطقس اليومى أول كل شئ صلاة على الموعوظ لإخراج الشياطين *Exorcism*، ويخبرنا التقليد القديم بأن العادة كانت أن هؤلاء الذين سيعتمدون يحضرون إلى الكنيسة يومياً فى الصوم الكبير وقبل كل شئ يصلى عليهم الإكليروس صلوات إخراج الشياطين.

ويقدم **القديس كيرلس الأورشليمى** بعض التعاليم عن كيف يجب أن يسلك الموعوظون أثناء صلوات إخراج الشياطين: «أثناء صلوات إخراج الشياطين، بينما يتقدم الآخرون ليصلى عليهم هذه الصلوات، يجب أن يجلس كل واحد وفى يديه كتاب نافع يقرأ فيه أحدهم ويصغى الآخرون، أما السيدات الصغيرات فيجب أن يرنمن المزامير أو يقرأن، ولكن يجب أن يكون ترنيمهن بصوت خفيض، فتتكلم شفاههن لكن لا يصل الصوت إلى مسامع الآخرين».

وقد شرح كيرلس أسقف أورشليم بإستفاضة معانى صلوات إخراج الشياطين، فهى تعبر عن الحرب القائمة بين المسيح والشيطان حول نفس المؤمن، ذلك أن الشيطان يجول ملتمساً منْ يبتلعه، لذا يسعى بكل جهده ليحتفظ بهذه النفس لتكون أسيرة له مستعبدة لسلطانه الأثيم، ويقول **القديس كيرلس الأورشليمى**:

«إن الحية قابعة بجوار الطريق، تراقب هؤلاء الذين يجتازون الطريق، فاحترس لئلا تعضك بعدم الإيمان، إذ تراقب بعينيها هؤلاء السالكين فى طريقهم إلى الخلاص وتلتمس منْ تفترسه. أنت فى طريقك إلى أبى الأرواح لكن لابد أن تمر بالحية، فكيف تتحصن ضدها؟ حاذى أرجلك بإنجيل السلام، لكى إذا عضتك الحية لا تؤذيك عضتها، ومتى رأيت فكراً شريراً يأتى إلى روحك، فإعلم أنها حية البحر التى تنصب لك الفخاخ، لذا احرس نفسك لئلا تنال منك».

وهناك شاهد آخر على أهمية الجهاد ضد الشيطان فى طقوس المعمودية وعلى اعتراض الشيطان للطريق المؤدى إلى الله وإحتياجنا لأن يُهزم لكى نصل إلى الله، وهو موجود فى خبرات روحية أخرى، بالإضافة للمعمودية، خاصة فى الإستشهاد فقد رأت الشهيدة بربتوا فى رؤيا «سلماً صاعداً إلى السماء، وعليه جالس تنين ذو حجم هائل جداً، وهو يكمن ويتربص لهؤلاء الذين يرتقون السلم».

وبصفة عامة، يُصور الشيطان دوماً وهو يحاول أن يعترض طريق أرواح المنتقلين إلى السماء، وقد رأى القديس العظيم الأنبا أنطونيوس فى رؤيا: «كائن ضخم جداً يصل إلى السماء فاتحاً ذراعيه ويمنع النفوس من النهوض والقيام، ففهم (أى الأنبا أنطونيوس) أن هذا هو العدو». ولعل هذا ما سجله لنا التاريخ الكنسى عن مفارقة نفس القديس مقاريوس الكبير لجسده وما رآه فى ذلك الحين من معاندة عدو الخير له.

ولطقس إخراج الشيطان هدف محدد وهو تحرير النفس تدريجياً من القوة والسيادة التى كانت لأبليس عليها، ويقول **القديس كيرلس الأورشليمى** للموعوظ: «تقبّل صلاة إخراج الشيطان وجحده بسرور ولهفة، سواء كانت نفخات أو لعنات، لأن هذا نافع لك. اعتبر أنك ذهب غُش وزُيف ونحن نبحث عن الذهب المُصفى، لكن الذهب لا يمكن أن يتنقى من شوائبه بدون النار، وبالمثل النفس لا يمكن أن تتنقى بدون هذه الصلوات والتى هى الكلمات الإلهية المختارة من الكتب المقدسة. وكما ينفخ الصائغون فى النار لكى ينفصل

الذهب عن الشوائب، كذلك صلوات إخراج الشيطان تجعل الخوف يهرب بواسطة روح الله، وتجعل النفس فى الجسد كما الذهب من الشوائب، وتجعل العدو الشيطان يهرب فلا يبقى إلا رجاء الحياة الأبدية».

بعد صلوات إخراج الشيطان فى البرنامج اليومى يأتى تعليم الموعوظين حيث يحضر المقبلون إلى العماد ومعهم أشابينهم وكل منْ يريد أن يسمع بشرط أن يكون مسيحياً، وفى أثناء الأربعين المقدسة يشرح الأسقف ويفسر الكتاب المقدس بداية من سفر التكوين، مفسراً المعنى الحرفى ثم المعنى الروحى، وهذا هو ما يسمى بتعليم الموعوظين *Catechesis*، وبعد خمسة أسابيع يتسلمون قانون الإيمان، ويشرح لهم معناه جملة جملة، كما كان الأمر فى شرح الكتاب المقدس بتفسيره الحرفى والروحى.

وتنتهى هذه العظات فى الأحد السابق للقيامة بقراءة قانون الإيمان، ويشرح **القديس كيرلس الأورشليمى** معنى تعليم الموعوظين بقوله: «لا تظن أنها مجرد عظات عادية، فالعظات العادية حسنة لكن إن أهملناها اليوم يمكننا أن نستمع إليها غداً، أما التعليم الذى يسبق معمودية الميلاد الثانى الجديد إن أهملته اليوم، أين يمكنك أن تجده مرة أخرى؟ هذا زمان غرس الأشجار، فإن لم تجهز الأرض وتحرثها، فمتى سيمكنك أن تغرس شجرة ما دمت لم تهيىء الأرض؟ إن تعليم الموعوظين هو بناء إن أهملنا حفر أساساته وإذا تركنا به فتحات وثقوب فإننا نبنى بيتاً مهتزاً، فأى منفعة من العمل بعد ذلك؟». إذاً زمان تعليم الموعوظين هو زمان وضع أساس الإيمان وغرسه وتثبيته.

ويرى بعض الآباء فى قراءة قانون الإيمان أنها جزء مكمل لصلاة إخراج الشيطان التى حررت النفس من عبوديته، فيكون ذلك نذراً بأن النفس ستحيا فى مخافة الله وطاعة وصاياه، ونلاحظ البعد المزدوج للصراع مع الشيطان والدخول فى ملكوت النور، ملكوت المسيح، فى ليتورجيا المعمودية بجملتها، إذ هى كلها «سر موت وقيامة» وبالمثل تحمل الطقوس الإستعدادية نفس هذه السمة.

أما أخر طقوس الاستعداد للمعمودية فيتم فى ليلة عيد القيامة، وذلك هو جحد الشيطان والتكريس للمسيح والإنضمام لعروسه وجسده الكنيسة، ويشكل هذا الطقس جزءً من طقوس الاستعداد رغم أنه يتم فى ليتورجيا ليلة القيامة، وقد شرحه كيرلس الأورشليمى أيضاً فى أولى عظاته عن الأسرار للموعوظين *The Mystagogic Catachesis*، ونجده

كذلك فى كتابات كل آباء الكنيسة وفى الكنائس جميعها: الاسكندرية، أورشليم، أنطاكية، روما. ومن أقدم الكتابات التى نجد فيها ذكراً لهذا الطقس كتابات العلامة ترتليان.

ويصف القديس كيرلس الأورشليمى طقس جحد الشيطان بأنه يتم فى حجرة المعمودية ويقف فيه الموعوظ ووجهه ناحية الغرب ويرفع يده ثم يجحد الشيطان كما لو كان حاضراً قائلاً: «أجحدك أيها الشيطان وكل قواتك وكل مواكبك وكل عبادتك الشريرة. والموعوظ يجحد الشيطان ووجهه نحو الغرب لأنه مكان الظلام المنظور» ولأن مملكة الشيطان ـ الذى الظلام نصيبه ـ هى فى الظلام، لذلك عندما نتجه بمعنى رمزى نحو الغرب نجحد هذا الظلام والطاغية المظلم عدو كل خير.

ونجد هذا الفكر فى تعليم الكثير من آباء الكنيسة، **فاغريغوريوس النيصى** يرى أن الغرب هو مكان سكنى قوى الظلام، ويعلق **هيلارى أسقف بواتييه** على آية المزمور ٤٧ «صعد الله بهتاف» قائلاً: «إنه إنتصار المسيح على قوى الظلام».

كذلك صيغة جحد الشيطان نفسها تجعل النفس لا تخشى من الطاغية القاسى الذى كان يأسرها قبلاً فى سلطانه وسيادته، لهذا يقول **كيرلس أسقف أورشليم**: «لقد أبطل المسيح قوته، وأهلك الموت بموته، حتى أننى أخيراً أُخرجت من إمبراطوريته». ورفع الموعوظ يده أثناء جحد الشيطان يوضح سمة هذا الجحد، ففى الأزمنة القديم كانت تستخدم هذه الإشارة عند القسم بنذر مقدس أو عند قطع عهد معين.

ويعتبر جحد الشيطان بمثابة رفض الموعوظ للعلاقة التى تربطه بالشيطان بسبب خطية آدم، أما تعبير «مواكب الشيطان *Pomps*» فكثيراً ما كان موضوع نقاش، وفى الغالب كان تعبير *Pompa Diaboli* (مواكب الشيطان) يعنى عبادة الشيطان كما يوضح العلامة ترتليان، ويبدو أن المعنى الأصلى لهذا التعبير يخص مظاهر العبادة الوثنية خاصة المواكب والألعاب، وهذا المعنى مرتبط بالتفسير الكتابى والأبائى أن عبادة الأوثان هى فى الواقع عبادة للشيطان لأن كل آلهة الأمم شياطين.

ونجد هذا التفسير فى كتابات **القديس كيرلس الأورشليمى** الذى يقول: «موكب الشيطان هو شهوة الذهاب إلى المسرح ولسباق الخيل فى المضمار، للألعاب فى السيرك،

ولكل الأمور الباطلة التى من هذا القبيل، وهو أيضاً تلك الأشياء التى تُقدم فى أعياد الأوثان وممارسات السحر وخداع الشياطين والتعاويذ».

ويقول **القديس مار إفرآم السرياني**: «جحدنا للشيطان ساعة المعمودية وإن بدا أمراً بسيطاً إلا أنه بالحقيقة مهم، ومغبوط كل منْ يستطيع أن يحافظ عليه. لأننا بقليل من الكلمات أنكرنا كل شر وكل ما يمقته الله، برفضنا للشيطان وكل أعماله وتعاليمه»، مؤكداً على أننا سنُدان فى اليوم الأخير بهذه العهود والإعترافات لأننا بكلامنا نُدان أو نتبرر.

ونفس المعنى يؤكده **القديس أمبروسيوس** عندما يقول:

«بعد ذلك فُتح لكم قدس الأقداس ودخلتم فى قدس التجديد، فتذكروا ما سُئلتم عنه وبماذا أجبتم. لقد جحدتم الشيطان وأعماله والعالم بكل تنعماته وملذاته، ولقد حُفظ ما نطقتم به لا فى قبور الأموات بل فى سفر الحياة. لقد رأيتم حينئذ الشماس ورأيتم الكاهن ورأيتم الأسقف فلا تهتموا بالمظاهر الجسدية بل بنعمة الأسرار. لقد تكلمتم فى حضرة الملائكة... فليس هناك مجال للخداع أو الإنكار. إنه ملاك يعلن ملكوت المسيح والحياة الأبدية.... لقد دخلتم لكى تميزوا عدوكم الذى كان عليكم أن تجحدوه كأنكم فى مواجهة، ثم إتجهتم إلى الشرق لأن منْ يجحد الشيطان يستدير نحو المسيح فيراه وجهاً لوجه».

٣) الإقرار الإيمانى

ويتلازم جحد الشيطان *Apotaxis* مع قبول المسيح والتكريس له *Syntaxis* ، فالأول هو هدم الجحيم ونقض العهد الذى كان سابقاً بين آدم والحية فى القديم، والثانى هو فتح فردوس الله الذى غرسه فى الشرق والذى منه طُرد أبونا آدم بسبب عصيانه وعدم طاعته. ويرمز لذلك بتحول طالب المعمودية إلى ناحية **الشرق** الذى هو مسكن النور ليعلن ويقر بالإيمان: «أؤمن بالآب والابن والروح القدس وبمعمودية واحدة للتوبة».

وهكذا يُعد الاعتراف الإيمانى الذى يُقال فى إتجاه الشرق تكملة للجحد الذى قيل فى إتجاه الغرب، ونجد هذا الطقس فى ليتورجيا المعمودية فى ميلان عند **القديس أمبروسيوس الذى يقول: «لقد إستدرت نحو الشرق، لأن منْ يجحد الشيطان يستدير نحو المسيح فيراه**

وجهاً لوجه». ونحن نعلم أن الإتجاه نحو الشرق *Orientation* فى الصلاة موجود فى العديد من الطقوس كما فى ليتورجية المعمودية، وكان تقليداً عاماً أن يتجه المرء نحو الشرق فى الصلاة، ويضع القديس باسيليوس الكبير هذا التقليد بين أقدم التقاليد فى الكنيسة.

ونجد الإتجاه نحو الشرق فى مبانى الكنيسة وفى الصلاة وفى لحظات الإستشهاد وفى لحظة النياح أيضاً، فعلى سبيل المثال القديسة ماكرينا أخت القديس باسيليوس «كانت تتحدث فى لحظة نياحتها مع عريسها السماوى والذى لم ترفع بصرها عنه إذ أن مضجعها كان موضوعاً نحو الشرق».

وللإتجاه نحو الشرق بُعد إسخاتولوجى أيضاً، فكان هؤلاء الذين يحتضرون يتجهون نحو الشرق، لأنهم ينتظرون حضور السيد المسيح ليأخذ نفوسهم، وهكذا البرق يخرج من المشارق وأيضاً مجىء ابن الإنسان (مت٢٤ :٢٧) لذا يقول **القديس ميثوديوس**: «إننا نقابل العريس فى ثياب بيض وبمصابيح بهية متجهة نحو الشرق قبل أن يدخل الملك من الأبواب».

وقد تطور هذا المعنى المرتبط بباروسيا الرب، وصار «الشرق» فى الغالب يعنى ببساطة السيد المسيح نفسه، لذا يقول **اغريغوريوس النيصى**: «اليوم العظيم الذى للحياة الأبدية لن يضاء بشمس منظورة بل بالنور الحقيقى، شمس البر، الذى دعاه الأنبياء **الشرق** (الشمس المشرقة) لأنه لن يُخفى بأى غروب». إنه شمس الخليقة المشرق إلى الأبد والذى لا يغرب أبداً.

هذا ويرمز بالشرق لفكرة الفردوس (تك٢ :٨) وبذا كان الإتجاه إلى الشرق تعبيراً عن الإشتياق إلى الفردوس وطننا الأول الذى غرسه الله وإشتياقنا إلى الآب السمائى لنقول له مع الابن الضال: إغفر لنا آثامنا. وعندئذ يُفتح لنا الفردوس الذى طُرد منه أبونا آدم بسبب عصيانه وعدم طاعته، فنتحول من الغرب إلى الشرق، نتحرر مع آدم الجديد وندخل الفردوس كرة أخرى، تاركين سيادة الشيطان ونتكرس للمسيح بعد جحد الإنسان العتيق.

ويُعتبر الإقرار الإيمانى شرطاً لنوال المعمودية حيث «كان مؤمنون ينضمون للرب» (أع٥ :١٤) ويصاحب ممارسة طقس المعمودية التعليم وجحد الشيطان والإنضمام والإيمان لأن «منْ آمن واعتمد خلص ومنْ لم يؤمن يُدن» (مر١٦ :١٤). ويقول **مار إفرآم السرياني**:

«سيُسأل كل واحد منا عن الإيمان الذى اعترف به وعن عهود معموديته. لقد اعترف كل منا بإيمان الكنيسة وأخذ الختم المقدس وأنكر الشيطان باصقاً عليه، وقبل المسيح وسجد له. نرى هل أدركتم قوة السر وإنكاركم للشيطان؟».

لقد كانت المعمودية أهم المناسبات للإعتراف بالإيمان أى الاعتراف بالمسيح يسوع حيث كانت تُجرى باسم الرب يسوع. غير أن صيغة هذا الإعتراف ـ والذى هو أساسى لإجراء المعمودية ـ مرت بمراحل عديدة بداية من الآباء الرسوليين وحتى المجمع المسكونى الثانى فى القرن الرابع الميلادى أى من مجرد عبارات بسيطة حتى نص الإعتراف الإيمانى الذى نصلى به اليوم فى طقس المعمودية.

وقد حوى هذا الإقرار «إعتراف إيمان» بالثالوث القدوس وبالرب يسوع المسيح (ميلاده ـ موته ـ قيامته وصعوده ـ مجيئه الثانى) وبالروح القدس وبالكنيسة الجامعة وبمغفرة الخطايا.

لذلك كانت الكنيسة تعد الموعوظين ليتسلموا قبل المعمودية معرفة الله، لكى لا يدخل الكنيسة إلا منْ يؤمن ويعترف إعتراف الإيمان أو كما يسميه أمبروسيوس **الاعتراف الثلاثى** الذى يزيل سقطات الماضى المتكررة، وهذا الإعتراف ليس فقط إعتراف بتمايز الأقانيم بل وأيضاً هو شهادة إيمان بتساوى الأقانيم. ويؤكد **القديس اغريغوريوس النزينزى** على أهمية أن لا يكون الإيمان نظرياً بل بالإعتراف اللسانى والقلبى فتكون العطية عن إستحقاق.

وقد تطورت إقرارات الإيمان لتعكس الإيمان المستقيم فى تعبيرات ومصطلحات قننتها الكنيسة، حيث يقوم الكاهن بترديد النصِ أمام الاشبين ثم يسأله ثلاث مرات: آمنت على هذا الشخص؟ فيجاوبه ثلاث مرات: آمنت.

والإقرار الإيمانى هو العلامة الحسنة التى يعبّر بها الإنسان عن إيمانه والذى به تكون المعمودية هى سر الإيمان، أو كما يقول **ذهبى الفم**: «فى الأسرار يمنح لله النعمة، ويقدم الإنسان إيمانه». وهذا الإيمان هو الذى يجعلنا نتمتع بنعمة المعمودية والخلود، فليس لنا إلا حياة واحدة نستطيع أن نحصل عليها بالإيمان بالثالوث القدوس.

وهنا تنتهى مرحلة الإعداد للمعمودية فى بداية ليلة القيامة، والآن يتقدم الموعوظ لنوال نعمة المعمودية المقدسة والإنضمام للجسد الحى جسد المسيح أى الكنيسة.

٤) طقس التعميد

يُعامل المقبلون على العماد كغرباء عن الكنيسة، أما دخولهم حجرة المعمودية فيعنى الدخول الفورى واللحظى إلى المعمودية والإنضمام الفعلى للكنيسة، هذا ويبدأ طقس المعمودية بـ:

١) خلع الثياب

٢) المسح بالزيت

وبعد ذلك يتم التعميد **بالتغطيس** فى جرن المعمودية ثلاث مرات، ثم يعقب ذلك **إرتداء الثوب الأبيض** والذى يناظر خلع الثياب قبل التعميد.

الآن يدخل المعمدون إلى داخل القصر الملكى الذى للملك المسيح، ويقودهم الملك سريعاً إلى داخل قصره ليتنفسوا فعلاً عطر وشذا الغبطة، ويجمعون الزهور والورود التى منها ستُصنع أكاليلهم، فدخولهم المعمودية يعنى دخولهم الفردوس الذى طُردوا منه بسبب خطية آدم الإنسان الأول. ويقول القديس **اغريغوريوس النيصى** لهؤلاء الذين يؤجلون إقتبالهم نعمة المعمودية: «إنكم خارج الفردوس أيها الموعوظون، تشاركون آدم أبونا الأول فى منفاه، والآن الباب مفتوح، فإرجعوا من حيث خرجتم». فعما قليل سيفتح الفردوس لهم جميعاً أى لأولئك الذين سيقبلون نعمة الميلاد الجديد، لذا يخلعون ثيابهم وكأنهم بذلك يخلعون الإنسان العتيق وأعماله، أى يخلعون عنهم حياتهم السابقة وإرتباطهم القديم بالأرضيات، يخلعونه كثوب متسخ ليلبسوا العديم الفساد الذى يعطيهم إياه المسيح، يتركون العتيق رمز الخطية والموت ويلبسون الفاخر الجديد.

ويقول **كيرلس الأورشليمى** أن خلع المُعمد لثيابه هو مشابهة لخلع المسيح ثيابه على الصليب، فالمعمودية هى مشابهة للمسيح فى موته وقيامته، لذا يرى كيرلس فى خلع الموعوظ ثيابه مشابهة لتجريد المسيح من ثيابه على الصليب، فالمعمدين يخلعون ثيابهم ويتعرون ليتشبهوا بالمسيح الذى بعريه جرد القوات والسلاطين وانتصر عليهم بلا خوف على الصليب.

ويخلع المعمد ثوبه حتى يترك العتيق ولا يرتد بعد الآن إليه، وهو كما قلنا مشابهة لتجريد المسيح من ثيابه كشركة فى عريه ليتجرد الموعوظ من الأمور العتيقة ويجرد قوات

الشر من سلطانها الذى كان لها عليه. وثوب الفساد والخطية العتيق الذى يخلعه الموعوظ متشبهاً بالمسيح هو عينه الثوب الذى إكتسى به آدم بعد سقوطه، وهنا نرى علاقة بين أيقونة آدم فى الفردوس بعد أن هزمه الشيطان وهو مكتسى بالفساد، وبين أيقونة رابية الجلجثة حيث يخلع المسيح، آدم الثانى الذى هزم وسحق الشيطان، ثياب آدم الأول التى للفساد، وبين المعمودية التى فيها يخلع الموعوظ الفساد الذى كانت له فيه شركة عندما كان فى مملكة الظلمة تحت سيادة أبليس، ويرمز الآباء للموت الذى صار إليه آدم بـ «أقمصة من الجلد» المذكورة فى (تك٣:٢١)، فعندما تخلع النفس أقمصة الجلد التى لبستها بعد السقوط تنفتح على الكلمة بإزالتها البرقع من على قلبها، أى الإنسان العتيق الذى يجب على هؤلاء الذين يرغبون فى أن يغتسلوا فى حمام الكلمة أن يخلعوه.

فالتجرد من الثياب هو خلع للموت والفناء وهو رمز للمآزر المصنوعة من ورق التين التى لبسها آدم وحواء بعد سقوطهما كشاهد ودليل على فقدانهما لبراءتهما وتغطيهما بأوراق الشجر وإختفائهم وخجلهم نتيجة خطيتهما. إننا بخلعنا للثياب نخلع القديم ونستعيد البراءة الأولى ونزيل الخجل ونستعيد الشعور بالثقة البنوية والتى كانت إحدى البركات التى أُعطيت للإنسان فى الفردوس. فبالمعمودية يعود أبناء الله إلى حريتهم بعد الخروج من الفردوس، ويتركون المآزر المصنوعة من ورق التين ليلبسوا ثوب الكرامة ويستعيدوا ثقتهم البنوية بلا خجل ويأتون إلى وضح نور النهار.

ويشرح **القديس كيرلس الأورشليمى** أن النزول إلى جرن المعمودية يُعد نزولاً إلى مياه الموت والتى هى مكان سكنى تنين البحر، على مثال المسيح الذى نزل فى مياه الأردن لكى يسحق رأس التنين المختفى هناك، ونزول يسوع إلى المياه قيد وأوثق الشيطان لننال نحن القوة التى بها ندوس على الحيات والعقارب ونسد فم الموت من الآن فصاعداً، وننال الخلاص كاسرين شوكة الموت منتصرين على التنين المرعب، وبعد أن ننزل إلى المياه أموات فى الخطية، نصعد إلى حياة البر.

أما تقديس مياه المعمودية فيتم باستدعاء الآب واستدعاء الابن وإستدعاء الروح القدس (إستدعاء الثالوث القدوس) الذى به ننال قوة التقديس، فليست كل المياه تشفى، لكن فقط تلك التى بها نعمة المسيح هى التى تشفى، إذ أن الروح القدس قد قدّسها (بحسب تعبير القديس أمبروسيوس).

فالرب حاضر فى المعمودية بالعمل وبالحضرة، وغير المنظور يُرى فى الحقيقة أكثر من المنظور، لأن ما يُرى هو زمنى أما الذى لا يُرى فأبدى، ولا يُدرك بالعين بل بالقلب والروح. فلنؤمن إذاً أن الرب يسوع يتعطف ويتفضل بحضرته وعمله بعد أن نقر بالإيمان بالآب وبالابن وبالروح القدس.

ويتكون طقس المعمودية من **التغطيس ثلاث مرات** مصحوباً بإستدعاء الثالوث القدوس ليتطهر المعمد من خطاياه ويُولد من جديد فى طهارة *Catharasis* وفى غسل *Loutron*، أما **الخروج من الجرن** فيرمز إلى شركة الروح القدس التى تعطى للإنسان نعمة التبنى وتجعل المعتمد مخلوقاً جديداً بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس (أف٥:٢٦) (تيطس٣:٥).

إنها خلقة جديدة للإنسان بحسب صورة الله، بعد أن خلع موت آدم العتيق ليستعيد شبه الله، فالدفن فى المعمودية هو مشابهة لموت المسيح، إذ كما نزل المسيح من على الصليب ووُضع فى القبر هكذا التغطيس والصعود من الماء ثلاث مرات هو رمز لدفن المسيح ثلاثة أيام، وبذلك متنا وولدنا وكانت المياه المخلصة بالنسبة لنا قبراً وفى الوقت عينه رحماً وأماً.

فكل منْ يعتمد إنما يُصلب مع المسيح ويموت معه ويُدفن معه ويقوم معه ثانية للتبنى، لأننا نُدفن مع المسيح بالمعمودية لنقوم ثانية معه، نغطس (ندفن) ثم نصعد (لنقوم ثانية)، والثلاث تغطيسات ترمز للثلاثة أيام التى قضاها السيد فى القبر. وكذلك نُغطس ثلاث مرات لندفن على اسم الثالوث القدوس. ويقول **القديس اغريغوريوس النزينزى**: «فلندفن ذواتنا إذاً مع المسيح بواسطة المعمودية حتى نقوم معه، ولننزل معه إلى القبر لنرتفع معه، ولنصعد معه لكى نتمجد بمجده».

وكل منْ اعتمد للمسيح اعتمد لموته، لأننا دُفنا معه فى القبر لكى نقوم ثانية ونستنير بنعمة المعمودية، فالموعوظ يغطس بكامله فى الماء كصورة ورمز للموت والدفن ليشابه سرياً موت المسيح ودفنه ليقوم معه وينال نعمة القيامة بقوة أسماء الأقانيم الثلاثة القدوسية.

فالمعمودية هى القبر الذى يُدفن فيه الإنسان العتيق الخاطئ وهى أيضاً العنصر المحى الذى فيه تُولد الخليقة الجديدة. إنها قبر وأم فى وقت واحد، وهى إداة الثالوث لخلاص

كل البشر، فالمعمودية أم لى، والله العلى كأب، والرب الذى إعتمد لأجلنا يضمنى كأخ، إذ أن المعمودية واحدة للجميع تأتينا نعمتها مجانية وتساوى الكل فى القيمة والكرامة:العبيد والأسياد، الفقراء والأغنياء، لأن نعمتها متساوية بين الجميع.

ثم نأتى بعد طقس التعميد نفسه إلى طقس ختامى ذلك هو **إرتداء المعتمد للثوب الأبيض**، وعن هذا يقول **القديس أمبروسيوس**: «لقد أُعطيتم ثياب بيض لكى تكون علامة على خلعكم لثياب الخطية وعلى أنكم ترتدون ثياب البراءة النقية الطاهرة». هذه الثياب البيض تعطى عوضاً عن الثياب القديمة المتسخة التى تُخلع قبل المعمودية، والتى هى رمز لـ «الإنسان العتيق»، فهذه الثياب البيض هى رمز للإنسان الجديد الفاخر، لذلك سميت المعمودية «**لبس عدم الفساد**» و«**الثوب البهى المشرق**».

فالذين إعتمدوا للمسيح قد لبسوا المسيح أى لبسوا عدم الفساد وإكتسوا بالبهاء المشرق وبثوب الخلاص والفرح «ألبسنى ثوب الخلاص وكسانى بثوب الفرح». إنها ثياب مشاركة مجد ربنا فى تجليه (مت١٧ :٢)، والذين يعتمدون يصيرون بيضاً كالثلج ويرتدون قميص الحرب الأبهى من الشمس. لهذا كان المعمدون يشربون أثناء طقس المعمودية لبناً ويأكلون عسلاً، إذ بالمعمودية صار لهم حق الدخول إلى تجلى الملكوت وإلى كنعان السمائية الموعودون بها.

وبهذه المعانى الروحية يكون قبول الإنسان للخلاص يتم فى الواقع العملى من خلال طقس الأسرار الكنسية المقدسة، فيقبل المعمد الخلاص الذى إكتسبه لنا المسيح، حيث روح الله الذى يرف على وجه المياه، فبالماء والروح تدخل الفلك لننجو من طوفان الموت عابرين وسط الماء إلى الخلاص بينما تهلك وتباد الشياطين التنانين كما غرق فرعون وجنوده. نجتاز لنغتسل من أوساخنا ولنولد من جديد فنرى إستمرار عمل الله كخالق وكمخلص للبشر منذ بدء الخليقة، ندفن معه عندما نغطس فى المعمودية لنقوم أيضاً معه سالكين فى جدة الحياة.

هذا التغطيس الذى يتم بصورته المثلثة إنما يرتبط بالأيام الثلاثة لبقاء المسيح مدفوناً فى القبر قبل قيامته المجيدة من الأموات، ونُعمد على اسم الثالوث القدوس كشرط شرعى فى طقس ممارسة السر لكى نلبس المسيح ونتحد بجسده، إذ خارجاً عن الإيمان بالثالوث القدوس يستحيل أن نعرف المسيح أو نتحد به بإعتباره «الواحد فى الثالوث».

ويشير طقس المعمودية إلى الموت والقيامة بإعتبار أن المعمودية هى قيامة «سرائرية» فى المسيح، فلا قيامة إلا بالدفن (كو٢ :١٢، رو٦ :٣، ٢تى٢ :١١) لذلك تستعلن الحياة الأبدية فى نعمة المعمودية وتثمر الإتحاد السرى مع الرب القائم من بين الأموات.

وبالجملة نُولد من الماء والروح (يو٣ :٥) تاركين الفاسد والعتيق لابسين الثياب البيض التى كسانا بها شمس البر الرب يسوع المسيح الذى إعتمد من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا.

ويقول **القديس يوحنا ذهبى الفم**: «إن الذين كانوا بالأمس أسرى هم اليوم أحرار ومواطنو الكنيسة؛ الذين كانوا قبلا فى عار خطاياهم هم الآن فى الجرأة والبر، لأنهم ليسوا أحراراً وحسب بل قديسين أيضاً، ليسوا قديسون فحسب، بل أبرار أيضاً، ليسوا أبراراً فحسب، بل أبناء أيضاً، ليسوا أبناء وحسب بل ورثة أيضاً، ليسوا ورثة فحسب، بل إخوة المسيح أيضاً، ليسوا إخوة المسيح وحسب، بل وارثون معه أيضاً، ليسوا وارثين معه فحسب بل أعضاؤه أيضاً، ليسوا أعضاءه فحسب بل هياكل أيضاً، ليسوا هياكل فحسب بل أدوات الروح أيضاً. أرأيت كم يبلغ عدد مواهب المعمودية؟ ففى حين يعتقد الكثيرون أن المعمودية لا تهب إلا مغفرة الخطايا، عددنا نحن لها عشرة أمجاد. لهذا السبب نعمد الأطفال الصغار وإن كانوا بلا خطايا وذلك لتُمنح لهم القداسة والبر والبنوة والميراث والإخوة ويصيروا أعضاء للمسيح ومسكناً للروح القدس».





مسحة الميرون

فى الكنيسة الأولى

مسحة الميرون

فى الكنيسة الأولى

فى اللحظة التى يقبل فيها الإنسان خلاص الله والإستنارة والميلاد الجديد، ينال أيضاً الروح القدس نفسه فى سر المسحة المقدسة كعطية خاصة من الله ليصير ملكاً له، ففى سفر الأعمال نقرأ فى الإصحاح الثامن عن تجديد أهل السامرة نتيجة تبشير فيلبس أحد الشمامسة السبعة. فقد عمدهم فيلبس، لكنهم لم يقبلوا الروح القدس، ثم أتى الرسولان بطرس ويوحنا ووضعا عليهم الأيادى وحينئذ حل عليهم الروح القدس.

وفى طقوس المعمودية المبكرة جداً (حوالى أواخر القرن الثانى) كانت المعمودية يتبعها مباشرة الدهن بزيت الميرون المقدس ووضع يدى الأسقف على المعمد. وقد كان طبيعياً فى «سر» إعطاء الروح القدس أن يكون مرافقاً لطقس وضع الأيدى. ويصف هذا الطقس **العلامة ترتليان** فيقول: «ليس فى المعمودية وحدها ننال الروح القدس لأننا فى المعمودية نتطهر ونتهيأ لنوال الروح القدس». فسر المسحة المقدسة الذى يتبع سر المعمودية مباشرة هو السر الذى فيه نتقبل موهبة وعطية الروح القدس للإنسان المولود جديداً لله.

سمات المسحة فى العهدين

إن السمة الأولى لسر الميرون هى «**المسح ـ الكاريزما** *Charisma*» وهى الحقيقة التى تقدم لنا على الفور رمزية كتابية. ففى العهد القديم كان المسح هو الطقس الذى يُكرس به الكهنة والملوك، وكانت المسحة تمثل سراً يُعطى به الروح القدس لهم فى ضوء وظائفهم.

ونجد فى الأنبياء رمزية أولية مسيانية تعلن أنه فى ملء الزمان سيأتى المسيح المسيا (خريستوس) الذى كان الملك داود ونسله مجرد رموزاً له، وتمثل هذه الرمزية المسيانية مكاناً هاماً فى سفر المزامير، وهى أيضاً رمزية إسخاتولوجية تحققت فى يسوع المسيح ابن الله، وهذا ما يؤكده العهد الجديد. والاسم نفسه «**المسيح**» أُعطى للمسيح تعبيراً عن ذلك. وهو

نفسه قد قبل هذا اللقب أمام بيلاطس البنطى (مت٢٧ :١٢). وكذلك نسب المسيح إلى نفسه نبوة أشعياء (١١ :١) واصفاً إنسكاب الروح القدس على المسيا الآتى (لو٤ :١٨) وما ينطبق على المسيح ينطبق أيضاً على المسيحيين.

وهكذا نجد أنفسنا أمام رمزية سرائرية مزدوجة، فيها تظهر علاقة المسحة فى العهدين القديم والجديد، لذا يقول القديس **كيرلس أسقف أورشليم** فى عظته الثالثة عن الأسرار: «قد نلتم المسحة وهى صورة مطابقة للتى مسح بها المسيح والتى هى الروح القدس، وبما أنكم صرتم "شركاء المسيح" (عب٣ :١٤)، لذا دعيتم بحق "مسحاء *Χριστοι*" فإن الله يقول عنكم "لاتمسوا مسحائى" (مز١٠٤ :١١٥). لقد صرتم مسحاء لأنكم قبلتم رسم الروح القدس، وكل شئ قد تم فيكم على صورة ما حدث للمسيح، لأنكم صرتم صوراً للمسيح».

كذلك يقول **العلامة أوريجانوس**: «أنتم لستم مسيحيين لكنكم مُسحاء»، ويصف **العلامة ترتليان** هذه المسحة فيقول: «بعد خروجنا من جرن المعمودية نمسح بزيت مقدس بحسب نظام العهد القديم حيث كانت العادة لنوال الكهنوت هى المسح بزيت يُسكب من قرن الدهن. بهذا الزيت مسح موسى هارون، ومنه جاءت كلمة «ممسوح» أو «مسيح» التى جاءت من كلمة « *Χαρισμα* » والتى تعنى «مسحة». هذه المسحة هى التى أعطت اسمها للرب، إذ صارت مسحة روحية لأنه مُسح بالتأكيد من الآب كما ذكر سفر الأعمال.... وهكذا ندهن بالمسحة ونشعر بها بالجسد، ولكنها تعمل فينا روحياً».

ويربط الآباء بين لاهوت المسحة السرائرية وبين **المسحة الكهنوتية** فى العهد القديم، وبخاصة تلك الموصوفة فى سفر اللاويين (٢١). وكذلك ترتبط **بالمسحة الملوكية** فنكون ممسوحين كهنة وملوكاً لله الآب بتلك المسحة المسيانية التى تحققت فى المسيح، لكن المسح بزيت العهد القديم هو مجرد رمز للمسحة الروحية التى بها مُسح الابن بالروح القدس.

فبعد أن أصبحنا مستحقين لهذه المسحة المقدسة نُدعى مسيحيين، ويصبح اسمنا فعلاً **مسيحيين** بالميلاد الثانى. إذ قبل أن نستحق هذه النعمة لم نكن مستحقين لهذا الاسم، ثم صرنا بها جنساً مختاراً كهنوتياً ثميناً، ممسوحين بنعمة روحية.

فرمز هذه المسحة موجود فى العهد القديم عندما منح موسى لأخيه الوصية الإلهية مقيماً إياه رئيس كهنة، إذ بعد أن غسله بالماء مسحه. وهو قد دعى «مسيح» بهذه المسحة الرمزية. وبنفس الطريقة أيضاً رئيس الكهنة عندما أقام سليمان ملكاً مسحه بعد أن غسله فى جيحون، لكن هذه الأمور كانت لهم رمزاً، أما لنا نحن فليس فى الرمز بل فى الحق، إذ مسحنا حقاً بالروح القدس، لأن مبدأ ورأس الخلاص هو المسيح الذى به صرنا ملوكاً وكهنة.

ومصطلح «مسيحى» يرتبط بمسحة هارون بالزيت كما يقول **القديس أمبروسيوس** فى كتابه عن الأسرار: «بعد المعمودية، خرجت إلى الكاهن. ماذا حدث بعد ذلك؟ ألم تكن كما قال داود: كمثل الزيت النازل على لحية هارون؟ فلتفهم ماذا كان ذلك.... الملوكية والكهنوت».

وإذا كانت المسحة الكهنوتية والملوكية فى العهد القديم رمزاً للمسحة المسيحية، فإن المسحة المسيحية هى مشاركة فى مسحة المسيح. وقد خصص **القديس كيرلس الأورشليمى** عظته الثالثة للحديث عن سر الميرون أو التثبيت كسر حلول الروح القدس، فكما أُعطى الروح القدس بوضع الأيدى فى أيام موسى النبى، هكذا بوضع أيدى بطرس الرسول أُعطى الروح القدس محرراً للجسد وخلاصاً للنفس..

والمسح بالزيت فى العهد القديم كان رمزاً للمسحة الروحية التى مُسح بها ابن الله بالروح القدس، والمؤمن الذى ينال المسحة يعتبر مسيحاً جديداً أو مسيحياً، فبالمسحة ندعى مسيحيين عندما نجعل هذا الاسم ملكاً لنا بالحقيقة، فتلك المسحة هى التى قال عنها داود النبى «مثل الدهن الطيب النازل على الرأس» (مز١٣٣: ٢) وذلك لأن «الحكيم عيناه فى رأسه» (جا٢: ١٤)، وبالميرون نكون «قدس للرب» (خر٢٨: ٣٦) ويجب أن نلاحظ أن زيت الميرون الذى يُدهن به المُعمد هو ذاته الذى تُدشن به الكنائس الجديدة لأن كل منهما يصير بذلك هيكلاً ومسكناً للرب.

وكما دشن موسى النبى خيمة الإجتماع وكرس هارون وبنيه ليكونوا كهنة الله العلى، كذلك يتم تدشين الكنيسة بزيت الميرون المقدس لتكون بيتاً خاصاً لله، إذ بالمسح بالمسحة المقدسة يحل الروح القدس للتقديس والتكريس. وفى هذا يقول **القديس يوحنا ذهبى الفم**: «كل الذين مسحوا فى العهد القديم كانوا إما ملوك وإما كهنة وإما أنبياء. أما نحن

المسيحيين أصحاب العهد الجديد فنُمسح لكى نصير **ملوكاً** متسلطين على شهواتنا، **وكهنة** ذابحين أجسادنا ومقدمين إياها ذبائح حية مقدسة مرضية عند الله عبادتنا العقلية، **وأنبياء** لإطلاعنا على أسرار عظيمة».

٢) عقيدة مسحة التثبيت

ميز الآباء بين سر المعمودية وسر التثبيت (الميرون) الذى به نصير بطريقة كهنوتية شركاء فى اسم المسيح ويُعطى لنا ختم شركة الروح القدس، ويطور **القديس كيرلس الأورشليمى** هذا الفكر بقوله: «إن المسيح لم يمسح بزيت أو بعطر مادى معطى بيد البشر، لكن الآب الذى أقامه قبلاً كمخلص للكون كله قد مسحه بالروح القدس حسبما يقول القديس بطرس الرسول:"يسوع الناصرى الذى مسحه الله بالروح القدس" (أع١٠: ٣٨) وكما أن المسيح قد صُلب وقُبر حقاً وقام ثانية، وكما أنه أُعطى لنا فى المعمودية أن نُصلب معه وندفن ونقوم معه، كذلك ينطبق نفس هذا الأمر على المسحة، فقد مُسح بزيت بهجة روحى أى بالروح القدس الذى يُدعى زيت البهجة لأنه مصدر الفرح الروحى، ونحن مسحنا بزيت عطرى وأصبحنا شركاء فى المسيح».

وهذا النص بالغ الأهمية فى اللاهوت السرائرى، أى أنه يوضح ماهية السر، **فهو شركة حقيقية فى نعمة المسيح بتشبه سرائرى بحياته**، كما أنه يوضح كيف أن هذه البنية السرائرية تنطبق على سر الميرون وأيضاً على سر المعمودية، وبنفس الطريقة التى بها فى المعمودية نتشبه بموت وقيامة المسيح، كذلك فى سر الميرون نتشبه بالمسيح الذى مسح بالروح القدس. وهكذا نرى معمودية المسيح التى أعقبها حلول الروح القدس كتشبه بموته ثم جلوسه على عرشه الملوكى واللذان فيهما يشترك المسيحى بواسطة سرى الماء والمسحة. «الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا ومنحنا عربون الروح فينا» (٢كو١: ٢١).

وفى عظات **ثيؤدور أسقف الميصة** للموعوظين نجد تعليماً مثيلاً: «بعد أن تنال النعمة بواسطة المعمودية، وبعد أن تكتسى بثوب أبيض براق، يأتى الأسقف إليك ويرشمك على الجبهة ويقول: فلان مرشوم باسم الآب والابن والروح القدس، لأنه كما أن يسوع عند خروجه من الماء نال الروح القدس الذى حلّ عليه فى شكل حمامة، ولأنه قد قيل عنه

أيضاً أنه مُسح بالزيت المقدس، ولأن هؤلاء الذين مُسحوا بأيادى الكهنة بزيت المسحة يثبت الزيت فيهم ولا يؤخذ منهم، لذلك أنت أيضاً لابد أن تنال الرشم على جبهتك حتى تكون لك هذه العلامة التى تؤكد أن الروح القدس قد حل عليك وأنك قد مسحت به».

وقول ثيؤدور عن التثبيت كشركة فى مسحة المسيح بالروح القدس بعد معموديته يتطابق مع أقوال بقية الآباء الذين ربطوا بين المسح وسكنى الروح القدس كسمة دائمة للزيت، الأمر الذى رأه القديسان **كيرلس الأورشليمى وأمبروسيوس** فى عقيدة التثبيت كوسيلة لحلول الروح القدس، فالمعمودية يعقبها ختم روحى إذ بعد البداية هناك كمال يجب تحقيقه، وهذا يتم عندما يصلى الكاهن وينسكب الروح القدس، روح الحكمة والفهم والمشورة والمعرفة والتقوى والمخافة المقدسة، إذ أنها قوى الروح والتى حقاً كل الفضائل مرتبطة بها والتى ننالها بعلامة ختم التثبيت والمسحة السرية التى تثبتنا أمام القوة المضادة وتلبسنا سلاح الروح القدس الكامل.

٣) معنى إرتباط المعمودية والميرون فى الممارسة معاً

فى الطقس الكنسى لا يمكن فصل هذين السرن أى سر المعمودية وسر مسحة الميرون المقدس عن بعضهما البعض أو إجراء أحدهما وإرجاء الآخر. لأنه كيف يمكن أن يُولد الإنسان جديداً ولا ينال روح الحياة فى المسيح يسوع حتى يمكنه أن «يحيا بالروح» و«يسلك بالروح»؟

والروح القدس يحل فى سر المسحة بالميرون (أع٨ :١٥)، ونرى بولس الرسول يقوم بالعمل نفسه من أجل مسيحى أفسس (أع١٩ :٥) ثم يقول لهم: «وفيه أنتم أيضاً، وقد سمعتم كلام الحق أى بشارة خلاصكم وآمنتم، ختمتم بروح القدس الموعود عربون ميراثنا» (أف١ :١٣ + ١يو٢ :٢٠).

ففى المعمودية نتحد بالمسيح يسوع ونشترك فى موته وقيامته، لكن بمسحة الميرون المقدس ننال ختم الروح القدس أى «العربون» (٢كو١ :٢٢) أو بداية ملكوت الله ثم نشترك فى الحياة الإلهية بسر الإفخارستيا. لهذا أقامت الكنيسة وحدة داخلية بين هذه الأسرار المقدسة: **المعمودية والميرون والإفخارستيا.**

فبالميرون نصبح خليقة سمائية ونأخذ العطايا الإلهية والمواطنة الأبدية، عندما يتم تدشيننا لنكون هياكل لله ويسكن فينا روح الله، مختومين به لنتأيد بالقوة العجيبة فى الإنسان الباطن، متأصلين ومتأسسين فى حياة الله.

وكما أن النحلة تصنع عسلها سراً فى الخلايا، كذلك تعمل فينا نعمة روح الله خلال مسحة الميرون الذى يقدسنا ويبررنا. إذ أن نعمة هذا الزيت تحرس فينا الكنز الملوكى وتغطينا بالثوب المقدس النورانى الذى به نؤتمن على الحياة الجديدة، وإذا حافظنا على هذا الختم سليماً حتى النهاية سنقف عن يمين الله وسنضئ فى وسط إشعاعات القديسين.

٤) حتمية إجراء السرين معاً

يقول القديس يوحنا الحبيب واللاهوتى أننا نال المعمودية بالماء والروح أى بسرى المعمودية والميرون المقدس معاً، فكلا السرين حتميان لتكميل قبول المؤمن لخلاصه الأبدى وما يناله المؤمن فى ميلاده الجديد وتوشحه بالروح القدس ليس إلا بداية الطريق، فالميلاد الجديد يُستكمل بجهاد الإنسان اليومى من أجل تتميم خلاصه بخوف ورعدة إلى نمو ونمو ونمو لا ينتهى إلى أن يصل الإنسان الجديد إلى قامة ملء المسيح (أف٤ :١٣). والروح القدس الذى استقر فى الإنسان الجديد بسر المسحة المقدسة يضطرم إلى أن يصير الإنسان بحق هيكلاً لله فى الروح (أف٢ :٢١)، وينال نصيبه من مواهب الروح القدس حسب ما يقسمه الروح له (١كو١٢ :١١)، ويثمر ثمار الروح من محبة وفرح وسلام فى الروح القدس (غل٥ :٢٢). لذا يقول **القديس كبريانوس** أسقف قرطاجنة: «من اعتمد ينبغى أن يُمسح أيضاً لكى يصير بواسطة المسحة ممسوحاً لله ويأخذ نعمة المسيح».

وختم موهبة الروح القدس هو الذى يحقق قدرة الإنسان المسيحى على الجهاد ضد قوات الشيطان، ولابد أن يشعر الإنسان بالخوف الخلاصى الذى ليكمله برعدة، وأن يحفظ فى الطهارة والعدل حياته لكى يرضى الله بكل قول وعمل، ليصبح ابناً ووارثاً للملكوت السموات. وهذا ما تعنيه المسحة المقدسة كعربون لهذا الملكوت، والتى بها يختم الميرون سائر الأعضاء حتى تنتقل مواهب الروح القدس إلى الإنسان وتجعله بكليته «كائناً موهوباً» ومستعداً للحياة الجديدة فى المسيح. هذه هى الأسلحة المقدسة التى تزود بها الكنيسة كل عضو جديد فيها.

ويُسمى سر الميرون بالتثبيت لأنه يثبت ويشدد الأعضاء بسلاح الله ليقدروا أن يقاوموا مكائد أبليس، فغاية سر الميرون هى منح الروح القدس. فبعد أن يعتمد المسيحى الجديد بالفعل بالروح القدس، يعطى «الكمال» الذى يتمثل فى عطايا الروح القدس، وهنا تتضح غاية سر التثبيت كإنسكاب للروح القدس بقصد منح الكمال للطاقات الروحية التى تفجرها المعمودية فى النفس. (وعوضاً عن وضع اليد أصبح يُعطى بمسحة الزيت المقدس المُسمى بالميرون وذلك منذ العصر الرسولى).

فطقس مسحة الميرون ـ كإكتمال لما قد بُدأ فى المعمودية ـ ثابت فى التقليد الشرقى غير الخلقيدونى، باعتباره سر النمو الروحى بينما المعمودية هى ميلاد روحى. ويقول **القديس أغسطينوس** فى إحدى عظاته الفصحية للمعتمدين الجدد: «إن الروح القدس أظهر نفسه فى شكل ألسنة نار، لأنه يوصى بالمحبة التى تجعلنا حارين فيما لله وتجعلنا نحتقر العالم. إنه يحرق فينا شوائب الإنسان العتيق ويطهر قلبنا مثل الذهب. هذا هو سر المسحة المقدسة التى تهبنا نار الروح القدس بعد المعمودية بالماء. فالنار الإلهية تحل ليس فقط فى النفس بل فى الجسد أيضاً وتحرق منه كل ما هو بشرى حتى يبتلع الموت إلى نصرة».

وبتعبير جميل يصور **القديس أغسطينوس** للمعتمدين الجدد كيف صاروا خبزاً واحداً فيقول: «إن صوم الأربعين المقدسة والصلوات ورغبة الإنضمام إلى الكنيسة قد طحنوكم معاً كحبوب الحنطة تحت الرحى، ثم بلل ماء المعمودية جبلتكم هذه فعُجنتم معاً وشُكلتم خبزاً، ولكن ليس من خبز بدون نار. لقد جاءت النار مع مسحة التكريس التى هى سر التثبيت بالروح القدس».

فنار الروح القدس غير منظورة وغير مادية لكنها تحرق كل الأوجاع وتطهر المُعمد وتسكن فيه وتكون معه، وكما أنه لا يمكن فصل النار عن فعل التدفئة ولا النور عن فعل الإضاءة، هكذا لا نستطيع أن نفصل عن الروح القدس فعل التقديس والإنعاش والإصلاح والتقويم للنفس المُدشنة بالميرون. فكما تحرق النار الأشواك هكذا يمحو الروح القدس الخطايا فى الميرون «معمودية الروح القدس والنار» (مت٣:١١).

٥) مسحة سر الميرون كختم

بالميرون نُختن ختاناً غير مصنوع بيد (كو٢ :١١). وبهذا الختم ننال روح الله الذى سيبقى معنا بعد الموت، فلا ماء المعمودية ولا دهن الزيت الذى مُسحنا به سيبقى معنا بعد موتنا، ولكن الروح القدس الذى إتحد بنفوسنا وأجسادنا بواسطة الزيت والماء هو الذى يبقى معنا فى هذه الحياة وبعد موتنا لأنه هو معموديتنا ومسحتنا الحقيقية. ولهذا السبب نظل دائماً معمدين لأن الروح القدس موجود داخلنا على الدوام، ولا يمكن لأى خطية أن تجردنا من معموديتنا.

والذين ينكرون الله بعد معموديتهم ينكرون سيادة ملكهم التى نالوها بالختم، ويعترفون بطاغية غريب، حيث أن الإيمان والإنكار متضادان مثل النور والظلمة، لذا فإن ختم الميرون هو ختم تبعية مطلقة وتجديد للذهن ولبس أسلحة النور وحياة حسب البر وسلوك فى جدة الحياة وثبات فى الله. هكذا كل من آمن بالمسيح واعتمد ينال مسحة الروح القدس وخلقة الإنسان الجديد الروحى، ليعمل البر لحساب القداسة والحق، لا كصفات ولكن كطبيعة تغذيها النعمة من الله.

فختم النعمة الذى تُختم به أرواحنا يمنع التنين المرعب من إفتراسنا، ويختمنا بنذر عهد الخلاص وفرح الفردوس وعربون الملكوت، وبحسب ليتورجيا مسحة الميرون فى الكنيسة القبطية توصف بأنها «نعم الروح القدس، والختم المحيى، والثبات، ومسحة النعمة، وعربون ملكوت السموات، ودهن شركة الحياة الأبدية غير المائتة، ومسحة مقدسة للمسيح إلهنا، وخاتم لا ينحل، كمال نعمة الروح القدس، ودرع الإيمان والحق». هذه هى الصلوات التى يقولها الكاهن عند نضح الميرون المقدس ومسحه للمُعمد بالدهن المقدس.

ومثلما كانت الأختام تُستخدم بصفة خاصة فى ختم الوثائق الرسمية، هكذا يستخدم الرسول بولس هذا الرمز عندما يقول لأهل كورنثوس أنهم: «ختم رسالتى فى الرب» (١كو٩ :٢) أى أنهم العلامة الشاهدة والمؤكدة على رسوليته، ولكن على وجه الأخص كانت كلمة «ختم» تستخدم للدلالة على العلامة التى كان المالك يميز بها ممتلكاته، وعندما أُستخدمت بهذا المعنى، صار لها عدة معان ذات أهمية خاصة هنا.

فالختم هو **العلامة التى كان الرعاة يختمون بها خرافهم** لكى يميزوهم، وأيضاً

كانت العادة فى الجيش الرومانى أن يُختم الجندى الجديد كعلامة على إنضمامه للجيش، وكان هذا الختم يسمى *Signaculum* وكان عبارة عن وشم يُصنع على اليد أو على الساعد. وختم الميرون يدل على أن المدهون به يخص المسيح وينتمى إلى قطيع المسيح وإلى جيش المسيح. فعندما نقبل الختم السرائرى يعرفنا سيدنا ونحصى مع القطيع المعروف الذى للمسيح ويكون نصيبنا عن يمينه. وبهذا الختم يعرف الرب خاصته كما يعرف الراعى خرافه. ولكن الختم ليس فقط علامة الملكية بل أيضاً علامة الحماية، لذا يقول **القديس اغريغوريوس النزينزى**: «الختم هو ضمان للحماية وعلامة للملكية».

وهذا الختم السرائرى لا يُمحى وبه يتعرف علينا السيد ويميزنا لكى نُوضع عن يمينه، وهو ختم ضمان الحماية وعلامة الملكية والتحصين والتأمين وعدم الإنخداع بسهولة، أما الذى لا يختم به فيكون عرضة للصوص وتنزع عنه المعونات الخلاصية.

وهذا الختم يطبع على النفس صورة الله ومثاله ويجعلها تموت بسلام بلا خوف ويمنحها الإستنارة وزينة نعمة الولادة الثانية، ويجعل الملائكة تستقبلها بعد إنفصالها عن الجسد. أما النفس التى لا تحمل السمة، فهى لا تحمل علامة الملكية وتكون تائهة فى الهواء بلا راحة وليس لها من يبحث عنها حيث لا مالك لها، فتطلب راحة ولا تجد وتصرخ بلا طائل ولا ثمر. كما أن هذا الختم العجيب الخلاصى ترتعب منه الشياطين وتتعرف عليه الملائكة، فتهرب الشياطين من المختومين وتصحبهم الملائكة كأصدقاء لهم. فالذى له الختم المقدس يحمل السمة (حز٩:٤) وتحمله المركبة إلى السماء كعربون للملكوت والتبنى وتجعله شريكاً فى نصرة المسيح على كل سلاطين وقوات الظلمة.

فإذا تحصنت نفوسنا بختم الميرون ماذا الذى يمكن أن يحدث لها؟ إنه أعظم حماية نناله فى هذه الحياة. فالخروف المختوم ليس من السهل أن يُسرق بحيلة خادعة، بينما الخروف غير المختوم يكون فريسة للصوص، وعندما نرحل من هذا العالم نموت فى سلام بلا خوف من أن يحرمنا الله من المعونة التى منحنا إياها من أجل خلاصنا.

وكما أن الختم هو العلامة التى يتعرف بها السيد على خاصته، هو أيضاً **عربون الخلاص**، لذا يقول **القديس ديديموس الضرير**: «بالعلامة المخلصة التى خُتمنا بها رجعنا إلى صورتنا الأولى، لأن الخروف الذى ليس له علامة (أى غير المختوم) هو فريسة سهلة للذئاب، أى ليس له معونة الختم، ولا يعرفه الراعى الصالح مثل الآخرين لأنه لا يعرف

راعى الكون». وهنا نجد الختم مرة أخرى ضمان حماية الراعى لخرافه وعلامة ملكية فى نفس الوقت، ولكن الختم ليس فقط علامة الإنتماء للقطيع بل هو أيضاً **علامة الجندية** فى جيشه، فالمسيح ليس فقط الراعى، بل أيضاً الملك الذى يدعو الإنسان للإنضمام لجيشه أى لخدمة الملك، فالختم يحمل نفس صورة المسيح الذى يختم، والذين يُختمون تصير لهم شركة فى هذه الصورة فيتصور فيهم المسيح.

وبختم الميرون يطبع الملك علينا ختمه العجيب الذى تخشاه الشياطين وتعرفه الملائكة، فتهرب منا الشياطين وترافقنا الملائكة كأصدقاء، وبختم نفوسنا ننضم لجيوش الملك العظيم كجنود للحق مختومين بالختم الملوكى، ختم قبول المسيح والإنضمام والتجند لخدمة الملك، حاملين فى جسدنا سمات الرب يسوع.

وكما كانت علامة قايين لكى لا يُقتل (تك٤ :١٥) علامة حماية، وكما كانت علامة الله على جباه شعب إسرائيل (خر٩:٤)، وكما فى سفر الرؤيا يُصور القديسون وقد ختموا بعلامة الحمل (رؤ٧:٤)، هكذا ختم الروح القدس الذى نناله فى المعمودية إذ به ننال حق التبنى والميراث مع المسيح وبه نُختم ليوم الفداء فنُحسب ضمن المختومين المعروفين فى السماء «وسمعت عدد المختومين من الشعب» (رؤ٧:٤).

ويربط الآباء **بين ختم المعمودية والختان اليهودى**، فكما كان الختان ختم الإنضمام لإسرائيل القديم والعضوية فيه، كذلك المعمودية هى ختم الحياة الجديدة والإنضمام لإسرائيل الجديد الروحى. وبينما الختان كان مجرد رمز، ختم الميرون الحقيقى هو ختم العهد الجديد وشركة الروح القدس نضعه كختم على قلوبنا وجسدنا بجملته.

ويقول **القديس البابا أثناسيوس الرسولى**: «الروح يُدعى المسحة ويُدعى أيضاً الختم، وبه تُختم وتمسح الخليقة الجديدة. فإن الروح هو المسحة وهو الختم الذى به يمسح الكلمة الجميع ويختمهم. فأية مشابهة تكون بين المسحة والمخلوق الذى يُمسح، أو بين الختم والمختوم؟ يستحيل أن يكون الختم من عداد المختومين به أو تكون المسحة من عداد الممسوحين. الختم شئ والمختوم شئ آخر. المسحة شئ والممسوح شئ آخر. هذه هى قوة الطبيعة الإلهية الواهبة، وهذا هو ضعف الطبيعة القابلة. إنه الروح الخاص بالكلمة وبه يمسح ويختم المعمدين».

٦) المعانى الروحية لدهن مسحة الميرون

يعلق **القديس كيرلس الأورشليمى** على طقس مسحة الميرون بمفهومه السرائرى أى «خاريزما Χαρισμα» قائلاً: «بعد أن خلعتم ثيابكم، دُهنتم بالزيت الذى تقدس بالصلاة، من قمة رأسكم إلى أخمص قدميكم، وصرتم شركاء فى الزيتونة الحقيقية التى هى يسوع المسيح. وإذ قد قطعتم من الزيتونة البرية وطعمتم فى الزيتونة المزروعة، تنالون نصيباً فى غنى الزيت الحقيقى، لأن الزيت المقدس هو رمز للشركة فى غنى المسيح، وهو يزيل كل آثار قوة العدو، وبإستدعاء الله بالصلاة، ينال الزيت قوة ليس فقط ليطهركم من آثار الخطية بإزالتها، بل وأيضاً يجعل القوات غير المنظورة التى للشرير تهرب وتفر».

وهكذا تظهر معانى الزيت الرمزية، ففعل الزيت هو قبل كل شئ فعل شفاء وتقديس، لأن الزيت يستخدم كعلاج، وهكذا يشفى الزيت المبارك النفس من آثار الخطية التى بها. ونجد هذا الفكر فى صلاة تقديس زيت المعمودية فى **خولاجى القديس سرابيون أسقف تيمى** وهى تقول: «إننا نمسح بهذا الزيت هؤلاء الذين يتقدمون إلى الميلاد الثانى الإلهى متضرعين إلى الرب يسوع المسيح أن يمنحه القوة كى يشفى ويقوى، ولكى يشفى بواسطة هذا الزيت نفوس وأرواح هؤلاء الذين سيعتمدوا ويحررها من كل آثار الخطية والإثم لكى تنال قوة للانتصار على هجمات القوات المعادية».

هذه الكلمات الأخيرة تكشف لنا عن بعد آخر هام للمعان الروحية لدهن مسحة الميرون، ذلك أن **المصارعين بصفة خاصة كانوا يستخدمون الزيت لتقوية أجسادهم**، ويقول **ديونيسيوس الأريوباغى**: «يبدأ الكاهن بمسح جسد الموعوظ بالزيت المقدس، وهكذا يدعو ـ رمزياً ـ المبتدأ للحرب المقدسة التى سوف يتعين خوضها بقيادة المسيح، فهو ـ لكونه الله ـ الذى يدير الحرب وهو نفسه ينزل إلى الحلبة مع المجاهدين لكى يدافع عن حريتهم ويضمن إنتصارهم على قوات الموت واللعنة، وهكذا سيدخل المبتدأ بسرور وفرح فى هذه الحروب التى يعرف أنها مقدسة، وسوف يسير إثر خطى ذاك الذى فى صلاحه كان أول المصارعين».

وهكذا كان المسح بالزيت يعنى **تقوية المعتمد الجديد كى ينتصر فى حربه مع الشيطان**، إلا أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أن هذا لا يعنى فقط الحروب المستقبلية التى سيخوضها المسيحى الجديد، بل ويعنى أيضاً فعل المعمودية ذاته كما شرح ديونيسيوس،

وهنا يجب أن نتذكر معنى ليلة القيامة كحرب مع الشيطان، وقد رأينا سلفاً كيف بدأت هذه الحرب منذ بداية الإستعداد للمعمودية، ومنذ لحظة التسجيل، والآن تأتى المعركة العظمى، لذا مثل المصارع البارع، يحتاج الموعوظ إلى أن يُمسح بالزيت قبل خوضه هذه المصارعة، فالذين يمسحون بهذه المسحة تصير لهم رائحة المسيح الزكية والذين يختمون بها تنطبع عليهم صورة المسيح الكلمة، ويقول **البابا أثناسيوس الرسولى**: «إن المسحة (خاريزما Χαρισμα) لها نفس رائحة الذى يمسح بها، ولذلك فالذين يقبلون المسحة يقولون: نحن رائحة المسيح الزكية لله».

ويقول **القديس مار إفرآم السريانى**: «المسيح والميرون متحدان معاً. السر المخفى مع المنظور إمتزجا. فالميرون يمسح فى الظاهر والمسيح يختم سراً وينصر الحملان المولودة جديداً بمسحته. ومن بين الشعوب فصل الشعب بختم الختان السابق، ولكنه بختم المسحة فصل الشعوب عن الشعب، وبينما فى القديم كان الكهنة الممسوحون يقدمون أجسام الحيوانات المذبوحة، أنتم الممسوحون قد تفوقتم عليهم، فإن تقدماتكم هى أجسادكم نفسها، وبينما قدم اللاويون الممسوحون الأجزاء الداخلية من الحيوانات، أنتم قد فقتم اللاويين لأن قلوبكم قد كرستموها لله».

ويؤكد **دونيسيوس الأريوباغى** على أن مسحة التكميل تكون بالميرون المقدس لمن إستحق سر الولادة الثانية، كذلك يقول **القديس مار إفرآم السريانى** أن الروح القدس يصنع مسحة سر الخلاص، كما يقول **القديس كيرلس السكندرى**: «إن الميرون يشير حسناً إلى مسحة الروح القدس» والمسح هو إشارة إلى المسحة الروحية التى تُسلم سراً للمُعمد ليحرسها من أجل هيبة الله الذى يعطى الجزاء.

ويشير **القديس كلمنضس السكندرى** إلى الدهن بزيت الزيتون موضحاً أن المسيح الكلمة هو نهر الزيتون وهو ينبوع حياتنا ومصدر كل نعمة سمائية. ويؤكد **كيرلس الأورشليمى** على أنه زيت البهجة الروحانى الذى ننال به صفات روح الله الذى يحل فينا، لذلك يقول **القديس أمبروسيوس**: «حافظوا على ما نلتموه فالآب قد وسمكم بالختم والمسيح الرب عضدكم ووضع فى قلوبكم عربون الروح القدس».

٧) حتمية إجراء سرى المعمودية والميرون معاً

عن حتمية مسحة الميرون للخلاص يقول **القديس ديديموس الضرير**: «ليس أحد غير مولود بروح الله القدوس وغير مرسوم بختم تقديسه ينال العطايا السمائية ولو كانت حياته بلا خطية فى أى شئ»، ويرى **العلامة ترتليان** أن حضور الروح القدس يستدعى بوضع الأيادى الذى يتبع طقس المعمودية، ويؤكد **القديس كبريانوس** على أن وضع الأيادى بعد المعمودية يكمل طقس المعمودية بإعطاء الروح القدس، كما يقول **كيرلس الأورشليمى** أن الروح القدس يمنح للمعمدين فى المعمودية فى لحظة العماد، وأيضاً يُعطى لنا لحظة التثبيت (وضع اليد = الميرون).

ويؤكد أبونا **البابا أثناسيوس الرسولى** فى رسالته لسرابيون أسقف تيمى على طقس الإنضمام إلى الكنيسة (المعمودية والتثبيت) كممارسة ليتورجية فى زمانه، شارحاً أن المعمودية والميرون يتمان معاً، معتبراً أنه بوضع أيدى الرسل (الميرون = التثبيت) يعطى الروح القدس لمن وُلدوا ثانية.

٨) الميرون وتكريس الحواس والأعضاء

يربط آباء الكنيسة بين مسحة الميرون وتكريس الحواس، شارحين السلوك العملى والخلق الأدبى الذى تتطلبه معموديتنا وتثبيتنا، فنلبس الملابس الإلهية السمائية، ذلك اللباس الروحانى السمائى الذى يستر عرينا بالقوة الإلهية ونتنسم أنفاس النعمة.

اعتبر الآباء أن الميرون هو الوصول بالنفس إلى الكمال وإلى تطوير الطاقات الروحية المُعطاة فى مياه المعمودية، لذا يرى **ديونيسيوس الأريوباغى** فى الميرون أنه **سر الكمال المسيحى** *Teleiotes*، ويربط الآباء بين سر الميرون والثبات فى الله وبين الحياة الروحية كنمو للنعمة المُعطاة كبذار فى المعمودية، معتبرين أن سر الميرون هو تقوية الحياة الروحية التى لا تزال جنينية فى المُعمد الجديد.

إن على الإنسان المُدشن بالمسحة أن لا يفقد حريته ويتحفظ ليحفظ رتبته فتكون كل أعضاء الجسد ـ إذا لجّمها ـ آلات بر لله. ويسوع واقف دائماً لمعونتنا، وقد أمدنا بأسلحة قوية لنستعملها كما يجب حتى نكسب المعركة لحساب وطننا السمائى

وبالميرون نتسلح ونأخذ مسحة لبناء حجارتنا الحية الروحية ولنقتنى كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح ولسكنى روح الله ومواهبه ولنوال الإستنارة (بالمعمودية) ولمذاقة الموهبة السمائية (بالميرون) فنصير شركاء الروح القدس الذى به تم تقديسنا (مُسحنا) مع كل أعضاء المسيح.

ركز الآباء على أن سر الميرون هو تكريس الأعضاء وتقديس الذات بأجمعها للرب فيتشكل نوع جديد من الطبيعة البشرية، طبيعة تملك عيوناً روحية مُحررة غير منطمسة ممتلئة نوراً بها تحدق فى الإلهيات وتنفتح على خفايا الأسرار، وآذاناً مكرسة لسماع كلمة الرب وطاعته، وأيادى تعمل ما يرضيه بكل قوتها، وأرجل تسير فى طرق مستقيمة..

ومسحة الميرون تكمل تطهيرنا وتجديدنا وتقديسنا فى المسيح يوماً فيوماً، لنكون مُعدين لعرس مجده عند مجيئه ثانية من السماء، وفى هذا يقول **العلامة أوريجين** فى ربطه بين الميرون كتكريس للأعضاء وبين الختان الروحى: «اقبلوا ختانة كلمة الله الحقيقية فى آذانكم وشفاهكم وقلبكم ولحمكم وفى أعضائكم جميعاً بغير إستثناء». لذا يُرشم المعمد بزيت الميرون ٣٦ رشماً بداية من النافوخ ثم الأنف والفم والآذان والعينين وجميع أجزاء الجسم، كعلامة ملكية الروح القدس وتقديس الأعضاء لنتحرر بالكامل ، **فمسح الجبهة** أولاً يحررنا من الخزى والعار الذى حمله الإنسان الأول بخطيته، وهنا نقتنى الفكر المقدس ونتأمل مجد الله بوجه مكشوف وكما فى مرآة، **ومسح آذاننا** يساعدنا على سماع الأسرار الإلهية، **ومسح المنخارين** يمكننا من إستنشاق عطر المسيح الشذى ورائحة الطيب الإلهية، **ومسح صدرنا** يجعلنا نلبس درع البر لنقاوم به هجمات أبليس والقوات المعادية ونقف حسناً ضد حروب العدو لابسين سلاح الروح القدس.

وبسبب هذا الملمح الخاص بتكريس الجسد يُدعى سر الميرون **بالتثبيت** كتكميل للقوة الممنوحة لنا فى المعمودية، وفى هذا يقول **القديس اغريغوريوس النزينزى**: «طهروا أعضاءكم وحواسكم... ولا تبقوا فيكم عيباً بعد أن اعتمدتم وولدتم جديداً... اجتهدوا أن تستنيروا ولا تتركوا فيكم شيئاً إلا وهو ينير. عيونكم أنيروها لتستقيم أمامكم الرؤيا... آذانكم وألسنتكم أنيروها لكى إذا قرأتم أو سمعتم كلمة الله تفهمون المحبة... والمسرة والبهجة لا تستقر إلا فى الأذن التقية. لا تجعلوا لسانكم سيفاً يقطع فى الناس بل يلهج بحكمة الله وينطق بالأسرار. إفتحوا أنوفكم لتتنسم بالسر رائحة الطيب المقدس الذى أُهرق لنا على

الصليب، فتتحولوا أنتم لشبهه وتصيروا رائحة المسيح الزكية. طهروا ملامس أيديكم وأبدانكم ومذاقة أفواهكم لتلمسوا سراً وتذوقوا الرب وكلمته فتدوم لكم حواسكم وتدوم لكم بهجتها».

وبالميرون المقدس يتم تدشين وتقديس الحواس وتكريسها بجملتها لله، فتكون آذاننا ممسوحة وفق كلمة الله لا تسمع النميمة والتجديف والوشايات والأكاذيب والأغانى بل تسمع كلمات الحكمة الطاهرة، وتكون أفواهنا ممسوحة لا تتحدث بالباطل وغير اللائق والثرثرة بل بكلام الحق والعدل، ومسحة أجزاء الجسم تجعلنا نضبط ميولنا وحركات جسدنا فتكون نظراتنا وأيدينا وشمنا ولمسنا فى خدمة الله للبر.

ويعلق **العلامة أوريجين** على أن ختان الكنيسة (بالميرون) تفوق ختان العهد القديم، إذ بالميرون تتقدس الأعضاء وتتكرس وتصير مخصصة ومُدشنة لله لتتحرك بحسب إرادة الله، إذ صار الذين مُسحوا بالميرون شركاء وأتباع للمسيح عندما مُسحت أجسادهم بالمسحة الطاهرة، وتزينوا بزيت الإبتهاج، لأن الله هو أصل كل بهجة الروح.

٩) تقديس وطبخ زيت الميرون

كلمة «ميرون» كلمة يونانية Μυρον معناها **«طيب»** أو **«دهن عطرى»** (لو٢٣ :٥٦، ٢٤ :١) ويُسمى أيضاً **«بلسم»**. وزيت الميرون هو الزيت المقدس الذى رتبه الرسل من الأطياب المقدسة التى كانت تكفن جسد الرب ووضعوا عليه أنواعاً من الزيوت المدونة فى الكتاب المقدس ويدهن به الشخص المُعمد ليصير هيكلاً للروح القدس. هذا وتؤخذ خميرة من هذه الأطياب لتطبخ بها طبخات الميرون فى كل العصور.

لذلك مسحة الميرون غريبة عن الدنس ومحفوظة للمبتدئين، والبداية هى المعمودية، فغير المُعمد يُستقصى من الميرون كما يُستقصى من الإفخارستيا، فالميرون لا يُعطى إلا بعد المعمودية أى لا يناله إلا الشخص المُعمد، لكى يعطى نوال العطر الإلهى بينما سر التثبيت يحرك الطاقات الممنوحة فى الجرن المقدس.

والتكوين الرمزى للزيوت المقدسة (الخلطة) هو صورة للجمال الإلهى السرى الذى عطره يفوق كل فهم ويهرب من أمامه كل دنس ولا يفهمه إلا الذين نالوا نعمة خاصة.

وحيث الميرون يسكن الإخوة ويأمر الرب بالبركة (مز١٣٢). وسر مسحة الروح القدس هو الذى يجعل سكنى الإخوة معاً ممكنة فى التاريخ الإلهى، فالمختومون بختم الروح القدس فى المسحة المقدسة هم الذين سيرفعون اللعنة عن الخليقة كلها... وهذه المسحة Χαρισμα التى نأخذها نُختم بها وتثبت فينا (١يو٢ :٢٧).

ويشتمل هذا الطيب المقدس على الأطياب التى وردت فى مركبات مسحة العهد القديم (خر٣٠) وأيضاً ما ورد فى أطياب سفر النشيد (نش٤ :١٤) وبه ننال التقديس وسكنى الروح القدس، ونصبح هيكلاً للروح القدس (١كو٣ :١٦)... وبهذا الدهن تتقدس كل أطراف المعمد، ومفاصله وفتحات جسمه ويبدأ الروح يعمل فيه بقوته ومواهبه وإرشاده.

ويؤكد **القديس كلمنضس السكندرى** على أن مواهب الروح القدس الإلهية هى العطر المكون من الروائح السمائية ويربط **القديس أثناسيوس الرسولى** بين ختم الميرون والطيب والرائحة الزكية. كذلك يوجد فى مخطوط قبطى ترجمة **للديداكية** تعود إلى القرن الخامس الميلادى على ورق البردى فى المتحف البريطانى (مخطوطة رقم٩٢٧) صلوات تقديس الميرون والصلوات التى تُستخدم فى سرى العماد والمسحة.

وكما كان الأمر لموسى النبى فقط أن يصنع دهن المسحة المقدسة، ثم صار من إختصاص رئيس الكهنة فيما بعد، كذلك لا يمكن أن يصنع زيت الميرون المقدس إلا رئيس الأساقفة. ويذكر التقليد أن أول من صنعه واستعمله هم تلاميذ المسيح ورسله الأطهار الذين أخذوا الحنوط الذى كان على الجسد المقدس، مع الحنوط والأطياب التى ابتاعتها النسوة، وأضافوا عليها من الزيتون النقى، وقدسوها بالصلاة وكلمة الله، وجعلوه **«ميروناً»** أى **«طيباً»** مقدساً خاتماً للمعمودية، ووزعوه على الكنائس التى أسسوها فى سائر أقطار الأرض. وقد صار البطاركة فيما بعدهم هم المكلفين بصنعه. وقد جاء فى **تعاليم الرسل**: «أيها الأسقف أو القس، يجب أن تمسح بالزيت ثم تعمد بماء وأخيراً تختم بالميرون». فبتلك المسحة يصير المعمد مسيحاً لله ويقبل فى داخله نعمة المسيح (بحسب تعبير **القديس كبريانوس**). ويؤكد نفس المعنى **القديس ثاوفيلوس الأنطاكى** قائلاً: «نحن ندعى مسيحيين لأننا مُسحنا بزيت النعمة».

ويُطبخ دهن الميرون من أفخر الأطياب فى زيت الزيتون النقى:

١) مر قاطر (ذو الرائحة الطيبة النفاذة والطعم الشديد المرارة الذى يقرن المحبة بالألم).
٢) قرفة عطر (ذات الخضرة الدائمة مع الرائحة العطرة النفاذة التى ترمز للمحبة الثابتة التى لا تتغير).
٣) قصب الذريرة (ذات الرائحة العطرة التى لا تفوح إلا عند سحقها والتى ترمز إلى رائحة المسيح العطرة التى فاحت منه عند نزوله إلى وحل شقائنا وسحقه بحمله لخطايانا على الصليب وموته من أجلنا).
٤) السليخة (ذات الدهن المبهج والجلال).

وهذه الأطياب الأربعة الفاخرة (يو١٩ :٣٩+١٩ :٤٠) بما تحمل من معان روحية عميقة، كانت تُخلط معاً وتُضاف إلى زيت الزيتون ويصنع منها دهن مقدس للمسحة «عطر عطارة صنعة العطار» كإشارة إلى حضور الرب وعمل روحه القدوس للتقديس، إذ أنه يدعى أيضاً «مسحة مقدسة» و«سر تثبيت» و«ختم مقدس» و«سر حلول الروح القدس».

وقد أكد الآباء على أهمية طقس طبخ الميرون، بل وقد قارن بعضهم بينه وبين طقس سر الإفخارستيا. **فيقول القديس ديونيسيوس الأريوباغى:** «إن تقديس زيت المسحة العطرى (الميرون) هو من نفس نوع تقديس الإفخارستيا، عندما يأخذ رئيس الكهنة الزيت المقدس ويضعه على مذبح الذبائح ويقدسه بليتورجيا مقدسة جداً» ثم يتم وضع الخميرة المقدسة.

وفى كتابات **كيرلس الأورشليمى** نجد مقارنة بين تقديس الخبز والخمر وبين تقديس زيت الميرون: «احذر أن تتخيل أن هذا الميرون شئ عادى. إذ بنفس الطريقة كما أن الخبز فى الإفخارستيا بعد إستدعاء الروح القدس لا يعود بعد خبز عادى بل جسد حقيقى للمسيح، كذلك الميرون المقدس لا يعود بعد زيت عادى أو زيت شائع بعد حلول الروح القدس عليه، بل مسحة المسيح الفعالة بالروح القدس بحضور لاهوته».

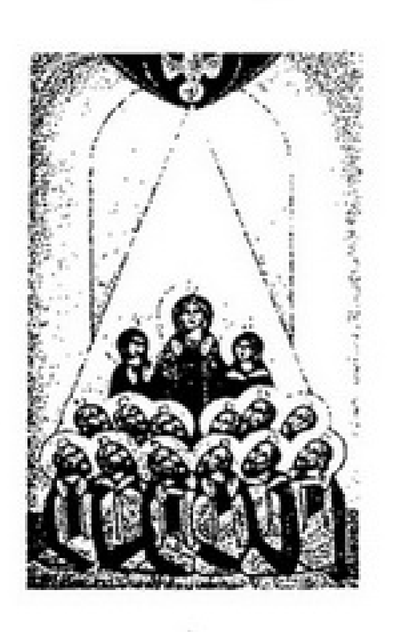
وهنا نجد فكرة حضور الروح القدس فى المسحة مقارنة بالإستحالة فى الإفخارستيا رغم أنها ليست هى نفسها، وكلاهما يحدث بعد صلوات التقديس فى لحظات حلول الروح القدس. الأمر الذى يوضح لنا أن المسحة تمثل عنصر قداسة متميز رغم أن مادة السر ومكوناته هى من الأرض والزمن والتاريخ.

وفى صلوات الليتورجيا السريانية الخاصة بمسحة التثبيت نقرأ: «أيها الرب الذى نشر العطر الشذى الذى للإنجيل فى كل الأمم، الآن أعطى أن يكون هذا الزيت العطرى (الميرون) فعالاً فى المعمد، حتى بواسطته يسكن فيه الشذى العطر الذى للمسيح بقوة دائمة».

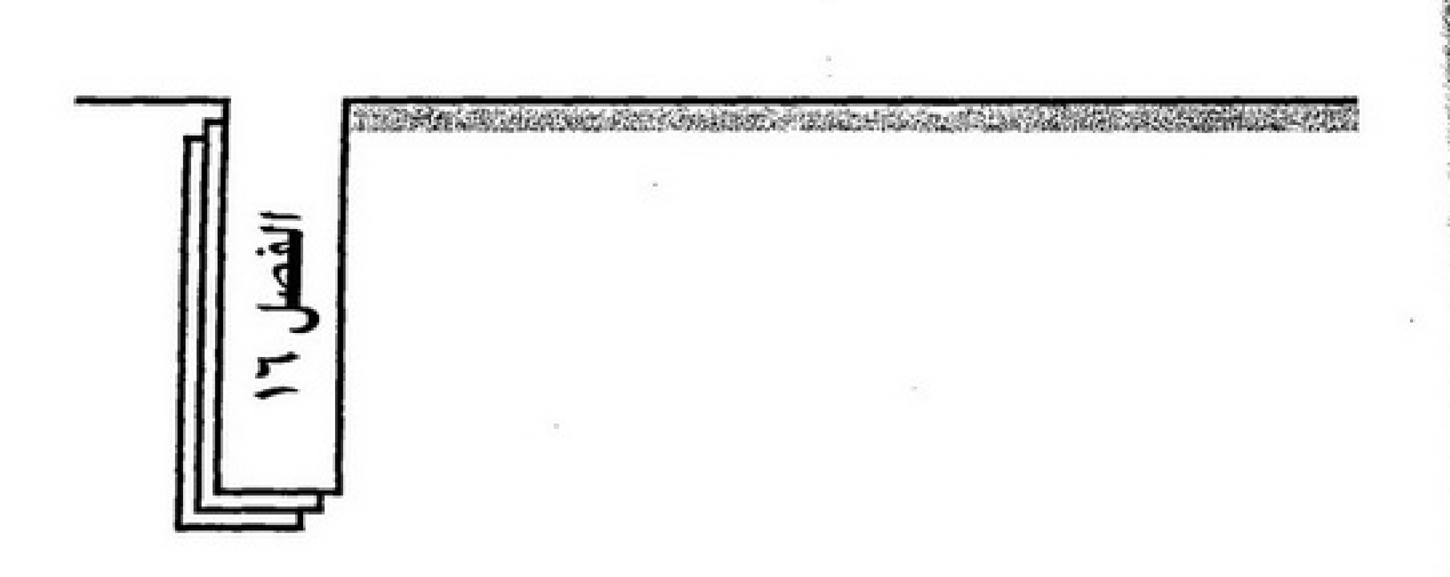
ويقول **ديونيسيوس الأريوباغى:** «الزيوت المقدسة تُصنع من مزيج من الموادة العطرة لتُعطر هؤلاء الذين ينالوها، ونتعلم من ذلك أن عطر يسوع الفائق يسكب عطاياه الروحية على قوانا العقلية مالئاً إياها بالبهجة الإلهية».

وهكذا يرتكز هذا التعليم على فكرة العطر الإلهى المعتبر إشراقة للاهوت. ويقول **اغريغوريوس النيصى:** «إن شذا عطورك (الميرون) يفوق كل الأشياء الشذية (نش١ :٣) فرائحة العطر الإلهى ليست رائحة تشتمها الأنف، بل رائحة (عطر) لها قوة غير مادية تثبتنا فى المسيح الذى يجذبنا بجاذبية الروح».

ولا يسمح إلا للأساقفة والكهنة فقط بالمسح بالميرون أو حمله ولابد أن يكونوا صائمين، ولا يستعمل إلا لإتمام سر المسحة المقدسة أو تدشين الكنائس، ومن الصلوات التى تتلى على الميرون أثناء تقديسه يتبين مقدار كرامة هذه المسحة وعظم شأنها منذ أن تأسست الكنيسة، إذ يقول البابا البطريرك وهو يرشم آنية الميرون عند طبخه وتقديسه:



«ميرون مقدس، زيت تهليل، نعمة ملوكية، لباس النور، لباس الخلاص، حرز الحياة، نعمة روحانية، طهارة للنفس والجسد، تهليل النعمة، فرح أبدى، ختم لا ينفصم، نياح المؤمنين، درع القوة قبالة كل فعل شيطانى، لكى نتطهر من قبله نحن المدهونين به ونكون مضيئين بغير عثرة بإزاء مقاومينا ومبغضينا فى يوم الحكم الحقيقى، لنكون منيرين مثل الكواكب فى نور قديسيك، ونكون فى المظال الأبدية فى منازل الذين أرضوك حسب مواعيدك الصادقة غير الكاذبة بالمسيح يسوع ربنا».



خورس التائبين

فى الكنيسة الأولى

خورس التائبين
فى الكنيسة الأولى

كان لإنتعاش الكنيسة الأولى عوامل جوهرية أساسها عمل الروح القدس الفاعل فى الأسرار المقدسة والكاشف عن أسرار فاعلية دم المسيح وقوة كلمة الله كنار ونور ومطرقة تحطم الصخر، وكمناخس تبكت الضمائر وتدعو إلى التوبة والندامة. هذا وقد عنيت الكنيسة بالتائبين لتثبيت إيمانهم وتوجيه حياتهم وتعميق معرفتهم وتوطيد شركتهم وتقوية روحانياتهم. فما كان لأحد أن يصل إلى شركة عضوية جسد المسيح السرى ما لم يمحص جيداً ويجتاز خوارس عدة. لذا حرص الآباء على تقسيم الكنيسة إلى أقسام تفصل بينها حواجز خشبية «خوارس» ومن بين هذه الخوارس «**خورس التائبين**».

صفوف التائبين

وينقسم التائبون فى هذا الخورس إلى صفوف بحسب تقدمهم فى التوبة ونموهم فى النعمة، فكان هناك:

١) **صف الباكين:** وهم أولئك الذين إكتشفوا حقيقة أنفسهم ودنس حياتهم ومصيرهم، فتبكتت قلوبهم وساخت من الغم أعينهم (مز٦ :٦) وصارت دموعهم خبزاً (مز٤٢ :٣) ومزجوا شرابهم بالدموع (مز١٠٢ :٩).

٢) **صف السامعين:** وهم أولئك الذين ثبت صدق توبتهم، فقدمتهم الكنيسة لسماع الخبر الطيب، بشارة الخلاص، رسالة الغفران بدم المسيح المُهرق على خشبة الصليب كفارة وفداء عوضاً عن الخطاة، للرضى عنهم وقبولهم كأبناء.

٣) **صف الراكعين:** وهم الذين إزاء إحسانات الرب ومراحمه التى استمعوا إليها وقبلوها بتصديق وإيمان عبّروا عن شكرهم وخضوعهم وتسليم حياتهم بخشوع وركوع وسجود أمام عرش النعمة. ويقول كلمنضس الرومانى: «اصلحوا نفوسم بالتوبة، احنوا ركب

قلوبكم، تعلموا الطاعة».

٤) **صف المشتركين:** وهؤلاء هم الذين إجتازوا الصفوف السابقة حتى إرتبطت قلوبهم بحب من أحبهم، فدخلوا فى شركة الحب غير المنفصم، إذ قد ذاقوا طيب الرب وجمال عشرته، منتبهين إلى أنفسهم، حافظين كلام الرب فى قلوبهم.

وبهذا الفكر الآبائى الكنسى يتم قيادة التائبين ليتعرفوا على معالم حياة التوبة المستمرة كى يسلكوا فيها فيجدوا راحة لنفوسهم ويتمتعوا بمذاقة الملكوت الحلوة لا بعقولهم فحسب بل بقلوبهم وأرواحهم، وهنا يتيقنوا من سلامة طريقهم الروحى بعد أن يكتشفوا حقيقة أنفسهم (رو٣ :١٢، مز١٤ :٣، لو١٥ :٧، لو١٨ :١٣).

ويقول **القديس اغريغوريوس النيصى** فى عظته يوم عيد الأنوار (الغطاس): «إنى أسر بأن أراكم اليوم جميعاً، من موعوظين وتائبين فى الكنيسة، حتى يغتنى هؤلاء بالمواهب السمائية، ويتمتع أولئك بغفران الخطايا والرجوع إلى الله وينعمون عوضاً عن العبودية بالمساواة مع الملائكة».

ويقول فى هذا **القديس اغريغوريوس الثاؤلوغوس** فى مقالته عن يوم الخمسين: «إنه لا يليق ولا يوافق للأعين الضعيفة أن تعاين الشمس ولا للرضع أن يتناولوا طعاماً كاملاً بل بالأجدر أن يتدرجوا قليلاً قليلاً إلى ما هو قدام ويرتفعوا إلى الأمور السامية، فنحن بهذا الصنيع نمنح هؤلاء نوراً بعد نور مبينين لهم من الحق يقيناً».

لذلك شاءت مسرة الله أن لا يموت الخاطئ مثلما يرجع ويحيا، فأسس فى كنيسته سر التوبة المقدس ليكون معمودية ثانية به يغتسل الخاطئ من خطاياه (مت١٦ :١٩، ١٨ :١٧، يو٢٠ :٢١-٢٣).

سر التوبة وتأسيسه فى الكنيسة الأولى

وتعنى الكنيسة بوجود خورس التائبين وبسرائرية التوبة ليس كرموز تقوية نفسانية بل أن تكون حياة التوبة المستمرة فى صلب مفهوم كيان الكنيسة كعشيرة للقديسين التائبين الذين يقبلون الوصايا ويتمموها بفرح كطريق ملوكى، كما رأى هرماس ملاك التوبة فى الرؤيا الخامسة من كتابه «الراعى» (القرن الثانى).

وقد رأى **هرماس** أن دور الكنيسة هو الأخذ بيد التائبين والترفق بهم وإعانتهم على بلوغ الكمال... معرفاً الكنيسة بأنها مبنية من أحجار حية هى المؤمنون التائبون. وعلى التائبين ألا يتشبهوا بحاملى العقاقير الشافية فى صناديق مغلقة من خارج... بل يجب أن يحملوا ثماراً تليق بالتوبة، فالمؤمن يبقى حجراً لا قيمة له بدون التوبة إذ بالتوبة يتمتع بالحياة والعضوية الكنسية الحقة.

ويرى أيضاً أن التوبة لا تجدد فقط شبابنا الروحى والجسدى (على المستوى الشخصى) بل وشباب الكنيسة أيضاً (على المستوى الجماعى). هذا ما تظهر به المرأة (الكنيسة) فى الرؤيا الثالثة حيث تبدو صبية صغيرة جميلة بلا ضعف، وهو ما تشرحه لنا بقولها أن أبناءها إن تابوا توبة كاملة بلا إستهانة بمراحم الرب، فإن تلك التوبة تجددهم شخصياً كما تجدد الكنيسة أيضاً وتزيد نضارتهم أى نضارتها.

ويؤكد **هرماس** فى كتابه على إقتران التوبة بالحكمة، من حيث أن الله يعطى التائب فهماً وحكمة حتى يعرف ذاته وحماقتها ومن ثم لا يعود يخطئ ثانية. كذلك أكد على ثمار التوبة معتبراً أن آفة حياة التوبة فى نظره هى الشك فى عطايا الله، لأن كل منْ يخضع لروح الله يحزن على خطاياه فيتركها ويتوب عنها، وهكذا يخلص الأبرار بتوبتهم.

وأعطت الكنيسة الأولى لسر التوبة إهتماماً رعوياً أصيلاً وأوضح الآباء روح التوبة ومفهومها المُعاش، فنجد **كلمنضس الرومانى** يقول أن الله يقدم فرصة للتوبة لكل محبوبيه، كما يحذر من الإستهانة بلطف الله لأنه دينونة لجميعنا، ذلك إن لم نسلك كما يليق به، ونتمم بفكر واحد الأمور الصالحة المرضية فى عينيه. كذلك أوصى بالإهتمام بالخطاة ومعاملتهم بالوداعة والإتضاع حتى يمتثلوا لإرادة الله، ثم يقول: «لنتب ما دمنا على الأرض لأننا طين فى يد فنان». ويقول أيضاً: «لنسلم أنفسنا لله طبيبنا مادامت لنا فرصة للشفاء، ولنرد له المكافأة بالتوبة من قلب خالص».

ويقول **القديس أغسطينوس**: «إن الخطية إذا فعلها موعوظ تُغسل بالمعمودية، وإذا فعلها معتمد تُغسل بالتوبة»، ويقول **مار إسحق السريانى**: «المعمودية هى الولادة الأولى من الله والتوبة هى الولادة الثانية». كذلك يؤكد **الشيخ الروحانى** على أن التوبة هى معمودية ثانية بقوله: «الذى أفسد طهارته بعد المعمودية وإتسخ بجراحات الخطية النجسة، يخرج بالميلاد من حضن التوبة لنور عالم الروح الذى ناله بسر المعمودية المقدسة». ويقول **مار**

افرآم السريانى: «المعمودية تطهر ما تقدم من الخطايا، والمتأخرة منها لا تغفره، بل جعل الرب التوبة بعد المعمودية لتغفر ما يقترف من الخطايا».

أكد الآباء الأولون على أن التوبة تجدد الإنسان الذى تدنس بالخطية، معتبرين أن المسيح بالمعمودية والتوبة يلد له بنيناً، فالتوبة تعيد حياة المعمودية التى للغفران، ووصفها الآباء بأنها أم الحياة وطوبى لمنْ يُولد منها لأنه لا يموت. وفى هذا يقول **القديس أمبروسيوس**: «حسنة هى التوبة، فإن لم يكن لها مكان فى قلبك ستخسر نعمة الغسل التى نلتها بالمعمودية».

ويعتبر العلامة ترتليان سر التوبة **«حلاً للخطايا»** و**«ميناء ثانية بعد الغرق»** ودعاه القديس إيريناؤس **«اعترافاً»** ودعاه أغسطينوس **«مصالحة»** ودعاه مجمع قرطاجنة **«معمودية ثانية»** ودعاه مار إسحق **«باب الرحمة المفتوح للذين يريدونه»** و**«أم الحياة»** و**«لباس الثياب الحسنة المضيئة»**، وكذلك دعاه القديس يوحنا سابا **«ترياق لأوجاع الخطية القاتلة»** وقال أن التوبة هى التى **«تجعل الزناة بتوليين»** وأنها **«أم الحياة وملحمة الطب السمائى وحاملة التطويبات وخزانة جميع الكنوز»** وأن التوبة **«ترد الأتعاب التى ضيعها الشيطان، وتعطى العطايا السمائية. هى تجدد البتولية التى إتسخت وتحفظ بلا عيب النفس لئلا تفسد»**.

ويقول **القديس أنطونيوس**: «اطلب التوبة فى كل لحظة»، ويقول **القديس باخوميوس**: «لا تؤجل التوبة»، كذلك يقول **القديس باسيليوس الكبير**: «جيد أن لا تخطئ وإن أخطأت فجيد ألا تؤخر التوبة، وإن تبت فجيد أن لا تعاود الخطية»، ويقول **الأنبا إيليا**: «أى قدرة للخطية ما دام هناك توبة ؟».

يقول **القديس أمبروسيوس**: «التوبة لا تُقدم بشغف فحسب، بل وبسرعة لئلا يأتى صاحب الكرم ويطلب ثمرة فلا يجد». ويقول أيضاً: «الرسل عرفوا المعمودية.... لكنهم نادوا أيضاً بالتوبة واعدين بالغفران وإزالة الخطايا... لقد طوبوا من غُفرت خطاياهم بالتوبة».
ويقول عن الصورة الزائفة للتوبة التى حدث أن قدمها بعض من أعضاء خورس التائبين: «البعض يظهرون ندماً لمجرد رغبتهم فى العودة إلى الشركة المقدسة، هؤلاء لا يسعون جدياً فى الحصول على الحل من الخطية بقدر ما يرغبون فى العودة إلى الشركة المقدسة فيخدعون الكاهن من أَجل إعادتهم إلى شركة الجماعة المقدسة. إنهم لا يتركون معاصيهم من ضمائرهم، إنما يتظاهرون بتركها أمام الكاهن الذى قيل له: "لا تعطى القدس

للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير" (مت٧ :٦) بمعنى ألا يُسمح لهؤلاء النجسين بالشركة فى الجماعة المقدسة من غير تكميل توبتهم».

وفى كثير من كتابات الآباء الأولين عن التوبة يؤكدون أنها إقلاع عن الخطية ورجوع ومصالحة مع الله، وأنها صحة روحية وتجديد للذهن Meta - noia (ميطانيا) بها نتوب ونرجع إلى رشدنا، معتبرين أن التوبة تليق بالجميع دائماً، بالخاطئ وبالبار بإعتبارها كمال المسيحى الأساسى.

ورأى الآباء أن التوبة لا تنتهى إلا بالموت، كما نصلى فى صلاة النوم: «توبى يا نفسى ما دمت فى الأرض ساكنة». ويقول **القديس باسيليوس الكبير**: «يجب على التائبين أن يبكوا بمرارة وأن يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة» مؤكداً أنه ليس الذى يقول أخطأت ويلبث مصراً على الخطية هو الذى يتوب، بل الذى يعرف خطيته ويبغضها ويضع حداً للأمور الماضية ويجعل لنفسه بدءاً جديداً بعد الخطايا لأن حياته قد تجددت بالتوبة وثمارها اللائقة.

أما عن تقنين الإشتراك فى الأسرار الإلهية لأولئك الذين إجتازوا خورس التائبين بين باكين وسامعين وراكعين ومشتركين، ففى هذا يقول **القديس أمبروسيوس** أسقف ميلان: «لا يجوز لأى شخص وهو فى الخطية (متهاونا) أن يشترك فى الأسرار..... فإذا كانت التوبة غير عاملة فيك، فخير لك ألا تتقدم للأسرار لئلا تكون مجرماً فى حق الرب».

وعن مسؤولية الكهنة الخاصة بخورس التائبين وبالقوانين الوضعية لسر التوبة فى الكنيسة يقول **كلمنضس السكندرى**: «نحن لا نعمل أى شئ يجعلنا نتعدى قانون الكنيسة» معتبراً أن هذا القانون تسلمته الكنيسة من الرب كتعليم إلهى ملوكى ورسولى، وهو السر الذى أعطاه الرب بعد قيامته للتلاميذ وهم سلموه للآباء خلفائهم بالتتابع. هذا ويعتبر القديسين إيريناؤس وكلمنضس السكندرى أول من أشار إلى أهمية القانون الكنسى كقانون يمثل الحق الذى تعلنه الكنيسة للذين تتفق أفعالهم وكلماتهم مع تقليد ربنا ويتربون على الكتب المقدسة.

ويقول **العلامة أوريجين**: «كل الخطاة فى الكنيسة يستحقون العقاب، لكن العقاب يختلف حسب الرتبة التى للإنسان... فالموعوظ يستحق عقاباً أكثر رحمة من المؤمن،

والشماس يمكن أن يكون له سبب للعفو أكثر من الكاهن. أما ما يسقط تحته الكاهن فلا حاجة بى أن أخبر عنه... ستكون العقوبات أشد». ومرة أخرى يقول: «يوجد دين مستحق على الشماس وآخر على الكاهن، وأما المستحق على الأسقف فهو أثقلهم».

وعن قانونية التوبة يقول **العلامة ترتليان**: «لابد للموعوظ أن يقدم توبة قبل أن ينال نعمة المعمودية» (توبة خورس الموعوظين)، ثم يتحدث عن التوبة الثانية التى بعد المعمودية (توبة خورس التائبين)، محذراً من التهاون بسبب الإعتماد على وجود توبة ثانية، ومحذراً كذلك من هاوية اليأس وقطع الرجاء، وشارحاً حتمية أن يتبع التوبة الثانية مصالحة كنسية وأنه من أجل تحقيق هذه المصالحة لابد أن يخضع الخاطئ لقوانين توبة، كما يؤكد على العقاب الأبدى لهؤلاء الذين يتهاونون بخلاصهم دون أن يقدموا توبة ثانية.

وينادى القديس **مار إفرآم السريانى** كل رعية الآب جنود المسيح المختومين ليسمعوا كلاماً خلاصياً مفيداً لنفوسهم ويأخذوا حياة أبدية وخلاصاً ويدعوهم ليتقدموا إلى المسيح ويستنيروا فلا تخزى وجوههم وليجاهدوا حتى الساعة الحادية عشر مسرعين قبل أن يغلق الباب ويأتى رب العمل بمجد عظيم ليجازى كل واحد حسب أعماله. ويقول: «لنتب ما دمنا فرصة للتوبة، لأنه يكون فرحاً عظيماً فى السماء بكل خاطئ يتوب، وطوبى للذى سمع كلام الله والويل للذى عصى». ويكرر قائلاً: «اقبل إلى التوبة يا أخى ولا تجزع. تشجع أيها الخاطئ وتب واقبل إلى التوبة ناظراً إلى محبة المسيح لأنه لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة».

التأديبات الكنسية

لم تكن التوبة تتم بمعزل عن الكنيسة بل فى الكنيسة التى وضعت على التائب بعض القوانين التأديبية بقصد إصلاحه وتقويم سيرته (عب١٢ :٦). وأشهر هذه القوانين هى الصوم الخصوصى بالإضافة إلى الأصوام الكنسية العامة، كذلك صلوات يقدمها الخاطئ فى مخدعه مع عدد من الميطانيات (الركعات)، وأيضاً بعض التداريب الروحية وأعمال الرحمة مع تأخير التناول من الأسرار المقدسة فترة تتناسب مع جسامة الخطية.

وهذه القوانين هى بمثابة عقاقير روحية وأدوية خلاصية تعالج بها الكنيسة أمراض التائب الروحية لتهذيبه وتقويم سيرته، على أن تُمكن له المحبة والإرشاد. وتقدم لنا القوانين

الرسولية أو ما يُسمى بالليتورجيا الإكلمنضية نموذجاً للصلاة من أجل خوارس التائبين فى القرن الرابع، إذ يقول الأسقف: «اللهم الأبدى ضابط الكل... الذى أوجد الإنسان كزينته للعالم بالمسيح، ووهبه ناموساً طبيعياً وناموساً مكتوباً، لكى يعيش حسب الناموس كخليقة عاقلة، وعندما سقط وهبته صلاحك عربوناً لكى تجذبه إلى التوبة. إطلع على هؤلاء الذين أحنوا لك رقابهم بالنفس والجسد، إذ لا تشاء موت الخاطئ بل توبته لكى يعود عن طريقه فيحيا. أنت الذى قبلت توبة أهل نينوى وتريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون، الذى قبل الابن الضال بأحشاء أب من أجل توبته، الآن اقبل توبة طالبيك، فإنه ليس عبد بلا خطية ولا سيد بلا غفران. إن حاكمت يا رب منْ يقف قدامك؟ بك نتبرر. ردهم إلى كنيستك المقدسة، إلى مركزهم وكرامتهم السابقين، بالمسيح إلهنا ومخلصنا».

وتأتى هذه الطلبة فى ليتورجيا الموعوظين الإكلمنضية ضمن القوانين الرسولية، ثم يعلن الشماس: «أيها التائبون صلوا. لنصل بحرارة من أجل إخوتنا الذين هم فى التوبة، لكى يُظهر لهم الله محبته المترفقة بالراجعين ويقبل رجوعهم وإعترافهم، ويسقط أبليس تحت أقدامهم سريعاً، ويخلصهم من حبائل الشيطان وسطوته، ويحررهم من كل كلمة غير لائقة وكل عمل مشين وفكر قبيح ويغفر لهم كل معاصيهم، التى فعلوها بإرادة أو بغير إرادة، ويمح الصك الذى عليهم، ويكتب أسماؤهم فى سفر الحياة، ويغسلهم من كل دنس الجسد والروح، ويردهم ويضمهم فى قطيعه المقدس، إذ هو يعرف ضعفنا.... ليعيد إليهم فرحة خلاصه، ويقويهم بروحه الحر، فلا يعودوا يهتزون، إنما يرتبطون بالشركة المقدسة، ويشتركون فى أسراره الإلهية، ويظهرون أهلاً للتبنى ويناولون الحياة الأبدية. لنقل بكل غيرة من أجلهم: كيرياليسون».

وورد ذكر قوانين التأديبات الكنسية فى الأوامر الرسولية وقرارات المجامع وشهد عنها الآباء وبالأخص القديس إيريناؤس والقديس كبريانوس والعلامة ترتليان. ويظهر هذا أيضاً من الترتيب الذى كانت الكنيسة الأولى جارية عليه من حيث تقسيم التائبين إلى:

١) **باكون** يقفون خارج الكنيسة يتضرعون بدموع إلى الداخلين فى الهيكل ليصلوا من أجلهم.
٢) **سامعون** يقفون فى خورس خاص بهم ويسمعون التعليم والصلوات الليتورجية.
٣) **راكعون** فى الكنيسة أكثر من الأولين.
٤) **مشتركون** يحضرون الليتورجيا مع المؤمنين دون التناول من الأسرار المقدسة.

وفى هذا الخصوص نذكر الرسالة القانونية **للقديس اغريغوريوس العجائبى** أسقف قيصرية الجديدة التى أرسلها إلى أحد الأساقفة والموجودة فى الرسائل القانونية للكنيسة اليونانية *Επιστολη Κανονικη* وهى رسالة خاصة بالساقطين وقوانين توبتهم وتعدد الدرجات المختلفة للتائبين: «**البكاء** يكون خارج الكنيسة، والخاطئ الواقف هناك يجب أن يتوسل إلى المؤمنين الذين يدخلون أن يصلوا لأجله. **الاستماع** إلى الكلمة يكون داخل باب الشرفة الخارجية، حيث يجب أن يقف الخاطئ حتى يخرج الموعوظون وبعد ذلك يجب أن يخرج، لأنه قيل دعه يستمع إلى الأسفار المقدسة والعقيدة وبعد ذلك يخرج، ويعتبر غير لائق لإمتياز الصلاة. **السجود** هو أن يقف الشخص عند بوابة الهيكل ويخرج مع الموعوظين. **الرجوع** هو أن الشخص يُحسب مع المؤمنين ولا يخرج مع الموعوظين. وأخر الكل تأتى **الشركة فى الأسرار الإلهية**». والكنيسة منذ العصر الرسولى تفرض القوانين والتأديبات للتوبة إذ تقول **أوامر الرسل**: «يا أسقف، اجلس فى الكنيسة وبشر بالكلمة لأن لك سلطان تدين به الخطاة... إفرض على الخاطئ صوماً بقدر إستحقاقه... اطلب الخطاة واجعل عليهم أدوية لينة حلوة. قوّهم بكلام الله ونظف جراحهم... واقطع الداء».

ويقول **القديس يوحنا ذهبى الفم**: «إن الآباء الطبيعيين إذا خالف أبناؤهم أحداً من الرؤساء أو ذوى القدرة فى هذه الحياة لا يستطيعون أن ينفعوهم شيئاً. وأما الكهنة فإنهم كثيراً ما استعطفوا وصالحوا لا رؤساء وملوك فقط بل الله نفسه». ويقول أيضاً: «إن أخطئت فادخل إلى الكنيسة وامح خطيتك. وكما أنك بقدر ما تقع فى الشارع تنهض، هكذا كلما أخطئت تُب عن الخطية ولا تيأس من ذاتك، وإن أخطأت ثانية فتب توبة ثانية أيضاً ولا تسقط من الرجاء بالخيرات الموعود بها سقوطاً كاملاً بسبب الإهمال. وإن كنت فى غاية الشيب وأخطأت فادخل واندم. لأن هذا المكان (الكنيسة) هو مستشفى وليس محكمة وهو لا يطلب مجازاة على الخطايا بل يهب صفح الخطايا».

وهنا يبرز الغرض من التأديبات والقوانين الخاصة بأعضاء خورس التائبين باعتبارها إصلاح ورجوع وخلاص للروح وشفاء للخطاة فى الكنيسة مستشفى التائبين التى تحفظهم من خطايا جديدة. وكثيراً ما كان الآباء يختصرون وقت التوبة ويعفون التائبين من القوانين متى رأوا أن التأديب أنتج النتيجة المطلوبة، وكانوا يشتركون معهم فى صيامهم وسجودهم وتتميم قوانينهم.

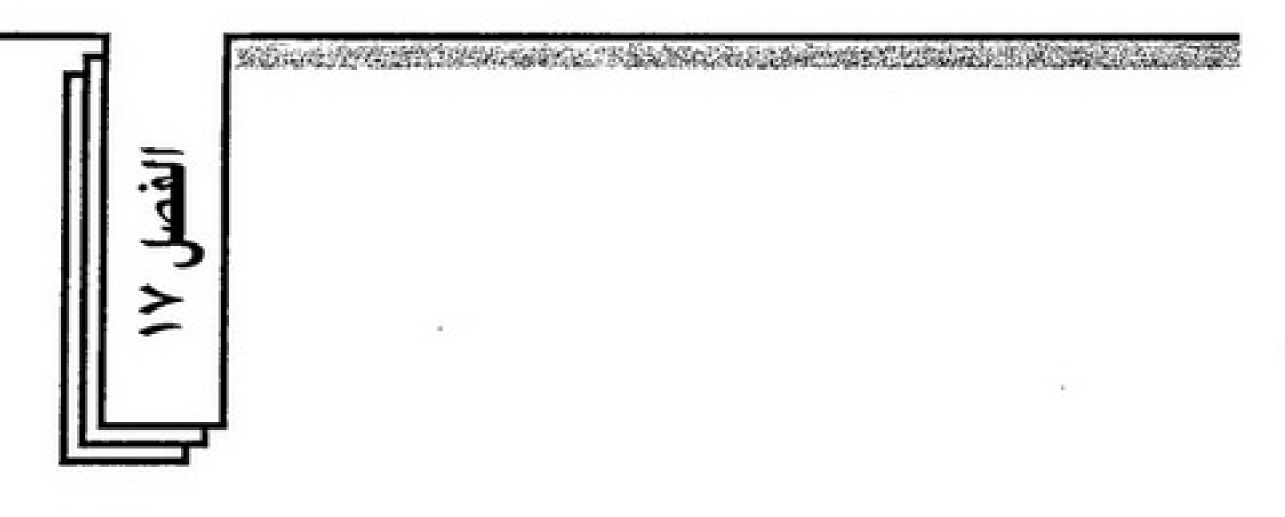
فالذى يمارس الطب الروحى عليه ملاحظة أخلاق الخاطئ وتصرفه وسلوكه ومدة معالجته حتى إذا كان لا يقاوم الطبيب يعامله بالرحمة التى يستحقها ولا يزيد قروح النفس بالعقاقير، ليرد الخروف الضال ويشفيه من الجرح ولا يدفعه إلى اليأس لئلا يهلك بالأدوية الحارة والقابضة كما قال **القديس اغريغوريوس النيصى**: «كما أن غاية صناعة الطب فى معالجة الجسد واحدة وهى صحة المريض وأوجه العلاج كثيرة ومتنوعة، هكذا بما أن الآلام فى المرض الروحى متنوعة فمن الضرورى أن تتنوع أوجه المعالجة الطبية أيضاً فى أشكالها، فتأتى بالشفاء متى كانت مناسبة للمرض الروحى... لذا يجب على المزمع أن يعطى العلاج المناسب للتائب أن يفحص قبل كل شئ أين يوجد الألم، ثم يقدم للضعيف علاجاً روحياً ملائماً، حتى لا يكون الطبيب بتقصيره سبباً فى فشل العلاج».

إن الأخ الذى يساعده أبوه الروحى يصبح كمدينة شاهقة حصينة لأن الذين بلا مرشد يسقطون كأوراق الخريف، أما الذين يقبلون التعليم ويتممون قانون توبتهم فيكونون كمملكة ذات أساسات متينة (أم١٨ :١٩) شيدت على توبة صادقة، مبادرين إلى رؤية وجه المسيح إله التائبين خلال الإعتراف والتوبة الحقيقية التى ليست فقط تترك الخطية بل وتبغضها وترذلها.

ويقول **القديس أمبروسيوس**: «إن " إستخدام العصا" (١كو٤ :٢١) يجب أن يكون بغير قسوة إذ قيل "تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية" (١مل٢٣ :٤)». ويقول أيضاً: «إنه يلزم فرز من سقط سقطة خطيرة لئلا تُفسد خميرة صغيرة العجين كله. وحسناً قيل "نقوا منكم" (١كو٥ :٧) ولم يُقال "اطردوا عنكم" لأن عملية التنقية لا تعنى عدم الفائدة بل إزالة ما هو مزدرى فينا».

ثم يقول: «أريد أن يترجى المغفرة أولئك التائبون بدموع من أجل غفران خطاياهم. وإن تأجلت إعادتهم إلى الشركة فترة أو فترتين (للتأديب) فليزيدوا من دموعهم وليأتوا فى ندم عميق...فيقول لهم الرب: "قد غفرت خطاياكم الكثيرة لأنكم أحببتم كثيراً" (لو٧ :٤٧)».

وبالجملة صارت هذه التأديبات والقوانين بمثابة رياضات روحية لتهذيب أعضاء الكنيسة وإصلاح روحياتهم من ناحية، وكذلك لحفظ الآخرين من السقوط من الناحية الأخرى ليكون الجميع أصحاء.



سر الإعتراف

فى الكنيسة الأولى

سر الإعتراف

فى الكنيسة الأولى

أكد تقليد الكنيسة الأولى بأدلة صريحة على وجوب الإعتراف مع التوبة قبل التناول من الأسرار المقدسة. هذا وقد جاء فى القوانين المنسوبة للرسل القواعد التى تذكّر آباء الكنيسة بأنهم أؤتمنوا على سلطان الحل والربط من جهة، والتى تشرح كيف يفحصون الخطايا ويرشدون التائبين من جهة أخرى، كما وتشرح القوانين والكتابات الآبائية فى القرون الأولى نظام الكنيسة فى ممارسة سر التوبة والإعتراف، وهى دليل صادق على ما كان جارياً فى خوارس الكنيسة (موعوظين وتائبين ومؤمنين) منذ القديم.

وكان مشهد وقوف عامة الشعب أمام الكاهن فى سكون تام منحنين برأسهم فى إنسحاق التوبة إستعداداً للإعتراف مشهداً مألوفاً فى الكنيسة الأولى، وكان الآباء يتكلمون عن الخطية وأثارها بينما المؤمنون المجتمعون للإعتراف يكون فى صمت بثقة لا حد لها فى الكنيسة كواسطة للخلاص والغفران، وبإيمان بكل كلمة من أقوالها وإحترام كامل لكل قوانينها وممارستها.

ومشهد التائبين المستعدين للإعتراف كان ولا يزال يبرز قبول الخلاص المعجزى الآتى عبر الكنيسة، كنعمة مطلقة لا جدال فيها، فى تفاصيلها كما فى عمومها، لأن الله قد هدانا إلى ملكوته ومنحنا نعمة الطفولية لكى ندخل ونتصالح ونتوحد تماماً وحقيقة ـ سواء بالجسد أو بالروح ـ مع الرب.

لقد كان الآباء يشددون على تجديد نعمة المعمودية بالإعتراف والتوبة، معتبرين أن الإعتراف يجلب الحرية وينصر الإنسان الجديد على العتيق ويطرده، ويعافى النفس ويجددها وكذا ينقيها بإتباع قانون التوبة والتدريب الروحى كسند لها.

ويشهد التاريخ الكنسى بأن الإعتراف كان جارياً على وجهين: أحدهما علنى والآخر

سرى، وفى كلا الحالتين كان غفران الخطايا يُعطى من الكهنة وحدهم الذين لهم الحق فى التصريح به. ومع الزمان تنازلت الكنيسة عن الإعتراف العلنى رفقاً بأبنائها وحصرته فى الإعتراف السرى.

ووردت شهادات الآباء الأوائل لتشهد شهادة حقة للإعتراف الجارى فى أيامهم كقاعدة من قواعد إيمان الكنيسة، فشهد العلامة يوسابيوس أبو التاريخ الكنسى بأن الإعتراف كان دارجاً منذ كنيسة الرسل بقوله: «كان تلاميذ مخلصنا أشداء يتركون فى نفوس سامعيهم مناخس تُدخل تعاليمهم فى صميم قلوبهم حتى يبرزوا الخفايا ويعترفوا جهاراً بقبائح سيرتهم الماضية»..

وعن وجوب الإعتراف وإثباته يتحدث **القديس اغريغوريوس النزينزى والقديس أغسطينوس** عن إعتراف آدم وحواء بخطأهما (تك٣ :١) فالله سأل آدم الإنسان الأول وحواء المرأة الأولى قبل أن يحكم عليهما لما خالفا ناموسه، وذلك ليقدم لهما سبباً للإقرار بذنوبهما فينالا الغفران بإعترافهما بندامة، وكذلك سأل الله قايين: «أين هابيل أخوك؟» فلو كان قد اعترف بخطاياه وتاب لنال الصفح من الله.

وتحدث الشارحون عن الإعتراف كلغة إقرار الخاطئ بخطاياه أمام كاهن الله إقراراً مصحوباً بالندامة والخشوع والرجوع، ثم نوال الحِل منه بالسلطان المُعطى له من الله القائل: «منْ غفرتم خطاياه تغفر له ومنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت». ويقول **القديس كيرلس الكبير** عن الكنيسة أنها قد وضعت للتوبة شروطاً أوجبتها على أبنائها لتكون توبتهم مقبولة أمام الله، وأهم تلك الشروط وأخصها هو الإعتراف الشفاهى أمام الأب الروحى.

ففى شريعة موسى كان الإعتراف جزءاً ضرورياً من توبة الخاطئ حسب قول الرب «إذا أخطأ أحد... يقر بما أخطأ به ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه... فيكفر عنه الكاهن من خطيته» (لا٥ :١) «يفنون بذنوبهم... لكن إن أقروا بذنوبهم .. أذكر ميثاقى مع يعقوب» (لا٢٦ :٣٩). فالنفس التى تذنب لابد أن تقر بالخطايا التى عملتها (عد٥ :٦) وتأتى إلى الكاهن الذى يكون فى تلك الأيام وتقول له «اعترف اليوم للرب إلهك» (تث٢٦ :٣) فمن يكتم خطاياه لا ينجح ومنْ يقر بها ويتركها يُرحم (أم٢٨ :٢٣) وكما اعترف داود الملك أمام ناثان النبى وقال «قد أخطأت إلى الرب. فقال ناثان لداود الرب أيضاً قد نقل عنك

خطاياك. لا تموت» (٢صم١٢ :١٣) هكذا يكون الإعتراف على يد الكهنة ثم يعقبه التصريح والإعلان بغفران الخطية.

فالإعتراف لازم وضرورى وهو الذى يعطى للذبائح قوتها، لذا كان كثيرون يأتون إلى يوحنا المعمدان معترفين بخطاياهم (مت٣ :٥)، وإلى بطرس الرسول لينالوا المصالحة وحل مفاتيح ملكوت السموات (مت١٦ :٩)، وإلى الآباء الرسل ليكونوا محاللين فى السماء (مت١٨ :١٧) (يو٢٠ :٢٢) إذ أن الذين كانوا يتوبون كانوا يأتون للرسل مقرين ومخبرين بأفعالهم (أع١٩ :١٨)، وقد فسر القديسان باسيليوس ويوحنا ذهبى الفم هذا النص موضحين أنه يتحدث عن الإقرار بالخطايا أمام الكاهن، معتبرين أن وضع يد الكاهن فى قراءة التحاليل للتائب تنقل خطاياه إلى الذبيحة الإفخارستية.

ويذكر سقراط المؤرخ أن المعترفين كانوا يتقدمون إلى الكهنة ويعترفون بما ارتكبوا من الخطايا بعد المعمودية بالتفصيل. وقد مدح الشماس بولينوس القديس أمبروسيوس على غيرته فى سماع الإعترافات. كذلك هناك أدلة تاريخية لا تحصى على وجوب الإعتراف فى سر التوبة قبل التناول من الأسرار المقدسة.

فقد قال **القديس ديونيسيوس الأريوباغى** تلميذ بولس الرسول: «إن صلوات القديسين تنفع جداً، وكذا من تقدم إلى رجال الله ليعترف لهم بآثامه فإنه ينال صفحاً كأنه من الله، وتتمحص خطاياه وينال المواهب الإلهية لأن ذلك شرع فى الأحكام الإلهية أن الله يمنحها ويعطيها بتوسط الآباء». وقال **القديس برنابا** فى رسالته المشهورة ما نصه: «اعترف بخطاياك ولا تتقدم إلى الشركة وأنت فى سوء الضمير فهذا هو طريق الخلاص». وقال **القديس كلمنضس الرومانى** تلميذ بطرس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «الأولى بالناس أن يعترفوا بآثامهم وخطاياهم من أن تتقسى قلوبهم»، وقال أيضاً فى رسالته الثانية: «مادمنا فى هذا العالم فلنعترف من كل قلوبنا بالشرور التى فعلناها فى الجسد ليخلصنا الرب مادام لنا زمان التوبة. وبذا متى خرجنا من العالم لا يكون واجب علينا أن نعترف هناك أو نتوب».

ويروى **القديس إيريناؤس** قصة النساء اللواتى تبعوا هرطقة فالنتينوس ثم رجعن واعترفن بإثمهن وضلالهن، وكذلك قصة المرأة التائبة التى بقيت مدة حياتها لا تكف عن الإعتراف بالإثم الذى إقترفته ماحية بدموعها الوصمة التى أنزلها بها أحد السحرة.

ويسمى القديس إيريناؤس هذا السر «إعترافاً» ويسميه **القديس أغسطينوس** «مصالحة» حيث يعترف التائب إلى الله بواسطة الكاهن، وبهذا لا يكون الإعتراف أمام الكاهن بل فى حضرته، وهو إعتراف أمام رب البشرية مباشرة حيث يكون الجميع متعلمين من الله (يو٦ :٤٥) ويكون بانى الكل هو الله (عب٣ :٤).

أكد الآباء على أن معنى الإعتراف بالخطية هو أن المسيح يحملها بدلاً من المعترف فتنتقل منه إلى المسيح ليحملها عنه ويمحوها بدمه «وضع عليه إثم جميعنا» (أش٥٣ :٦) فلا ينفصل الإعتراف عن إستحقاقات دم المسيح وفعل الغفران ونوال الحل الكهنوتى والإرشاد. هذا ويقول الكاهن فى سر الرجعة فى دورة البخور: «يا الله الذى قبل إليه إعتراف اللص اليمين على الصليب المكرم، إقبل إليك إعترافات شعبك واغفر لهم خطاياهم....» جامعاً إعترافات الشعب مع البخور طالباً لهم الغفران.

فهناك إرتباط بين سر التوبة والإعتراف وبين الغفران، إذ أنه الطريقة الوحيدة للمغفرة، لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عب٩ :٢٢)، والمعترف عندما يتوب عن خطيته ويقر بها تنتقل إلى حساب المسيح فلا يموت لأن المسيح قد مات عنه «دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو١ :٧).

ومن المعروف أن قوة المغفرة التى يستمدها الكاهن ليحل المعترف من رباطات خطاياه ويعتقه من عقوبة تعدياته على وصايا الله إنما يستمدها من دم المسيح المسفوك على عود الصليب، لذلك فتوسط الصليب بين الكاهن والمعترف ضرورة يحتمها الطقس كما يحتمها اللاهوت. فالكاهن يضع الصليب ملاصقاً لرأس المعترف المنحنية من ثقل الخطية، أما الكاهن فيرفع رأسه هو إلى السماء ويداه الإثنتان مرفوعتان بالصليب فوق رأس المعترف. وعندما يصلى يرشمه باسم الثالوث القدوس إستدعاءً لسر اللاهوت للتقديس والغفران أى سر الثالوث والتجسد والفداء، ثم يكمل الصلاة إلى أن يأتى ذكر الروح القدس فينفخ فوق رأس المعترف وبحلول الروح القدس يتهيأ المعترف لقبول فعل دم المسيح السرى للتطهير من كل خطية «باركه، طهره، حالله»، وهى أفعال حلول روح الله فى السر على نفس نسق «وشكر وباركه وقدسه» فى سر الإفخارستيا.

إن الدور الذى يمارسه الأب الكاهن فى سر الإعترافهو مثل قبول ناثان لتوبة داود النبى، إذ قال له أن الله قد غفر له خطيته ثم أعطاه علامة المغفرة والشفاء من الأوجاع، الأمر

الذى تصنعه المراحم الإلهية بغزارة وبوفرة، فتمحو المعاصى وتشطب الدين من السجل، حينما يكون المدين قد سدد الدين أو يكون الدائن قد تنازل عن دينه.

لذا يقول **الأنبا موسى الأسود**: «إذا كشفت للشيخ خطاياك... زال عنك الإستبداد الشيطانى بقوة هذا الإعتراف». ويقول **يوحنا الدرجي**: «الأفكار الرديئة التى لا تنكشف لمنْ يمكنه شفائها تستمر وتأخذ طريق الفعل أى تكمل بالعادة». فالسحابة الداكنة المظلمة بقدر ما تهطل من الماء بقدر ما تصير بيضاء، وليس هناك طريقة تؤدى للموت أكثر من الذى يحتقر تعاليم الآباء ويعتمد على أفكاره، وكل فكر خاطئ لا يضعف إلا بكشفه، وبقوة الإعتراف يهرب وينتهى، لهذا كان يوحنا المعمدان يأمر الذين يأتون إليه أن يعترفوا بخطاياهم قبل المعمودية.

ويقول القديس مار إفرآم السرياني: «فقط عن طريق الإعتراف والدموع يستطيع الإنسان أن يمحو آثامه المدونة فى تلك الكتب» ويقول أيضاً: «إقبلوا الإعترافات يا منْ إصطفاكم الله (الكهنة) لكى تنجّوا بطلبتكم التائبين فيصيرون معافين ناهضين من سرير الخطية المفسدة». ثم ينادى مار إفرآم السريانى على الآباء الكهنة قائلاً: «نفسى المرة بسبب الخطايا حلوها بالكرمة الحقيقية التى أغصانها لكم. اعطوا العطشان منْ ينبوع الحياة الذى أُهلتم لدعوة خدمته. ها قد كشفت جراحات نفسى فلا تتوانوا فى أمرى بل اطلبوا إلى الطبيب من أجل السقيم، إلى الراعى من أجل الخروف، إلى الملك من أجل الأسير، إلى الحياة من أجل المائت لكى أنال الخلاص من الخطايا المحيطة بى بيسوع المسيح ربنا».

يقول **القديس أثناسيوس الرسولى**: «كما أن المعتمد من الكاهن يستنير بنعمة الروح القدس هكذا من يعترف بخطاياه بواسطة الكاهن يحظى بالغفران بنعمة المسيح»، ويقول أيضاً **القديس أنطونيوس الكبير**: «إن تذكرنا خطايانا، ينساها لنا الله، وإن نسينا خطايانا يذكرها لنا الله». وكما أن الزارع الذى يزرع فى أرضه حنطة مسوسة لا يجنى منها ثمراً، كذلك الذى يجاهد ويتعب بغير معرفة. فالتوبة هى ميلاد جديد والإعتراف ضمادة الطبيب السمائى، منْ وضعها على جرحه برأ على الفور.

وعن ضرورة الإعتراف فى الحياة الروحية يقول **القديس كيرلس الأورشليمى**: «إن الزمان الحاضر زمان الإعتراف فاعترف بما ارتكبت قولاً وفعلاً وعملاً ليلاً ونهاراً». ويقول **القديس باسيليوس الكبير**: «من اللازم الإعتراف بالخطايا لمنْ سُلم إليهم توزيع أسرار الله».

تحدث **العلامة ترتليان** عن سرائرية الإعتراف ، مفرقاً بين الخطايا الجسدية والخطايا الروحية، أى بين الخطايا التى يشتهيها الإنسان فقط وبين الخطايا التى يفعلها، فيعلّم ترتليان بأن كلا النوعين يقع تحت الدينونة، فقد قال رب المجد أنه ليس فقط الذى يزنى فعلاً هو زان بل والذى يشتهى ايضاً، لكن كل هذه التعديات يمكن أن تغفر، والله الذى وضع العقوبة والدينونة هو نفسه يهب الغفران عن طريق التوبة والإعتراف، كذلك يؤكد العلامة ترتليان بأن الإعتراف بالخطية يهونها، بقدر ما أن إخفائها يكبرها، لأن الإعتراف قرين الرضى، والخفاء هو قرين التمرد، ولكن لا يكفى فقط الآتيان بالتوبة داخل الضمير، بل يلزم أيضاً التعبير عنها بالعمل، وهذا العمل يعبر عنه عادة بالإصطلاح اليونانى *Εξομολογησισ* أى «الإعتراف» وبه نعترف بخطايانا للرب، ليس لأنه لا يعرفها بل لأجل أن ننال الرضى بالإعتراف. وبالإعتراف تنشأ التوبة، وبالتوبة نسكن غضب الله، فالإعتراف هو النظام الذى يلزم الإنسان أن يسجد ويتضع إذ يفرض عليه حتى فى أسلوب لبسه وطعامه سلوكاً معيناً يجتذب إليه الرحمة، لهذا حينما يضع الإنسان نفسه يرفعها الله، وحينما يتهمها يبررها الله، وحينما يدينها يحلها الله، وبقدر ما نرفض أن نشفق على أنفسنا بقدر ما يشفق الله علينا.

وبالإعتراف تنكشف حيل الشيطان وتنفضح ألاعيبه، إذ أن الخطية تجد مجالاً خصباً فى الخفاء والظلمة، لكن بإعترافنا نسقط الشيطان أكثر من غلبته لنا بسكوتنا السابق، وبعد أن يفتضح الشيطان لا يستطيع أن يكدرنا فيما بعد، وبإعترافنا ندخل النور، منسحبين من الظلمة، ويزول عنا الإستبداد الشيطانى بقوة الإعتراف ... ويذكر لنا التاريخ الكنسى كيف أن القديس موسى الأسود عندما كان يعترف بجرائمه لأبيه الروحى القديس الأنبا إيسيذروس رأى الأنبا مقاريوس الكبير أثناء إعترافه ملاكاً ممسكاً بلوح عليه كتابة سوداء، وكلما اعترف موسى بخطية قديمة مسحها ملاك الرب حتى عندما انتهى من الإعتراف وجد اللوح أبيضاً تماماً.

وتوصى الكنيسة أبناءها أن يستعدوا للإعتراف لا مزودين بلائحة من الخطايا بل متسلحين بالحاجة الأكيدة إلى التوبة ليتمتعوا بفرح حل التوبة، عندما لا يمتد لهم ولا يغرقهم الشر فى لجة مياه عكرة، مياه الإكتفاء الذاتى بالأعذار وتبرير النفس والخجل. لذا يقول العلامة ترتليان: «إن كثيرين ينتبهون إلى الخجل أكثر من الخلاص فيهربون من

الإعتراف أو يؤخرونه من يوم إلى يوم كمنْ أصابه مرض فى الأعضاء المستحى منها فأخفى على الأطباء مرضه فيباد بخجله. فإذا أخفينا نفوسنا عن معرفة الناس فهل تخفى على الله؟ وهل الأولى لنا أن نهلك وذنوبنا مخفية من أن نحل وهى مكشوفة فى التوبة».

وكذلك يقول **ترتليان**: «إذا لم يخجل الخاطئ من أن يبين خطيئته لكاهن الرب، يستمد منه العلاج بحسب قوله: قلت اعترف للرب بإثمى وأنت تغفر شر قلبى».

كما يقول أيضاً: «كما أن منْ بقى فيهم الطعام غير مهضوم أو تثقلت معدتهم بخلط أو بلغم، فإذا تقيأوا استراحوا، كذلك من أخطأوا وأخفوا الإثم فيهم يتضايقون داخلياً ويختنقهم لغم الخطية وخلطها. ولكن إن شكا أحد نفسه فبشكايته وإعترافه يتقيأ الإثم وتزول عنه علة المرض فلا خوف من الإعتراف بالخطية لنوال الرحمة».

ويقول **القديس كبريانوس**: «كم يكون أعظم إيماناً وأفضل خوفاً منْ يعترفون بندامة أمام كهنة الله بما إفتكروا به من الإثم منقين ضميرهم... فليعترف كل منكم أيها الأحباء بإثمه مادام حياً وما دام ممكناً قبول إعترافه وما دامت المغفرة بواسطة الكهنة مقبولة عند الله».

وفى وصف الآباء لسر التوبة والإعتراف يؤكدون على أن المعترف يجب أن يبكى بمرارة لأنه عصى السيد الرحيم الذى يطلب خلاصه، وأن يظهر فى قلبه سائر علامات التوبة بعزم على إصلاح سيرته مقراً بالخطية ومعترفاً بها... فينال الغفران والصفح بواسطة الكهنة كأنه من الله، فإن الله يمنح المواهب ويعطيها لوكلائه.

والأولى بالمعترفين أن يظهروا جراحاتهم للطبيب فيشفيهم، وأن يزيلوا جراحهم بالدموع، لذا يقول **القديس اغريغوريوس النيصى**: «إن نعمة الله لا يمكن أن تنسكب على النفوس التى تتهرب من خلاصها» فالذى يستحى أن يعترف بخطاياه لا يخلص، وفى ذلك اليوم، يوم الدينونة، لا يفتضح قدام واحد فقط، بل قدام المسكونة كلها، لذا ليت كل تائب يسمّد حقله متمثلاً بالمزارعين المجاهدين، ولا يخجل من إشباع أرضه بالسماد، وينثر الرماد القذر على الحقل حتى يجمع محصولاً أوفر. حقاً إنه من المخجل أن يعترف بخطاياه ولكن هذا الخجل يكون أشبه بعملية الحرث للأرض، وإزالة العوسج منها، وتنقيتها من الأشواك، وبذلك تظهر الثمار.

ويقول الآباء إن منْ لم يخجل من الرب على الأرض هكذا لن يخجل منه الرب فى السماء (لو٩ :٢٦) إذ أن الخروج خارج المحلة وكشف الجراحات والإعتراف يعيدنا إلى المحلة مرة أخرى عابرين حفاة القدمين على أنهار دموع التوبة. ففى إقامة لعازر خرج خارجاً ولكن بأربطته، وهكذا صار حياً بالإعتراف، ولكنه لم يكن قادراً على السير إنما تخبل بأربطته... لذلك تعطى الكنيسة الحل للمعترف بحسب ما قاله الرب لتلاميذه: «حلوه ودعوه يذهب» ليصير المعترف قائماً حياً حالاً، ويتحلل من الإنسان العتيق بإعترافه وتوبته كما يقول **القديس أغسطينوس**: «الإعتراف هو تحلل من الإنسان القديم ونمو للإنسان الجديد».

وما أحوج أن يكشف المعترف ذاته لأبيه الروحى كالمريض للطبيب إذا شاء العلاج من علته، فإذا تكاثرت عليه الأمراض والعلل، عليه أن يوضحها كلها للأب الكاهن خادم سر الإعتراف، لأنه إن أخفى عنه واحدة لن يفيد علاجه من المرض... ففى صراحة المعترف المطلقة يضفى نوراً مشعاً على خفايا حياته فيساعد أباه الروحى على قيادته وإرشاده.. ويكون النور عاملاً فيه بلا ظلمة خفاء أو كذب. فكل منْ يعترف بخطاياه يجد العافية وينال الشفاء فتصلح نفسه ويكون بذلك قد قام من موته، والذين يعترفون يشفون من ألاعيب الشيطان ويلجمون لسانه عن أن يشتكى عليهم ويفتحون نوافذ نفوسهم لقبول عمل النعمة الإلهية.

ويعتبر الإعتراف والإقرار بالأعمال الشريرة بداية الأعمال الصالحة... والإعتراف بالجهل خطوة إلى المعرفة يفتح بها المعترف قلبه لينقيه ويعرى أفكاره الخفية ويسمع من أبيه الكاهن: «افعل هذا وتجنب ذلك. هذا حق وذاك لا. هذه فضيلة وتلك إرادة ذاتية». ومنْ يسمع من آبائه فمن الرب يسمع، ومن لا يسمع منهم فمن الرب لا يسمع، ومنْ يعتمد على رأيه الذاتى هو مخدوع حتى ولو كان قديساً، لذلك لابد للمعترف أن يقطع جميع هوى نفسه، ويعمل هوى الذى إئتمنه على نفسه أى أبيه الروحى: «الذين بلا إرشاد يسقطون كأوراق الشجرة» (أم١١ :١٤) «ويل لمنْ هو وحده، إن وقع فليس له ثان ليقيمه» (جا٤ :١٠) وحسبما قال الكتاب أنه «من فم الكاهن تطلب الشريعة» (حج٢ :١١).

هذا ويقول **القديس أنطونيوس الكبير**: «ضع فى قلبك أن تسمع لأبيك فتحل بركة الله عليك». وهنا يتضح دور أب الإعتراف كطبيب يعالج روحيات المعترف بأدوية ومراهم

الخلاص إلى جانب دوره الكهنوتى فى الحل والمغفرة. لذا يقول **القديس ساويرس بن المقفع**: «لا يجب لأحد أن يجعل نفسه رأساً بغير رأسٍ ولا أباً بغير أب». وكل منْ لا يتخذ له مرشداً فى حياته الروحية يشبه ورقة الخريف التى تقطع عن غذاء الشجرة الأم فتيبس وتنفصل عن الغصن فيستولى عليها الأعداء ويدوسونها بأرجلهم. كما يقول الكتاب المقدس «هناك طريق تبدو للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت» (أم١٤ :٢)

لكن كيف يمكن للمعترف أن ينال الحل والمغفرة إن لم يقر ويعترف بخطيته؟ وكيف يمكن للكهنة أن يغفروا الخطايا أو يمسكوها دون أن يعلموها ويفحصوها؟ وكيف يعرفونها بدون الإعتراف بها؟ وكيف يتأتى للقاضى أن يحكم فى قضية لم تُعرض عليه ولم يعرفها؟ فالسلطان المُعطى للكهنة للربط والحل يقتضى ضرورة أن يعترف التائب بخطيته لينال الصفح عنها، لأن منْ ينكر الإعتراف لا يمكنه أن ينال نعمة الحل.

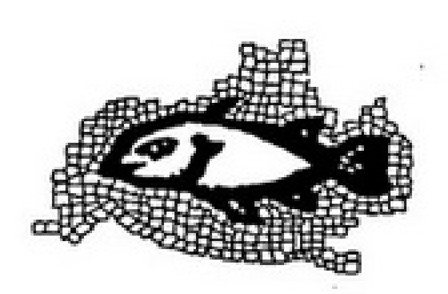
ويُروى عن القديس **الأنبا موسى الأسود** أنه كان يركع أمام قس الأسقيط ويعترف بصوت عال بعيوبه وجرائم حياته الماضية فى تواضع كثير ووسط دموع غزيرة، ويقول **الأنبا أشعياء الاسقيطى**: «إن أخطأت أسرع واعترف بذنبك، فطوبى لمنْ اهتم بجراحاته لتشفى، وعرف خطاياه وطلب من أجلها الغفران. كل منْ كتم خطاياه استملك عليه عدوه، أما الذى يعترف بخطاياه فيستريح». ويقول **القديس يوحنا الدرجى**: «منْ كان بلا مدبر لا تكون له سلامة... فاعترف من أجل سلامتك لأن المعترف يستريح من القتال وبغير إعتراف وطاعة لا يخلص الخطاة».

كذلك يقول **القديس أنطونيوس الكبير**: «لا تختزن خطيتك التى صنعتها لأن أفضل ما يقتنيه الإنسان هو أن يقر بخطاياه ويلوم نفسه». ويقول **القديس مكسيموس**: «إن تاب الإنسان بقدر خطيته فإنه يحظى بالغفران، فاخبرنى يا ابنى بخطيتك ولا تخجل ولا تكتم شيئاً، لأن الذى يخجل أن يقر بخطيته لا يبرء منها».

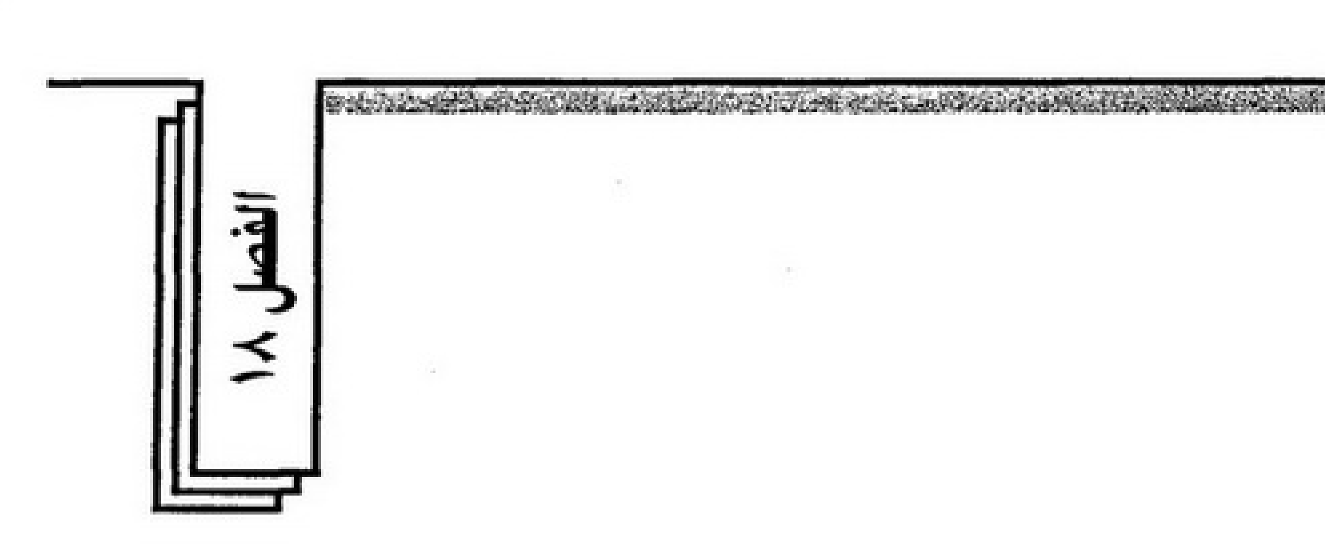
ويقول القديس **مار إسحق السريانى**: «المريض الذى يعترف بمرضه شفاؤه هين، كذلك الذى يقر بأوجاعه قريب من البرء». وأيضاً يقول القديس **الأنبا موسى الأسود**: «منْ يتذكر خطاياه ويقر بها لا يخطئ كثيراً، أما الذى لا يقر بها فإنه يهلك بها».

لهذا كله يحرص التقليد الأرثوذكسى على أن يعترف المؤمنون قبل أن يتقدموا للتناول

من الأسرار المقدسة، وتشجع الكنيسة أولادها على الإعتراف بإنتظام حتى يتنقوا من الخطية ويكون لهم شركة كاملة معها، حاسبة أن الإعتراف المنتظم هو الجهاد القانونى الذى به يحيا المؤمن حياة التوبة ومن ثم ينال المغفرة والإرشاد والمعونة الروحية التى بها يستأهل لشركة الأسرار الإلهية غير المائتة.



إكثوس ΙΧΘΥΣ : يسوع المسيح ابن الله مخلص



سلطان الحِل

عند آباء الكنيسة

سلطان الحِل
عند آباء الكنيسة

أسس الرب سلطان الحِل والربط عندما قال وعده الإلهى لبطرس الرسول: «أعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء» (مت١٦ :١٩). وكذلك عندما أعطى الكنيسة سلطان الحل والربط بقوله لتلاميذه: «وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار. الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء (مت١٨ :١٧). وبناء على هذه المواعيد أسس الرب هذا السلطان بعد قيامته عندما ظهر لتلاميذه وقال لهم: «اقبلوا الروح القدس منْ غفرتم خطاياه تُغفر له ومنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو٢٠ :٢١). ويتضح من هذه النصوص الإلهية أن الرب يسوع منح تلاميذه وخلفاءهم سلطاناً أن يحلوا الخطايا ويربطوها، وأن يتركوها ويمسكوها بقوة روح الله القدوس، وأن يعلنوا غفران الخطايا للبشر، فما يعمله الكهنة تحت على الأرض يثبته الله فوق، ويؤيد السيد رأى وكلائه.

والكنيسة منذ العصر الرسولى تستعمل سلطان الحِل بكل تدقيق... فقد ورد فى قوانين الرسل: «هكذا كل أسقف أو قس لا يقبل منْ يرجع عن خطيته بل يطرده إنما يحزن المسيح القائل "يصير فى السماء فرح بخاطئ يتوب"». وورد أيضاً فى أوامر الرسل تذكير للآباء باعتبارهم مؤتمنين على سلطان الحل والربط، وإشارة إلى الوجوه التى بها يفحصون الخطاة ويرشدون التائبين، وفى الوقت نفسه أوصت أوامر الرسل المؤمنين بأن يوقروا آباءهم الروحيين ويكرمونهم ويقدموا لهم جميع أنواع الكرامة، لأنهم أخذوا من الله سلطان الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحكموا بموت نار أبدى، وأن يحلوا الراجعين عن خطاياهم. وقد مارس الرسل أنفسهم هذا السلطان كما يتضح مما جاء فى سفر أعمال الرسل: «وكان

كثير من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم» (١٩ :١٨). وقد استعمل بولس الرسول هذا السلطان (٢كو٢ :٢)، الأمر الذى تحدث عنه سمعان اللاهوتى قائلاً: «إن الله ينير سلطات الكهنة فى القوات السمائية فى سياق وتسلسل تام، كى ينفذ النور الإلهى من السلطة الكهنوتية الأولى إلى السلطة الكهنوتية الثانية ومن الثانية إلى الثالثة... يربطهم معاً ويوحدهم رباط الروح القدس، وفى مثل هذا التتابع يصيغون جميعهم معاً نوعاً من سلسلة ذهبية، يكون فيها كل قديس حلقة قائمة بذاتها لكن متصلة بالأولى.. سلسلة قوتها فى الله لا يمكن كسرها».

الحِل عند آباء كنيسة أنطاكية

منذ بداية القرن الثانى أوضح **القديس أغناطيوس الأنطاكى** فى رسالته إلى أهل فلادلفيا أن تدخل الأسقف ضرورى لمصالحة الخطاة مع الله ويقول: «إن الله يغفر للتائبين إذا عادوا للوحدة مع الله (أى مع الكنيسة) وبموافقة الأسقف»، باعتبار السلطان الأسقفى منحدر من الرسل وأن الأسقف هو صورة الله غير المنظور.

والرسالة الشهيرة التى كتبها **القديس كلمنضس الرومانى** خليفة القديس بطرس الرسول إلى يعقوب الأورشليمى تشرح بوضوح أن سلطان المفاتيح مُعطى لخلفاء الرسل: «يقول القديس بطرس إنى أعطى كلمنضس (خليفتى) سلطان الحِل والربط الذى أعطانيه السيد، بحيث أن كل ما يربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء، لأنه يربط ما يجب أن يُربط ويحل ما يجب أن يُحل».

ويُدعى الأساقفة «**حاملو المفاتيح**»، وفى هذا الأمر يقول **القديس كلمنضس الرومانى**: «إن لهم سلطان إغلاق السماء وسلطان فتح أبوابها لأنهم قد حملوا مفاتيح السماء». وفى القرن الرابع، يردد **القديس يوحنا ذهبى الفم** فى كتابه عن «الكهنوت» صدى تقليد الكنيسة الأنطاكية عندما يكتب: «لقد أُعطيت للكهنة مهمة خدمة الأمور السمائية، وأُعطى لهم سلطان لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة إذ لهؤلاء لم يقل: "كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء". إن أمراء هذا العالم لهم أيضاً سلطان الربط لكن على الجسد فقط، بينما الربط الذى يتحدث عنه الإنجيل يشمل النفس أيضاً ويُربط فى السماء، وهكذا كل ما

يفعله الكهنة هنا على الأرض يتممه الله فى السماء ويؤكد السيد الحكم الذى يتخذه الخادم. هل أعطى لهم شيئاً آخر سوى سلطان غير محدود فى السماء نفسها؟ فهو يقول بأن الخطايا التى تغفرونها تصير مغفورة والتى تربطونها تصير مربوطة، فهل يمكن أن يوجد سلطان أعظم من هذا السلطان؟ الآب السماوى أعطى الحكم كله للابن، وأنا أرى الابن يعطى بنفسه هذا الحق بجملته للكهنة».

الحِل عند آباء كنيسة الاسكندرية

يقتبس **القديس كلمنضس السكندرى** من كتاب «الراعى» لهرماس الوصف الذى قدمه لنا عن توبة شاب مجرم على يدى القديس يوحنا الحبيب فى أفسس، موضحاً أن طقس الكنيسة يؤكد على أن الرسول يوحنا قال للتائب المخطئ أنه قد نال غفران الرب ثم صلى لأجله بعد أن تطهر بدموع التوبة وبعدئذ أخذه إلى الكنيسة. ويصف كلمنضس السكندرى بعض ممارسات وطقوس التوبة التى تنتهى بـ «عودة الخاطئ ثانية إلى حضن الكنيسة»، ويستعير كلمنضس من الراعى لهرماس تعبير «**ملاك التوبة**» الذى يقصد به الكاهن أو الأسقف الذى يتمم طقس التوبة والتى يسميها «التوبة الثانية» عندما يقدمها المؤمنون الذين سقطوا فى بعض الخطايا الجسام والواقفين فى خورس التائبين فى الكنيسة، بالمقارنة مع «التوبة الأولى» التى تعد غير المؤمنين لنوال المعمودية أى أعضاء خورس الموعوظين.

أما **العلامة أوريجين** فيتناول بالشرح الآية التى كتبها القديس يوحنا الإنجيلى (يو٢٠ :٢٣) والتى تعطى للرسل وخلفاءهم سلطان الغفران، ويقول أننا لو كشفنا خطايانا لهؤلاء الذين يستطيعون أن يقدموا الدواء لجراحاتنا وخطايانا سوف يمحو الله خطايانا مثل الغيمة.

ويقول **البابا أثناسيوس الرسولى**: «كما أن الإنسان الذى يتعمد بيد الكاهن يستنير بنعمة الروح القدس، كذلك الإنسان الذى يعترف (بخطاياه) فى توبة ينال من الكاهن مغفرة هذه الخطايا بنعمة المسيح».

وفى القرن التالى كتب **القديس كيرلس السكندرى** فى شرحه لإنجيل يوحنا (آية ٢٠ :٢٢) قائلاً: «لماذا أعطى الرب تلاميذه كرامة يبدو أنها يجب أن تكون محفوظة لله

نفسه؟ لقد قرر وحكم حسناً بأن هؤلاء الذين نالوا الروح الإلهى من السيد يكون لهم سلطان غفران الخطايا أو ربطها، والروح الإلهى يغفر هذه الخطايا أو يربطها بخدمتهم (أى بخدمة الكهنة). إن هؤلاء الذين نالوا نفخة الروح القدس يغفرون الخطايا بطريقتين: بالمعمودية وبالتوبة. يغفرونها بالتوبة بمعنى أنهم يغفرون أو يربطون الخطايا، سواء بتأديب أعضاء الكنيسة الخطاة أو بالغفران للتائبين».

وعن الحاجة إلى الحِل الكهنوتى يقول **العلامة أوريجانوس**: «لا يخلص المؤمن من خطاياه بنفسه... بل يلزم أن يكون له كاهن أو رئيس كهنة». ويقول أيضاً: «إن لم يكن الإنسان مهتماً بأن يكون مقدساً لن يفكر فى تقديم التوبة عن خطاياه التى يرتكبها، ولا يقدر أن يطلب العلاج. أما القديسون فيقدمون التوبة عن خطاياهم. إنهم يشعرون بجراحاتهم ويطلبون كاهناً ويسألون العلاج.....».

وعن حدود الحِل الكهنوتى يقول أيضاً **العلامة أوريجين**: «يوجد كهنة هم فى الواقع كهنة الكاهن الأعظم، هؤلاء يتقبلون معرفة الشفاء المعطى لهم من قبل الله، وقد تعلموا من الروح القدس ما يخص الخطايا التى يرفعون عنها ذبيحة، ومتى يكون ذلك وبأية كيفية، كما تعلموا أى الخطايا التى لا ينبغى أن يصنعوا عنها هكذا. لكن يوجد آخرون لا أعلم كيف إدعوا لأنفسهم بغير وجه حق قدرة شخصية على الحِل أكثر مما لسلطانهم الكنسى حسب الطقس، ربما لعدم تمكنهم من معرفة حدود إختصاص الكهنوت الذى لهم، فإفتخروا أنهم قادرون أن يغفروا خطايا مثل عبادة الأوثان والزنا والنجاسة (دون تأديب كنسى) على أساس أنهم بصلاتهم يحلونهم، حتى لو كانت خطاياهم للموت (١يو٥ :١٦، ٢بط٢٠-٢٢)».

فالذين ينالون درجة أسقفية يكون ما يربطونه على الأرض مربوطاً فى السماء وما يحلونه على الأرض محلولاً فى السماء. هذا وما يقولونه يكون صحيحاً بشرط أن يتمموا عمل المسيح الذى قصده حين قال لبطرس: «أنت هو بطرس...» (مت١٦ :١٨)، فإن أبواب الجحيم لا تقوى على الأسقف حين يربط أو يحل، أما إذا سقط هو نفسه فى الشر (أم٥ :٢٢) فإن ما يربطه ويحله (بطريقة شريرة مخالفة لعقيدة وإيمان الكنيسة) يكون باطلاً.

وجاء فى **أوامر الرسل**، قانون ٥٢ (المجمع الصفوى): «يلزمكم أن تكرموا الآباء... لأنهم أعطوا من الله سلطان الحياة والموت... بأن يحاكموا الخطاة، ويعاقبوا بدينونة النار

أبدية، وأن يحلوا التائبين عن خطاياهم».

ويقول **القديس ديونيسيوس السكندرى**: «لرؤساء الكهنة سلطان أن يفرزوا الأشرار ويفصلوهم عن الأبرار» فيضعون عليهم التأديبات (أصوام ـ قراءات ـ تداريب روحية ـ ميطانيات ـ عطايا ـ خدمات ـ منع من الشركة.....). وعلى هذا القياس يعالج الضد بالضد كما يقول الآباء، وهذه التأديبات غايتها التقويم والإصلاح والمنفعة ومن ثم صناعة أثمار تليق بالتوبة وخلاص النفس.

سلطان الحِل عند آباء كنيسة القسطنطينية

لقد وصلنا وصف لطقس ونظام التوبة المبكر فى كنيسة القسطنطينية خلال كتابات سقراط وسوزومين المؤرخين. وبحسب **سقراط** فإن رتبة الكاهن الذى يتمم طقس التوبة قد ظهرت بعد الإنشقاق النوفتيانى، بينما يذكر **سوزومين** أن هذه الرتبة تعود إلى بدايات وأصول الكنيسة.

فبعدما أصبح الاعتراف العلنى والمرتبط بالتوبة غير محبذ، كان الأسقف يختار أحد الكهنة المختبرين والمعروف بحكمته وبصيرته وموهبته فى التمييز والإفراز ثم يكلفه بأخذ إعترافات التائبين، وإعطاء كل منهم قانون توبة يتناسب مع خطيته وأن يحلهم من خطاياهم، وكان دور التوجيه الأعلى للتوبة محفوظاً دوماً للأسقف الذى كان يقرر المصالحة فى وقت الفصح.

لكن القيام بسماع الإعترافات الخاصة وتقرير ما إذا كان الإعتراف يجب أن يكون أيضاً علنياً أم لا وتحديد قانون التوبة ومتابعة المعترف التائب، كل ذلك كان دور الكاهن أب الاعتراف.

وقد قام نكتاريوس *Nectarius* رئيس أساقفة القسطنطينية بإلغاء هذه الرتبة نحو عام ٣٩٠م، ولكن سلطان الحِل لم ينزع من الكهنة والأساقفة فى كنيسة القسطنطينية. والقديس يوحنا ذهبى الفم ـ وهو خليفة نكتاريوس ـ قد مارس وحدد إستخدام الحِل، وأقر منح الحِل مرات متعددة لنفس الخاطئ التائب.

ويقول **الذهبى الفم**: «أربطه هنا حتى يستعطف الله. لا تدعه محلولاً لئلا يشتد عليه

رباط غضب الله لأنك إن ربطته هنا فالله لا يربطه، وإلا فالرباطات الدهرية التى لا تُحل تنتظره... ولا يفتكر أحد أن ذلك قساوة كلا بل هو عين المحبة. فالمطلوب ليس فترة العقوبة بل تقويم النفس وإصلاحها وتذيبها».

وفى مجمع «البلوطة *Adquercum*» والذى إنعقد عام ٤٠٣م كان أحد الإتهامات الموجهة ضد القديس يوحنا ذهبى الفم هى أنه جرؤ على أن يقول للخطاة: «إذا أخطأتم ثانية توبوا من جديد، وكلما أتيتم إلىّ شفيتكم» الأمر الذى اعتبره المجمع تصريحاً للخطاة بأن يخطأوا ثانية.

وقد شهد **يوسابيوس القيصرى** المؤرخ الكنسى أن الإعتراف كان دارجاً فى الكنيسة منذ العصر الرسولى بقوله: «كان تلاميذ مخلصنا أشداء يتركون فى نفوس سامعيهم مناخس تدخل تعاليمهم فى صميم قلوبهم حتى يبرزوا الخفايا ويعترفوا جهاراً بخطايا سيرتهم الماضية». وروى عن الثلاثة الذين إتهموا القديس نرسيس أن إثنين منهم ماتا بتعاسة والثالث إعترف بكل ما جرى فى التهمة وقدم توبة صارمة، وروى أن القديس فابيانوس منع فيلبس القيصرى من التقدم للأسرار قبل أن يعترف بآثامه وينضم إلى مصاف التائبين. وروى أيضاً أن سرابيون لما غلبه الإضطهاد ودنا من الموت دعا قساً ليمنحه إحسان المصالحة (الحل الكهنوتى) وذكر **سقراط المؤرخ** أيضاً أن إمرأة شريفة تقدمت إلى الكاهن واعترفت بما ارتكبت من الخطايا بعد المعمودية بالتفصيل.

الحِل عند آباء كنيسة آسيا الصغرى وعند الآباء السريان

يكتب **فرميليان** أسقف قيصرية الكبادوك (٢٥٢م) فى رسالته إلى القديس كبريانوس: «إن سلطان غفران الخطايا قد أُعطى للرسل وللكنائس التى أسسها الرسل الذين أرسلهم يسوع المسيح، وللأساقفة الذين خلفوا الرسل بحسب السيامة». ونلاحظ أن ما ذكره فرميليان هنا هو فى مضمون موضوع المعمودية، لكن من الواضح أن السلطان الذى يتحدث عنه يمتد أيضاً ليشمل غفران خطايا المؤمنين.

لم ينشغل أى أب من آباء الكنيسة فى آسيا أكثر من **القديس باسيليوس الكبير** بنظام وطقس سر التوبة، وتمثل رسائله إلى أمفلوقيوس قانوناً للكنائس فى آسيا الصغرى. وفى هذه الرسائل يقول القديس باسيليوس: «إن الاعتراف بالخطايا لابد بالضرورة أن يكون أمام هؤلاء

الذين عُهد إليهم بخدمة سرائر الله».

أما **القديس اغريغوريوس النزينزى** فيأخذ على عاتقه مهمة دحض وتفنيد إدعاءات «هؤلاء الذين ينكرون أن كنيسة الله تستطيع أن تغفر جميع الخطايا» ويدين البدعة النوفاتيانية، وهنا يجب أن نذكر أن نوفاتيان لم يهاجم سلطان الحِل والمفاتيح، لكنه كان يرفض إمكانية مصالحة طبقة معينة من التائبين بحجة أن هذا هو تقليد كنيسة روما.

وفى مجمع نيقية نادى النوفاتيون وبخاصة أكاكيوس بأنه «ليس فى سلطان الكهنة، بل فى سلطان الله وحده، غفران بعض الخطايا المعينة» ولذلك أُدينت بدعتهم تماماً حسبما يذكر لنا سوزومين المؤرخ فى تاريخه.

ويعتبر **الأب أفراهات السريانى** أن سلطان الحِل هو كنز الملك الثمين الذى أعطاه للكهنة، وهؤلاء الذين أخذوه مجاناً يجب أن يعطوه مجاناً، لأن هذا الكنز لا يُمكن أن يُباع بثمن إذ ليس هناك ما يساويه، وهذا الكنز لا ينتهى ولا يفسد، إذ عندما تشعل شمعة من لهب النار فرغم إشتعال شموع كثيره منها إلا أن اللهب لا ينقص فى شئ عندما تأخذ منه، ولا الشمعة تنتهى أو تنطفئ عندما تشعل كثيرين.

ثم يوجه **أفراهات السريانى** كلامه للرعاة ليحسنوا إستخدام سلطتهم الكهنوتية فيقول: «أيها الرعاة تلاميذ راعينا الأعظم، لا تكونوا مثل الأجراء، لأنهم لا يهتمون بالخراف، بل تمثلوا براعينا الحلو الذى لم تكن حياته أغلى عنده من خرافه. ربوا الصغار وعلموا الضعفاء وأحبوا الحملان ودعوهم يتربون ويكبرون فى أحضانكم، كى عندما تأتون إلى رئيس الرعاة تقدمون له كل خرافكم بالكمال».

سلطان الحِل عند آباء كنيسة روما وإيطاليا

إن أقدم شهادة وصلتنا عن نظام وطقس سر التوبة فى روما هى كتاب **«الراعى» لهرماس** (نحو عام ١٥٠م) فملاك التوبة يعلم هرماس بأن المرأة الزانية يمكن أن تنال غفراناً لخطيتها إذا تابت، لكن ليس هناك غفران للسقوط الذى بلا توبة.

أما **قوانين هيبوليتس الرومانى** والتى تعود لبداية القرن الثالث أو نهاية القرن الثانى فتضع على فم البطريرك الذى يقوم بسيامة أسقف جديد هذه الكلمات ذات المغزى: «إعطه

يا رب نعمة الأسقفية وروح الوداعة وسلطان مغفرة الخطايا». وهنا إشارة واضحة إلى النص الإنجيلى، ونتأكد من ذلك عندما نقرأ فى **الدساتير الرسولية** والتى تعتمد جزئياً على قوانين هيبوليتس الرومانى: «أعطه أيها الرب الضابط الكل، بمسيحك، شركة فى روحك القدوس، حتى يكون له سلطان غفران الخطايا بحسب وصيتك وشريعتك، وأن يربط كل رباط أياً كان بحسب السلطان الذى أعطيته للرسل».

ثم نأتى إلى **البابا كاليستوس** (٢٢٢م) الذى بحسب سلطانه الأسقفى يدافع عن حق وسلطان غفران الخطايا جميعها حتى الجسام منها بما فيها الزنا، شريطة أن يقدم الخطاة توبة حقيقية عن هذه الخطايا لينالوا حِل المصالحة.

وفى رسالة **القديس چيروم** إلى هليودوروس يمدح ويمجد كرامة الأسقفية واصفاً الأساقفة أنهم «الذين خلفوا الرسل، الذين من فمهم الطاهر يقدمون سر الإفخارستيا الذى يجعلنا مسيحيين، والذين معهم ولهم مفاتيح ملكوت السموات ويدينوننا نوعاً ما قبل يوم الدينونة».

ويقول أيضاً **القديس چيروم**: «إن الأساقفة والكهنة الذين لا يفهمون هذا الأمر (فيحكمون بلا تمييز) يأخذون لأنفسهم نوعاً من كبرياء الفريسيين حتى يظنون أنهم يقدرون أن يدينوا الأبرياء ويغفروا للمجرمين، لكن الله لا ينظر إلى حكم الكهنة وإنما إلى حياة الذين يدانون».

أما **القديس أمبروسيوس** فكان أكثر وضوحاً: «الله وحده يستطيع أن يغفر الخطايا، لكنه يغفرها عن طريق هؤلاء الذين أعطى لهم سلطان غفران الخطايا». ويقول أيضاً: «لقد أعطى المسيح للرسل سلطان غفران الخطايا، ومن الرسل انتقل هذا السلطان إلى خدمة الكهنة». وكذلك يقول: «إن الكهنة لهم الحق الذى أُعطى لهم ألا وهو أن يغفروا الخطايا بالمعمودية وبالتوبة». ويؤكد القديس أمبروسيوس أسقف ميلان: «إن هذا الحق لم يُعط إلا للكهنة».

وفى رد **القديس أمبروسيوس** على أتباع بدعة نوفاتيانوس الذين كانوا يحسبون أنفسهم أبراراً يقول: «أى قسوة أشر من أن يعاقبوا الآخرين ويرفضوا الغفران للذين يقبلون التأديب والتوبة؟ لذلك منْ يكرم الرب يطيع وصية "من غفرتم خطاياه تُغفر له ومنْ أمسكتم خطاياه

أُمسكت" (لو٢٠ :٢٢) ولا يعصاها، فالكنيسة تستند فى طاعتها لهذه الوصية على كلا جانبيها، الربط والحل، أما هرطقة نوفاتيانوس فهى من جهة قاسية على الخطاة ومن جانب آخر غير مطيعة لهذه الوصية، إذ لا تريد أن تربط ولا تحل ما تربطه. وهى بهذا تحكم على نفسها بنفسها، لأن الرب يريد تساوى السلطانين وتقديسهما بطريقة متماثلة، فمن ليس له سلطان للحل يكون بلا سلطان للربط أيضاً. أما من يكون له سلطان الربط، فيكون له أيضاً سلطان الحل بحسب قول الرب. بهذا حكموا على فساد تعليمهم، إذ بإنكارهم سلطان الحل أنكروا سلطانهم للربط أيضاً... إنهم يقولون "بإستثناء الخطايا الكبيرة، نعطى حلاً عن الخطايا الصغيرة" ... بينما الله لم يصنع مثل هذا التمييز بل وعد بمراحمه للجميع، واهباً كهنته سلطاناً أن يحلوا الخطايا بلا إستثناء. فأى ضلال هذا أن تدعوا لأنفسكم ما يمكن أن تحلوه من الخطايا ناسبين إلى الرب الخطايا التى لا تحل. بهذا تنسبون لأنفسكم الرحمة وللرب القسوة...!! يجب أن نعرف أن الله إله رحمة، يميل إلى العفو لا إلى القسوة. وقد قيل عن الله أنه "لا يشاء موت الخاطئ مثلما يرجع ويحيا" (حز١٨ :٣٢)».

ويؤكد القديس أمبروسيوس رفضه لشر النوفاتيين الذين ينكرون إمكانية الحل من الخطية ذاكراً أن الرسل لم يغتصبوا سلطاناً لم يكن لهم، لكنهم نالوا سلطان الحل بواسطة النعمة الإلهية. ويرى القديس أمبروسيوس أن سلطان الحل الكهنوتى هو سلطان لتخفيف أحمال الخطاة من ضغط الخطية القاسى، ويركز على أن عمل سلطان الكهنة هو رفع أثقال الخطايا وإقامة الناس به إلى الحياة وتحريرهم من القيود بحلهم من رباطاتهم.

سلطان الحل عند آباء كنيسة أفريقيا

يميز **العلامة ترتليان** بين ثلاثة أنواع من الخطايا: الخطايا الصغرى والمتوسطة والعظمى، وهذه الأخيرة تشمل ثلاثة خطايا: عبادة الأوثان ـ القتل ـ الزنى. لكن الله يمنح الغفران لسائر الخطايا ولا ينكر العلامة ترتليان سلطان الكنيسة فى الغفران ويقر دائماً بسلطانها.

ويرى **ترتليان** أن الخطوة الأخيرة فى التوبة هى الحل الكنسى من الأب الأسقف الذى يملك أيضاً سلطان الحرمان. وبصفة عامة، أى إنسان خاطئ ـ حتى أردأ الخطاة ـ يمكن أن ينال المغفرة، ويفرق العلامة ترتليان بين الخطايا التى تقترف فعلاً وبين الخطايا التى يشتهيها الإنسان فقط، ويعلّم ترتليان أن كلا النوعين يقع تحت دينونة الله، فقد قال رب

المجد أنه ليس فقط الذى يزنى فعلاً هو زان بل والذى يشتهى أيضاً لكن كل هذه التعديات يمكن أن تغفر.

والله الذى وضع العقوبة والدينونة هو نفسه يهب الغفران عن طريق التوبة والحل، ولا يستقصى العلامة ترتليان أى خاطئ من نوال نعمة التوبة الثانية وحل الكنيسة، ويقدم أمثلة الدرهم المفقود والخروف الضال والابن الشاطر ويستشهد برؤيا يوحنا اللاهوتى والرسائل إلى الكنائس السبع ويذكر خطايا كل منها، مؤكداً أن الروح القدس يهب هذه الكنائس فرصة للتوبة، فحينما يتهم التائب نفسه يبررها الله، وحينما يدينها يحلها الله، وهذا العمل يعبر عنه عادة بالإصطلاح اليونانى Εξομολογην أى «**الإعتراف**» ، ذلك الإعتراف الذى ينشأ توبة وبالتوبة نسكن غضب الله.

ثم ننتقل إلى قرطاجنة حيث **القديس كبريانوس** أسقفها الذى يقول: «خلال تغيير الأزمنة وتتابعها يستمر نظام الأساقفة تباعاً فى تدبير الكنيسة (بالسلطان الذى أُعطى لهم)». وفى قضية المرتدين الذين سقطوا أثناء الإضطهاد استخدم نظاماً صارماً، ومع ذلك دفعه إهتمامه ورغبته فى خلاص هذه النفوس إلى وضع القاعدة والنصيحة التالية: «فليعترف كل أحد بخطيته ما دام الخاطئ ما زال فى هذا العالم، عندما يكون غفران الخطايا الذى يمنحه الكهنة مقبولاً لدى الله». ويقول أيضاً القديس كبريانوس فى رجوع المرتدين: «إن هؤلاء قبل أن يتوبوا عن خطاياهم بإنسحاق قلب وبساطة، وقبل أن يعترفوا أمام كهنة الله العلى ويطهروا ضمائرهم ويطلبوا من الكهنة علاجات خلاصية لجراحهم الروحية ويستعطفوا الرب على الإهانة التى أهانوا بها إيمانه، يتجاسرون أن يشتركوا فى جسد الرب ودمه!!. فأطلب إليكم أن تعترفوا بخطاياكم ما دمتم فى الحياة الحاضرة حيث صفح الخطايا الممنوح من الكهنة مقبول ومرضى عند الله».

ويمدح القديس **أغسطينوس** أسقف هيبو سلطان الحل الكهنوتى معتبراً أن من يحتقر عمل الكنيسة إنما يربط نفسه بنفسه برفضه التعليم الكنسى، إذ أن هذا الربط لا يكون تشفياً فيه وإنما لحفظ بقية الأعضاء من فساده لئلا يتسرب إليهم، كما تعزل الخميرة الفاسدة عن العجين كله أو يبتر العضو الفاسد... وهذا الأمر لا يتم بإستهتار أو بتسرع... فإنه ليس سهلاً أن يقبل إنسان بتر عضو من جسده إلا بعد إستخدام كل وسيلة ممكنة لعلاجه، وحينما يجد جسده كله فى خطر يقبل بتر هذا العضو، وما أصعب على قلب

الكنيسة أن ترى إنساناً يلقى بنفسه خارجاً ويلزمها بربطه. إنها تبقى منتظرة من يوم إلى يوم رجوعه لكى تحله فيجد بابها مفتوحاً له. لهذا يذكر السيد الربط أولاً ثم الحِل، ليعطى للمربوطين رجاء فى الحِل، وليلهب قلب الكنيسة نحو حل المربوطين فلا تستكين من جهة خلاصهم حتى وإن كانوا قد ألقوا بأنفسهم خارج أبوابها، فلا يُربط إلا العضو الرافض للكنيسة ولا يحل إلا متى رجع إليها بالتوبة وأظهر أثماراً لائقة بها.

ويؤكد **القديس أغسطينوس** على عمومية سلطان الحِل فيقول: «لو أن هذا قيل لبطرس وحده لما حمل أى أساس لعمل خاص بالكنيسة». ويمتدح أغسطينوس فى مواضع متنوعة فى كتاباته هذا السلطان الذى أعطاه ربنا يسوع المسيح للرسل وخلفائهم: «أن بطرس فى الكتاب المقدس يمثل الكنيسة. خاصة فى ذلك النص الذى قيل له فيه: "أعطيك مفاتيح ملكوت السموات". فهل كون بطرس قد أُعطى المفاتيح يعنى أنها لم تُعط لبولس؟ أليست هذه هى مفاتيح الكنيسة التى فيها تغفر الخطايا كل يوم؟ لكن لأن بطرس يمثل الكنيسة، لذا فإن كل ما قد أُعطى له قد أُعطى للكنيسة». كذلك يرسل أغسطينوس الخطابات إلى «الأساقفة الذين يمارسون فى الكنيسة سلطان المفاتيح».

فإذا كان الله قد أعطى لبطرس سلطاناً لربط وحل الخطايا، فهكذا أيضاً قد أعطاه لكل الرسل، إذ ظهر الرب لبولس ليجعله رسولاً للأمم، وترك يوحنا يتكئ على صدره، فسلطان الرسل لم يُعط لرسول واحد بعينه ولكن للكنيسة كلها، وليس يوحنا وحده هو الذى شرب من ينبوع صدر الرب، بل الرب نفسه يسكب إنجيله لكل المسكونة، وهكذا أعطى جميع الرسل سلطان الحل والربط.

سلطان الحِل عند آباء أسبانيا وفرنسا

بسبب إنتشار البدعة النوفاتيانية كتب **باسيان أسقف برشلونة** (٣٩١م) رسالة يفند فيها هذه البدعة: «أنتم تقولون أن الله وحده يستطيع أن يغفر الخطايا. هذا صحيح لكن ما يفعله الله بواسطه كهنته هو أيضاً الذى يفعله. لماذا إذاً قال للرسل: "كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء"؟ لماذا قال ذلك إذا لم يكن قد أعطى للكهنة أن يربطوا ويحلوا؟ هل تزعمون أن هذا السلطان لم يُعط فقط إلا للرسل؟ إذاً الرسل فقط هم الذين يستطيعون أن يعمدوا، وهم وحدهم الذين يوبخون خطايا الأمم، إذا قلنا أن الرسل وحدهم أُعطوا هذه الوصايا».

وفى فرنسا (بلاد الغال) إزدهر طقس سر التوبة منذ أيام **القديس إيريناؤس** (٢٠٠م) الذى يخبرنا أن بعض النساء ضللن فى البدع ثم عدن إلى حضن الكنيسة واعترفن علانية بجرمهن وإنضممن لصفوف خورس التائبين، لكن القديس إيريناؤس أسقف ليون لا يخبرنا كيف تمت خدمة طقس التوبة والحِل لهن.

كذلك يوضح **القديس إيريناؤس** دور الأساقفة باعتبارهم حافظين وحراس للتقليد والاستعلان الأصلى فى تطابق وتماثل من غير تغيير، ويشرح أن الروح القدس هو الحارس للكنيسة إذ أنها بيت الروح، والأساقفة هم رجال مملؤون من الروح القدس وقد أعطوا «نعمة الحق التى لا تخطئ» واستلموا نعمة الحق الخاصة، لذا يجب أن نستمع وننصغى لأحكامهم كمثال وقدوة صالحة لتقويم الآخرين، وكل منْ لا يأتون إلى الكنيسة لا يتشاركون فى النعمة بل يحرمون أنفسهم من الحياة بعدم توبتهم وبأعمالهم الشريرة، لأنه حيث توجد الكنيسة يوجد روح الله وحيثما يوجد روح الله توجد الكنيسة وكل نعمة، بعد أن استودع الرسل وديعتهم فى الكنيسة كما يصنع الأغنياء، إذ سلموها كل ما يتعلق بالحق وبالحياة الموهوبة للسالكين فى وصايا الله سواء منذ بداية حياتهم أو منذ توبتهم.

ويشرح **القديس هيلارى** أسقف بواتييه الآية (مت١٨: ٨) فيقول: «إن الرب قد أعطى للرسل حكماً بمقتضاه يكون ما يربطونه على الأرض، أى هؤلاء الذين يتركونهم وسط رباطات خطاياهم، ويكون ما يحلونه، أى هؤلاء الذين يقبلونهم فى الخلاص بمنحهم الغفران، بسبب الحكم الرسولى، محلولاً أو مربوطاً فى السماء».

مناقشات حول السلطان الكهنوتى فى الكنيسة الأولى

١) لمنْ يُعطى الحِل؟

يُعطى الحِل للمؤمن المُعمد الذى إقترف بعض الخطايا الجسام، أو بمعنى آخر للمسيحى التائب. وكانت التوبة تمثل أصلاً صفاً من صفوف الكنيسة (خورس التائبين) مثل صفوف خورس الموعوظين. وأى مسيحى كان يقترف أياً من الخطايا المنصوص عليها فى القوانين الكنسية، أى يصبح تحت سلطان المفاتيح، كان ينضم لصفوف التائبين ليس من ذاته بل بواسطة سلطان الأسقف أو الكاهن المكلف بخدمة التائبين. وهكذا كانت

تُمارس سلطة الربط التى أعطاها المخلص لكنيسته. فالتائب يكون «**مربوطاً**»، وهذا ما يوضحه قول **القديس مار إفرآم السريانى**: «فليطلب ذلك المربوط (من الله بواسطة كهنته) الغفران الكامل».

٢) مادة الحِل

تمثل الخطايا العظمى مادة الحل. وقد إختلف آباء الكنيسة ومعلموها حول تصنيف الخطايا، ولكنهم عددوا منها خطايا التجديف على الروح القدس ورفض التجاوب مع عمل نعمة الله وكذلك خطايا الارتداد وإنكار الإيمان والإنحرافات الهرطوقية وعبادة الأوثان والزنى والإصرار بقساوة على مقاومة عمل الله الخلاصى.

فأوريجانوس السكندرى يرى أن الكهنة يتخطون سلطانهم عندما يغفرون خطايا عبادة الأوثان والزنى، وهذا هو رأى ترتليان أيضاً إلا أنه يضيف خطية القتل إلى قائمة الخطايا التى لا تغفر، وقد تمسك المونتانيون والنوفاتيون بهذا الرأى ولذلك قطعتهم الكنيسة إذ أن هذا الفكر **يخالف** إيمان وعقيدة الكنيسة المستقيمة. وقد هاجم كل منْ القديس أمبروسيوس والقديس اغريغوريوس النزينزى والأب باسيان الأسبانى ـ كما رأينا سلفاً ـ البدعة النوفاتية التى كانت تنادى بهذا الفكر. ويشرح **القديس أغسطينوس** عقيدة الكنيسة المستقيمة بقوله: **«هناك منْ يقول: يجب ألا تُعطى توبة لهذه الخطية وتلك الخطية، لكنهم أُستقصوا من الكنيسة وصاروا هراطقة، فأياً كانت الخطية، فإن الكنيسة أمنا الرحيمة لا تفقد محبتها»**.

وبإختصار يتفق الآباء على أن جميع الخطايا حتى الجسام منها تخضع لسلطان الحِل، لأن السلطان الإلهى غير محدود وقد أعطى للرسل ولخلفائهم وللذين يعملون فى الكهنوت فى ضوء التسليم الكتابى والقوانين والتقليد الكنسى الحى.

٣) خدمة الحِل

يقول **القديس أغناطيوس الأنطاكى** أن «التائبون لا ينالون غفران خطاياهم إلا إذا رجعوا للكنيسة الواحدة وبموافقة الأسقف». ولكن دور الأسقف غير محدد تماماً فى هذا النص. وفى هذا يقول **القديس إيسيذروس**: «إن الأسقف يمارس السلطان باعتباره معين

من الله ليحمى الكنيسة ويوبخ الأشرار». ويتحدث **الراعى هرماس والقديس كلمنضس السكندرى** عن «**ملاك التوبة**» ويقصدون به بلا شك الأسقف أو الكاهن المكلف بتتميم طقس التوبة والمختص بمصالحة الخطاة مع الكنيسة، لكن **سقراط وسوزومين** يقدمون لنا وصفاً أكثر تفصيلاً لخدمة الكاهن أب الاعتراف.

ويرى **سوزومين** أن هذه الرتبة موجودة منذ بداية الكنيسة، ويذكر أنه فى القسطنطينية كان هذا الكاهن المختص بطقس التوبة «يحل» الخطاة قبل أن يقبل توبتهم ويضمهم لصفوف التائبين. ويخبرنا سوزومين أيضاً أنه فى روما ـ حيث لا يذكر شئ عن وجود كاهن مختص بطقس التوبة ـ كان الأسقف يرأس ممارسات التوبة و«يحل» الخطاة الذين تابوا.

ويرى كل منْ كلمنضس السكندرى، والكتابات المنسوبة إلى كلمنضس الرومانى، والكتابات المنسوبة لهيبوليتس الرومانى، وكبريانوس، وفم الذهب، والبابا أثناسيوس وچيروم وأمبروسيوس وأغسطينوس والبابا كيرلس الكبير أن الإكليروس أى الأساقفة والكهنة هم خدام الحل، وبطريقة عامة يسمى القديس أغسطينوس خدام الحل «أساقفة»، ويعلن القديس أمبروسيوس بحماس ووضوح أن سلطان الحِل قد أُعطى للكهنة وحدهم.

٤) وقت الحِل

هل يُمنح الحِل وقت إنضمام الخاطئ إلى صفوف التائبين أم يُمنح فى نهاية فترة التوبة عند مصالحته مع الكنيسة؟ يقول **القديس مار إفرآم السريانى**: «ذلك الذى رُبط لم ينل الغفران والصفح الكامل إلا فى نهاية فترة توبته عن خطيته». ووقت الإضطهاد كان **القديس أغسطينوس** يلوم الكهنة لأنهم تركوا عملهم بينما كان هناك أناس يطلبون نوال المعمودية وآخرون يطلبون المصالحة، وآخرون تم فرض قانون توبة عليهم، أى خدمة الأسرار وكل تعزية. وكان أغسطينوس يفرق بين المصالحة وبين وضع قانون توبة على الخاطئ، فالخطاة وقت الأزمة أى الإضطهاد كانوا يطلبون التوبة وليس المصالحة، وهذا لم يكن يعنى نوال الحل الكهنوتى لأن وضع قانون توبة على الخاطئ لا يتطلب أى نوع من الحِل.

والدساتير الرسولية تربط بين غفران الخطايا والمصالحة لنوال الحِل: «أيها الأسقف ضع يديك على المؤمن الذى تطهر وتنقى بالتوبة، بينما يصلى باقى جماعة المؤمنين لأجله،

وضـمـه ثانيـة إلى المراعى الأولى، ووضع الأيدى هذا يكون له بمثابة معـمـودية ثانيـة، لأن الرسل يقولون أنه بوضع أيادينا أُعطى الروح القدس للمؤمنين».

٥) فاعلية الحِل

حسب آباء الكنيسة، فإن الحِل الكهنوتى يغفر الخطايا ويمحوها شريطة أن التائب يقبله بكل مشاعره الروحيـة المطلوبة فى هذه الحالة. وإذا قرأنا كـتابات القـديس كـبريانوس أو القـديس أمبروسيوس أو القـديس هيلارى أو القـديس يوحنا ذهبى الفم، سنرى أن النطق الكهنوتى بالحِل معتبر دوماً أنه مقبول لدى الله فى السماء.

وسيـتـضح هذا بالأكـثـر إذا إطلعنا على الإنحـرافـات الهـرطوقـيـة فى هذا الصـدد. **فأوريجانوس** يرى أن الكهنة يتخطون حدود السلطان المُعطى لهم عندما يحلون خطايا عبادة الأوثان أو الزنى، بينمـا يعتـقـد أوريجانوس أن غفـران هذه الخطايا هو لله وحـده. وهنا يقر أوريجين أن للكهنة سلطان لمغفرة جـميع الخطايا إلا هاتين: الزنا وعبادة الأوثان، وهو رأى شخصى لأوريجانوس لا يتفق مع ضمير الكنيسة العام وعموم الآباء.

وسقط **العلامة ترتليـان** فى البدعة القـائلة بأن الله وحده هو الذى يستطيع أن يغفر خطايا عـبادة الأوثان والزنى والقتل. أما الخطايا الأخرى فتغفرها الكنيسـة أى الأسـقف. وكان إعتراض الهراطقة النوفاتيين هو أن الكنيسة أى الكهنة والأساقفة يتحذون لأنفسهم سلطاناً يخص الله وحده، وبالطبع هذا التعليم مخالف لإيمان وعقيدة الكنيسة.

إن المقارنة التى يعقدها الآباء دوماً بين المعمودية والتوبة توضح كيف أنهم نسبوا لكل من المعمودية والتوبة فكرة المغفرة الحقيقية للخطايا، هذا ما توضحه كتابات الراعى هرماس ومار إفرآم السريانى والبابا أثناسيوس الرسولى والقديس كيرلس السكندرى.

وترتليان يدعو التوبة «معمودية ثانية» فى مقابل المعمودية التى يسـميـها «المعمودية الأولى»، وكتب **چيروم** يقول أن الخطاة: «قد افتدوا بدم المخلص سواء فى المعمودية أو فى التوبة التى تعطى نعمة مثل المعمودية».

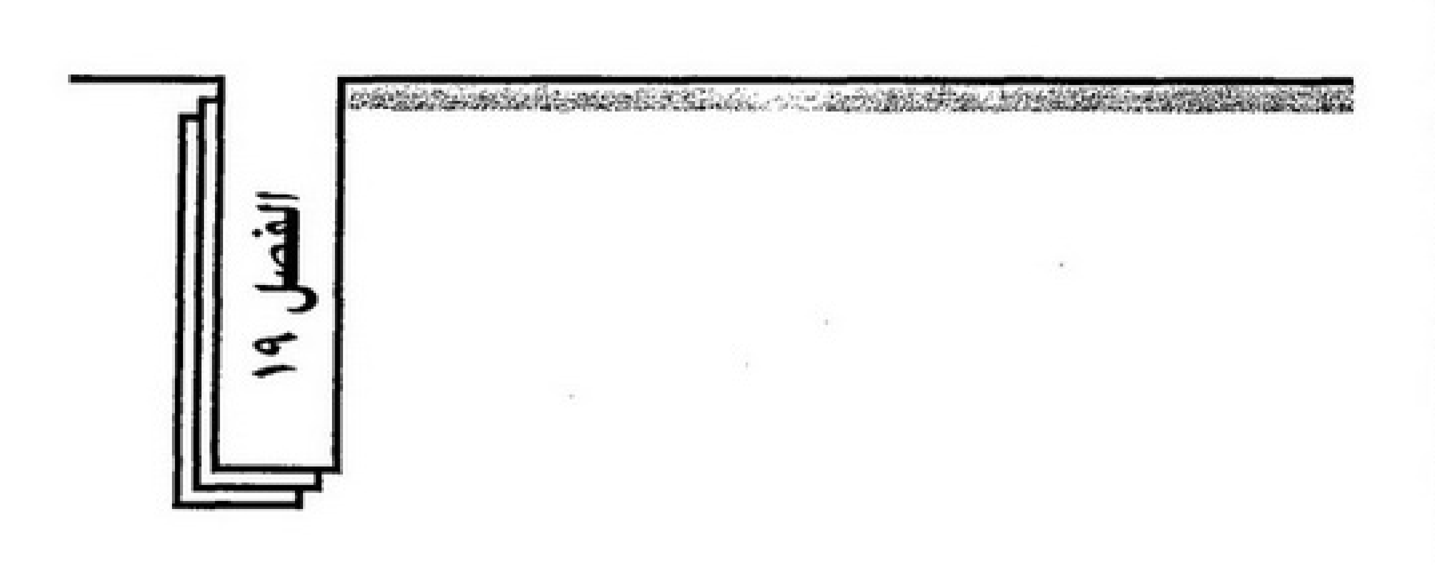
وقد كتب **القديس أغسطينوس** فى رسالة لهيليودوروس يقول: «إذا كانت جريمة القتل قد إقترفها موعوظ، فسوف تمحى فى المعمودية، وإذا إرتكبها إنسان معمد بالفعل

تُمحى بالتوبة والمصالحة». ويقول **القـديس أمبروسيـوس**: «فى المعمودية غفران جميع الخطايا، والكهنة لهم الحق المُعطى لهم أن يغفروا الخطايا سواء بالتوبة أو بالمعمودية».

فيمكن أن نقول أن المعمودية تغفر الخطايا، أو نقول أن التوبة تغفر الخطايا، أو الأفضل حتى أن نقول إن الحل الكهنوتى هو الذى يغفر الخطايا، لأنه كالماء الذى تعطيه كلمة السماء لتزهر أدوية الذهن وتثمر حقول القلب وتخضر من بركة الحِل، فلا نعود نخطئ ثانية بل نُغسل روحياً من أشواك الخطية وننجو من اللعنة ومن لدغة الحيَة...

لقد طهرت يا رب كثيرين بحِلك الإلهى وكم وكم يا رب تُطهر فى كل العـالم. إن الذى سكب النعمَة وطهر لم يكن بطرس الرسول ولم يكن أمبروسيوس ولا اغريغوريوس ولا أغسطينوس، إذ أن هذه الخدمة نصيبهم، أما الأسرار وسلطان الحِل فهى عملك يا رب، لأنه ليس فى قدرة أحد أن يعطى السمائيات، ولكنها نعمتك وعطية روحك القدوس لكهنة بيعتك كما أعلنت بفمك الإلهى، فأعطيت ندى السماء ومطر النعمة للذين يأتونك تائبين معترفين، وروحك القدوس لا يخضع لأى قوة أو ناموس غريب، بل يجرى مشيئته كما يشاء فيوزع كل الأشياء حسب تدبير إرادته، قاسماً لكل وحد بمفرده كما يشاء.





عطية الدموع

فى الكنيسة الأولى

عطية الدموع
فى الكنيسة الأولى

١) عطية الدموع كمنهج روحى

تحدثت كتابات الآباء عن عطية الدموع كنعمة وموهبة روحية تبلغ بها النفس مجدها فى رؤيا المجد الإلهى، ذلك الإختبار الذى يلازم حياة التوبة المستمرة لتكون منسوجة بالدموع التى إذا وعاها التائب والمعترف وتبناها ومارسها كما ينبغى كانت سبباً لنموه فى العشرة الإلهية، حتى أن أحد الآباء يقول: «إننا سوف ندان بموجب الدموع التى ذرفناها أو لم نذرفها فى حياتنا».

لهذا تحدث كثير من الكُتاب الأولين عن «لاهوت الدموع» وليس هذا اللاهوت إلا مظهراً من مظاهر النعمة التى تعود بنا إلى حالة ما قبل الخطيئة، حالة الإنسان الجديد الذى يقدم مشاعر التوبة مُذابة كلها فى نقطة تدخل إلى حضرة القدير لتتحدث أمامه بلغة النفس التائبة التى تعيش بحسب الروح «قد سمعت صلاتك. قد رأيت دموعك» (٢مل٢٠: ٥) فتنال الرضى أمام الرب الإله «فى إبتداء تضرعك خرج الأمر» (دا ٩: ٢٠).

إن أدب النسك الرهبانى فى عصوره الأولى قد تأمل كثيراً فى عطية الدموع هذه، ويبدو أن آباء الكنيسة الأولى قد تمتعوا بهذه العطية وعاشوها ليس فقط فى صلواتهم وتوبتهم وإعترافاتهم بل أيضاً فى فرحهم بالخلاص والسعى نحو الإقتداء بالمسيح. فبدموعهم التى جمعت فى زق الله «إجعل دموعى فى زق عندك» (مز٥٦: ٨) استطاعوا أن يغلبوا تحنن الله «حوّلى عنى عينيك فإنهما قد غلبتانى» (نش٦: ٥).

الأمر الذى كان يفتش عنه جنود المسيح فى الكنيسة الأولى ـ عصر صياغة العقيدة الجامعة ـ باحثين عن رؤية الله وعن التطويب الذى أعطاه السيد الرب للعيون الباكية «طوباكم أيها الباكون» (لو٦: ٢١) فبكوا على خطاياهم وتابوا ببكاء ونوح وتنهد ليقفوا

أمام الله بلا لوم متقربين إليه بالدموع مثل المرأة الخاطئة (بحسب تعبير القديس يوحنا القصير).

إنها دموع التوبة التى تتوج شهود المسيح الجدد بإكليل الشهادة بعد إنتهاء عهد شهداء الدم، وتنسج بخطوط النعمة الذهبية رداء الرحمة والغفران لتكتسى به النفوس الباكية، ويصبح لها هذا الرداء حلة للعرس مع بقية العذارى الحكيمات الساهرات المستعدات لأن التوبة والدموع هى ينبوع دائم تجد فيه هذه النفوس شفاءها من الخطية التى أمرضتها ولوثتها بعد معموديتها فتقول مع أرميا نبى الله: «يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهاراً وليلاً» (أر٩: ١) وتقول مع داود المرنم: «كل ليلة أعوّم سريرى، بدموعى أبل فراشى» (مز٦: ٦) و«صارت لى دموعى خبزاً نهاراً وليلاً... ومزجت شرابى بدموعى» (مز٤٢: ٣).

إن تلاميذ القديس أنطونيوس الكبير ومقاريوس والقديس ديونيسيوس الأريوباغى قد عرفوا وسلكوا مراحل تصاعدية فى سياحتهم الروحية نحو الله حتى بلغوا النقاوة التى قال عنها داود النبى: «قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله» (مز٥٠: ١١)، وعن هذا القلب النقى يقول اغريغوريوس النزينزى: «إن قلبنا يصبح كمرآة تعكس صورة الله بلا إنقطاع» إذا أخذنا بعين الاعتبار تجديد أحشائنا بالتوبة وبالنقاوة *Catharsis* حيث الروح القدس يحفر فينا حروفه خلال المواظبة على الأسرار الإلهية ووسائط النعمة.

وتلك النقاوة نبلغها بحزن التوبة المضئ فهو «الشوكة» المغروزة فينا والتى يتكلم عنها المزمور ٣١: ٤، و«المهماز» غير المنظور الذى يثير جرحنا، مهماز ينخس النفس نخساً إلهياً تتجرد به من كل شعور أرضى. لقد سماه الآباء «دمع نير» و«ألم محيى» و«حزن مضئ» و«ندامة قلب» ويعبر عنه بدموع مرة وحلوة معاً. إنه جرح أحدثته النعمة وضمدته فى آن واحد، فى التوبة والاعتراف بدافع نوال إستحقاقات الغفران وإبادة جوهر العدم الذى فينا، أى الشر بحد ذاته عدو الحياة الأبدية، لذا يقول القديس لنجيوس: «البكاء يعمد الإنسان ويجعله بغير خطية، لأن طبيبنا السماوى يود أن يكافئ التائبين المملوئين بدموع الندامة لا بتقديم المغفرة لهم فحسب بل وبالإكليل.

وإن كان الله غير محتاج إلى دموعنا، إلا أن هذه الدموع المقدسة هى صوت صارخ دون إنقطاع فى أذنيه، وقد دعاها القديس يوحنا السلمى «مياه التواضع المحيية» وبأنها وخز

ضمير غير منقطع، كلما أضرمته التوبة أحدث فينا تعزية حلوة من جراء إعترافنا بخطايانا بندامة محبوبة لدى الله.

فأساس هذه الدموع الخصبة هو الروح المنسحق والقلب المتواضع، ولذلك فهذه الدموع هى عطية من الله، عطية تعتق من الخطايا وتطهر النفس التى فيها خوف الله والتى تخشى جهنم الأبدية وتعترف بتدبير الله الخلاصى فتقرع على صدرها وتذكر خطاياها السابقة وتطلب «اللهم إرحمنى أنا الخاطئ».

أما النفوس المائتة التى لها عيون من حجر فلا تستطيع إلا النعمة وحدها أن تخرج منها أنهار دموع، كالماء الذى انفجر من الصخرة فى سفر الخروج. لذلك يحثنا الآباء أن نطلب هذه النعمة ونلح فى طلبها، فيقول القديس إيفاجريوس البنطى: «صل أولاً من أجل نوالك موهبة الدموع حتى تلين قساوة نفسك، فهذه الموهبة يمنحها الله للذين يصلون بتوبة وإتضاع»، كذلك يوحنا السلمى بدوره يحث التائب على المثول أمام الديان العادل «مرتعداً» لأن الديان «لا يرد النفس الآتية إليه كأرملة حزينة» فدموع الغفران تمنح دائماً للقلب التائب المنسكب كما يصفها القديس يوحنا ذهبى الفم قائلاً: «إن هذه الدموع تستطيع إطفاء نار جهنم عينها».

٢) عطية الدموع فى بستان الرهبان

(الدموع فى اللاهوت النسكى عند الآباء الأولين)

جاء فى التقليد الرهبانى (كتاب بستان الرهبان) أن **القديس أرسانيوس** عندما كان يجلس يضفر الخوص كان يأخذ خرقة ويضعها بين ركبتيه لينشف بها الدموع التى كانت تتساقط من عينيه، حتى أن شعر جفونه كان يتساقط من كثرة دموعه. وقيل عنه أيضاً أن دموعه قد حفرت أخدوداً فى وجهه عندما كان يفتقد حياته بالتوبة ويقول لنفسه: «**تأمل يا أرسانى فيما خرجت لأجله**». وهكذا رقد أرسانيوس معلم أولاد الملوك ودموعه تسيل من عينيه وجفونه مبللة بالدموع، فقال عنه الأنبا بيمن: «طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك فى هذا العالم، فإن من لا يبكى على نفسه ههنا زماناً قليلاً، سوف يبكى هناك زماناً طويلاً. فإن كان البكاء ههنا بإرادتنا إلا أنه هناك سيكون البكاء من العذاب، وما أمجد أن يبكى الإنسان على نفسه ههنا». وقال عنه البابا ثيؤفيلوس بطريرك الاسكندرية:

«طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك لهذه الساعة كنت تبكى كل أيام حياتك».

ويحكى أيضاً بستان الرهبان أن **القديس بيصاريون** كان كطيور السماء يكمل حياته فى سكينة بلا هم جالساً على باب الدير باكياً منتحباً مثل إنسان نجا من الغرق، وكذلك تروى السير الرهبانية أن القديس مارإسحق السريانى قد زار بعض أديرة النائحين وكتب عنها.

والتقليد الأبائى النسكى زاخر بالأقوال عن عطية الدموع فيقول **القديس موسى الأسود**: «ينبغى أن نجتهد بقدر إستطاعتنا بالدموع أمام ربنا ليرحمنا بتحننه لأن الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالإبتهاج». ويقول **القديس مقاريوس**: «كما يسقط المطر على الأرض فتنبت وتثمر كذلك الدموع إذا ما وقعت على قلب أثمرت ثماراً روحانية وراحة للنفس والجسد معاً». ويقول أيضاً: «لنبك أيها الإخوة ولتسل دموعنا من أعيننا قبل أن نمضى إلى حيث تحرق دموعنا أجسادنا بدون نفع». ويقول **مار إفرآم السريانى**: «لنبك ههنا قليلاً لنُسر هناك».

ويرى آباء البرية أن الإنسان يقتنى عطية الدموع متى كان عقله مداوماً فى ذكر خطاياه وموته ودينونته، معتبرين أن دموعنا تطهرنا وأنها لابد أن تلازمنا فى كل موضع، فنحملها معنا كظلنا أينما ذهبنا لأن من لا يبكى هنا طائعاً سيبكى هناك كارهاً، ومن يتقدم دوماً نحو الله بدموع متواصلة يقضى كل يوم من أيام حياته كأنه فى عيد.

ويصف **الأب إسحق** عطية الدموع بقوله: «بسبب الإستنارة الداخلية تتجمد الكلمات ويختنق الصوت فى النفس المتأثرة فلا يملك الإنسان إلا أن يسكب إشتياقاته أمام الله فى أنين لا ينطق به. وعندما تمتلئ النفس بهذه الدوافع لا يمكنها التعبير عنها إلا بفيضان من الدموع».

وقد ميز **الأب إسحق** تلميذ الأنبا أنطونيوس الكبير بين أنواع الدموع المختلفة فهناك:

١) دموع نخس الشعور بالخطايا الذى يكسر القلب

٢) دموع التأمل وترقب المجد الآتى والتعطش نحو الله (مز٤٢: ٢)

٣) دموع الخوف من الدينونة المزمعة (مز١٤٣: ٢).

٤) دموع على الآخرين وعلى قتلى بنت شعبى (أر٩: ١).

٥) دموع الضيقة (مز١٠٢).

ويرى القديس **مار إسحق السريانى** أن الدموع من أجل تذكر الخطايا وهفوات القلب تبلغ بنا إلى الرحمة، فعندما تنهمر دموعنا بلا تكلف تثمر نفوسنا داخلياً وتزهر زهوراً روحانية بدلاً من ذبول الخطية. كذا يعتبر مار إسحق السريانى أن الدموع نعمة أفضل من كل النعم وبقدر ما يتغذى الإنسان روحياً بقدر ما تضطرم عطية الدموع ومن ثم ينفتح باب العزاء بحسب قول الرب: «طوبى للباكين الآن لأنهم يتعزون».

وعن منشأ الدموع ودوام هذه العطية يقول مار إسحق السريانى: «إن المملوء جراحات كيف يسكت؟ أو كيف يصبر دون أن يبكى؟ فهل نكون مملوئين من أسقام الخطية ولا نبكى؟ والذى له ميت ملقى أمامه هل يحتاج إلى منْ يعلمه كيف يذرف العبرات؟ فنفسك ميتة بالذنوب وملقاة بين يديك وهى أفضل لك من كل العالم، وتقول لى كيف أبكى وتظن أنك فقير فى البكاء؟».

وعن ماهية الدموع ومعناها يقول أيضاً القديس مار إسحق السريانى أسقف نينوى: «إن الدموع دليل على أن النفس قد حظيت بالرحمة الإلهية وقُبلت لدى الله بالتوبة والدموع، كما تشير إلى أن النفس بدأت تدخل مرحلة النقاوة». ويعتبر مار إسحق أن منْ يقتنى الدموع كأنه يقدم قرباناً عظيماً للملك السمائى ويكون له وجه مرفرع أمامه وتغفر له خطاياه.

وتحدث مار إسحق عن عمل النعمة فى النفس التى تقودها موهبة الدموع فى الحال إلى كمال حب الله، إذ بهذه الدموع الحلوة الرقيقة تؤهل النفس للدخول فى نور صفاء الأبدية وترى بإستمرار وجه الله، لذا جمع الآباء القديسون كل نشاط الراهب فى كلمة «حياة البكاء»، وكل منْ يقرن الصلاة بالدموع يجنى أول ثمارها ويستحق قبول بقية ثمارها ويصير مؤهلاً لحلول الروح القدس ذلك الزائر العظيم.

ويرى **القديس لنجيوس** أن البكاء قانون إلهى ما دام الإنسان يسقط، وحيث عدم الخطية لا يكون هناك إحتياج إلى البكاء. ويقول أحد الرهبان أنه يبكى بكاءً مراً لأنه فيما يصلى يتبصر القاضى دائماً ويرى ذاته تقف أمامه وقوف المجرم وهو يفحص أحوالها «بينما ليس عندى إجابة أحتج بها إليه فيستد فمى وأبكى».

كذلك يقول **الأنبا تودرى**: «الدموع مثل المطر والراهب مثل الفلاح، فينبغى له إذا

أبصر المطر قد جاء أن يحرص ألا يفوته شئ منه بل يروى به كل أرضه، فربما يوم واحد ممطر يكون أفضل من السنة كلها».

ويعتبر آباء البرية أن النوح يعلم الإنسان كل شئ، وبه ينفع نفسه، لذا يقول القديس العظيم أنطونيوس الكبير: «إلزم الدموع فيرحمك الله، لكن إحذر أن تكون صغير القلب لأن صغر القلب يجلب الأحزان».

ويتساءل القديس مار إفرآم السريانى: «أين هى الدموع وأين هو التخشع حتى أغسل جسدى بالدموع والتنهدات؟» معتبراً أن الدموع هى التى تعطى النضوج لثمرنا وأن سيل الدموع يحفظها من جفاف الحر الشديد، وتحدث مار إفرآم عن صلوات القديسين النقية التى تبلل الأرض بالدموع الحلوة وعن مكافأتها بالفرح والإبتهاج والنعيم الأبدى فى الخدر السمائى.

٣) عطية الدموع والصلاة

يجمع التقليد الآبائى بين الصلاة وعطية الدموع، فيقول القديس يوحنا الدرجى عن إختباره للدموع أنها «أم وبنت الصلاة» وهذا حق، فالدموع هى طريقة الشفاء فى مخادع الصلاة لنؤتمن على عطايا الله وعلى الإستجابة الإلهية، وبهذا المعنى تغتصب السماء حقاً.

فكلما ترتقى الصلاة يرتقى معها إقتناء الدموع لذا يقول إيفاجريوس البنطى: «اذرف الدموع لكى تنجح فى جميع طلباتك، لأن الرب يحب كثيراً الصلاة المقدمة بدموع». ويقول أيضاً: «استغفر كالزانية. إبك بكاءً مراً كبطرس وإستعطف الرب فتات الخبز كالمرأة الكنعانية». ويرى إيفاجريوس أن الصلاة لا تصبح مثمرة إلا إذا رُويت وغُسلت بالدموع وامتزجت معها وذابت فيها.

ويقول **القديس يوحنا كاسيان**: «إن الدموع هى الصلاة الأكثر سمواً ونقاوة» أو هى الصلاة عينها. ويقول **مار إسحق السريانى**: «أن نعمة الدموع هى ملء الصلاة وكمالها»، ويرى أن «القديسون لا يعرفون الصلاة دون ندى الدموع»، ويعبر عن ذلك **القديس نيلوس السينائى** بأننا «**نبكى بالذهن**» عندما تقترن صلواتنا بالدموع الروحية فنرتقى من فضيلة إلى فضيلة ومن معرفة إلى معرفة، وتتحول أرضنا الجرداء التى لا طريق فيها ولا ماء (مز٦٢:٣)

إلى أرض خيرات وأرض ميعاد، عندما تُرصع الدموع النيرة صلواتنا كمثل لآلئ من الشرق كثيرة النقاوة، وكمثل طيب كثير الثمن تسكبه المرأة الخاطئة على قدمى حبيبها، وزوفى المزمور العظيم مزمور التطهير الليتورجى عينه: «تنضح علىّ بزوفاك فأطهر، تغسلنى فأبيض أكثر من الثلج» (مز٥٠:٨)، وتصير ينبوع فردوسى يروى عطش الأيائل المشتاقة إلى ينابيع المياه النقية (مز٤١)، ولكننا لا نصل إلى «منتجع الراحة» إلا بعد مرورنا بالنار والماء (مز٦٥:١٢).

ويقول القديس **مار إفرآم السريانى**: «الدموع أثناء الصلاة هى علامة الحياة الطيبة... اطلبوا هذه النعمة من الله، اسكبوا أمامه الدموع لتصير صلاتكم كالبخور قدامه، فمجارى المياه لوقت الحريق، ومجارى الدموع لزمن التجربة. الماء يخمد لهيب النار، والدموع تطفئ شهوة الشر!»، وكأن مار إفرآم السريانى يمزج شرابه بدموعه على الدوام (مز١٠١:١٠) وقبل عنه أنه كان يلتمس الدموع بالدموع.

كذلك يرى القديس **مقاريوس الكبير** أن الدموع لآلئ ثمينة تنحدر من العيون الباكية فتحنن قلب السيد حتى يفيض بالرحمة وتتحد به النفس إتحاد العريس بعروسه.

ويؤكد فكر الآباء على أن عطية الدموع هى علامة على الرحمة الإلهية الموهوبة للنفس الباكية نتيجة توبتها وبهذه الدموع المصلية تؤهل للدخول فى صفاء الأبدية، الأمر الذى عبر عنه **القديس يوحنا ذهبى الفم** قائلاً: «الله يعمل كل شئ ويبحث بكل حيلة حتى يكللك بعد أتعاب يسيرة، ويجول طالباً حججاً يستطيع أن يخلصك بها من جهنم، فحتى إن عملت فى الساعة الحادية عشرة يعطيك أجرة عمل النهار كله. إن لم تمتلك لخلاصك أسباباً ، فإعمل ما يمكنك، لأن إذا ندمت فقط ولو بدمعة واحدة لأخذ هذا كله بإسراع وجعله حجة لخلاصك».

٤) دموع التوبة التجديد

إن اللاهوتيين بتأثير القديس ديونيسيوس الأريوباغى قد تصوروا عطية الدموع على مثال أسرار الكنيسة، فإذا كانت المعمودية سر ولادة فإن التوبة هى معمودية ثانية تتم بذرف الدموع المغبوطة والتى بغسلها المقدس نولد ثانية، فبالدموع نعود ونتطهر من جديد، ولو لم يمنح الله الناس برحمته هذه المعمودية الثانية لكان الذين يخلصون بالحقيقة قليلين.

وبينما المعمودية تطهر من الشرور السالفة، يطهرنا ذلك المعين من دموع التوبة من السيئات الحادثة بعد المعمودية، ولذلك كان الغسل بعد المعمودية ضرورياً، لهذا يقول **القديس يوحنا الدرجى**: «إن كانت المعمودية قد طهرتنا من الخطية المتوارثة فينا من آدم، فالدموع هى تجديد لقوة تطهير المعمودية لغسل الخطايا التى عملناها فى أنفسنا. فعندما ندنس المعمودية التى أخذناها أطفالاً بخطايانا، تصير عيوننا الباكية جرناً دائماً لمعمودية التوبة والتجديد».

ويقول **القديس لنجيوس**: «البكاء يعمد الإنسان ويجعله بلا خطية». ويقول **القديس مار إفرآم السريانى**: «الأدوية السماوية والقدسية لا يمكن أن تُباع أو تُثمن، ولكنها بالدموع توهب للكل. منْ لا يبارك كثرة تحننك لنفوسنا أيها المخلص لأنك إرتضيت أن تأخذ الدموع عوض أشفيتك، فيالقوتك أيتها الدموع!! أى أين بلغتِ؟ حتى أنك تدخلين السماء مجاهرة كثيرة بلا مانع، وتأخذين طلباتك من الإله القدوس!».

ويعتبر **القديس مقاريوس الكبير** أن الطريق لدخول مدينة أورشليم السمائية تعوزه دموع تُذرف ليلاً ونهاراً، معتبراً أن الدموع هى غذاء وشفاء للنفس وتجديدها، فكما رُحمت المرأة الخاطئة منذ القديم عندما بكت وبللت أقدام السيد بالدموع فغفر لها خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، كذلك نحن نحتاج بشدة إلى الدموع لغسل إرادتنا وتجديد أذهاننا خلال سر التوبة والإعتراف.

ويرى **مار إسحق السريانى** أن الدموع هى الحد الفاصل بين حالة السلوك بالجسد والسلوك بالروح، وبها ندخل حيز عمل النعمة وإلى كمال حب الله. ويجمع التقليد الروحى دائماً بين الدموع وبين التجديد الجذرى لأعماق النفس بواسطة النعمة أى معمودية التوبة والدموع التى ليست تكراراً أو إعادة لهبة السِر، وإنما هى رجوع إلى حالة المعمودية الأولى وإعلان تفتح أزهار الحقائق الإلهية التى وُهبت صورتها وزرعت بذارها بالتغطيس فى سر العماد. فبينما معمودية الأطفال فى جرن المعمودية تعنى وتعلن عن التطهير والولادة الجديدة، نرى فى الدموع تطهيراً وتجديداً يروض وحشيتنا ويحولنا إلى حملان وينقى قذارتنا وظلمتنا لنحيا فى النور وطاعة الرغبة الإلهية حسبما عاش الآباء ووفقاً لقوانين الكنيسة.

ويقول **القديس يوحنا ذهبى الفم** واصفاً توبة داود النبى: «ما هى الأثار التى تجعل

الفراش جميلاً؟ سأريكم الآن كرامة الفراش، لا فراش مواطن عادى أو جندى بل فراش ملك... إننى أريكم فراش الطوباوى داود، فكيف يكون فراشنا نحن؟ فراشه لم يكن مزيناً بالذهب والفضة بل بالدموع والإعترافات... إنه يذرف دموعه كاللآلئ فى كل موضع من فراشه».

ويقول **القديس مار إفرآم السريانى**: «إلتجئ دائماً إلى الله بالصلاة والصوم وبالدموع حتى تتحرر من العثرات كلها» معتبراً أن الدموع من المحطات التى توصلنا إلى السماء، فيأتى الله ليجعل قلبنا أرضاً خصبة تتقبل الزرع الجيد وتفتقده نعمة ندى الحياة الأبدية، وعندئذ يحصد الله من أرض قلبنا باقات جيدة أى التوبة والإعتراف بدموع والسجود بخشوع والسلوك بمخافة.

٥) الدموع وحياة القداسة

إن الدموع النفسية الجسدية التى نعرفها تختلف عن الدموع الروحية النيرة والأحلى من الشهد والعسل، فهذه الأخيرة ليست دموعاً سلبية كئيبة بل هى دموع مرة وحلوة فى آن واحد، دموع وديعة هادئة ترتبط بالصلاة والتوبة والإعتراف والتأمل والمخافة وتقديس الحواس.

فهى دموع النفس الساجدة التى تجعل الله ينسى آثامنا ويغسلنا بنعمته ويروينا بصلاحه ويطفئ فينا جمرة الملذات الكاذبة ويمنحنا تعزيته التى هى تعزية التعازى التى يعطينا إياها «منْ أحبنا وأعطانا عزاءً أبدياً» (تس٢ ١٦:٢).

فعندما ينسكب الإنسان التائب فى دموع خاشعة وديعة يتقدس بنعمة لا تُوصف تعيده إلى الحالة الأولى المقدسة التى لنعمة المعمودية ومن ثم تتقدس حواسه التى يسميها القديس اغريغوريوس النيصى «نوافذ الطبيعة» فتذوق وتنظر ما أطيب الرب، وتتعرف على أسرار المسيح ربنا الفائقة الوصف التى تجتذب النفس فتجرى إليها ككأس أطياب روحية، الأمر الذى وصفه قداس القديس يوحنا ذهبى الفم: «مباركة هى حرارة قديسيك، حرارة إيمان روحك القدوس».

إذاً ليست الدموع هدفاً فى حد ذاتها، فالذين يبكون إنما يبكون على خطاياهم

ويتأملون فى صلاح الله ويخشون جهنم الدينونة كمساكين لله يسعون لخلاص أنفسهم ولخلاص إخوتهم... لذا لا تلهيهم دموعهم عن واهبها ولا يظنون أن دموعهم هى من أجل إستحقاقهم وتقواهم، كما أنها لا تميزهم عن الآخرين، بل هى تشجعهم للنمو فى محبة الله والخضوع لوصاياه وأوامره الإلهية، لذلك حذر الآباء من إشتهاء الدموع لأنها وُضعت لتكون ضد الشهوات ومنْ يشتهيها لذاتها يُغضب معطيها.

ويقول **القديس مار إسحق السريانى**: «توجد دموع تحرق وتلهب وأخرى تبهج وتزهر، فالتى تخرج من القلب بندامة من أجل الخطايا فإنها تيبّس وتحرق ملذات الجسد، ويحس الإنسان بتنهد عند إنسكابها من عينيه... ولكن هذه الدموع المحرقة تفتح الباب للدخول فى الرتبة الثانية للدخول فى أرض المسرة التى فيها يقبل الإنسان الرحمة حيث الدموع الحلوة الرقيقة التى تزين وتبهج الجسد والنفس، الدموع التى تنبع من ذاتها بلا إنقطاع دون أن تغصب».

كذلك يوضح الآباء أن الدموع تساعد على بلوغ الطهارة الكاملة وعلى إغتصاب ملكوت السموات، كعلامة تعرى العقل من هذا العالم وككنز مستور يصعب سرقته وكطريقة ملوكية فى حياة القداسة مؤدية للملكوت الأبدى.

وما دامت الدموع بحسب الآباء تساعدنا على أن نتقدس، لذا فهم يحذروننا من الضربات اليمينية معتبرين أنها لابد أن تقدم بمعرفة وبحسب مشيئة الله الذى يعطيها لنواجه بها عدونا لا لنقتل أنفسنا، لذلك لا يعطيها الله للجهال، مؤكدين على ضرورة أن تكون فى الخفاء وتحت مشورة الأب الروحى (أب الاعتراف) وبإرشاد وتدبير الكنيسة. لأن البلل بالدموع يعنى الغمس وإغراق أعماق القلب الداخلية حيث لا تشاهده عين ما إنما تراه فقط عين الله الذى كله عين ويرى الكل، وببلل الدموع نال غسل المعاصى (بحسب قول الأب بفنوتيوس) ولهذا يدعونا القديس يوحنا ذهبى الفم لنتقدس فيقول: «فكّروا فى القديسين كيف يقضون الليل كله فى ذرف الدموع» ويقول أيضاً القديس مار إفرآم السريانى: «هيئ فى كل يوم مشعلك وكن مستعداً، لا تدعه ينطفئ بل أوقده دائماً بالصلوات والدموع».

٦) الدموع المطوبة والمغبوطة

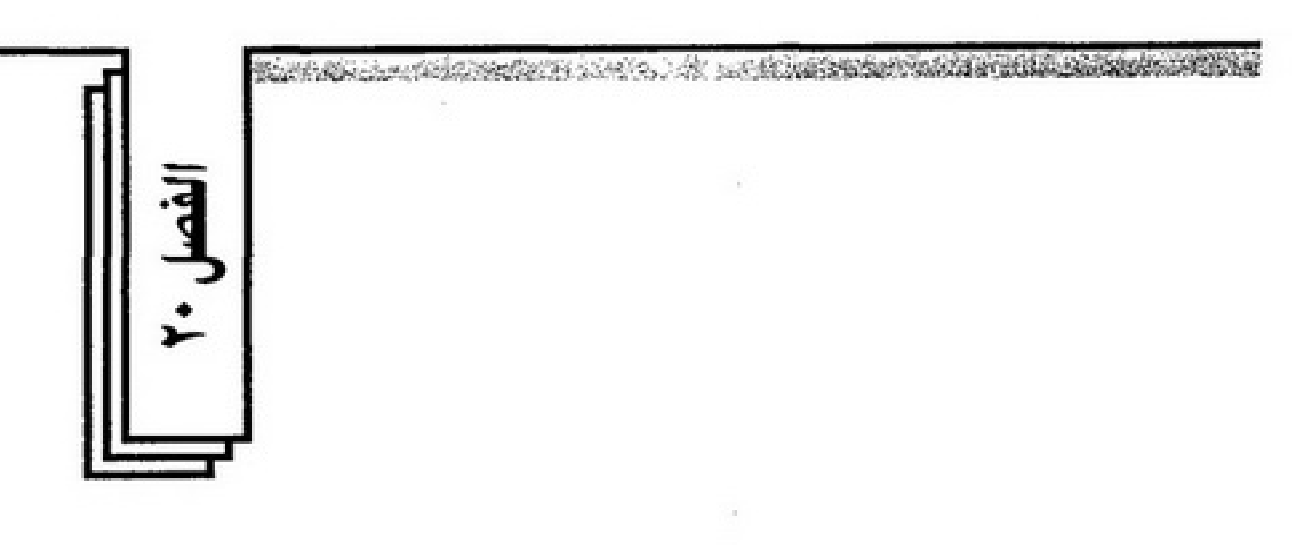
يرى الآباء أن هناك علاقة وثيقة بين التطويبين الثانى والسادس فى إنجيل متى، إذ بالدموع تُفتح لنا بلد التعزية، دموع ندامة التوبة والاعتراف ثم دموع الفرح الكامل: دموع تحرق ثم دموع تخصب وتفوق كل شعور بشرى على حد قول القديس يوحنا كاسيان.

ويسمى القديس باسيليوس الكبير دموع التوبة بـ «**زرع الغبطة الأبدية**»، كما يؤكد القديس يوحنا ذهبى الفم على دموع التوبة كأساس لفرح النعمة الذى يسميه نيلوس السينائى بـ «**الفرح المنير**». أما يوحنا الدرجى (السلمى) فيلخص بكلمات قليلة الطريق الروحية ويقول أن الدموع تحدث الخشوع والمخافة التى يتلوها الرجاء، ومن الرجاء يولد الفرح، وهذا الفرح «المنتهى إلى حد ما دون أن ينتهى أبداً يؤول إلى الزهرة السمائية أعنى الحب الإلهى». ويتفق جميع الآباء على تطويب الدموع وعلى ربطها بالتعزية والفرح المغبوط.

وفى تطويب الدموع قيل أنها ياقوت السماء الروحى وينبوع الفردوس العقلى ولهيب البوتقة الإلهى وعربون الغبطة الدائمة، لذا عوّم داود النبى سريره وبلل بدموعه فراشه على الخطايا التى إرتكبها منذ زمن بعيد وكأنها حدثت فى وقته الحاضر القريب. وطوّب مار إفرآم السريانى الإنسان الذى يذرف الدموع بخشوع مثل درر كريمة أمام الرب والذى يسرع بدموع وتنهدات ليتوب توبة صادقة أمام الرب لأنه يتحرر من الشقاء الأبدى، كما طوّب ذاك الذى أصبح كله سحابة دموع وأطفىء بها لهيب أهوائه الشريرة.

> **فطوبى لمنْ أصبحت نفسه شجرة فتية وعنده دموع متواصلة بحسب مشيئة الله مثل فيضان الماء، وطوبى للذى يزرع زرعه ويسقيه بدموعه حتى يأتى زرعه مرضياً ومثمراً نحو الرب. وطوبى للباكين الآن لأنهم يتعزون، فالذين يبكون هنا قليلاً لا يبكون بكاءً مؤبداً بل يفرحون ويغتبطون بلا نهاية فى فرح أبدى....**





سر مسحة المرضى فى الكنيسة الأولى

سر مسحة المرضى

فى الكنيسة الأولى

تعريف السر

تعتبر الكنيسة سر مسحة المرضى أحد الأسرار السبعة التى بها ينال المريض شفاء أمراضه الروحية والجسدية بحسب رسالة القديس يعقوب (٥ :١٤) وفى الأصل يرتبط هذا السر بالتوبة كوسيلة شفائية مارسها الرسل (مر٦ :١٣) وتتكون صلوات هذا السر من قراءات كتابية وطلبات للشفاء الروحى والجسدى كليهما.

ومن الجدير بالذكر أن سر مسحة المرضى يُسمى باليونانية *Euchelaion* أى «**زيت الصلاة** *Oil of Prayer*». وكما توضح صلوات خدمة هذا السر فإن الهدف منه ليس فقط الشفاء الجسدى بل وأيضاً غفران الخطايا، وهذا يؤكد العقيدة الكتابية عن الإنسان ككائن سيكوسوماتى *Psychosomatic* أى نفسجسدانى مكون من جسد ونفس بحسب (تك١ :٢٧)، لذلك لا يمكن أن يكون هناك أى تفريق تام أو قاطع بين الأمراض الجسدية والروحية. ويوضح يعقوب الرسول الشروط اللازمة لأتمام هذا السر: فخدام السر هم «**قسوس الكنيسة**» وصورة السر هى الصلاة «**فليصلوا عليه**» ومادة السر هى الزيت «**يدهنوه بزيت**» ومفعول السر هو الشفاء «**صلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تُغفر له**». فقوة الشفاء تكمن فى صلوات الكهنة وتقديس الروح القدس للزيت، بالإضافة إلى أن مفاعيل هذا السر تتضمن علاوة على شفاء المرض غفران الخطايا أيضاً كطقس كنسى سرائرى.

ويؤكد التقليد الكنسى على حقيقة الشفاء الإلهى وأن الله لم يهمل أمر أجسادنا، لأنه شفاء الأمم الذى أعطى سلطان الشفاء والغفران لتلاميذه، لتتبع هذه الآيات المؤمنين بوضع أيادى الكهنة على رؤوس المرضى لينقذوهم من الموت الجسدى ويزيلوا الأمراض التى تتسلط عليهم بحسب تعبير القديس يوحنا ذهبى الفم.

والمسيحية كلها «سر الله أو سر المسيح»، لذا يُسمى هذا العمل الإلهى بـ «السر» الموهوب للكنيسة بحسب غنى نعمة الله ومسرته التى تُعلن دائماً محبة الله الفائقة للإنسان، لذلك تلتحم العبادة والطلبة والقراءات فى طقس مسحة المرضى معلنة عن عمل الإيمان وفى نفس الوقت عن ثمرة وبرهان فاعلية هذا الإيمان، ومعلنة أيضاً عن حلول الروح القدس وشركة القديسين وطلب الشفاء الجسدى والروحى من صاحب السلطان الشافى الحقيقى.

وفى هذا السر يتم تقديس الزيت أولاً برشم الصليب على سبعة سرج عند قراءة القراءات السبعة وبإيقاد سبعة قناديل، أما رشم الزيت بالصليب فهو لتقديسه، وإيقاد القناديل هو إشارة لإستدعاء الروح القدس (رؤ٤ :٥) والإلتجاء إلى النور لإستدعاء الروح القدس هو فى الواقع تعبير سرى *Mystical* عن فعل الروح القدس فى تبديد الأرواح النجسة المُعبر عنها بقوات الظلمة وكل أعمالها الشريرة وأفكارها وأوهامها المتسلطة على العقل أو النفس أو الجسد. فتُشفى الأمراض الجسدية وتُطرد الأرواح النجسة ويتبدد السحر والتعاويذ وتنصد كل شهوة باطلة، وتنفرغ الشياطين وتعود للمرضى والمنزعجين صحتهم وحواسهم ونضرتهم.

تأسيس السر المقدس

نقل المسيح سلطانه على الأرواح النجسة وقدرته على شفاء جميع الأمراض إلى الآباء الرسل: «ودعا تلاميذه الإثنى عشر، فأعطاهم سلطاناً يطردون به الأرواح النجسة ويشفون الناس من كل مرض وعلة» (مت١٠ :١)، وعندما رجعوا ممتلئين حماساً قالوا للسيد المسيح: «ربنا، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك» (لو١٠ :١٧). ويذكر القديس مرقس أن الرسل كانوا يدعون الناس إلى التوبة وأنهم طردوا كثيراً من الشياطين، ودهنوا بالزيت كثيراً من المرضى فشفوهم (مر٦ :١٣)، إلا أن هذه القدرة على الشفاء بقيت حسب رغبة السيد وقفاً على الكنيسة، حيث يكون الرب حاضراً (يع٥ :١٤) ولابد من القول أن هذه المقدرة على الشفاء ليست عملاً محدوداً لأنها تكون فاعلة بالإيمان والصلاة وتُقام «باسم الرب» (أع٣ :٦-١٦، ٤ :١٠، ٩ :٣٤).

لقد أرسل الرب ذلك الأبرص الذى شفاه إلى الكاهن، ففى تطهيره للأبرص تطهير

للبشرية المؤمنة التى لم يشمئز السيد من لمسها، وهو لم يطهر أبرصاً واحداً بل كل متعب وكل مريض وكل خاطئ، وإن كان تطهير الأبرص قد تم بكلمة الرب، لذا فإن إحتقار كلمة الرب هو البرص الذى يصيب الروح، وقد أرسل الرب الأبرص إلى الكاهن ليلتزم بتقديم تقدمة لله فى الهيكل، أى صلاة وشكر فى الكنيسة بالمسيح يسوع الذى هو رئيس كهنة الخيرات العتيدة.

سر محبة الكنيسة وحنانها

تذكر ليتورجية هذا السر أنه يتم إيقاد سبع قناديل واحدة فواحدة فى كل صلاة من الصلوات السبع، والسبعة عدد رمزى يدل على الكمال، وبالإضافة إلى السرج والصلوات السبع، تصلى الأواشى أيضاً وكذلك تقرأ الرسائل والقراءات الإنجيلية وتقال الطلبات. وكمال هذا الرقم يعنى أن المسحة بالزيت المقدس تعبر عن كمال حنان الكنيسة وأمومتها الذى تظهره لابنها المريض جسدياً أو نفسياً فى الأوقات الحرجة.

وتصلى الكنيسة من أجل الشفاء الكامل والصحة التامة لعضوها المريض ليعود إليها مجدداً وهو معافى النفس والجسد والروح، لكى يرضى الله ويفعل مشيئته.... تلك هى النعمة التى تطلبها الكنيسة من أجل أولادها المحتاجين إلى الشفاء.

صلوات سر مسحة المرضى الطقسية

تصلى الكنيسة من أجل المرضى لكى يتعهدهم الله بالمراحم والرأفات ويشفيهم وينزع عنهم كل مرض وكل سقم ويطرد روح الأمراض ويقيم ويعزى الذين أبطأوا مطروحين فى الأمراض، ويعتق المعذبين من الأرواح النجسة، ويرحم النفوس المتضايقة والمقبوض عليها ويعطيها نعمة ومعونة وخلاصاً وغفران الخطايا والآثام.

وتتوجه الكنيسة بالصلاة إلى ربنا يسوع المسيح الطبيب الحقيقى الذى لأنفسنا وأجسادنا كمدبر لكل جسد ليتعهد الكل بخلاصه ويشفى بمسحته المقدسة كل ضربات وكل أسقام الآتيين إليه، ويرشمهم ليكون لهم خلاص ونجاة من أمراض النفس والجسد، عندما يدهنهم كهنته خدام لاهوته بالزيت ليخلصوا من قبل هذه المسحة المقدسة ويشفوا برشمه الإلهى ويده العالية.

وتطلب الكنيسة من الله أن يجعل فى هذا الزيت الشفاء للذين يُدهنون به، ويسترهم من جميع المحاربات الشيطانية، ويسندهم بوجه رحمته، ويباركهم بعين صلاحه، ويبسط قوته بالشفاء النفسانى والجسدانى، ويرسل من العلو غيث رحمته، وينضح من زيت وخمر شفائه على جراحات كل نفس، ويظهر قوته فى خلاص الآتيين إلى مسحة كهنته، ويشفيهم بنعمته، ويطهرهم من خطاياهم ،ويغفر لهم جميع زلاتهم، وينجيهم من كل شدة ومن الشر والشرير.

المسيح طبيبنا الحقيقى

لقد ظهرت فى الرب يسوع منذ بداية خدمته الأرضية قوة فائقة لشفاء المرضى: «العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يتطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون» (مت١١ :٦) وكانت «قوة تخرج منه وتشفى الجميع» (لو٦ :١٩) وهذه القوة الشافية المحيية كانت تنتقل منه إلى المرضى والموتى عادة عن طريق إحدى وسيلتين: الأولى **لمس جسده المحيى**، والثانية **سماع صوته الإلهى المحيى**، ففى إقامة إبنة يايرس «أمسك يدها ونادى قائلاً يا صبية قومى» (لو٨ :٥٤)، وفى إقامة ابن أرملة نايين «لمس النعش وقال أيها الشاب لك أقول قم» (لو٧ :١٤)، وفى شفاء حماة سمعان «لمس يدها» (مت٨ :١٥، مر١ :٣١) و«انتهر الحمى فتركتها» (لو٤ :٣٩)، وفى شفاء الأبرص «مد يسوع يده ولمسه قائلاً أريد فاطهر» (مت٨ :٣، مر١ :٤١)، وفى شفاء الأعميين «لمس أعينهما قائلاً بحسب إيمانكما ليكن لكما» (مت٩ :٢٩)، وفى شفاء نازفة الدم «جاءت من ورائه ولمست هدب ثوبه فقال لها ثقى يا ابنة إيمانك قد شفاك» (لو٨ :٤٤).

فجميع المرضى الذين لمسهم الرب نالوا الشفاء (مت١٤ :٣٥) وكل منْ لمسه الرب شُفى (مر٦ :٥٦) إذ أن قوة كانت تخرج منه وتشفى الجميع (لو٦ :١٩) فبلمسته الإلهية الشافية وبنطقه المحيى أعطى الجميع الحياة الأفضل وقدسهم وطهرهم وشفاهم وأطفئ فيهم حمى الشهوات الرديئة وأنهضهم أصحاء ليخدموه ويعملوا الأعمال المرضية عنده.

إن قدرة المسيح على الشفاء وإعطاء صحة الحياة متأسسة على سر الفداء وقدرته على مغفرة الخطية التى سفك دمه ثمناً لها على الصليب، فقدرة المسيح على الشفاء والإقامة من الأموات نابعة من ذبيحة نفسه القائمة والدائمة فيه والتى قدمها على الصليب فى

الوقت المعين عن كل خطاة الأرض، من أول الزمان وإلى آخر كل زمان، وبهذه القوة والقدرة الإلهية التى فيه شفى ويشفى وسيشفى أمراض الملتجئين إليه على أساس أن كل خطاياهم وعارهم هو حمله عنهم فى جسده على خشبة الصليب، ويوصيهم أن لا يخطئوا أيضاً أى ثانية، معتبرين أن كل مرض مهما كان هو لمجد الله إذا حولناه إلى شكر حقيقى وإحتملناه بصبر فيتمجد الله فينا بسبب هذا المرض عينه.

إن المسيح هو الطبيب الحقيقى الذى لنفوسنا وأجسادنا وأرواحنا، وهو شفاؤنا كلنا ورب الحياة الخالد الذى يشفى أمراضنا النفسية والجسدية والروحية، وهو منقذ حياتنا من الفساد ومكللنا بالمراحم والرأفات (القداس الإلهى) كسامرى صالح حقيقى يضمد الجراحات بزيت وخمر، يصب أولاً الزيت ليلطف الآلام، ويتكئ كل المرضى على صدره محتملاً خطاياهم، ويدخل إلى فندقه (كنيسته) كل جريح وعاصى وكل متروك بين حى وميت وكل مصاب برذائل الخطية، ويلبسهم جميعاً ثياب النعمة الروحية كسامرى وكحارس لنفوسنا لا يتركها ولا يجتازها بل يحنو عليها ويشفيها من أجل حياتها وتوبتها وخلاصها.

وهو لا يزال يصب خمراً وزيتاً على كل منْ أنكسر بالخطية وفقد سلامه مترجياً شفاءه، فيريحه من آلامه ويطهره ويتكئه على صدره، إذ عنده أدويته الكثيرة فى الشفاء والتضميد والدفء وغفران الخطايا والإتيان بالكل إلى الفندق (الكنيسة) كمكان يحلو للمرضى والخطاة أن يقيموا فيه ليستشفوا ويصحوا معافين النفس والجسد والروح خلال أدوية ومراهم الخلاص أى الأسرار الكنسية التى هى وسائط النعمة.

سر مسحة المرضى والإيمان

إن مصدر قوة الشفاء فى سر مسحة المرضى هو الإيمان بالمسيح شمس البر الذى يحمل الشفاء فى أجنحته، والذين يحتاجون إلى الشفاء يشفيهم، فالرب لا ينعم بالشفاء على كل المرضى، إنما الذين يشعرون بالحاجة إلى الشفاء ويطلبون الطبيب. فطبيبنا سخى وقادر على الإبراء لكنه لا يهب عطاياه إلا لسائليه، والذين يلتجئون إليه مؤمنين به يشفيهم حتى لا يستخفوا بالعطية ويحتقرونها

المهم **إرادة الشفاء** عند المريض «**أتريد** أن تبرأ؟»، وإن كان الله لا يترك الذين يطلبونه بل ينهض إرادتهم فكيف ييأس الخاطئ من رحمة رب الحياة؟ إن إيمان المريض يفتح له

كوى السماء لتفيض عليه بركة حتى لا متسع، وعدم الإيمان يغلق قلب الله، أما إذا دعوناه ينقذنا ويتمجد بصلاتنا وطلباتنا.

فقانون المسيح أنه **بدون إيمان لا يوجد شفاء**، لذا قال مقولته التى هى بمثابة قانون إلهى فى عمل معجزات الشفاء: «إن كنت تؤمن فكل شئ مستطاع لدى المؤمن». لذا بالإيمان بقوة السر يعود مشلول الخطية صحيح الروحى معافى، حاملاً سيرته الماضية وراء ظهره فتعود إليه حيوية جسده بقوة وفعل الروح القدس المعطى للإنسان مجاناً بالإيمان.

إن المريض الذى تتوافر لديه إرادة الشفاء والإيمان بإستعادة الحياة الأفضل ينال الشفاء الروحى والنفسى والجسدى لأن برء الجسد متوقف على البرء من الخطية ومرتبط بحياة الإيمان وهذا القصد الإلهى واضح من كلام الرب للمريض: «ها أنت قد برئت فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو٥: ١٤).

وقوة وفاعلية الروح القدس الفاعل فى الأسرار تنتهر الخطية والمرض وتلاشيها وتلغى سطوتها، وما من شئ يقف بينه وبين أن يعمل عمله فينا. إن المرضى والمقعدين الذين شفاهم الرب هم نماذج لكل نفس مريضة تطلب منه الشفاء بإيمان، ولكل نفس ميتة بالخطية تطلب الغفران بالإيمان والتوبة.

«فصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تُغفر له» (يع٥: ١٤)، لذا يتكلم القديس أثناسيوس الرسولى عن برهان الروح والقوة وعن الإيمان العملى: «قال هذا ودعا المسيح المرضى ورشمهم مرتين أو ثلاثة بعلامة الصليب، وللحال وقف الرجال أصحاء بعقلهم السليم وقدموا الشكر للرب فى هذه اللحظة».

وبالرغم من أن الرب يشفى بسلطانه الشخصى إلا أنه يطلب إيماننا ليسبق قبولنا للشفاء، وهو فى إرساله الأبرص للكاهن إنما قصد بذلك أن يعلمنا الخضوع للكهنة فى الرب (بحسب تفسير القديسين چيروم وأمبروسيوس) بالإيمان المملوء نعمة المؤيد بحفظ الوصايا، ليس ذلك الإيمان الميت والخامل بل الإيمان الحى والعامل، إيمان النعمة الذى يثبت المؤمن صبورته فى قلبه.

علاقة سر مسحة المرضى بسر التوبة والإعتراف

إن سر مسحة المرضى المقدس لا يتعلق بعلاج الجسد وحده، بل بعلاج النفس والروح أيضاً، لذلك يضيف يعقوب الرسول: «**وإذا كان قد فعل خطية غُفرت له**» (يع٥: ١٥).

ولكن هذا لا يعنى أننا نستطيع أن نستعيض بمسحة المرضى عن سر التوبة والإعتراف المقدس، فنحن ـ حسب قول بعض الآباء ـ ننال بسر مسحة المرضى قوة روحية لتغفر خطايانا التى نتوب عنها وكذلك التى نسيناها ولم نتمكن من الإعتراف بها. إلا أن أهميتها الأولى تبقى فى الصلاة من أجل صحة الجسد. لذلك ربطت الكنيسة بين هذين السرين وتحث الذين يقام لأجلهم سر مسحة المرضى على الاعتراف المقترن بالتوبة أيضاً.

فالرب شفى كل الذين إستحوذت عليهم الأرواح الشريرة منتهزة ضعفهم وبعدهم عن الله فكانوا فريسة لها، ولكن الشياطين كانت تخضع لسلطان المسيح وترتعب من إسمه وصليبه، وتصرخ من إنتهاره لها... فالمسيح ربنا لا يشفى فقط بل يعطى روح الحياة، وقد ربط المسيح المرض بالخطية حينما قال للمريض «**مغفورة لك خطاياك**» لذا فهو يعطى الحياة الأبدية عن طريق غفران الخطايا، ولا زال الرب يمارس حنانه وحبه للخطاة والمرضى ويكرز فى كل زمان ومكان خلال كنيسته، والعالم كله يتقاطر عليه لأنه ملجأ خلاص البشرية المتعبة أينما كانت، ليعيد الطبيعة إلى أفضل ما تكون جسداً ونفساً وروحاً، وهذه هى الصورة المجسمة للخلاص العتيد، فهو الطبيب والمخلص الذى يحمل المشرط ليقطع أصول الداء كما يحمل كأس الدواء ووسائل نقل الدم ويأتى بالضمادة ويقدم نفسه وحياته فدية لخلاص نفس الإنسان.

هكذا يسير الرب بتدبير مقدس كل حين، إذ يُعطى أولاً غفران الخطايا ودواء للجراحات ثم يهيئ الوليمة السمائية باعتباره ينبوع الرحمة الدائمة والفائضة مجاناً، يحيى العاجز ويشدد أوصال الأجساد المنحلة ويحرك العضلات الضامرة روحياً وجسدياً فتسرى فيها القوة الروحية أقوى مما كانت، وهكذا كل منْ صدق وآمن بكلمة المسيح يتمتع بعبادة الكنيسة وأسرارها.

وعندما أتى المفلوج للمسيح لكى يبرأ من الشلل قال له الرب: «مغفورة لك خطاياك»، فبينما أتى ليشفيه من المرض ها قد شفاه الرب من شئ آخر أولاً، مبيناً طريقته الإلهية التى يريدها فى الشفاء، فأولاً ينزع أصل المرض قبل أن ينزع أعراض المرض. لقد رفع الروح

وأقام النفس المطروحة، إذ ليس من شئ يخلق السرور ويعيد الثقة قدر التحرر من العذاب الداخلى، وحيث توجد مغفرة الخطايا يوجد الشفاء، وبينما ينال المريض الشفاء ينمو فى القوة الروحية، لذا تربط الكنيسة بين سر مسحة المرضى وسر التوبة والاعتراف.

وفعل «**شُفى** σεσωσται» يعنى شفاء الجسد وشفاء الروح، فهو مشتق من Σωξω والتى تعنى «**يخلص**»، فهو فعل خلاصى سرائرى ضمن أسرار الكنيسة السبعة اللازمة للخلاص، لذا قال معلمنا بطرس: «والآن يا رب انظر... بمد يدك للشفاء ولتجر آيات وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع» فمن خلال الكنيسة يمد الله يده بالشفاء وبعمل الآيات والعجائب.

لذلك يطلب الكاهن خادم السر فى مسحة المرضى قائلاً: «من أجل عبدك... اغفر له ما عليه... واترك له جميع زلاته التى صنعها بإرادته وبغير إرادته... وكما تركت للمديون أيها السيد الذى لك عليه، هكذا اترك لعبدك ما عليه وسامحه بجميع زلاته» «أيها الرب القابل إليه التائبين.... الذى طلب الخروف الضال والدرهم المفقود... الذى غفر خطايا الزانية... حل فى عبدك... المعترف بزلاته.... اغفر له غلطاته».

زيت مسحة المرضى

يمثل الزيت فى السر عمل يد الله المستعلنة بالروح القدس، فالزيت يحمل سر الروح القدس، وهو زيت الزيتون الذى تتلى عليه صلوات خاصة معروفة باسم «القنديل المقدس» وتكون عادة فى يوم جمعة ختام الصوم، ويوزع على الكهنة ليقوموا بدهن المرضى، وجعلت له الكنيسة طقساً وصلاة ليتورجية باسم «مسحة المرضى» وهو سر كنسى لأنه حامل الروح القدس وبه تتم نعمة الشفاء.

وطقس دهن الزيت لشفاء المرضى فى العهد الجديد مذكور فى إنجيل القديس مرقس الرسول (٦: ١٣) وفى رسالة القديس يعقوب الرسول (٥: ١٣)، وهو تقليد رسولى إستلمه القديس يعقوب من الرسل الأقدم منه، ويبدو أنه من وضع الرب «أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب» (يع٥: ١٤).

وتقليد الكنيسة يتمسك بما جاء فى إرسالية الرسل الذين أخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا

بزيت مرضى كثيرين فشفوهم (مر٦ :١٣) فتلك كانت أعمال التلاميذ:

١) كرزوا بالتوبة
٢) اخرجوا الشياطين
٣) شفوا المرضى بعد دهنهم بالزيت.

فدهن المرضى بالزيت هو واحد من أميز وأهم أعمال الرسل، لذا تمسكت الكنيسة بهذا التعليم الكتابى والرسولى.

وفى سفر الأعمال «كانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدى الرسل» (٢ :٢) فلم تكن هذه المعجزات والأشفية التى دوّنها الروح القدس مكتوبة للتسلية والتعزية فقط بل كلها شهادة وتحقيق لوعد الرب الحى والقائم من بين الأموات: «روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى» (يو١٥ :٢٦) واسم الرب المبارك قادر أن يشفى ويقيم من الموت حسب الوعد المبارك «إن سألتم شيئاً باسمى فإنى أفعله» (يو١٤ :١٤).

إن إمساك بطرس الرسول لذلك الأعرج بيده اليمنى كان إشارة إلى سر التقليد المقدس الذى للكنيسة بأن وضع اليد الرسولية بدهن زيت مسحة المرضى يشفى من أى سقم ومرض ويطرد الأرواح النجسة، لأن فى يمين الرسول قوة الله العلى تسرى وتعمل وتقيم من الموت، ولا تزال تسلم من يمين إلى يمين لكهنة الله خدام السر حتى إلى المنتهى لتشهد بعمل الله فى وسط كنيسته وبقوة روحه القدوس الفاعل فى كل أسرارها من أجل المداواة بمراهم وأدوية الخلاص الشاملة.

لذلك يصلى الكاهن خادم السر طالباً «من أجل تقديس هذا السر من الرب نطلب» «من أجل بركة هذا الزيت وتقديسه من الرب نطلب» «إجعل فى هذا الزيت الشفاء للذين يدهنون منه» «قدس هذا الزيت ليكون لكل الذين يمسحون به شفاء لهم من أدناس الروح وآلام الجسد» فيكون هذا الزيت تبريكاً وتقديساً ونوراً وجمالاً لا يذبل، وقوة وخلاص وغلبة على كل أفعال المضاد، وتجديداً وخلاصاً وثمرة للأفعال الحسنة وشفاءً من أدناس الروح وآلام الجسد.

سر مسحة المرضى وأعمال السحر

إن السحر هو من أعمال الشيطان وهى كلها للضرر والإيذاء حتى ولو كانت فى ظاهرها عمل منفعة، لكن سر مسحة المرضى يلغى تأثير أعمال السحر الشيطانية وكل تعزيم شيطانى. لقد قرأنا عن سحرة مصر الذين إندحروا بواسطة موسى النبى خادم الله عندما حاولوا أن يعملوا سحرهم المضاد لله، أما هو فبمجرد دعائه إلى الله بالصلاة أفسد مكيدتهم وفشلت أعمالهم أمام أصبع الله وقوته العظمى الحاضرة لمنع سحرهم وإعترفوا: «هذا أصبع الله».

يقول **القديس كيرلس الأورشليمى**: «إذا كنت موجعاً فى جسدك، وآمنت بالحقيقة أن دعاءك باسم رب الجنود يحل أوجاعك.. فإنك تعمل عملاً أفضل من أولئك المؤمنين بالسحر لأنك تقدم المجد لله لا للأرواح النجسة». ويقول أيضاً **القديس اغريغوريوس**: «لا يبق فيك الروح النجس مختفياً، بل فلتسكن فيك قوة المسيح الإله والروح القدس لكى تشفى بتتميم هذا السر وبمسحة الزيت المقدس، وبصلواتنا بقوة الثالوث القدوس وتعود إلى الصحة التامة».

وتشمل ليتورجية سر مسحة المرضى طلبة من أجل أن يستردهم محب البشر من جميع المحاربات الشيطانية ومن سهام الأوجاع ومضايقة الأفكار، ومن الموت الدهرى، وفى هذا يقول **البابا أثناسيوس الرسولى**: «بعلامة الصليب يبطل كل سحر وتتلاشى قوة العقاقير السامة.. وتبطل كل الشهوات الدنيئة، ويتحول أنظار الجميع من الأرض إلى السماء». فبمجرد حضور السيد الرب يفضح العدو ويذل الشياطين، وهذا هو طريق خلاصنا من سطوة أبليس وأعماله من ناحية، ومن ناحية أخرى يقوينا ويحمينا قبالة حروبه.

سلطان القديسين على الأوجاع الجسدية

يُروى عن القديس يوحنا القصير أنه قابل فلاحاً مصاباً بمرض البرص وطلب منه أن يشفيه فأخذ القديس ماء وصلى عليه ورشمه باسم الثالوث القدوس فشفى الرجل ومضى ممجداً لله.

وعن الأوجاع الجسمانية قال شيخ: «يجب أن نشكر الله على الأوجاع الجسمانية، فإن

بولس الرسول يقول: إذا ما فسد إنساننا الخارجي، فإن الداخلى يتجدد يوماً فيوماً. فلن نشارك المسيح فى مجده إلا إذا شاركناه أوجاعه، ولا نقدر أن نشاركه فى أوجاعه إلا بالصبر على الشدائد. الشكر فى الشدة يعين على الخلاص منها».

ويقول القديس الأنبا يوسف التبايسى أن من بين الأمور الكريمة أمام الله أن يكون الإنسان راضياً شاكراً فى مرضه وحين تتواتر المحن.

ويقول الأنبا بيمن: «نعمَ التجربة هى تلك التى تعلم الإنسان». ويقول شيخ: «لا تضعف عن مقاومة التجارب التى توافيك، بل إطلب من الله المعونة. قد سمعنا الله يقول: أنا معكم لا تخافوا. ومن ذلك تحققنا أنه ليس بقوتنا نقاتل، بل بقوة الله الذى ألبسنا سلاح الظفر وأعطانا الروح القدس».





وليمة الأغابى

فى الكنيسة الأولى

وليمة الأغابى

فى الكنيسة الأولى

من الممارسات التى عرفتها الكنيسة الأولى كانت ولائم المحبة التى عُرفت باسم «**الأغابى Agape**»، هذا الإصطلاح الذى أُستخدم للإشارة إلى الوجبات الجماعية التى يتناولها المسيحيون سوياً، وهى فى الأصل مرتبطة بالإفخارستيا، وفيما بعد فى القرون اللاحقة للكنيسة أصبح لهذا المصطلح معانيه المختلفة فى كل بلد وكل تقليد.

والكلمة اليونانية *Αγαπι* تعنى «**محبة**» ووردت أولاً فى الترجمة السبعينية، ويُعتقد أن الكُتاب الكنسيين قد نحتوها أولاً من الفعل اليونانى «**يحب** *Αγαπαω*» ليتفادوا المعنى الحسى للاسم اليونانى العادى للحب «**إيروس** *Ερωσ*». ووردت كلمة «**أغابى**» مرتين فقط فى الأناجيل الثلاثة، لكنها وردت كثيراً فى إنجيل القديس يوحنا وفى رسائل القديس بولس الرسول خاصة فى (١ كو١٣) ورسائل القديس يوحنا الحبيب. ودائماً يُقصد بها محبة الله أو محبة المسيحيين بعضهم لبعض، ومن الكتاب المقدس دخلت كلمة «**أغابى Agape**» فى لغة الآباء الأولين.

ويُستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى الوجبة المسيحية الجماعية التى كانت تتم فى الكنيسة الأولى فى إرتباط وثيق مع سر الإفخارستيا، وأهم الوثائق التى تشهد للأغابى هى حديث القديس أغناطيوس الأنطاكى عن أعمال المحبة أو وجبات المحبة التى للمسيحيين فى رسالته إلى أهل سميرنا، أما العلامة ترتليان فيشير إلى الأغابى بوضوح وصراحة فى دفاعه.

ويذكر القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة ذلك الإرتباط بين الإفخارستيا التى تُقام والمؤمنون صائمون وبين الأغابى التى تُقام من بعدها، ويبدو أن الأغابى قد أصبحت أكثر فأكثر عمل صدقة إذ هكذا يصفها القديس أغسطينوس، وبإنتهاء عصر الآباء توقف تقليد الأغابى فى الكنيسة.

الأغابى فى النصوص الكتابية

إن نقطة الإنطلاق للنصوص الكتابية حول الأغابى هى فى (أع٢ :٤٦) حيث الصورة المكتملة للكنيسة الأولى: «وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة، وإذ هم يكسرون الخبز فى البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب».

كذلك ما كتبه القديس بولس الرسول موبخاً الذين سلكوا بإستهتار إزاء موائد الأغابى فإضطر إلى توبيخهم وتخويفهم كما نرى ذلك فى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١ كو١١ :١٧-٣٤)، ويصف الرسول المشهد الإفخارستى بطقس الخبز والكأس فقط دون الخلط بينه وبين أى وجبة جسدانية، وهو يدين عمل الأغابى الإفخارستية التى تُقام دون روح الخشوع والمخافة والتوقير.

أما يهوذا الرسول فيقول فى رسالته: «هؤلاء صخور فى ولائمكم المحبية (الأغابى) صانعين ولائم معاً» (يه١٢) ولاشك أن هذا هو عينه ما ذكره القديس بطرس «صانعين ولائمكم معاً» (١بط٢ :١٣).

والمقصود بكسر الخبز وبولائم الأغابى فى النصوص الكتابية تلك التى لها طابع دينى خشوعى إفخارستى، وفى الديداكية (تعليم الرسل) توجد نصوص وشروط الأغابى. وكانت هذه الولائم فرصة نادرة لإطعام العائلات الفقيرة دون إحراج لأن الجميع كانوا يأكلون معاً وكان الأغنياء يتبارون بتقديم الأطعمة بكثرة لهذا الغرض. واتسمت هذه الموائد بالإبتهاج الشديد ، لأن طعامنا المشترك هو أن نحيا المسيح فى قيامته، وفيما نأكل بإبتهاج نتناول الطعام ببساطة قلب فتكون ولائم المحبة بلا كبرياء ولا حسد ولا بغضة ولا مخاصمة ولا تعد ولا دينونة ولا رياء ولا نميمة ولا إفتخار عالمى ولا مكر ولا خداع، وبذلك نعيش وحدتنا وشركتنا بلا إفتعال.

وتعتبر الأغابى تعبيراً عن روح الإخوة المسيحية الحقيقية... فقد كان الجميع يجلسون إلى مائدة واحدة ويتناولون طعاماً واحداً، بصرف النظر عن المركز الإجتماعى... لقد أحس الجميع أنهم فعلاً أعضاء فى جماعة واحدة بل فى جسد واحد هو جسد المسيح. وتبدأ الوليمة بالصلاة وتُختم أيضاً بالصلاة، ويتخلل ذلك بعض الترانيم والتسابيح الروحية فى مناخ روحى أخوى ليس على مستوى إجتماعى لكن على مستوى كنسى إلهى.

وليمة الأغابى وسر الإفخارستيا

نلمس إهتمام الكنيسة الأولى بولائم الأغابى مما ذكره أغناطيوس الشهيد فى رسالته إلى أهل سميرنا: «غير مصرح بالعماد أو إقامة الأغابى بدون الأسقف». وفى القرون الأولى كان طقس «الأغابى» أى «وليمة المحبة» ملازماً لسر الإفخارستيا حيث كان المؤمنون الأوائل يجتمعون أولاً مساءً لتناول العشاء معاً لا كمجرد وجبة عادية بل كطقس إلهى إستلموه من ممارسة الرب لتناول العشاء مع تلاميذه ليله آلامه قبل تأسيس سر الإفخارستيا.

لقد كان ولا يزال تقليد «الشركة فى الأكل» فرصة للشركة والمحبة والوحدة القلبية، تُمارس بصورة روحية وبخلفية ومشاعر مسيحية حيث تقترن بالشكر لله وإعلان المحبة والوحدة بين أعضاء الكنيسة. فالمسيحيون الأوائل جعلوا طقس العشاء المشترك الذى يسبق الإفخارستيا ذا معنى خاص إستقوه من حياة المسيح سواء فى ليلة العشاء الأخير أو فى المناسبات التى أكل فيها مع تلاميذه بعد قيامته، لتكون هذه الولائم علامة على حضوره المجيد وسطهم كرأس للكنيسة الجديدة، وعلامة على صورة الإتحاد الإلهى الإنسانى الذى تم فى شخص المسيح، وعلامة على الشركة التى فيها إرتبطوا بالله من خلال هذا الإتحاد.

لكن هذا الطقس «وليمة الأغابى» أُتبع فى تقليد بعض الكنائس تالياً لسر الإفخارستيا أى بعد التناول، إلا أنه لم يستمر هكذا على مدار السنين نتيجة إساءة إستعماله مما كان يسئ إلى قدسية ممارسة سر الإفخارستيا، ولكن هذا الطقس ظل محفوظاً وصامداً فى التقليد القبطى حتى القرن الخامس آخذاً صورة أخرى إلى أن استقر فى الطقس الرهبانى.

ويعتبر الآباء أن مفهوم الأغابى كوليمة للوحدة يعنى الحب الداخلى الذى يسكبه الروح القدس فى حياة المقدسين بدم المسيح خلال إفخارستية الكنيسة، لهذا يقول القديس أغسطينوس «بالحب يخلص الناس وهو نعمة العهد الجديد» كما يقول «خارج الكنيسة يستحيل حفظ الحب».

ويرى بعض اللاهوتيين أن وليمة الأغابى هى إمتداد لقبلة السلام *Aspasmos* فتكون هذه الوليمة إمتداداً للمصالحة كعلامة محسوسة وعملية وشهادة حقة للشركة وإنفتاح قلب كل مؤمن للكنيسة، وإنفتاح الكنيسة كلها من أجل كل عضو فيها، فيشعر المؤمن بكل الكنيسة فى قلبه، ويكون هو فى قلب كل الكنيسة بقرابة روحية وسمائية.

وقد ظل الأقباط يستخدمون الناى (المزمار *Flute*) فى إجتماعاتهم المسماة بولائم الأغابى حتى سنة ١٩٠م، حيث أوقف القديس كلمنضس السكندرى إستخدام الناى واستبدله بالناقوس (الدف *Cymbals*) فى التسابيح. وكان هذا النظام متبعاً وراسخاً فى الكنيسة القبطى[ككنيسة شعبية تتبع التقليد الرسولى الأول فى الشركة والعبادة، لأنه بالحقيقة فى كل مكان فى مصر تجد حظيرة للمسيح وقطيعاً ملوكياً وسلوكاً وفضائل وقوات من فوق جعلت كنيسة مصر القبطية كنيسة شعبية غاية فى العجب.

لكن سرعان ما إنفصلت وليمة الأغابى عن زمان ومكان الإفخارستيا وأصبحت تُقام فى مكان خاص وبنظام خاص بعد التناول، وأوضح مثال على ذلك ما هو موجود بالأديرة القبطية حتى اليوم، فالمائدة تكون خورساً من خوارس الكنيسة إذ كان يخرج الرهبان المتناولون من الهيكل ليلتفوا حول المائدة كل يوم أحد وفى الأعياد.

وليمة الأغابى فى الكنيسة حتى نهاية القرن الثانى

يعتبر **القديس كلمنضس الرومانى** ولائم الأغابى الروحية فرصة تعيدنا إلى ممارسة الحب الأخوى اللائق والمقدس عندما يجلس الكاملون فى الحب بالنعمة الإلهية فى مجالس القديسين ويظهرون عند إعلان ملكوت المسيح. فبالحب يحملنا يسوع المسيح الذى أراق دمه عنا بإرادة الله الآب.

ويتحدث **القديس أغناطيوس الأنطاكى** عن عقد الإجتماعات الشرعية المطابقة لوصية الرب لتحقيق الوحدة والتمتع بالحياة المقدسة لذا يؤكد على أن «لا يفعلن أحد منكم شيئاً يخص الكنيسة دون إرادة الأسقف... فلا يجوز أن تُمنح المعمودية أو تُقام وليمة الأغابى بدون الأسقف»، وبهذا يكشف إرتباط وجود الأسقف بوليمة الأغابى كرمز للوحدانية والشركة.

وحث القديس أغناطيوس رعيته فى رومية لتكون ولائم المحبة عندهم عديمة الفساد αγαπη αφθαρτοσ، ثم يكتب إلى أهل سميرنا عن أعمال المحبة بنفس المعنى الذى يكتب به إلى أهل فلادلفيا بأن يكون لديهم إهتمام بالمحبة.

كذلك تصف **الديداكية** وليمة الأغابى بأنها إقامة مائدة فى الروح. وتقدم الديداكية (تعليم الرب للأمم كما نقله الإثنا عشر رسولاً) صورة رائعة للحياة المسيحية فى القرن الثانى

من حيث كونها أقدم نظام كنسى ونموذجاً له قيمته لكل التجمعات القديمة من حيث النظم والقوانين الرسولية. وهذا النموذج المُعتبر بداية القانون الكنسى فى الشرق والغرب يصف فى الفصول ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ولائم المحبة الإفخارستية وطقسها كولائم مسيحية، حيث كانت وليمة المحبة والإفخارستيا تمثلا ليتورچيا واحدة غير منقسمة.

الأغابى فى قوانين هيبوليتس وترتليان

تقدم قوانين **القديس هيبوليتس** إشارات واضحة للغاية عن وليمة الأغابى. فتفترض هذه القوانين أن الأغابى هى وجبة يقدمها المسيحيون الأغنياء للفقراء أو للأرامل، فهناك وليمة تُقدم فيها وجبات توزيع الصدقة، أما وجبة الأرامل التى يتحدث عنها هيبوليتس فى قوانينه (١٨٣ - ١٨٥) فيبدو أنها أكثر حدوثاً وتكراراً وتقدم لكل أرملة بقدر كاف.

ويرأس الأسقف هذه الولائم ويفتتحها بالصلاة «صلاة لأجل الفقراء وصلاة لأجل الشخص مُقدم هذه الوليمة ثم الصلاة لأجل عمل نعمة الله ثم تسبح المزامير» مع الهدوء والخشوع والتوقير اللازم لهذه الولائم دون حديث أو ثرثرة أو صراخ.

ويبدو أن هذه الوجبات كانت تُقدم كولائم محبة للفقراء، وكان الموعوظون يُستقصون منها وكان الأسقف يباركها ويرأسها الكاهن فى حالة غياب الأسقف، وفى غياب الكاهن يقوم الشماس بالتوزيع وكسر الخبز لكن دون التبريك.

وتبدأ الأغابى بتوزيع لقمة البركة (الأولوجيا) وهى من الحمل الذى تم تقديمه فى القداس لكن لم يتم إختياره للذبيحة أى ليس من الخبز الإفخارستى، لكى يتناوله المؤمنون على سبيل البركة.

أما العلامة ترتليان فيروى أن الجماعة المسيحية كانت لها خزانة أو صندوق يساهم فيه كل مسيحى بحسب مقدرته وبحسب إرادته ومن هذا الصندوق كان يُوزع على الأيتام وعلى الشيوخ وعلى أُسر الغرقى وعلى المسجونين بسبب إيمانهم. ويرى ترتليان أن هذه نتيجة للمحبة الأخوية العميقة التى تربط وتوحد المسيحيين ويضيف: «حسن هو سبب هذه الوليمة، ويجب أن تقدروا وتحترموا المبدأ الذى ينظمها، وكيف أنها خدمة دينية. لا يجلس المؤمن إلا بعد أن يرفع صلاة إلى الله ثم يأكل حسب مقدار جوعه ويشبع بمقدار لائق

بمعنى ألا ينسى أنه حتى أثناء الليل يجب عبادة الله، ويتحدث كمنْ يعرف أن الله يسمع. وبعد أن يغسل المؤمن يديه وتُضاء المصابيح، يقوم كلٍ منْ يستطيع بالترتيل سواء من الأسفار المقدسة أو من الترانيم وسط الجميع، وعندئذ تختم الوليمة بالصلاة». هذا هو وصف العلامة ترتليان للأغابى.

ويرى ترتليان فى ولائم الأغابى تأكيداً على أن المسيحيين مجتمع له شعور دينى مشترك ورابطة رجاء واحد، يلتقون فى الإجتماعات لكى يتقربوا إلى الله ويجمعوا قواهم ليلتفوا حوله، منادين بعضهم بعضاً بكلمة «إخوة»، ويجتمعون فى الولائم التى يُعبر عنها باليونانية بكلمة «أغابى» أى محبة، وفيها تُقدم العطايا طواعية وتُصنع كرصيد من الرحمة بلا صخب وتُنفق من أجل إطعام الفقراء المعوزين الذى ليس لهم منْ يعولهم والذين يتألمون لأنهم من أتباع المسيح.

الأغابى فى القرنين الرابع والخامس

يتضح من ممارسات الكنائس الأولى ذلك التنفيذ الفورى لشركة المحبة مما إستوجب الإسراع بوضع التنظيمات لها باعتبارها خدمة الكنيسة ذاتها، وبينما كانت ولائم الأغابى تقام لجماعة المؤمنين عقب الإفخارستيا، تم أيضاً ممارستها كعمل تقوى لخدمة الفقراء والمحتاجين فى تقاليد أخرى.

فيقول القانون رقم ١١ من قوانين مجمع غنغرة (٣٤٣م): «إذا كان أحد يحتقر هؤلاء الذين برجاء الإيمان يصنعون الأغابى، ولأجل إكرام السيد يدعون الإخوة، وإذا رفض بسبب الإزدراء أن يشترك فى هذه الإجتماعات فليكن أناثيما (محروماً)».

وفى القرن الرابع تحدث القانونان ٢٧ ، ٢٨ من قوانين مجمع اللاذقية أيضاً عن الأغابى على اعتبار أنها تقليد كنسى قائم فى ذلك الزمان، وأن الإكليروس والشعب مدعوون للإشتراك فى هذه الولائم بالكنيسة بيت الله.

كما يتحدث القانون رقم ٣٠ من قوانين مجمع قرطاجنة ٣٩٧م أيضاً عن الأغابى باعتبارها وجبات محبة وشركة تقدمها الكنيسة أو بعض أغنياء المؤمنين إلى الفقراء وكانت هذه العادة قائمة فى روما والاسكندرية وقرطاج خاصة فى أيام الآباء الرسولين والعلامة ترتليان والقديس كلمنضس السكندرى وهيبوليتس.

ومن المعالم المميزة لوليمة الأغابى فى الكنيسة الأولى سمة المحبة الأخوية ذات العمق والحرارة والألفة، الأمر الذى لا مثيل له فى أية محبة أخرى. وهنا نجد شيئاً حيوياً فى هذه الولائم يظهر للنور أى الأغابى كشركة للمحبة، فالشركة والوحدة الروحية ممكنة فقط بين الإخوة الذين لهم شركة مع الله ويشتركون فى طعام واحد، الأمر الذى يحمل معنى خاص فى كونهم يشتركون فى طعام واحد والذى هو مصدر الحياة، لذا صارت لهم حياة واحدة وينتسبون إلى عائلة أهل بيت الله.

إن ولائم الأغابى تتركز فى الأساس على دائرة المؤمنين الصغيرة داخل الحظيرة، فهؤلاء هم هدف محبة المسيح الخصوصية وعنايته، وعلامة الأغابى المميزة والأساسية والأولى هى «المحبة الأخوية» بين الأعضاء بعضهم لبعض، عندما ترتبط عندهم محبة المسيح بشركة الأغابى حيث وليمة المصالحة وإقامة القرابة فيما بينهم على أساس روحى ولاهوتى.

مائدة الأغابى فى التقليد الرهبانى القبطى

تحتل مائدة الأغابى مركزاً هاماً فى التقليد الرهبانى القبطى كتعبير عن رابطة المحبة التى تدعمها اللقمة المشتركة مهما كانت بسيطة حتى ولو كانت «العيش والملح». وهكذا عُرفت موائد الرهبان التى كانت تجمعهم منذ القديم باسم «موائد الأغابى» بل وصارت هذه الكلمة إصطلاحاً عاماً يتداولونه فى حياتهم اليومية عندما يأخذ أحدهم من الآخر شيئاً أو عندما يقرع على بابه إذ يقول «أغابى» أى «من أجل المحبة جئت» أو «من أجل المحبة أعطنى...». وكذا عند نياحة أى أب كانت تُقام الأغابى باسمه فى نهاية القداس كجزء من التجنيز ولا تزال حتى الآن موائد الأغابى معروفة فى كنائس العالم إذ تقام فى التذكارات الخاصة للقديسين.

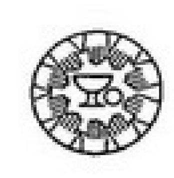
وكانت الأغابى هى الوجبة الوحيدة التى يأكلها الآباء معاً بعد الإنتهاء من القداس مباشرة. وكان الآباء يتناولونها فى بادئ الأمر داخل الكنيسة ولكن فيما بعد صار يُلحق بكل كنيسة خورس خاص للمائدة. وجدير بنا ملاحظة كيف كانت هذه الوجبة العامة محوطة بكثير من التوقير والاحترام حتى أن الآباء كانوا يعتبرونها مقدسة، لدرجة أن الأغابى كانت تُقام فى الخورس الأخير من الكنيسة كجزء أساسى من طقس الإفخارستيا أى طقس العشاء السرى، وهذه حقيقة هامة لأن هذا هو بعينه نظام العشاء الذى كان الرسل

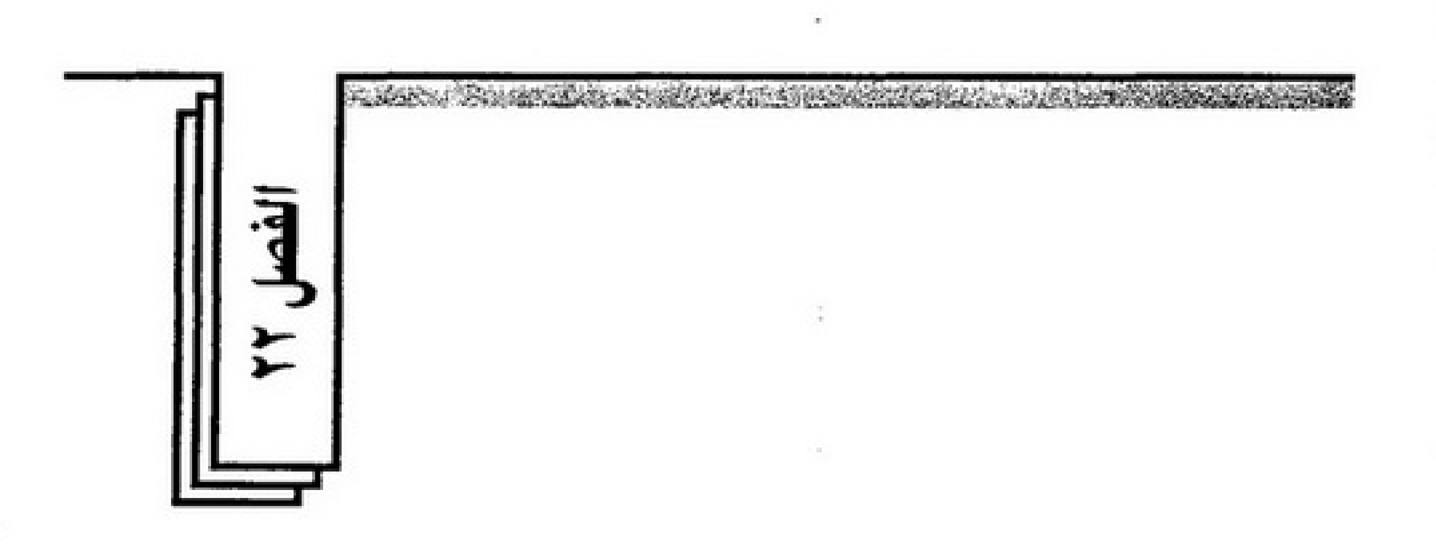
يتممونه، ومارمرقس كتب فى إنجيله: «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم» (مر١٤ :٢٢) واستمر هذا النظام معمولاً به حتى أيام بولس الرسول إذ إبتدأت الكنيسة فى تعديله بما يتناسب مع هيبة وقداسة السر الإلهى ومنعاً لإستهتار وخلاعة البعض، وكذا بما يتناسب مع إزدياد عدد المؤمنين.

ويصف بعض المؤرخين مائدة الأغابى بأنها «نصف طقسية» إذ أنها ذات هيبة ووقار كهيبة العبادة ووقارها تماماً، حتى قال أحدهم: «إننا نحترم وليمة الأغابى إحتراماً يليق بالوصايا وبروحانية الممارسات الكتابية».

كان الأب الروحى فى الدير يلتقى مع أبنائه أعضاء الجماعة الرهبانية فى شكل دائرة، تمثلاً بجلوس المسيح له المجد مع تلاميذه ليلة العشاء السرى، وكان الأب الروحى يتصدر المائدة لكى يتلو البركة فى البدء والإنتهاء، ولم تكن هناك أية فرصة للكلام بين الآكلين على الإطلاق، ولكنهم يحتفظون بنفس الهيبة والمخافة التى كانوا عليها منذ قليل فى القداس الإلهى حول مائدة الرب، وهكذا يكملون طعامهم فى طقس روحى جميل ليس إلا إمتداداً لتقدمة القربان المقدس وكأس الإفخارستيا.

وتعتبر مائدة الأغابى فى التقليد الرهبانى بالفعل تحقيقاً للوضع الرسولى الذى عرفته الكنيسة الأولى إذ كان الجميع «يتناولون الطعام بإبتهاج وبساطة قلب» (أع٢ :٤٦) وكانت تسودهم جميعاً ألفة ومودة مسيحية... وإذ كانوا يشتركون معاً فى إعدادها، كان تنمو بينهم أيضاً روح الشركة والوحدانية، ويزداد سرورهم لأنهم يتناولون من يد الله مباشرة. لقد تركوا عنهم مآدب العالم وكل مشتهياتها وإرتضوا بأن يأكلوا خبز الصدقة وقنعوا بلقمة فقيرة مشتركة لأن شعارهم كان «إن الحياة أفضل من الطعام» (مت٦ :١٥). فقد كانوا يشتهون بالأكثر أن يأكلوا من شجرة الحياة، وقد أُعطوا الوعد الصادق الأمين «تأكلون دسم الأرض» (تك٤٥ :٨) «تأكلون أمام الرب إلهنا وتفرحون» (تث١٢ :٧). لذلك صارت اللقمة فى فمهم لذيذة حتى قال واحد منهم **«طوبى لمنْ يأكل خبزاً على مائدة النساك»**.





تقديس يوم الرب

فى الكنيسة الأولى

تقديس يوم الرب

فى الكنيسة الأولى

Η Κυριακη η μερα

١) الإحتفال بيوم الرب

إن الإحتفال بيوم الرب هو أقدم الطقوس المسيحية، فقد تحول يوم الرب فى العهد الجديد من اليوم السابع الذى إستراح فيه الله من جميع أعماله إلى اليوم الأول من الأسبوع وذلك ليس على أساس وصية إلهية محددة بل على أساس حرية الإنجيل وبسبب قوة حقائق عظيمة بنيت عليها الكنيسة. ففى هذا اليوم أى الأحد قام الرب من الأموات وظهر للمجدلية ولتلميذى عمواس وللرسل المجتمعين فى نفس اليوم، وفى الأحد التالى ظهر الرب للرسل أيضاً، كما أنه فى يوم الأحد سكب الروح القدس على التلاميذ حين أسس كنيسته فى يوم الخمسين، وفيه كشف لتلميذه الحبيب أسرار الأبدية: «كنت فى الروح فى يوم الرب Κυριακη» (رؤ١ :١٠) ويُلاحظ أن كلمة **Κυριακη** ظهرت لأول مرة فى هذه الآية، ومن هنا فقد كرم آباؤنا منذ العصر الرسولى اليوم الأول باعتباره **«يوم الرب»**.

ويتضح من سفر الأعمال أن الكنيسة الأولى إعتمدت هذا اليوم رسمياً لإجتماعها الأسبوعى الرئيسى لكسر الخبز (الإفخارستيا) (أع٢٠ :٧). وفى التدبير الإنجيلى لا يُعتبر يوم الأحد فرضاً إحتفالياً، بل هو بالحرى عطية ثمينة للنعمة وميزة روحية وراحة مقدسة فى يوم الرب وسط أتعاب العالم اليومية. إنه يوم القيامة ويوم حلول الروح القدس ويوم الإنتعاش الروحى بالشركة مع الله ومع سحابة الشهود قديسى الكنيسة حيث نذوق فيه عربون السبت السمائى والأبدى.

إن السير مع الله لا يمكن إلا بطاعة وصاياه، فبهذا وحده يمكن الإحتفاظ بعلاقة مستمرة مع الله القدوس لنكون قديسين لأنه هو قدوس (لا١١ :٤٥) حيث يطالب الله شعبه بتقديس يومه ليتطابق سلوكهم مع أحكامه وتدابيره، لأن طاعة الله هى إستجابة لنعمته ورحمته التى يلزم أن يتقبلها الشعب أولاً من الله كهبة مجانية من عنده.

ومن الشرائع التى تحكم مسيرة الشعب مع الله منذ القديم كانت شرائع تقديس العبادة والأعياد المقدسة وتقديس يوم الرب الذى هو تنظيم مسيحى خالص يستند بالأساس على حقيقة قيامة المسيح من بين الأموات فى يوم الأحد.... وظهرت عادة الإجتماع فى هذا اليوم فى الأسبوع التالى للقيامة، حيث كان الرسل مجتمعين فى العلية (يو٢٠ :٢٦). وقد وردت عنه ثلاث إشارات فى أسفار العهد الجديد... وورد باسم **«أول الأسبوع»** فى موضعين (أع٢٠ :٧+ ١كو١٦ :٢)، وذُكر باسم **«يوم الرب»** أى يوم الأحد فى (رؤ١ :١٠).

وإصطلاح «يوم الرب» هو تعبير إصطلاحى من القرن الأول، ففى **كتاب تعاليم الرسل** ذُكر بصراحة باسم «يوم الأحد (كرياكى *Kyriake*)» لأن المسيح رب (كيريوس) *Kyrios* كل الأيام ... وفى **رسالة برنابا** يُذكر باسم **«اليوم الثامن»** أى اليوم التالى للسبت الذى هو اليوم السابع، ويُذكر سبب تقديسه وهو أن الرب قد قام فيه ولذلك يلزم حفظه بفرح.

وفى القرن الثانى الميلادى حدد **القديس أغناطيوس الأنطاكى** اليوم الإحتفالى الأسبوعى للمسيحيين فى يوم الرب بقوله: «الذين كانوا يعيشون حسب النظام القديم قد جاءوا إلى رجاء جديد غير مراعين للسبت بعد، بل ليوم الرب، اليوم الذى **قامت** فيه حياتنا بالمسيح بواسطة موته». فالذين قبلوا الإيمان من اليهود لم يعودوا يحفظون السبوت وإنما هم يشكّلون حياتهم وفقاً ليوم الرب الذى فيه قامت حياتنا وبنيت أيضاً بواسطته.

ويتحدد يوم قيامة الرب فى الأناجيل الأربعة بوضوح أنه «عندفجر أول الأسبوع» (مت٢٨ ، مر١٦ ، لو٢٤ ، يو٢٠). ولذلك إستمرت الكنيسة منذ ذلك الحين تجتمع يوم الأحد لكى تعيش بهجة قيامة رأسها ومخلصها، بل إن الكنيسة تعتبر يوم الأحد بمثابة بداية للأبدية التى هى يوم الرب، يوم القيامة الأبدى.

وكان يوم الرب عيداً حيث يشير القديس **أغناطيوس الشهيد** صراحة إلى بطلان السبت القديم وحلول الأحد محله، فيقول: «ليحفظ كل حبيب للمسيح يوم الرب كعيد "يوم القيامة" رأس كل أيام الاسبوع». كذلك كان **الآباء الرسوليون** يتوقعون مجئ الرب الثانى فى مجده يوم أحد... ومن هنا فقد كانت الكنيسة تحتفل بعشاء الرب فيه، بما يتضمن من إنتظار للرب «ماران آثا»، ومنذ البداية كان يوم الأحد هو يوم الأسبوع المقدس لجميع المسيحيين.

كان يوم الأحد هو اليوم الأول من الأسبوع عند اليهود، وهو يقع فى يوم الشمس فى التقويم الفلكى، لذلك سماه الغربيون *Sunday* من اللاتينية *Dies Solis* وبالألمانية *Sonntoy* كما يسمى أيضاً **باليوم الثامن**، ولعل الله كان يوحى به منذ القديم عندما قال بواسطة موسى النبى: «فى اليوم الثامن (من الحفل المقدس فى الشهر السابع) يكون لكم إعتكاف» (عد٢٩ :٣٥).

وكما تكرس يوم الأحد لذكرى قيامة المخلص وأصبح مرعياً كيوم عبادة وشكر إفخارستى وكيوم فرح بالقيامة، هكذا أيضاً صار يوم الجمعة مرعياً كيوم للتوبة مع الصلاة والصوم كذكرى لآلام المسيح وموته، وكذلك صار يوم الأربعاء مرعياً كيوم للإنكساب والتوبة والصوم كذكرى لتسليم الرب وبداية الآلام. وفى الحقيقة، كان المسيح المصلوب والحى فى الكنيسة يشغل بال المسيحيين الأولين كما عبروا عن ذلك بتكريسهم ليوم الأحد من كل أسبوع، وهكذا فإنهم قد حوّلوا بطريقة طبيعية العيدين العظيمين فى العهد القديم: الفصح والبندكستى إلى عيدى القيامة والعنصرة للمسيحيين.

ويذكر **الشهيد يوستين المدافع** أن يوم الرب هو «**اليوم الأول** من الأسبوع»، ويربطه بخلق العالم، على إعتبار أن الله فى أول أيام الأسبوع خلق باكورة الخليقة، وفيه أيضاً أعطى العالم باكورة ثمار القيامة المقدسة... وهو اليوم الثامن لأن أيام الأسبوع السبعة ترمز إلى زمان هذا العالم بكل مشقاته، واليوم الثامن ـ يوم الراحة المقدس ـ يرمز للراحة الأبدية. وقبل موت المسيح وقيامته لم يكن يوم الأحد يسمى بيوم الرب بل اليوم الأول من الأسبوع.

ويذكر **القديس يوستين** سبب إختيار اليوم الأول من الأسبوع للعبادة ذلك أن الله فى اليوم الأول للخليقة أزال الظلمة من الكون بخلقته للنور، وكذلك لأن الرب يسوع ـ النور

الحقيقى ـ قد قام من الموت فى هذا اليوم ثم ظهر فيه لتلاميذه. ففى وصف يوستين لنظام العبادة يشرح أنه فى يوم الأحد صنع الله العالم وقام بنفسه من الأموات وظهر لتلاميذه بعد القيامة.

كذلك اعتبر **العلامة ترتليان** أنه من الخطأ أن نصوم يوم الأحد أو أن نركع فى الصلاة (الميطانيات) لأنه يوم فرح، بل أن الآباء ومجمع نيقية (قانون رقم ٢٠) جعلوا هذا المبدأ يشمل أيضاً أيام الخماسين المقدسة باعتبارها إمتداد ليوم الرب وقيامته. كما اعتبر الآباء أن أى نوع من الملاهى ليس ملائماً لحياة جندى المسيح الحامل لصليبه، وبصفة خاصة فى يوم الرب الذى ينبغى أن نفرح فيه فرحاً روحانياً بتكريسه حتى قبل شروق الشمس للتسبيح وللصلاة والشركة فى قوة قيامة الرب والتمتع بخلاصه بالإشتراك فى جسده ودمه الأقدسين.

وأول ما وصل إلينا عن إجتماع الأحد فى تلك الفترة المبكرة كتبه **يوستين الشهيد** فى دفاعه الأول حوالى سنة ١٤٠م إذ يقول: «وفى اليوم المسمى الأحد يجتمع كل من فى المدن والقرى معاً فى مكان واحد... والأحد هو اليوم الذى نعقد فيه إجتماعنا المعتاد لأنه هو اليوم الأول الذى أجرى الله فيه تغييراً فى الظلمة والمادة وخلق العالم، وفى نفس اليوم قام يسوع المسيح مخلصنا من بين الأموات». فالأحد المسيحى هو إذاً الرباط الذى يصل الخليقة بالفداء والفردوس المفقود بالفردوس المسترد، وهو عربون وإعداد لراحة القديسين الأبدية فى السماء!

وكانت الكنيسة الأولى تنظر إلى يوم الأحد من ناحيته المسيحية كنظام جديد وليس كإستمرار للسبت اليهودى. فقد حافظت عليه كيوم لتذكار القيامة المجيدة أو للخلقة الروحانية الجديدة، وعلى ذلك فقد اعتبرته يوم فرح وشكر مقدسين يقف كمقابل شامخ لأيام الصوم والمسكنة، كما أنه هو المقابل العظيم لجمعة الصليب (الجمعة العظيمة).

ويشير بلينى الأصغر فى رسالته إلى الإمبراطور تراجان عام ١١٢م إلى إجتماع المسيحيين فى يوم معين من الأسبوع قبيل الفجر ليرنموا ترنيمة للمسيح. كذلك يقول المؤرخ فيليب كارنجتون: «جميع المسيحيين يحفظون الأحد... كل مسيحى يحفظ الأحد. كل واحد يعرف ما هو الأحد وليس ما يدعو لشرحه. ولم يحدث أن صار الأحد موضوعاً للنقاش. إنه عادة جامعة بدأت فى العصر الرسولى وكان جزءاً من التقليد الإنجيلى».

٢) يوم الرب والسبت فى العبادة الليتورچية

إن فكرة ليتورچية الوقت لها أساس قوى من الصحة، وعلى هذه الفكرة تأسست بنية مفهوم **قانون الصلاة** المسيحى الأول، ونجد تدعيماً لذلك فى الرابطة الواضحة بين **الإفخارستيا** والزمن منذ الأيام الأولى عينها للكنيسة فى الإحتفال المسيحى بيوم الرب، لأنه يوم قيامة يسوع من الأموات وإستعلانه الحياة الجديدة، وأصبح ذلك اليوم فى الكنيسة يوم **الإفخارستيا**.

ولكى نفهم مكانة يوم الرب فى حياة الكنيسة الليتورچية لابد أن نوضح علاقته بيوم السبت العبرى. إن كل ما ذُكر فى العهد القديم من وصايا وتعريفات بخصوص اليوم السابع قد نقل تدريجياً إلى يوم الأحد، وتحول اليوم السابع إلى نموذج أو رمز ليوم الراحة المسيحى.

هذا التغيير فى ترتيب الأسبوع أصبح واضحاً بصورة جلية عندما أعطى الإمبراطور قسطنطين ليوم الشمس *Sun Day* مكانة رسمية خاصة وجعله يوم راحة إجبارى، لكن حتى قبل نهاية القرن الرابع كان لا تزال هناك ذكرى حية فى عقل الكنيسة عن العلاقة الأصلية بين يوم الرب وبين يوم السبت وأسبوع العهد القديم كله.

إن يوم الرب بالنسبة للكنيسة الأولى لم يكن بديلاً عن يوم السبت، أى لم يكن البديل المسيحى ليوم السبت العبرى، بل على العكس من ذلك، فإن أهمية وطبيعة هذا اليوم الجديد تم تعريفها وتحديدها بالإشارة إلى علاقته بيوم السبت وإلى مفهوم الزمن المرتبط به.

٣) تقنين يوم الرب يوماً مقدساً للراحة

يصور لنا **العلامة فيلو السكندرى** العبور من الراحة الجسدية إلى الراحة الروحية فى قوله: «حيث أننا خُلقنا من جسد وروح، فقد أعطى موسى للجسد الأنشطة الملائمة له وللروح ما يناسبها، واعتنى بأن يؤسس الواحد على الآخر، حتى أنه عندما يعمل الجسد يمكن للروح أن تستريح، وعندما يستريح الجسد بدوره فإن الروح تعمل!! فتكون هذه أفضل طريقة لحياة الإنسان: الحياة التأملية والحياة العملية اللتان تتعاقبان على التوالى. فالحياة العملية لها ستة أيام فى الأسبوع لأجل الإحتياجات الجسدية، والحياة التأملية لها

اليوم السابع لتكون فيه حرة لكى تدرس ولأجل تكميل حياة الروح».

وسجل لنا المؤرخ **يوسابيوس القيصرى** نصاً يوضح مفهوم آباء الكنيسة بخصوص التحول من السبت الرمزى إلى السبت الحقيقى أى الأحد Κυριακη فيقول: «من الضرورى أن نختبر ما يعنيه السبت، فالكتاب المقدس يصوره بأنه راحة لله، ويقدمه حقاً بعد خلقة العالم المحسوس. فماذاً يمكن أن يكون راحة الله إلا سكناه فى الحقائق المدركة بالعقل والتى هى فوق العالم؟ لقد قيل حقاً أن الله يعمل عندما ينظر إلى العالم المحسوس، ويُعطى ذاته لأعمال عنايته الإلهية بالكون، وبهذا المفهوم ندرك معنى كلمة الرب: "أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو٥: ١٧)، ولكنه عندما يتحول إلى الحقائق المدركة بالعقل والتى هى فوق العالم، فحينئذ نعتبره مستريحاً، وهكذا يحقق سبته. وبنفس الطريقة، عندما يتحول رجال الله عن الأعمال التى ترهق النفس (وهى أعمال الجسد التى تخص إحتياجاته)، ويتجهون بكليتهم نحو الله فى تسليم وتأمل فى الأمور الإلهية... فهم حينئذ يراعون السبوت المحبوبة عند الله وراحة الرب الإله. وهذه هى السبوت التى قيل عنها: "إذا بقيت راحة (سبت) لشعب الله" (عب٤: ٩). حقاً إن السبت الكامل والراحة الكاملة والمبهجة توجد فى ملكوت الله، فهى أسمى من عمل الأيام الستة وخارجة عن كل شئ محسوس، هناك حيث الحقائق المُدركة بالعقل وغير الجسدانية، إذ عندما نصير أحراراً من الجسديات وعبودية الجسد، نحتفل مع الله وبجواره بالسبت (الحقيقى) ونستريح».

وهذا الشرح عن راحة اليوم السابع يتطابق مع رأى فيلو السكندرى، فمنه جاءت فكرة أن راحة الله هى التحول إلى الحقائق المدركة بالعقل والتى هى فوق العالم، كما جاء أيضاً مفهوم أن الراحة هى نوع من التأمل... وهذا التأمل الذى يمارس أثناء الحياة الحاضرة ما هو إلا عمل مسبق لما سيمارس فى السبت الحقيقى الذى هو الحياة بعد الموت، عندما تكون النفس حرة من أعمال الجسد التى كانت تمثلها ستة أيام الخليقة، وستكون مستغرقة بكليتها فى أمور إلهية لا تُدرك إلا بالعقل!

ويقدم لنا **يوسابيوس** أيضاً نظرته عن السبت اليهودى قائلاً: «إنه صورة Εικων لذلك السبت السمائى ولتلك الراحة الكاملة والمباركة التى أظهرها رجال الله لنا هنا على الأرض. فهم يمتنعون عن أمور العالم ويتحولون بجملتهم نحو التأمل فى الإلهيات، مخصصين أنفسهم نهاراً وليلاً للتأمل فى الأسفار المقدسة. حينئذ يعبرون إلى الراحة ويحفظون سبوتاً

مقدسة وراحة مقبولة عند الله. وهذا هو السبب أن ناموس موسى ـ الذى ينطوى على الظلال والرموز ـ حدد يوماً معيناً للشعب لكى يتركوا فيه على الأقل عملهم العادى ويتفرغون **للتأمل فى الشريعة الإلهية**».

ورغم **أن الإنسان الكامل** تكون كل أيامه للرب كما يقول **العلامة أوريجين**: «الإنسان الكامل المنشغل بصفة دائمة بكلام وأعمال وأفكار كلمة الله، يعيش على الدوام فى أيام إلهية، فكل أيامه تكون للرب»، إلا أنه يجب أن يكون هناك يوم محدد للناس يراعون فيه واجب العبادة الإلهية. ويكمل يوسابيوس قائلاً: «لأن اليهود لم يكونوا أمناء للعهد القديم، لذا حوّل الكلمة الإلهى الإحتفال بالسبت إلى إشراق النور، وأعطانا ـ كصورة للراحة الحقيقية ـ **يوم المخلص، يوم الرب** Κυριακη الذى هو اليوم الأول للنور، الذى فيه بعد أن أكمل المخلص جميع الأعمال بين البشر، قهر الموت وفتح أبواب السماء، متخطياً خلقة الأيام الستة، ومستلماً السبت المبارك والراحة السعيدة عندما قال له أبوه القدوس: اجلس عن يمينى (مز١١٠:١)».

ويرى **القديس كلمنضس السكندرى** (٢٠٠م) أن الإحتفال بيوم الرب يكون بالتخلى عن النزعات الشريرة وإقتناء المعرفة، معتبراً أن الغنوسى الحقيقى (أى العارف بالله) يحفظ يوم الرب عندما يتخلى عن الطبع الشرير ويتخذ طباع العارف مجدداً قيامة الرب فى ذاته.

أما **القديس أثناسيوس الرسولى** فقد كتب «نحن لا نحفظ يوم السبت، وإنما نحفظ يوم الرب تذكاراً لبداية الخليقة الثانية الجديدة». وفى زمن متأخر بدأ بعض الكُتاب يربطون بين يوم الرب وحلول الروح القدس فى يوم الخمسين الذى كان أيضاً فى يوم الأحد. لذلك يوم الأحد هو تذكار القيامة وتذكار الخليقة الروحانية الجديدة بواسطة الروح القدس. فيؤكد **القديس ساويرس بن المقفع** أسقف الأشمونين (القرن ١٠م): «إن بدء كل الأيام هو يوم الأحد الذى هو يوم الرب. وهذا هو اسمه عند جميع بنى المعمودية لأن الجميع يسمونه "كيرياكى" وهى لفظة يونانية تفسيرها "يوم الرب" الذى قام فيه».

كذلك يذكر ابن المقفع إن ميلاد المسيح كان يوم الأحد، وأن القيامة العامة للأجساد ستكون فى يوم أحد أى فى يوم الرب، ويعدد **القديس ساويرس بن المقفع** أسباب تقديس يوم الرب:

١) أن الرب فى يوم الأحد خلق السماء العليا.
٢) أنه وُلد فى يوم الأحد.
٣) أنه أُختتن وسمى يسوع فى يوم الأحد، اليوم الثامن من ولادته.
٤) فى يوم الأحد أظهر أنه المسيح ملك الدهور المنتظر فى «أحد الشعانين».
٥) فى يوم الأحد قام من الأموات.
٦) فى يوم الأحد أى اليوم الثامن من قيامته ظهر لتلاميذه.
٧) فى يوم الأحد تمام الخمسين أرسل الروح القدس فى عيد العنصرة.

لذلك كانت تعاليم الرسل تقرر بأن يوم الأحد يوم العبادة، واعتبرته **الدسقولية** يوم فرح روحانى يتقرب فيه المؤمنون بعضهم لبعض فى الكنيسة وتصعد فيه القرابين المقدسة، ويجب حفظه إلزامياً، وأن منْ يتكاسل عن الحضور إلى الكنيسة ثلاثة آحاد يُقطع من الشركة لفترة قصيرة حتى يرتدع، وتوصى **قوانين البابا** أثناسيوس بأن لا يتكاسل أحد عن القداسات فى يوم الأحد وتوصى بالعبادة والصدقة فيه.

هذا وقد كتب **القديس ميليتو** أسقف ساردس مقالاً عن «يوم الرب» وأوصى **العلامة ترتليان** بحفظ طقوس يوم الأحد، ويروى چيروم كيف أن الرهبان المصريين الذين يعيشون حياة مشتركة كانوا «يقضون كل يوم أحد فى الصلاة والقراءة فى الكتب».

وأُعتبر يوم الأحد **يوم الراحة** بحسب مرسوم قسطنطين عام ٣٢١م، لا يجوز فيه العمل أو الشغل إذ يعد يوم عيد أسبوعى يتم فيه التفرغ للعبادة وخدمة الله. ويقول **القديس البابا بطرس السكندرى** (٣١١م): «ملعون منْ يؤدى أى عمل فى يوم الأحد المقدس فيما عدا الأعمال التى تفيد النفس...».

وصار يوم الأحد هو اليوم الأول والرئيسى بين الكل بإعتباره يوم ربنا الفادى الذى يكون فيه إنعاش الروح بالتهذيب فى الحق الإلهى والخروج للكنائس. لذا يقول **القديس أغسطينوس**: «إن يوم الرب قد أُعلن لا لليهود وإنما للمسيحيين بقيامة الرب...». ويقول **القديس أمبروسيوس**: «إن اليوم الأول قد ورث الكرامة التى كانت لليوم السابع». فالله منذ البداية يعلمنا أن نفرز يوماً كاملاً فى الأسبوع نخصصه للأنشطة الروحية ولأعمال البر.

وحرص عموم الآباء على تقديس يوم الرب ووصفوه بأنه اليوم السمائى الدائم والباقى،

فمنْ أهان هذا اليوم يهينه الرب فى الأرض والسماء (بحسب قول القديس ساويرس بن المقفع) ومن مجّد الرب فى يومه مجّده الرب فى الأرض والسماء.

٤) يوم الرب والإعتكاف

يرى البعض أن اليوم الثامن يُقرأ *Octave* (أوكتاف) ويشير إلى الدينونة الأخيرة التى تعقب أيام التعب الستة لهذه الحياة واليوم السابع لراحة النفوس ثم يأتى اليوم الثامن الذى هو نهاية العالم الحاضر. ويرى بعض الكتاب اليهود أن اليوم الثامن هو يوم الختان بينما يشير بعض قدامى المسيحيين إليه بكونه يوم الرب، اليوم الذى يعقب السبت اليهودى. ويقود هذا الفكر إلى عرض لاهوتى حول الخليقة الجديدة المسيحية فى المسيح القائم من بين الأموات. كما يشير أيضاً إلى مملكة المسيا السماوئة حيث تبرأ كل الأسقام الروحية عندما يحل المسيا الوُثق التى تربطنا بهذا العالم.

ويقول **أنسيمس الأورشليمى** أن رقم ثمانية يشير إلى قيامة السيد المسيح، لأنه قام فى اليوم الأول للأسبوع التالى، أى فى اليوم الثامن بالنسبة للأسبوع الأول (الذى تم خلاله الصلب). لهذا ينبغى أن تمارس توبتنا من خلال إيماننا بالمسيح القائم من الأموات الذى يهبنا الرجاء فى الحياة الجديدة.

٥) عبادة الرب فى يوم الرب

يشرح **يوسابيوس القيصرى** عبادة يوم الأحد بقوله:

«فى هذا اليوم، يوم النور، اليوم الأول، ويوم الشمس الحقيقية (شمس البر)، نجتمع معاً بعد إنتهاء الأيام الستة، وإذ يحتفى بالسبوت المقدسة والروحانية، نتمم ذلك السبت الذى وضع على الكهنة أن يحفظوه (بخدمة طقوسه) بحسب الشريعة الروحانية. إننا حقاً نقدم قرابين روحية ونرفع بخوراً زكياً حسب الآية: "لتستقم صلاتى كالبخور قدامك" (١٤١ :٢)، كما أننا نرفع قرابين الخبزات (القرابين) المطلوب تقديمها... ونضع مصابيح الفهم الروحى فى حضرة الله... فكل شئ كان مفروضاً بخصوص السبت تحول إلى يوم الرب بإعتباره أكثر إستحقاقاً من السبت اليهودى... إذ هو اليوم الذى أقام فيه شمس البر نفوسنا... لقد إبهجتنى بأعمالك يا رب، وأنا أفرح بعمل يديك، وعمل الله حقاً هو اليوم

الذى قيل عنه: "هذا هو اليوم الذى صنعه الرب فلنبتهج ونفرح فيه" (مز١١٨ :٢٤) وهو يقصد يوم الرب الذى للقيامة».

فيوم الأحد هو تذكار للرب وهو سيد Κυριοσ جميع الأيام، إذ فى هذا اليوم أُعطى العالم أبكار القيامة وبدء عمل كل خير فهو اليوم الأول للخليقة الجديدة. فبداية الخليقة الثانية ما هى إلا اليوم الذى قام فيه الرب ثانية وجعلنا خليقة جديدة ليس لها نهاية، لأن المسيح هو شمس الخليقة الثانية وهو يومنا المقدس. وهذا هو رأى الآباء يوستين وجيروم والبابا أثناسيوس الرسولى.

٦) اليوم الثامن يوم الدهر الآتى الذى بلا نهاية

يقول **القديس باسيليوس الكبير**: «"يوم الرب عظيم ومخوف جداً" (يوئيل٢ :١١) كما يقول يوئيل النبى، فالكتاب المقدس يعرّف هذا اليوم بأنه بدون مساء، لا تالى له، بودون نهاية. والمرتل يسميه أيضاً "اليوم الثامن" لأنه خارج عن زمن الأيام السبعة... يوم الرب المقدس الذى تشرف بقيامة الرب».

فيوم الرب هو يوم الدهر الآتى، اليوم الثامن الخارج من نطاق الأسبوع الزمنى لدهرنا الحاضر وليس له يوم لاحق. وبذلك فإن يوم الأحد يقودنا إلى الدهر السمائى الأبدى، إلى يوم النور والنهار، ليكون بداية لدهر لا نهائى كله تسبيح وتهليل. إنه يوم الخلاص والشكر الأبديين فى الدهر الآتى الذى أعده لنا الرب حيث الأماكن السعيدة الثابتة التى أُعدت لنا فى المساكن العلوية.

والقديس اغريغوريوس النزينزى يعتبر أن الأحد هو يوم الخلاص، يوم العيد السنوى للخلاص، معتبراً أنه الحد الفاصل بين الدفن والقيامة والمختص بالخلقة الثانية، لذا فهو أكثر سمواً وجلالاً من أى يوم جليل وأروع من أى يوم رائع إذ يخص الحياة العلوية. إذاً يوم الأحد هو تذكار القيامة وصورة لحياة الدهر الآتى ورمز للراحة الحقيقية فى المسيح القائم. ويلفت الآباء نظرنا إلى فرح يوم الرب الأسبوعى كيوم أبدى للختان الحقيقى وللتطهير ولختانة القلب بالروح (رو٢ :٢٩) بحسب تعبير **القديس اغريغوريوس النيصى** الذى يرى أن اليوم الثامن الأبدى سيبقى على الدوام فريداً من نوعه، ولن تعترضه ظلمة ليل، لأن شمس أخرى تصنع هذا اليوم، تلك الشمس التى تشع النور الحقيقى والتى أشرقت علينا

مرة، وهى لا تعود تختفى بالغروب كل يوم، بل تحتضن الأشياء فى قوتها المنيرة، مشرقة لكل الذين يحفظونها ويستحقونها بذلك النور الأبدى الذى بلا تغيير أو تبديل... وذكر اليوم الثامن يحث الإنسان على التوبة لأن الميراث مُعد للأبرار فى اليوم الثامن (الأبدى)، وهناك أيضاً دينونة الله حيث الحياة الجديدة العتيدة التى نحفظها بغيرتنا الحية على الدوام.

٧) يوم الرب الموعود به فى الأنبياء والمزامير

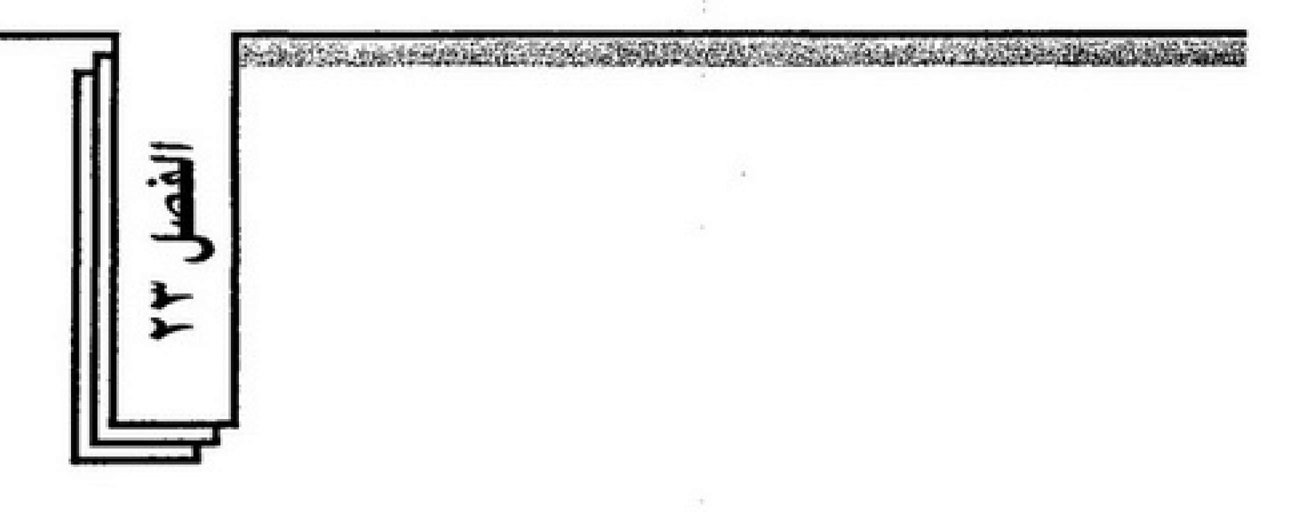
يقول **القديس أغسطينوس** أسقف هيبو (٣٥٤-٤٣٠م) عن اليوم الذى "صنعه الرب لكى نبتهج ونفرح فيه" (مز١١٧: ٢٤): «لقد أكدت لنا الأسفار النبوية على أن هذا اليوم فريد من نوعه، وهو لا يُرى بعينى الجسد، ولا هو كاليوم العادى له شروق وغروب، إنما هو يوم له شروق ولكن لن تغرب شمسه أبداً!».

وفى نفس هذا المزمور (الذى يتكلم عن هذا اليوم) يقول: "الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية. هذا هو عمل الرب وهو حجر عجيب فى أعيننا" (مز١١٧: ٢٣) ومن هنا يمكننا أن نفهم أن مصدر إشراق هذا اليوم هو «حجر الزاوية» (أى أنه منذ أن صار هذا الحجر رأساً للزاوية أشرق هذا اليوم).

إنه اليوم الزاوية الذى يربط بين حائطى كنيسة اليهود وكنيسة الأمم، وكلا الكنيستين تقابلتا فى المسيح فوجدتا فيه سلامهما ووحدتهما، الأمر الذى تحقق فى «اليوم» الذى صنعه الرب.

كنا قبلاً ظلمة، وأما فى هذا اليوم فقد صرنا نوراً فى الرب (أف٥: ٨)، فالنهار لم يعمل نفسه، ولكن الرب هو الذى أبدعه عندما يشرق بنوره الإلهى فى قلوبنا ـ أى عندما يصير هو فينا ونحن فيه. فالكلمة تألم عندما كان جسده معلقاً على الصليب. الكلمة تألم عندما طُعن جسده بالحربة. الكلمة تألم عندما وُضع جسده فى القبر. الكلمة أقام جسده وأراه جلياً لتلاميذه بل وسمح لهم أن تلمسه أيديهم، وعندما لمسوه هتفوا: «ربى وإلهى». هذا هو اليوم الذى صنعه الرب.





قدسية بيت الرب

قدسية بيت الرب

١) أوصاف الكنيسة

تُوصف الكنيسة بأنها **مدينة الله**: «أعمال مجيدة قد قيلت عنك يا مدينة الله» (مز٨٧:٣) «مدينة إلهنا» (مز٤٨:١) «مدينة الملك العظيم» (مز٤٨:٢) «مدينة رب الجنود» (٤٨:٨) «المدينة المقدسة» (أش٥٢:١) «مدينة البر» (أش١:٢٦) «مدينة الحق» (زك٨:٣)، لذا سُر الرب أن يسكن فيها حيث تُقدم الذبائح والقرابين وتُوفى النذور على مذابحها المقدسة.

ووصف الكنيسة بأنها «**بيت الله**» مأخوذ من قول الرب نفسه: «بيتى بيت صلاة يدعى» (مت٢١:١٣)، فسر سكنى الله فى بيته الخصوصى أى بيعته المقدسة هو السر الذى تنبعث منه كل الأسرار وهو سر وجود الكنيسة وتفسير طبيعتها وعملها.

فسكنى الله فى بيته جعل لبيته قداسة ومخافة بل ورعدة حيث يكون «السيد جالساً على كرسى عال ومرتفع، وإذياله تملأ الهيكل، والسيرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، بإثنين يغطى وجهه وبإثنين يغطى رجليه وبإثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض، فإهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وإمتلأ البيت دخاناً» (أش٦:١-٤).

وكنيسة العهد الجديد تشير إلى أورشليم السمائية المدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله، وهى كنيسة المسيح المبنية على أساس الرسل والأنبياء وهو نفسه حجر الزاوية فيها، لذا ستبقى أبوابها مفتوحة دائماً لا تُغلق، لأنها مواضع العلى المملوءة من مجده الأقدس، وهو فى وسطها فلن تتزعزع، يمنحها الخلاص العجيب وتستنير هى بنوره لينعكس نورها على جميع الأمم، فتتقدس الزمان والمكان وتقدس العالم بجملته.

إن جدران الكنيسة كجدران أورشليم ـ عندما نقول «لتُبنى أسوار أورشليم» (مز٥٠) ـ وهى إجتماعاتها التى كل منْ يدخلها بإيمان نقى يصبح مواطناً وساكناً فى قلب تلك

المدينة الحرة الفوقانية النازلة من السماء. فهى مؤسسة بالروح القدس وهى جسد المسيح الذى هو رأسها، وحينما تجتمع معاً تلتحم الرأس (المسيح) بالأعضاء (المؤمنين). وهى تجاهد وسط العالم بعد سكنى الروح فيها لتجعلنا جيشاً عظيماً لكن أسلحته ليست جسدية بل روحية ضد مملكة أبليس. وهى بأسقفها ورتبها وطغماتها جماعة من التائبين، جسم يموت ويحى كل يوم، ينسى ما هو وراء ويمتد إلى ما هو قدام، يتغير عن شكله ويتجدد ذهنه كجماعة روحية مصلية باللسان، متحابة بالفكر، مجتمعة على اسم المسيح وفى حضرته، مستضيئة كلها بنور الروح القدس، مواظبة على وسائط النعمة إذ لا خلاص لأحد خارجها.

لذا الكنيسة هى أيضاً سر **إجتماع المؤمنين** «حين تجتمعون ككنيسة» (١كو١١:١٨)، لأنها جماعة هدفها إعلان الكنيسة وتحقيقها، وهى تعبر بتركيب صلواتها الحوارية عن المشاركة والجموعية فى خدمة العبادة الليتورجية، وكل فحوى هذه العبادة إنما تدور حول تقديمنا المجد والشكر والتسبيح والصلاة والطلبة والتوسل، وجميعها تصب فى إلتماسنا الإتحاد فى شركة الروح القدس.

لذلك تخضع الكنيسة للثالوث القدوس كما يخضع البيت لساكنه والهيكل لله والمدينة لبانيها، فالكنيسة المقدسة الجامعة فى السماء وعلى الأرض هى هيكل الله الثالوث القدوس، ونحن نحب الله كأب ونحب الكنيسة كأم، فلا أحد يحتقر الواحد ويستحق المكافأة من الآخر. فليست الكنيسة جوهراً مستقلاً أو منعزلاً عن الله إنما هى حقيقة المسيح فينا ونحن فى المسيح وهى المدينة المقدسة التى تتقدس بالإمتثال به.

وفى الكنيسة نتحد بالله ونرتفع بأجنحة الروح لندخل عالم الروح ونعيش فى السموات ونحن بعد على الأرض، وعندئذ ندخل فى شركة مع السماوى لنقتدى بالطبع الإلهى.

فبينما السماء عالية بما لا يُقاس ولا يمكن أن نبلغها، ها هو الله بنفسه يأتى ويسكن فى الكنيسة ويصير معنا وقريباً منا للغاية فتوسم قلوبنا باسمه كما الكنيسة. وإن كان الله قد بنى الإنسان فلكى يبنى الإنسان له بيوتاً. لقد شيد لنا العالم بأسره أما نحن فنبنى له بالكاد بيتاً... إنه لمن المبهر أن يتسنى للإنسان المحدود أن يبنى مسكناً لمنْ يملأ بحضوره كل مكان... وليس من هدف للحياة الروحية سوى أن يتحول الإنسان إلى كنيسة وهيكل للروح القدس.

وحيث أن الكنيسة لا تقوم إلا على المسيح، مسيح العالم كله، لذا فهى تحيا فى ديمومة لا يحدها زمن، فهى لا تتوقف عن النمو كغصن يطلع من الكرمة الأبدية التى هى المسيح ويمتد عبر العالم كله وعلى مدى الأجيال، غصن حى على الدوام يعطى ورقاً وثمراً وأزهاراً ولا نهاية لنموه.

٢) إرتباط العبادة ببيت الرب

عندما نستند إلى صلاة الكنيسة وتقليدها الليتورجى ندرك المعنى الحقيقى لبيت الرب ويتشكل الوجدان الكنسى الخاص بتقوى الوجود الحى فى بيت الرب، إذ لا يمكن الفصل بين قانون الإيمان وقانون العبادة، فهما ينصهران معاً فى بوتقة واحدة.

ومن الكلمات والتعابير والطقوس الليتورجية نعى طبيعة بيت الرب وقدسيته، عندما يلتحم الأبدى بالزمنى وغير المحدود بالمحدود، وعندما يحل المسيح فى وسط شعبه «هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا»، فيسكن بينهم ويقبل دعاءهم ويسمع صلواتهم.

الأمر الذى يُلزم كل مؤمن أن يشارك فى الإجتماع والإصغاء للكلمة والعبادة بمخافة والتقدم للأسرار بمحبة وتقوى، لأن العبادة الكنسية هى مكان إتحاد السماء والأرض والخليقة كلها بالمسيح، فهذا الإتحاد هو جوهر وجود الكنيسة وغايتها النهائية.

وحتى طبوغرافية هندسة الكنيسة وفن الأيقونات إنما تعبر أساساً عن الطابع المتبادل والبنية الحوارية اللذين ينظمان ترتيب خدمة العبادة ويشهدان على الشركة بين ما هو إلهى وما هو إنسانى، بين ما هو أرضى وبين ما هو سماوى. وهى ستبقى تصويراً لبيت الرب على أنه السماء على الأرض وأن ملكوت الله قد اقترب منا.

فالإيقونات تشاركنا صلواتنا لتبدو الكنيسة برمتها وبكل طغماتها من:
١) ملائكة ٢) وأنبياء ٣) ورسل ٤) وشهداء
٥) ومعترفين ٦) ونساك ٧) وقديسين
صاعدة إلى السماء، إلى حيث يرفعها السيد الرب نحو مائدته وملكوته. وعندئذ نرى أن السماء والأرض هما كنيسة واحدة لمسيح واحد.

والكنيسة كلها مُدشنة أى مُميزنة ومختومة برمتها كمكان للحضرة الإلهية، والمسيح هو أسقفها غير المنظور، والمؤمنون هم مختاريه، والملائكة والشهداء والقديسون حاضرون فيها بأيقوناتهم ورفاتهم. والكنيسة (كبناء) تمثل السماء، فعندما ندخلها نكون كأننا داخلون إلى السماء، شاهدين ليسوع المسيح ربنا الذى فتح لنا البيت السمائى.

إن أبواب الكنيسة تُعتبر بمثابة أبواب السماء على الأرض والمكان الذى يأتى منه السيد و«الأبواب مغلّقة» إلى الكنيسة المجتمعة حوله، فهذا الهيكل المرئى إنما هو تعبير عن الهيكل غير المرئى الذى لم تره عين ولم تصنعه يد إنسان.

فعندما أقول أننى ذاهب إلى الكنيسة فهذا يعنى أننى ذاهب إلى جماعة المؤمنين لأؤلف معهم الكنيسة ولأصير مَنْ صرته يوم معموديتى: عضواً فى جسد المسيح بكل ما لهذه الكلمة من معنى. أذهب لأمارس عضويتى ولأشهد أمام الله والعالم لسر الملكوت.

والمسيح حاضر فى أعضاء كنيسته لأنهم هم الكنيسة. وقداسة الكنيسة ليست نابعة منا بل هى قداسة المسيح الذى أحب الكنيسة وسلّم نفسه لأجلها لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها (أف٥ :٢٥).

وغاية الإجتماع فى الكنيسة هو تقديس العالم وإعلان ملكوت الله الآتى بمجد خلال الحضور الحقيقى والفعلى للمسيح، فالأسرار لم تؤسس ولا تُعمل خارج الكنيسة أو بشكل منفصل عنها، بل قد أُعطيت للكنيسة وهى تعمل بها وفيها. والكنيسة وحدها هى التى لها حق القيام بذلك، والأسرار إنما أُسست من أجل الكنيسة، أسسها المسيح نفسه لتكون أنهار إنسكاب النعمة، وما من مثيل للأسرار إلا فى الكنيسة وبالكنيسة مستودع النعمة. ففى الكنيسة تكون الخبرة السرائرية حقيقية ويكون التقليد الليتورجى حياً يرتقى بنا من المنظور إلى اللامنظور، ومن الأرضى إلى السمائى، ومن المادى إلى الروحى. ومن هنا نفهم طبيعة الكنيسة، فما من أمر يحدث فيها بدون الروح القدس والشركة معه. وبفضل حلوله تستعلن الكنيسة على أنها تحول النهاية إلى بداية، والحياة القديمة إلى جديدة.

فالكنيسة تُبنى وتُعلن وتُكمل بالأسرار، وهى فى صعودها إلى الملكوت تجمع بعدين معاً أى «السماء» و«الأرض» بإعلان الواحدة فى الأخرى، وبأن تتحول الواحدة إلى الأخرى لتكون السماء والأرض مملوءتان من مجد ربنا الأقدس.

وإجتماعنا فى الكنيسة هو شركة وإتحاد مع الثالوث القدوس ومع القديسين ومع جماعة المؤمنين، نجتمع فيها لنشهد أن المسيح هو السيد والملك، ولنشهد أن ملكوتاً لا يتزعزع ينتظرنا وأنه قد بدأ منذ الآن. وفى صلاة الكنيسة ننفصل عن العالم لنرفعه وندخله الملكوت، فخروجنا من العالم يتم باسم العالم ومن أجل خلاص العالم.

نخرج من العالم لنلج مكاناً آخر حيث السماء على الأرض، ونصعد كقطيع صغير سُر الآب أن يعطيه الملكوت لنبلغ النور والفرح الإلهى ولنبشر بموت وقيامة الرب المقدسة ونعترف بصعوده إلى السموات، مسبحين الرب ومباركين شاكرين متضرعين لإلهنا.

وبهذا تكون الكنيسة قد تُركت فى هذا العالم كى تخمر العجين كله (١كو٥ :٦) حتى يصير البعيد والقريب شريكاً لله فى ملكوته، معترفين بإنتماء الكنيسة لله «شعبك وبيعتك يصرخون إليك» «يا رب خلص شعبك بارك ميراثك». وبذلك تكون عبادتنا صعوداً وإرتقاءً لتستتر حياتنا فى المسيح ربنا، والكنيسة هى الوسيلة التى تمكننا من تحقيق ذلك.

فها نحن فى الكنيسة نتقدس فى حضرة القدوس، مغمورين بنوره متمتعين وبغفران إستحقاقات دمه. نخرج من العالم لنصعد إلى السماء ونرتقى إلى عرش الملك، لأن المسيح صعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه ليرتقى بنا إلى العلو الذى حملنا إليه.

إن مجمل العبادة والعناصر الليتورجية والطقوس من حيث شكل الكنيسة ومبناها ومعناها وترتيبها وألحانها وقداساتها وبنيتها إنما هو وليد خبرة حية سمائية وشركة للسلام والفرح فى الروح القدس، تلك الخبرة التى تكشف لنا رسالة الكنيسة وهى المفتاح الحقيقى لفهم قداساتها وحياتها وخبرتها الفردوسية.

٣) آداب الصلاة وحضور الكنيسة

بعد أن تناولنا طبيعة الكنيسة وأوصافها بحد ذاتها وفهم موقعها وخدمتها فى هذا العالم ومكانة بيت الله، نتحدث الآن عن آداب الصلاة وقدسية السلوك داخل الكنيسة باعتبار أن الله ساكن فى بيته:

١) التبكير فى الذهاب لبيت الله وملازمة البيعة.
٢) تقبيل أبواب الكنيسة فى الدخول إليها والإنصراف منها.

٣) السجود على عتبة الكنيسة.
٤) السجود أمام الهيكل وتقبيل الستر ثم الأيقونات ثم رفات القديسين إن وُجدت.
٥) تقبيل يد الكهنة وطلب بركتهم.
٦) الوقوف بمخافة وهدوء وسكوت لتكون قلوبنا عند الرب ومعه.
٧) المشاركة فى العبادة والإنصات للكلمة بورع وحرص كما يليق.
٨) التحلى بروح التضرع والخشوع فبيت الرب تليق القداسة كل الأيام.
٩) خلع الحذاء تأكيداً لوجود الرب وقدسية المكان إذ فى حضرته ينبغى أن يخلع الإنسان نعليه.
١٠) أن يكون الخروج من الهيكل ومن الكنيسة عموماً بظهر الإنسان حتى يكون وجه العابد دائماً نحو الشرق أى يكون وجهه نحو الله الساكن فى هيكله ورأسه منحنية.
١١) إذا عبر أحد من باب البيعة وسمع قراءة الإنجيل عليه أن يقف ولا يمشى حتى تنتهى قراءته، ومنْ لا يحضر القراءات وتقديس القربان يُعاقب (عقوبة يهوذا الإسخريوطى) لأنه يتناول بنفس نجسة، ذلك لأن قراءات القداس هى تقديس لنفس ولجسد الذى يتناول.
١٢) حتمية الوقوف أثناء قراءة الإنجيل مثلما وقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذى عملوه لهذا الأمر. وعندما فتح عزرا «السفر» وقف كل الشعب وبارك الرب الإله العظيم. فهذا الطقس ترجع أصوله إلى المشهد الذى ورد فى سفر نحميا.
١٣) التقدم للأسرار ينبغى أن يكون ونحن محتذين متمنطقين ناظرين لإحسانات الله متطلعين نحو السماء نحو أورشليم العليا.
١٤) الوجود فى الكنيسة يجعل من المؤمنين غروس نقية ومواطنين عالم جديد لهم شركة قوية غير متزعزعة لذا يلزم على المؤمنات الإحتشام فى ملابسهن وزينتهن والإمتناع عن إستعمال المساحيق وكل أنواع الثرثرة (١تى٢ :٩).
١٥) المؤمن الذى يدخل الكنيسة فليداوم حتى «طقس التسريح» للإنصراف من الخدمة الليتورجية فى نهاية القداس، حتى لا يتسبب فى التشويش ويفرز من الكنيسة لأنه سبب ضرراً للشعب.

ولأن الكنيسة هى سماء على الأرض لذا ينبغى على الذين يدخلونها أن يقفوا حسناً ويقفوا بإتصال وسكوت وسكون كسكان السماء وبوقار الملائكة: عيونهم شاخصة نحو المذبح وأرجلهم واقفة بإستقامة وأياديهم ممتدة إلى فوق وأفواههم لا تفتر من التسبيح ولا تفتح إلا للتسبيح.

إن من اللائق أن نقدم تسبيحنا وقراءتنا فى بيت الرب بغيرة حسنة، عندما نصغى إلى الألحان الشجية ونتجاوب معها فتشملنا الغبطة والهدوء الروحى، وحينما نسمع فصول القراءات تنفتح قلوبنا للمعرفة الإلهية وتستنير أذهاننا، وحينما نرفع أيادينا أو نسجد نتذوق عربون سعادة الحياة الأبدية.

هذا وقد رُتبت الكنيسة بحيث تكون مشابهة فى كل شئ لما هو فى السماء، فجمالها من داخل يشبه عظمة عرش الله والقائمين حوله، والأنوار تشبه ضياء مجد الله وقديسيه، وعطر البخور الصاعد من المجامر يشبه جمال رائحة الأبدية، والألحان والتسابيح تشبه تهليل الملائكة وترنم الأربعة والأربعين ألفاً ترنيمة الخروف.

فالمؤمن الذى يأتى إلى الكنيسة يرى الآباء والخدام وينتفع بمظهرهم وتسرى فيه حرارة غيرتهم مثل النار، منتفعاً من أعمالهم وأقوالهم فيتزود بمعرفة ومنفعة كبيرة ويتأمل عمود نور صلاة الإخوة الذين يجتمعون معاً بصلاة نقية. ويروى القديس بالاديوس كاتب سير الرهبان عن القديس بولس البسيط تلميذ القديس أنطونيوس أنه كان يشاهد الداخلين للكنيسة فى مناظر بهية وملائكتهم تتبعهم مسرورة بوجودهم فى الحضرة الإلهية كبلاط ملكى للمسيح القدوس.

لهذا ينبغى أن نشعر أننا كالقيام فى السماء راكبين ليس مركبة فضائية بل مركبة شاروبيمية حيث عرش إلهنا وحيث لا تقف أمامه خليقة صامتة. ويقول معلمنا داود النبى والملك عندما يطرح نفسه على عتبة بيت الله ويدخله مرنماً:

١) فرحت بالقائلين لى إلى ديار بيت الرب نذهب (مز١٢٢)
٢) وقفت أرجلنا فى ديار أورشليم (مز١٢٢)
٣) إدخلوا أبوابه بالفرح ودياره بالتسابيح (مز١٠٠)
٤) إفتحوا لى أبواب البر لكى أدخل منها (مز١١٨)
٥) هذا هو باب الرب والصديقون يدخلون فيه (مز١١٨)

٦) إخترت أن أُطرح على عتبة بيت الله (مز٨٤)
٧) أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك وأسجد أمام هيكلك المقدس (مز٥٠)
٨) لبيتك ينبغى التقديس يا رب طول الأيام (مز٩٣)

ويتحدث القديس يوحنا ذهبى الفم ليس فقط عن وقار وقدسية حضور الكنيسة، بل يتخطاه إلى ما بعد خدمة العبادة فيرد على الذين يقولون أنهم يستمعون بخشوع فى الكنيسة ولكن متى خرجوا يصبحون على غير ما كانوا عليه وتنطفئ فيهم حرارة الغيرة. فيوصى ذهبى الفم بضرورة ألا نستغرق فى أعمال لا تليق بما كنا نقوم به من خدمة إلهية، فإذا كنا مثلاً لا نستحسن بعد إغتسالنا أن نلوث جسدنا، على هذا الحال ينبغى أن نسلك بعد خروجنا من الصلاة الجامعة، لكن ما يحدث عكس ذلك إذ أننا نضيع كل شئ، ولأن الربح الناتج من الأقوال المقدسة التى سمعناها فى الكنيسة ليس راسخاً، لذا فإن الأمور الخارجية تزيح كل شئ بعيداً. ولكلا يكون هذا حالنا، علينا أن لا ننشغل بشئ بعد إنصرافنا من الكنيسة أهم من تذكار الأقوال التى قيلت... فالأولاد مهما أخذوا من دروس بالمدرسة، يعودون ويستذكرونها باقى النهار. فلنفعل إذن هكذا حتى ننتفع من حضورنا فى الكنيسة. فلنحرص على ما نسمعه حرصنا على نقودنا ومقتنياتنا، لأننا أُعطينا كلمات أثمن من الذهب والأحجار الكريمة وقبلنا ذخائر الروح القدس، ولنودع هذه الودائع فى خزائن قلوبنا، ولنجعل هذا القانون غير قابل للتغيير ليكون لنا نفع أعظم كتلك التى كانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها (لو٢ :١٩).

فهل يفحص كل مؤمن ضميره عندما يدخل الكنيسة سائلاً نفسه:

- هل فى قلبه إيمان وورع متقدين فى حضرة الله؟
- هل يدخل البيعة المقدسة بالفرح والتسبيح؟
- هل يعلم أنه يدخل مع بقية الصديقين ويطرح نفسه على عتبتها؟
- هل عنده «الخوف» الخلاصى، وهل يسجد لله بخوف ورعدة؟
- هل وسّع ذهنه ليبلغ ملء قامة الكنيسة كلها؟
- هل يقدم عبادة الوقار والتقديس؟ وهل يتراءى أمام الرب فى خشوع وإنسكاب يليق بجلال حضرته ويتحدث إليه بدالة البنين؟

٤) قدسية بيت الرب فى فكر الآباء الأولين

يتحدث **القديس چيروم** عن أن وجودنا فى الكنيسة لابد أن يكون بأحقاء ممنطقة وبمصابيح متقدة فى الأيدى وبالشموع المشتعلة ليس لتبديد الظلمة لكن لشهادة الفرح ولوقوفنا فى حضرة شمس البر. ويقول: «ليتنا نقرع باب المسيح الذى قيل عنه: "هذا هو باب الرب والصديقون يدخلون منه" (مز١٩:٢٠) حتى متى دخلنا يفتح لنا الكنوز المخفية بالمسيح يسوع الذى فيه كل العالم والمذخر فيه كل كنوز الحكمة والمعرفة».

ويقول **إكليمادوس**: «لا تكسل فى الذهاب إلى الكنيسة وقت العبادة»، «إذا أتاك أخ وكلمك فيما لا يجب فلا تخف البتة بل أجعل نفسك أخرساً وأصماً ولا تسمع لقوله ولا تلمه فى قلبك بل كن مثل طفل صغير»، «إياك أن تجيب أو تحدث أحداً حتى لو كان بكلام جيد ما دمت فى الكنيسة».

يقول **القديس نيلوس السينائى**: «كن فى الكنيسة مثل منْ هو فى السماء، إمش ولا تتكلم»، ويقول **القس أشعياء الإسقيطى**: «إذا كنت واقفاً فى القداس فراقب أفكارك لكى توقف جسدك وحواسك بخوف الله». ويقول واحد من الشيوخ أنه فى الكنيسة يترك كل الأمور التى خارجها ويجعل بينه وبينها سوراً ويتصور نفسه جالساً فى جبل الزيتون مع ربنا وملائكته، معتبراً أنه فى مكان مريم الجالسة عند قدمى السيد المسيح ليسمع أقواله سمعاً مطيعاً، حيث كنيسة القوات المعقولة التى فيها نعاين مجد الرب اللامع جداً فى وسطها ونسمع تسابيح الطغمات السمائية الذى يرفعونه إلى الله، وعندئذ تكون لنا أجنحة فى السماء طالبين ما فى العلا وننتقل بالنية من الأرض ونتعرى من هذا العالم كأناس سمائيين أو ملائكة أرضيين.

يتحدث **العلامة أوريجين** السكندرى عن الإنصات فى الكنيسة فيقول: «الكنيسة تئن وتحزن عندما تحضرون الكنيسة بصعوبة.... وحتى فى حضوركم هذا لا توجد لديكم رغبة فى سماع الكلمة... ولماذا اشتكى من عدم الحضور فحتى الحاضرون لا يصغون».

يقول **الأنبا سرابيون**: «كما أن أجناد الملك وقوف بين يديه ولا يقدر أحد منهم أن يلتفت يميناً أو شمالاً كذلك إذا كنت واقفاً قدام الله».

يقول **القديس يوحنا ذهبى الفم**: «الجنود الملائكية فى السماء يسبحون بمجد الله،

والبشر المجتمعون هنا فى الكنيسة فى خورس واحد يرددون مثلهم نفس الذكصولوجية (التمجيد). هناك فى الأعالى يداوم ملائكة النور على تسبيح الثلاثة تقديسات بصوت متوافق لا يفتر، وهنا على الأرض يردد البشر صدى تسبيحهم. سكان السماء مع قاطنى الأرض يتحدون فى التقديس الواحد وفى صلاة الشكر الواحدة، ويشتركون فى حركة التهليل الواحدة». ويقول أيضاً: «تخشع أمام مضمون إصعاد القرابين، فالمسيح ذاته هناك يُقرب الذبيحة لكى يصنع صلحاً بين السمائيين والأرضيين، لكى يصالحك مع الله ومع الخليقة كلها». وأيضاً: «كما أن الرأس والجسد يؤلفان إنساناً واحداً، كذلك المسيح والكنيسة يكونان كياناً كلياً واحداً».

يقول **يوحنا كرونستادت**: «حينما ندخل الكنيسة ننسى هموم العالم وشهواته، وفى حضرة الله نمتلئ رهبة وخشوعاً وتقديساً ونشعر ببنوتنا لله. أى قداسة وحب ووقار تليق ببيتك يا رب؟! لقد أحب القديسون بيت الله أكثر من أى شئ فى هذا العالم». ويقول أيضاً: «إن بيت الله هو السماء على الأرض، لأنه حيث يوجد عرش الله وتقديس أسراره الإلهية وإشتراك السمائيين مع البشر فى تسبيح العلى، فحينئذ تكون هى السماء بل وسماء السموات. إذن فلندخل بيت الله حيث مقادس العلى، بخوف واحترام كثيرين ونقاوة قلب خال من كل عيوب الشهوة والخطية بل ومن كل إهتمامٍ جسدى، ونقف بإيمان لتلقى المعرفة الروحانية بحب وسلام قلبى. فنخرج من عند الرب مجددين لنحيا فى القداسة كأبناء لله القدوس غير مرتبطين بشئ مما فى هذا العالم».

ويقول أيضاً: «أن النفوس المؤمنة الوديعة حينما تدخل الكنيسة تشعر تماماً أنها أُهلت للدخول أمام الله، فتشعر بسعادة وحرية الأولاد فى بيت أبيهم، عندئذ يذوقون بإيمانهم سعادة الدهر الآتى. هذا الشعور المبارك لا يمكن الحصول عليه إلا عند دخولنا بيت الله حيث نمجده ونسجد أمامه ونصلى إليه ثم نخرج لنبدأ جهادنا». كما يقول: «كل الصلوات والقراءات فى الكنيسة هى من أقوال الله، فهى تعاليم حية، كذلك فيها تمجيد وتسبيح دائم، وفيها حث على محبة الآخرين وعلى التوبة بصلاة العشار "ارحمنى". وهكذا كل منْ يفتح قلبه للصلاة فى الكنيسة فإنه يمتلئ معرفة وحياة».

يقول **الأسقف بوتين** (من آباء روسيا): «إن النعمة لا تفارق بيعة الله أبداً، لذلك يجب أن تكون لك ثقة حينما تقف هناك أنك واقف أمام نعمة الله، فلا تنشغل عن شركة

الصلاة والتسبيح، ولا تفتح فمك بالحديث مع أحد وإلا فأنت تحرم نفسك من عمل النعمة فيك. قف صامتاً منتبهاً مستعداً لقبول عمل النعمة فيك. كذلك لا تنشغل بأمور العالم فى فكرك، بل إلق عنك كل همومك فى هذه اللحظة لأن الرب مستعد أن يحملها عنك. لا تنشغل بشئ خاص حتى ولو كان مقدساً، لأن هذا يحرمك من بركة الشركة والخدمة. تابع واشترك فى كل صلاة وضم قلبك ونفسك إلى المصلين لتكون الكنيسة كلها قلباً واحداً وروحاً واحداً فتجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين».

ويقول أيضاً: «الله موجود فى كل مكان، ولكنه يحب الذين يسعون إليه ويأتون لبيته، وخاصة الذين يتجشمون أتعاباً كثيرة فى سبيل ذلك. وهو فى بيته مستعد لكى يسمع صلوات المحتاجين. فحنة أخذت الوعد بميلاد صموئيل النبى وهى قائمة تصلى فى الهيكل. وحنة النبية بنت فنوئيل مكثت نحو ٨٤ سنة لا تفارق الهيكل لذلك تنبأت عن ميلاد المسيح (لو٢)، كذلك سمعان الشيخ أتى بالروح إلى الهيكل وهناك رأى يسوع مع أمه فأخذه على ذراعيه وتبارك منه قبل أن يموت (لو٢ :٢٥)، وكذلك رأى زكريا الكاهن ملاك الرب عن يمين المذبح. ففى الكنيسة تقام ذبيحة المصالحة، حيث يجتمع الشعب وحيث يأتى الرب حسب وعده ليحل فى وسطهم فإذا كنت قد أغضبت الله فى كل شئ، ففى الكنيسة تتصالح معه، لأن هناك تشفع فيك أرواح القديسين. لذلك حينما تقف فى الكنيسة لا تنس قط أنه يوجد معك منْ يصلى من أجلك دون أن تدرى، وإذا كنت تشعر بضعف صلاتك فتشجع وخذ معك شفاعات السمائيين وطلبات الكنيسة بكل طغماتها» ويحذر من الجمود وعدم الإكتراث والتشويش الذى يحدثه غير العارفين بقدسية بيت الرب.

يوصى **القديس مار إفرآم السريانى** بضرورة التبكير للكنيسة قبل كل شئ، وبعدم مغادرتها قط إلا فى نهاية الصلاة ويعتبر أن الذين يتركون الخدمة الإلهية فى الكنيسة بلا سبب معقول ويخرجون قبل إعطاء الحل بالخروج (التسريح) إنما يتصرفون بقلة حياء قبالة بيت الله. ويقول: «هل إذا دعاك رجل غنى إلى العشاء، تجرؤ أن تغادر العشاء دون أن تأخذ السماح من صاحب الوليمة؟ أم أن العرف واللياقة يحتمان عليك البقاء حتى خروج الجميع فتخرج مودعاً بالبركة؟».

ويقول **القديس يوحنا سابا**: «إن كان الملائكة ورؤساء الملائكة مع جميع الرتب السمائية يقفون برعدة وخوف وقت تقديس الأسرار، فكم بالحرى يجب علينا نحن

الترابيين أن نشابههم فى هذا الوقوف!! وإن كان الشياطين يصرخون ويحترقون من الصلاة داخل الكنيسة فكم بالحرى يجب أن نخضع نحن ونقف بخشوع». ويقول أيضاً: «روى لي أخ: "عندما بدأت الخدمة رأيت المسيح نفسه قائماً يخدم بمجد عظيم لا ينطق به، وبهت من الفرح وتغير قلبى والتهبت بفرح، فلما تقدمت لأعانق المنظر العجيب وقع علىّ بغتة خوف ورعدة، وغرقت فى لجة هذه الحضرة حتى أننى نسيت نوع التقديس ولغته"». فكل منْ يحفظ كرامة الخدمة لا يتغرب عن ميراث المجد ويذوق حلاوة العزاء السمائى وتشرق عليه أنوار الثالوث القدوس الغير منطوق بها.

ويقول أحد الآباء: «اعلم أنك ذاهب لمقابلة الله فى الكنيسة، لذا خذ الوقار معك واعلم أمام منْ أنت واقف!! حافظ على النظام بكل إحترام وهدوء معطياً الكرامة لرب البيت ولا تلتفت إلى أحد ولا تلفت نظر الآخرين، فذلك إحترام لله ومنفعة لنفسك ولعدم الشوشرة على صلاة المؤمنين وحضور السمائيين. ليكن حضورك بلا هوان ولا إستهتار ولا تخرج وتدخل أثناء الصلاة، بل إضبط نفسك حتى النهاية، ولا تخرج قبل إعطاء التسريح، لأن فى ذلك إمتهاناً لكرامة رب البيت وتشبهاً بيهوذا الذى خرج دون إذن فدخله الشيطان، ولا يوجد سبب من الأسباب مهما كان هاماً فى نظرك يستدعى خروجك وتركك لعبادة الكنيسة، ولا تعوّد نفسك الإستهتار بالأمور الصغيرة وتبرير ذاتك والتماس العذر لها، لأنك ستُدان وتصير مستبيحاً مثل عيسو. لذلك اهتم بكل نظام وترتيب داخل الكنيسة ودقق فى كل حركاتك».

ويحذر **يوحنا كرونستادت** الكهنة والشمامسة قائلاً: «حينما تخدم فى الصلوات والطقوس والقراءات الكنسية، يهمس الشيطان فى أذنك أنه لا داعى لهذا التطويل وأن الشعب لا يفهم الكلمات وأنه مضيعة للوقت ولا ضرورة لذلك ويدعوك للتعجيل. ولكننا بذلك نتغافل عن صوت النعمة وعمل الروح القدس. كم من مرة استخدم الروح القدس كلمات الصلوات والقراءات فى الكنيسة لخلاص ألاف من الشعب! فإن الرهبنة تدين بوجودها لآية واحدة سمعها القديس الأنبا أنطونيوس فى الكنيسة وقت قراءة الإنجيل فنفذت إلى أعماق نفسه (مت١٩ :٢١). إذن فلنتلوا صلواتنا وقراءاتنا فى الكنيسة بكل تأن ووضوح ولا نختزل شيئاً قط، وبذلك نعطى فرصة للروح القدس أن يستخدم الكلمات لإنذار قلوب السامعين. عليك أن تُلقى البذار واتركها للرب فهو ينميها ويقبلها حسب مسرة صلاحه».

ويقول القديس أغسطينوس: « نحن بيت الله "وبيته نحن" (عب٣ :٦)، فنحن بذاتنا بيت الرب. إننا نُبنى الآن فى هذا الزمان لكى بإنتهاء الزمن يمكن لنا أن نُكرس. وأى بناء يتطلب مجهوداً شاقاً، لذلك فالتكريس يمثل إنتهاء العمل حيث البهجة والغبطة. إننا بذلك نشبه أحجاراً حية قد نُحتت لتكوّن الكنيسة، عندما نلتصق ببعضنا البعض كما تلتصق الحجارة مع بعضها وبذا نصير بيتاً للرب . فما نراه منجزاً على المستوى المادى فى جدران الكنيسة ليته يبنى روحياً فى عقولنا وقلوبنا. وما نراه متمماً بالأحجار والأخشاب ليته يتحقق فى أجسادكم بمعونة إلهنا بصفته البنّاء والبانى وهو الذى بدأ البناء وهو بنفسه الذى يكمله».

٥) ملاك الرب يختم المواظبين

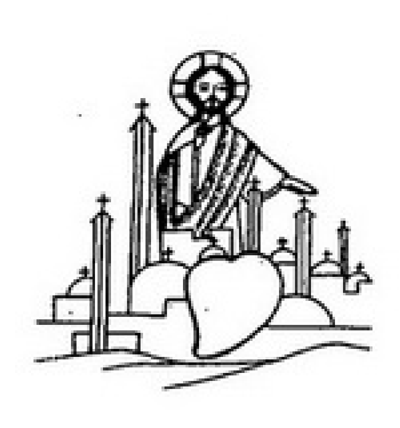
قال الأب دوروثيؤس الغزاوى: «أخبركم بأمر عجيب حدث مع أحد الشيوخ الكبار الموهوب ببصيرة روحية، إذ أنه بينما كان واقفاً يوماً ما فى الكنيسة، وبمجرد أن إبتدأ الإخوة فى التسبيح، رأى شخصاً آتياً من داخل الهيكل مرتدياً ملابس بهية براقة وحاملاً وعاءً صغيراً مليئاً بزيت مقدس، ومعه قضيب حجرى صغير، ثم بلّ القضيب من الوعاء وتوقف عند كل واحد من الإخوة وختم كل منهم بهذا الزيت، كما أنه وضع علامة على بعض الأماكن الخالية وعبر على بعضها الآخر. وعندما كان الإخوة على وشك الإنصراف رأى نفس الشخص النورانى أيضاً آتياً من الهيكل وكرر نفس العمل.

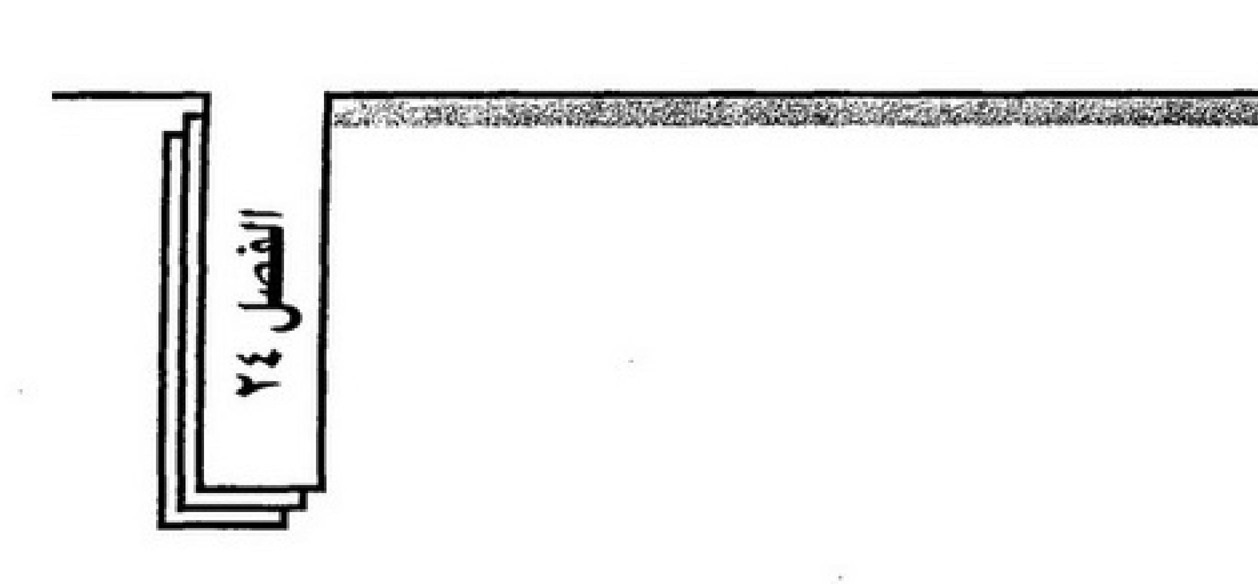
وإذ إمتلأ الأب القديس من الدهشة والتعجب ألقى بنفسه عند قدمى هذا الزائر العجيب وتوسل إليه أن يخبره بمعنى ما عمله ومنْ هو، فأخبره قائلاً: أنا ملاك الرب وقد كُلفت بهذه الجماعة لكى أضع هذا الختم على الذين تواجدوا منهم فى الكنيسة منذ بداية الخدمة، والذين ظلوا موجودين أيضاً حتى موعد الإنصراف، وذلك بسبب إشتياقهم وغيرتهم اللذين نبعا من إختيارهم الحر والمتعمد.

فسأله الشيخ: ولماذا وضعت علامة على أماكن أولئك الذين لم يحضروا، فأجاب الملاك: كل الذين هم ممتلؤون غيرة وكانت عندهم نية صادقة للتواجد هنا ولكنهم تغيبوا لمرض شديد وبحِل من أبيهم الروحى، أو الذين إنشغلوا فى إتمام وصية أُعطيت لهم من أجل الطاعة، كل هؤلاء رغم تغيبهم أعطيهم علامة الختم، إذ أنهم يُعتبرون كأنهم

موجودون بسبب نياتهم المخلصة. أما أولئك الذين كان فى إستطاعتهم الحضور ولكنهم تغيبوا بسبب عدم مبالاتهم، فقد أُمرت أن لا أضع لهم علامة الختم طالما أنهم جعلوا أنفسهم غير مستحقين له...».

ثم يكمل الأب دوروثيؤس قائلاً: «انظروا أية عطية يحصل عليها الذى يواظب على صلوات الكنيسة، وكم بالأكثر ذاك الذى يذهب لإيقاظ أخيه لأجل خدمة التسبيح الليلية. فإحذروا إذاً أيها الإخوة من أن تحرموا أنفسكم من ختم الملاك المقدس».





البخور

فى عبادة الكنيسة الأولى

البخور

فى عبادة الكنيسة الأولى

كان لترتيب الله لإستخدام البخور فى الكنيسة الأولى مكانة أولى وعظمى فى العبادة الطقسية، وهو عمل ليتورجى وروحى صميمى يشرح ويعبر عن روح الصلاة والإنسكاب وتقديم أفخر ما لدى الإنسان لله بمخافة. وتقدمة البخور ترمز إلى الصلاة الطيبة والعطرة التى تعبر عن العلاقة الأساسية التى تربطنا بالله.

وتقترن تقدمة البخور دائماً بالشعور بالحضرة الإلهية وبوجود الله وحلوله فى وسط شعبه، وكأنما رائحة البخور الزكية هى رائحة هذه المعية، فمادام الملك فى مجلسة أفاح ناردين رائحتـه (نش١ :١٢)، ويليق أن نأتى إليـه حـاملين الذهـب واللبـان ونبـشـر بتـسـابيحـه (أش٦٠ :٥).

فالبخور يصعد بالصلوات والطلبات حتى السماء مُحملاً بشفاعات وصلوات خوارس الملائكة والقديسين والرسل والشهداء والمعترفين على مذبح الذهب أمام العرش الإلهى (رؤ٨ :٣، ٤) كرائحة زكية وعطرة يشتمها الله رائحة سرور ورضى.

وكما أوقد هارون بخوراً عطراً على المذبح كل صباح وعشية أمام الرب (خر٣٠ :١)، وكما أمر الرب موسى النبى بأخذ اللبان العطر النقى ليصنع منه البخور النقى المقدس (خر٣٠ :٣٦)، **هكذا تقدم الكنيسة فى صلواتها بخوراً له هذه السمات:**

١) على المذبح (خر ٣٠ :١): تقديمه وتقديسه لله ونهى الشعب عن إستعماله.
٢) بخوراً عطراً (خر ٣٠ :٧ ؛ خر ٢٥ + خر ٣٧ :٢٩ + لا١٦ :١٢).
٣) رفع بخور باكر وعشية ودائماً أمام الرب (خر٣٠ :٨ + يشوع بن سيراخ ٥٠ :١٧).
٤) يقدم كقدس أقداس (خر٣٠ :٣٦) أى لا يصنع أحد منه لنفسه.
٥) تقديم البخور كالصلاة (عد١٦ :٤٤-٤٨)، وكالتسابيح (٦٠ :٥).

٦) تقديم البخور كذبيحة (عد١٦ :٤٦).
٧) لا يرفعه إلى الكهنة (عد ١٦ :٣١ + رؤ٥ :٨).
٨) يقدم فى المجمرة (الشورية) (عب٩ :٤ + رؤ٥ :٨).
٩) تقدمة طاهرة لاسم الله بين الأمم من مشرق الشمس إلى مغاربها (ملاخى١ :١١).
١٠) حياة الكنيسة كلها بخور معطر بالمر واللبان وكل أذرة التاجر (نش٣ :٦).
١١) وقوف ملاك الرب عن يمين مذبح البخور والإستجابة الإلهية (لو١ :٨).
١٢) جميعنا رائحة المسيح الزكية الذى يظهر بنا رائحة معرفته فى كل مكان (٢كو:١٥)، وكثيرا ما يمثل البخور سحاباً وضباباً يذكر بحلول الله ومجده (أش ١٩ :١ + مت٢٤ :٣٠ + لو٩ :٣٤ + حز٢٤ :١٥ + ١مل٨ :١٢ + لا١٦ :١٢).
١٣) يقدم البخور فى السماء بواسطة الملائكة أمام الله (رؤ٨ :٣).

فالبخور هو طقس تعبدى يحمل مفهوماً لاهوتياً يخص علاقتنا بالله، وليس القصد منه مجرد إيجاد رائحة طيبة، بل هو يحمل مفهوماً ليتورجياً يمس حياتنا فى الله، لذلك حدد الله نوع البخور وكمياته وموعد تقديمه ومن الذين يقومون بهذا العمل، فحرم إستخدامه (بذات النسب) خارج الخيمة (الكنيسة) أو إيقاده بيد غريبة، والآن فى كنيسة العهد الجديد يقدم كتقدمة وسكيبة عطرة تعلن عن رائحة المسيح الزكية وسكيبة الصليب التى إشتمها الآب، وهو طقس لا يمت بصلة إلى الذبائح الرمزية التى وجب إبطالها بعد ذبيحة المسيح، لأنه يختص بالعبادة القلبية الخالية من كل رمز والمعتبرة فريضة دهرية وقانون جماعى بعيداً عن الرمزية، وقد مارسه المسيح ربنا عندما كان يذهب للهيكل ويصلى «ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون» (مت٢٦ :٣٠) (المقصود صلاة باكر وعشية).

البخور فى القرون الأربعة الأولى

إن كانت كتابات الآباء قد خلت جزئياً من ذكر البخور وطقسه فى العبادة، فإنما لأنه كان يدخل ضمن التقليد الشفاهى السرى فى الكنيسة والذى كان يلقن بالفم والممارسة، فظل طقس البخور سارياً ومستمراً ولا يعرف تفاصيله إلا الكهنة فقط باعتباره ضمن الخدمة الكهنوتية.

وأكدت ممارسات الكنيسة الأولى على إستخدام البخور فى الليتورجيات حيث تشير

إيثيريا فى سياحتها فى القرن الرابع إلى أن البخور كان مُستخدماً فى أورشليم فى خدمة عيد القيامة الكنسية، كما يعلن **القديس باسيليوس الكبير** فى إحدى عظاته أيام الإضطهاد عن ذلك بقوله: «لقد تهدمت بيوت الصلاة بأيدى الأشرار، وتحطمت المذابح ولم يعد هناك ذبيحة ولا **بخور** ولا موضع للذبيحة». وفى حديث **القديس مار افرآم السريانى** عن أثر العبادة المسيحية يقول: «أصوامكم هى حصن لأرضنا وصلواتكم درع لمدينتنا **ورفع بخوركم** هو نفعنا. المجد لله الذى يقدس تقدماتكم».

كما ويروى تاريخ الكنيسة عن عطايا الملك قسطنطين الخاصة بالمجامر (الشورية). وفى القرن الرابع يلمح **القديس يوحنا ذهبى الفم** فى عظته عن القديسة بيلاجية الأنطاكية إلى رفع البخور فى صلوات تجنيزها، كما أُشير إلى ذات الشئ فى سيرة إستشهاد القديس بطرس السكندرى سنة ٣١١م.

ويشير تقليد الكنيسة إلى البخور على أنه يرمز لحضرة الله فى وسط شعبه فنتنسم رائحته فى أعماقنا حيث مجلس الملك وناردين رائحته الفوّاحة التى ترتبط بليتورچيات الإفخارستيا والعماد ومسحة المرضى والذبيحة والتجنيز كذبيحة حب وصلاة (خر٣٠:١). وأيضاً كان اللبان أحد الهدايا التى قدمت للسيد المسيح وهو بعد طفل، فهو يمثل عطية حب ثمينة يليق بشعبه أن يقدمها حتى اليوم كتقدمة طاهرة وقدس أقداس وكصلاة ذبيحية عطرة أمامه.

ومن الشهادات الآبائية التى تثبت استخدام البخور فى القرون الأولى تلك القصة المُدونة فى المخطوطات القديمة عن **القديس ديمتريوس الكرّام** بطريرك الاسكندرية الثانى عشر (١٩١ – ٢٢٤م)، الذى تذمر عليه الشعب لكونه متزوجاً، فأوحى إليه الملاك أن يبين للشعب بتوليته، فأخذ الشورية وهى متقدة ناراً وقلبها فى كُمه وكُم زوجته، وطاف البيعة كلها أمام المؤمنين دون أن يحترق قماشها، فهدأ الشعب ومجّد الله وعلم أنه مستحق بالفعل لكرامة رتبة البطريركية.

وتشرح **تعاليم الرسل** – وهى من مدونات القرن الثانى – بوضوح طقس رفع بخور باكر وعشية داخل الكنيسة ، وهى تنص على استخدام البخور فى الكنيسة فى أوقات معينة، حيث يقوم الأسقف بتقديم البخور فى الهيكل، أما الكاهن فيبخر فى البيعة.

أما **العلامة ترتليان** فيحلل قيمة البخور تحليلاً فلسفياً باعتباره عطراً ذى رائحة مناسبة ولكن ليس بالكيفية والهيئة التى يُقدم بها للأوثان، ويقارن العلامة الأفريقى بين استخدام البخور فى العبادة المسيحية وبين استخدامه فى العبادة الوثنية. ومن الملاحظ أن الرجال الكنسيين الذين لم يهتموا بالبخور كانوا من الوثنيين والفلاسفة المتنصرين مثل أثيناغوراس وترتليان وكلمنضس السكندرى وأرنوبيوس ولاكتانتيوس وأغسطينوس، فقد تحدث بعض آباء القرون الثلاثة الأولى بلغة قاسية ضد استخدام البخور باعتباره كان يُستخدم سابقاً فى مواكب الأباطرة وتقدمات الآلهة الوثنية، لكن هناك فرق شاسع بين معنى البخور واستخدامه الوثنى الذى قاوموه هؤلاء الآباء، وبين معنى البخور المسيحى كما أدركته الكنيسة بمفهومه الإلهى كخدمة حية.

وهناك شهادة صريحة لدورة وطقس رفع البخور فى كتابات **القديس ديونيسيوس الأريوباغى** بقوله: «أما الأسقف فعندما ينتهى من الصلاة المقدسة على المذبح الإلهى، يبدأ التبخير عليه ثم يدور دورة كاملة حول المكان المقدس كله». وهذا الطقس تتبعه الكنيسة حتى الآن فى دورات البخور فى: عشية – باكر – البولس – الإبركسيس – الإنجيل.... عندما يتم تقديس البخور برشومات التقديس ورفعه بخوراً روحانياً فى مواضع قدس الأقداس.

وهناك أيضاً شهادة من أقوال **هيبوليتس** المشرع الكنسى المشهور يقول فيها عند وصفه للأيام الأخيرة فى محنة الكنيسة: «والكنائس أيضاً ستنوح ببكاء كثير لأنه لا يكون ذبيحة قربان ولا **بخور** يقدم ولا خدمة مقبولة أمام الله بل تصبح الهياكل كناطور الكروم، ولا يكون جسد ولا دم، وتتوقف خدمة الليتورچيات وتقف تسابيح الإبصلمودية ولا تسمع قراءة الأسفار».

ويصف **القديس أمبروسيوس** ظهور الملاك لزكريا وقت تقديم البخور قائلاً: «ليت ملاك يقف بجوارنا ليساندنا وقت إصعاد **البخور** على المذبح». ويوصى **القديس مار افرآم السريانى** أولاده قائلاً: «أتوسل إليكم أن لا تطيبوا جسدى بالأطياب (الحنوط) فالروائح الطيبة تليق ببيت الله. قدموا **بخوركم** فى بيت الرب كرامة له ومديح».

يقول **يوحنا كرونستادت** عن بركات البخور الروحية: «حينما نشمت رائحة البخور الزكية تجتمع حواسنا وتأخذ النفس نشوة روحية بتنسم رائحة الفضيلة والتقوى وحلاوة بيت الله، فنتنهد على خطايانا المرة ونتذكر بولس الرسول: شكراً لله الذى يقودنا فى موكب

نصرته فى المسيح كل حين ويُظهر بنا رائحة معرفته فى كل مكان لأننا رائحة المسيح الزكية لله (٢كو٢:١٤)».

طقس البخور الليتورچى

لتقديم البخور فى الطقس الليتورچى ترتيب خاص حيث يبخر الكاهن حول المذبح ثم عند باب الهيكل ثم أمام الإنجيل (المنجلية) ثم أمام رفات القديسين، فالأيقونات المقدسة، ثم قدام الأسقف والكهنة، ثم النزول إلى صحن الكنيسة مبخراً تجاه العابدين وأخيراً يصعد ثانية إلى الهيكل....

هذا الطقس فى ترتيبه يعبر عن العمل السرى لليتورچيا، فالكاهن يبدأ بتقديم البخور على المذبح، لأن تقدماتنا وصلواتنا تقبل لأنها تُقدم فى إستحقاقات ذبيحة المسيح. بعد هذا يجمع الكاهن بركات كلمة الله (الإنجيل) ويجمع صلوات الأساقفة والكهنة والشمامسة وكل الشعب، مجتمعة مع صلوات القديسين، ويعود حاملاً إياها إلى الهيكل ليقدمها من أجل كل أحد، كما يشير القديس يوحنا الرسول: «وقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكى يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم» (رؤ٨:٣).

وكأننا بتقديم البخور نكون كأناس هابطين من السماء عينها فى صحبة السيرافيم ومحصيين مع السمائيين ومعدودين مع صفوف الملائكة، فنتحدث مع الرب خلال المذبح المسيحى الذهبى أى الملوكى، لأنه مذبح ملكنا المسيح، حيث نرفع صلواتنا أمامه: «لتستقم صلاتى كالبخور قدامك» (مز١٤١:٢).

فالبخور العطر يُقدم كل صباح (باكر) وكل مساء (العشية) بخوراً دائماً أمام الرب فى أجيالنا (حز٣٠:٨)، يقدم إلى الآب الذى إشتمه فى ذبيحة ابنه البار القدوس الذى أطاع حتى الموت موت الصليب: «هذا الذى أصعد ذاته ذبيحة مقبولة على الصليب لأجل خلاص جنسنا، فاشتمه أبوه الصالح كرائحة بخور وقت المساء على الجلجثة».

هذا ما يقوله الكاهن فى دورة بخور عشية وباكر والبولس لأننا لا نستطيع أن نشارك المسيح فى ذبيحة حبه وطاعته للآب إذا قدمنا أعمالنا واتكلنا على برنا الذاتى كأننا بقوتنا أو بتقوانا نستطيع أن نخلص أنفسنا، فهذه كلها هى المحرقات والتقدمات التى حذر الرب من

إصعادها على مذبح البخور لأن النار يجب أن تكون طاهرة والبخور مختاراً وكل عبادة أو خدمة تُقدم لله بدون قوة الروح وفعله فينا هى بمثابة نار غريبة وبخور غريب وتقدمات ومحرقات مرفوضة.

وطقس البخور يرتفع بالصلوات مثل عطر رائحة زكية، وهكذا يعلمنا القديس يوحنا عندما وصف البخور الذى فى جامات الذهب فى أيدى الأربعة والعشرين قسيساً أنه هو «صلوات القديسين» (رؤ٥:٨)، بحسب تعليق **القديس ميثوديوس**.

ولأن دورة البخور الليتورچية تمثل صلوات الكنيسة المنظورة بكل طغماتها متحدة بطلبات السمائيين من أجل تقديسنا لذا يقول **العلامة أوريجانوس** كاشفاً لنا معنى كوننا رائحة المسيح الزكية: «كل واحد منا يمكنه أن يبنى أيضاً مسكناً لله فى داخله!! ليكن له فى أعماق قلبه مذبح للبخور حتى يستطيع أن يقول: نحن رائحة المسيح الزكية (٢كو٢:١٥)».

ويُرشم البخور باسم الثالوث القدوس لتقديسه ويُقدم ويُقرب لاسمه (ملا١:١١)، فيشتمه رائحة القبول كبخور زكى صاعد أمام عرش نعمته مع صلوات القديسين (أف٥:٢ + رؤ٥:٤ + ٨:٣). وقد قال أحد الآباء: «إن الطواف حول المذبح بالبخور إنما على مثال ما فى السماء إذ رأى يوحنا: ملاكاً آخر جاء ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكى يقدمه مع صلوات القديسين (رؤ٨:٣) الطالبين هدم حصون الخطية وعقاب الأشرار الذين سفكوا دم أولاد الله (رؤ٦:٩)».

وقال أب: «إن المذبح الذى رآه يوحنا (فى رؤيا ٨:٣) يشير إلى الكنيسة التى تُقدم فيها الصلوات للرب يسوع، والمجمرة التى رآها هى إشارة إلى ناسوت المسيح، ومن ثم كان التبخير لله مقبولاً ومستجاباً لديه حسبما قال صاحب الرؤيا: فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله (رؤ٨:٤)».

وقد أخذت الكنيسة رمز المجمرة الذهب التى فى يد هارون الكاهن وطبقتها على العذراء القديسة مريم فى لحن رائع نردده فى الأعياد والسبوت والآحاد قائلين: «هذه المجمرة الذهب النقى الحاملة العنبر التى فى يد هارون الكاهن يرفع بخوراً على المذبح». وفى عيدىّ الصليب والساعة التاسعة من يوم الجمعة العظيمة وأيام الصوم يُقال اللحن التالى: «المجمرة

الذهب هى العذراء وعنبرها هو مخلصنا. قد ولدته وخلصنا وغفر خطايانا». وفى أيام الصوم الأربعينى المقدس وصوم يونان نقول: «أنت هى المجمرة الذهب النقى الحاملة جمر النار المبارك». فتوصف المجمرة بالعذراء أما البخور العطر فهو مخلصنا الذى حملته فى أحشائها، فترتفع أفكارنا نحو السماء لنرى مخلصنا المسيح كبخور حقيقى حملته أمنا العذراء، إذ هو الشفيع غافر خطايانا، المهتم بسلامنا، العامل فى كنيسته بطغماتها وإجتماعاتها وأسرارها وعبادتها.

وتنبهت الكنيسة لنبوة ملاخى ولذا ترفع باسم المسيح البخور فى كل مكان من مشارق الشمس إلى مغاربها كتقدمة طاهرة (ملا ١ :١١). وتصلى فى **ليتورچيا القديس كيرلس الكبير**: «نورك الحقيقى ابنك الوحيد الجنس ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح، هذا الذى من قبله نشكر ونقرب لك معه مع الروح القدس الثالوث القدوس المساوى غير المفترق، هذه الذبيحة الناطقة وهذه الخدمة غير الدموية، هذه التى تقربها لك جميع الأمم، من مشارق الشمس إلى مغاربها، ومن الشمال إلى اليمين، لأن اسمك عظيم يا رب فى جميع الأمم، وفى كل مكان يقدم بخور لاسمك القدوس وصعيدة طاهرة، وهذه الذبيحة وهذا القربان».

ويقول الكاهن فى **رفع بخور باكر**: «يا الله الذى قبل إليه قرابين هابيل الصديق، وذبيحة نوح وابراهيم، وبخور هارون وزكريا، اقبل إليك هذا البخور من أيدينا نحن الخطاة رائحة بخور غفران لخطايانا مع بقية شعبك لأنه مبارك ومملوء مجداً اسمك القدوس أيها الآب والابن والروح القدس الآن وكل آوان وإلى دهر الدهور آمين».

وفى **رفع بخور عشية** يقول: «أيها المسيح إلهنا العظيم المخوف الحقيقى الابن الوحيد وكلمة الله الآب، طيب مسكوب هو اسمك القدوس وفى كل مكان يقدم بخور لاسمك القدوس صعيدة طاهرة، نسألك يا سيدنا اقبل إليك طلباتنا ولتستقم أمامك صلواتنا مثل بخور، ورفع أيدينا كذبيحة مسائية، لأنك أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية الذى أصعدت ذاتك من أجل خطايانا على الصليب المكرم كإرادة أبيك...». ثم يطلب الكاهن أن يقبل الله الصعائد والقرابين على المذبح المقدس الناطق السمائى كرائحة بخور تدخل إلى عظمته التى فى السموات بواسطة خدمة طغمات الملائكة.

وهنا تختلط صلواتنا بشركة السمائيين وبطلب شفاعتهم طالبين فى **رفع بخور**

البولس: «كن معنا نحن أيضاً يا سيدنا فى هذه الساعة، وقف فى وسطنا كلنا، طهر قلوبنا وقدس أنفسنا ونقنا من كل الخطايا التى صنعناها بإرادتنا وبغير إرادتنا وامنحنا أن نقدم أمامك ذبائح ناطقة وصعائد بركة وبخوراً روحياً يدخل إلى الحجاب فى موضع قدس أقداسك».

ثم يقول الكاهن فى **رفع بخور الإبركسيس**: «يا الله الذى قبل إليه محرقة ابراهيم وبدلاً عن اسحق أعددت له خروفاً، هكذا اقبل منا أيضاً يا سيدنا محرقة هذا البخور، وأرسل لنا عوضه رحمتك الغنية». فوضع الكاهن لأيادى البخور فى الشورية إنما هو رفع صلاة من أجل سلام الكنيسة وأبائها وإجتماعاتها مع التضرع إلى الله الذى قبل ذبائح العهد القديم وأعد لنا ذبيحة العهد الجديد، حمل الله، أن يقبل هذه الذبيحة، ذبيحة البخور وأن يرسل غنى مراحمه....

وعندما يدور الكاهن حول المذبح ليبخر حوله، إنما يمثل هذا الطقس ما فعله الشعب حول أريحا وكأننا به ندخل إلى الأقداس السمائية، وعندما ينزل الكاهن من الهيكل يقدم بخوراً للإنجيل ممثلاً للسيد المسيح شخصياً، ثم للآباء الكهنة وأمام أيقونات القديسين وكل الشعب مبتدئاً من الشمال إلى اليمين، وكأنه يجمع صلوات إخوته الكهنة مع صلوات الملائكة والقديسين، مقدماً إياها خلال المذبح، ثم يبدأ من الشمال إلى اليمين فى صحن الكنيسة، لأننا نقلنا إلى يمين الرب خلال ذبيحة المسيا.

وفى **دورة البخور** يقول الكاهن: «بركة بخور عشية (باكر ـ البولس ـ سادتى الآباء الرسل) فلتكن معنا». ثم عند عودته إلى الهيكل مقدماً بخوراً عن الشعب يصلى «سر العودة والرجعة»، سائلاً الرب أن يقبل إليه إعترافات شعبه وأن يغفر لهم جميع خطاياهم كما غفر للص اليمين الذى علق على الصليب.

كذلك تقديم الكاهن الصلاة مصحوبة بالبخور فى كل جهة من الجهات الأربعة إنما هو إشارة إلى وجود الله فى كل مكان وفى كل جهة من جهات المسكونة، أما إعطاء البخور للشعب وهو يطوف حولهم فالمقصود منه إعطاؤهم البركة وتقديسهم (عد١٦ :٤٦).

أقوال الآباء عن البخور

يقول يوحنا كرونستادت: «إن البخور الذى نرفعه على المذبح ونطوف به على الشعب والأيقونات المقدسة وأجساد القديسين يحمل معان سامية:

١) فالبخور فوق المذبح يشير إلى عمل الروح القدس فى تقديس المواضع وحلول نعمة الرب فى هيكل قدسه، وهو إشارة إلى التطهير الذى تم بواسطة ذبيحته المقدسة. كذلك هو تنبيه لحلول الرب: «وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ البيت ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيته، حينئذ تكلم سليمان: قال الرب أنه يسكن فى الضباب (١مل٨:١٠)» .

٢) وحينما التبخير أمام أيقونات القديسين:
- لنتأمل كيف صارت صلاتهم مقبولة أمام الرب كرائحة البخور العطر.
- وهو لتحقيق شركة صلاتنا معاً كإتحاد بين الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة فى السماء «فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين» (رؤ٨:٤).
- وهو علامة توسل أن يذكرونا ويرفعوا صلواتنا أمام الجالس على العرش فى السماء.
- وهو تكريم للروح القدس الذى عمل فيهم وقدّسهم.

٣) والبخور حول الشعب هو لتقديسهم ولرفع غضب الله عنهم بسبب الخطية: «قال موسى لهارون خذ المجمرة واجعل فيها ناراً من على المذبح وضع بخوراً واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب، فقد إبتدأ الوباء... فوضع البخور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء» (عد١٦ :٤٤). وحينما يضع الكاهن يده على رؤوس الشعب بالبخور، فإنه يمنحهم بركة الكنيسة ليكفوا عن خطاياهم ويثبتوا فى الكنيسة كأولاد فى حضن أمهم.

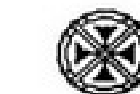
٤) إعطاء البخور للكهنة هو لأخذ بركتهم وصلواتهم لتُرفع مع صلوات الشعب كأعضاء فى جسد المسيح.

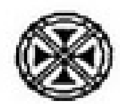
يقول القديس الأنبا يوساب الأبح: «يبخر الكاهن أمام رئيس الكهنة بإعتباره مفضل جداً إذ ليس فقط فيه روح الله، بل هو مستودع الروح القدس، وقد أُعطِى سلطاناً أعلى ليحل ويربط، ويكون ذلك نافذاً فى الأرض وفى السماء، ويغفر الخطايا فتغفر ويمسكها

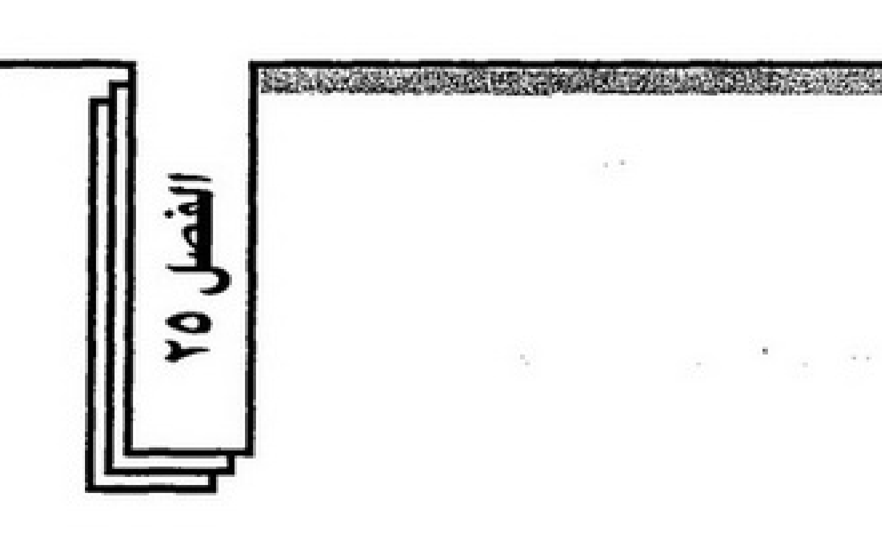
على أصحابها فتُمسك. لذلك فالبخور يُقدم لروح الله والسلطان الإلهى الذى يحمله (رئيس الكهنة) لمجد الله».

ويقول **القديس مار افرآم السرياني:** «قد جعلت ذاتى كنيسة للمسيح وقربت له داخلها بخوراً وطيباً بأتعاب جسدى». ويوصى قائلاً: «قدموا البخور لهيكل الله، قدموا بخوركم إلى بيت الله لمجده ولعظمته لأنه هو الذى يسكن فيه».

ويقول **يوحنا كرونستادت:** «حينما نطوف بالبخور حول المذبح ونقدمه للأيقونات ولأجساد القديسين والشعب فإنما نحن نجمع صلوات الجميع كصوت واحد يحمله البخور المقدس، وترفعه الملائكة المنوطة بالخدمة، مع تشفعات العذراء مريم. وهكذا تتقوى صلواتنا وتشفعات القديسين».







النور

فى الكنيسة الأولى

النور

فى الكنيسة الأولى

طبيعة المسيح النورانية

لقد صور لنا السيد المسيح طبيعته النورانية بقوله «أنا هو نور العالم»، وهنا أوضح لنا رمز النور فى الكنيسة كصورة ملأت آفاق الليتورچيا والمناخ الكنسى بكل فنونه المقدسة بل وملأت العالم كله، والتى لو ضاعت منا كحقيقة إلهية لفقدنا حياتنا الأبدية.

فالنور فى الكنيسة كناية عن حضور الله الذى قاد شعب إسرائيل فى البرية على هيئة عمود من السحاب المضئ يضئ لهم الطريق نحو كنعان الأرضية، ليصير لنا نوراً يأخذنا إلى كنعان السمائية، إذ أن من يتبعه لا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة (يو٨ :١٢)، أى أنه نور يعاش بالليل والنهار وفى كل الأيام، نور للحياة بجملتها، وهو منبع النور ومصبه.

فطبيعة المسيح النورانية تشع كصفة إلهية دخلت العالم فى شخصه الإلهى، فرفع النور من رمز إلى حق يعاش لما إستعلنه فى ذاته كحقيقة إلهية دائمة تصلنا على المستوى المفهوم والمحسوس.

وهذا النور الإلهى الحقيقى يشبه نور النهار الساطع ونور الحق الكاشف الذى يفضح الخطية ويبددها، والذى ايضاً يستعلن ويكشف الأسرار العليا المخفية لأقوال المسيح ووصاياه (يو١٢ :٣٥) (يو٩ :٤)، والإيمان به كنور حقيقى (يو١ :٩) إذ أنه جاء نوراً إلى العالم ليس فيه ظلمة البتة (١يو١ :٥) حتى أن كل من يؤمن به لا يمكث فى الظلمة (يو١٢ :٤٦).

فالنور هو إستعلان معرفة الله للقداسة، وهو الذى يكشف الظلمة وأعمالها فيبددها «يضئ فى الظلمة» (يو١ :٥)، فحينما يوصف الله بالنور، لا يظن أحد أنه نور مرئى بالنظر أو بالفكر، بل هو طبيعة الله، وهو النور الذى جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله غير المدركة.

إنه ليس نور المعرفة والبصيرة، لكنه نور الخليقة الجديدة نور الحياة الأبدية، ذلك النور الجوهرى هو نور الاستعلان المشرق والمفرح والبهى الذى به نعاين النور «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦ :٩) فكما أنه هو القداسة المطلقة والحق المطلق، كذلك هو نور العالم المطلق الذى لا يدنى منه، والذى به نصير أبناء للنور (يو١٢ :٣٦).

وحينما يعلن السيد المسيح أنه «نور العالم» فهو بهذا يعبر عن روح رسالته وفعلها: أنه **هو الكاشف والمعلن عن الله فى العالم المظلم**. هو النور، نور الحياة، النور المعطى الحياة، أو بمعنى آخر النور بالمعنى الإلهى هو «الحياة فى عالم الله».

إن المسيح هو عمود النور الذى يقود عائلة الله عبر التاريخ، أى أعضاء جسده السرى ـ كنيسته ـ فى طريقها الضيق الكرب، ليصل بها إلى الميناء الحقيقى فى أورشليم السمائية.

لقد دخل النور الحقيقى إلى العالم وهو أصلاً الملتحف بالنور كثوب (مز١٠٤ :٢) لينير الخليقة كلها، وهذه الحقيقة يدركها كل من إستنار وإلتصق به «الرب نورى وخلاصى ممن أخاف» (مز١٢٧ :١) **فالنور مرتبط بالخلاص**، والنور والمجد معاً لا يفترقان، ويطيب للآباء الأولين أن يمزجوا النور بالخلاص وبالمجد وبالتسبيح وبالشفاء أى بالتجلى الروحى (أش٦٠ :١-٢١ + مل٤ :٢)، كما فسر الآباء «النور» بأنه وصايا الله، وبعضهم اعتبر أن «الهيكل» هو «النور».

النور فى كنيسة العهد القديم

يتضح من أقوال آباء الكنيسة الأوائل أنهم رأوا فى خيمة الإجتماع معان وإشارات تمثل أهم الرموز الكتابية فى العهد القديم التى تقف كنموذج ومثال لمسكن الله السمائى، وهذا ما شهد به الشهيد إسطفانوس: «أن يعملها على المثال الذى كان قد رآه» (أع٧ :٤٤)، وكذلك القديس بولس الرسول فى رسالته للعبرانيين: «انظر أن تصنع كل شئ حسب المثال الذى أُظهر لك فى الجبل» (عب٨ :٥٥).

فالخيمة كانت تصويراً للمسكن الذى أراه الله لموسى على الجبل، فصنع كل شئ على مثاله، الأمر الذى وصفه القديس يوحنا اللاهوتى عندما رآه: «ثم بعد هذا نظرت وإذا قد إنفتح هيكل خيمة الشهادة فى السماء» (رؤ١٥ :٥).

نستطيع أن نلمح المغزى الروحى والمعانى الخفيـة للنور بكل وضـوح فى مسكن الله السمائى حيث موضع قدسنا (أر١٧ :١٢) والسيد الرب جالس على كرسيه العال يملأ الهيكل (أش٦ :١) وهو الذى السموات وسماء السموات لا تسعه (٢ أى٦ :١٨).

لذا نلاحظ أن الله نفسه أمر بعمل منارة فى بيته واهتم أن يتزين بالأنوار، وكانت السرج تضاء باستمرار حسب أمره، وكان إطفاء السرج وعدم الإهتمام بإضائتها يعتبر خيانة للرب تستحق العقوبة الشديدة، وفى هذا يقول الكتاب المقدس: «لأن أباءنا خانوا وعملوا الشر فى عينى الرب إلهنا، وتركوه.... **وأطفأوا السرج**، ولم يوقدوا بخوراً... فكان غضب الرب على يهوذا وأورشليم، وأسلمهم للقلق» (٢أى٢٩ :٦).

لقد إزدانت خيمة العهد القديم **بالمنارة الذهبية** ذات السرج السبعة، والتى يشع منها النور الذى ينبعث ليضئ على الجالسين فى الظلمة، وهى ترمز إلى المسيح كنور العالم الذى دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب (١بط٢ :٩).

فالمنارة تخبرنا عن التدبير الممتلئ صلاحاً الذى أعده الله لمحبيه قبل مجيئه الثانى وشروق شمس البر فى كمالها لتنهى كل ظلمة ليل فى هذا العالم: «لأن ليلاً لا يكون هناك» (رؤ٢١ :٢٥). فالمنارة هى لزمان الليل كرمز للمسيح الذى ينير لأولاده المتغربين فى ليل هذا العالم والسالكين فى النور (١يو١ :٧)، وهى ذات سبعة سرج لأنها تشير إلى المسيح الذى هو بهاء مجد الله (عب١ :٣) المتكامل فى ضياء نوره، كما ترمز السبعة سرج أيضاً إلى روح الله فى ملئه وكمال قوته «السبعة الأرواح التى أمام عرش الله» (رؤ١ :٤)، فإذا كانت المنارة تشير إلى نور المسيح، ففى نفس الوقت تشير إلى سبعة أرواح الله وإلى الروح القدس الذى أشرق فى قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله فى وجه يسوع المسيح (٢كو٤ :٦)، فهى تشير إلى الروح القدس عاملاً فى قديسيه ممجداً للمسيح، آخذاً مما له ليخبر به الذين هم له، فهى بسرجها السبعة تلقى بضوئها فى حضرة الرب: «وأمام العرش سبعة مصابيح متقدة هى سبعة أرواح الله» (رؤ٤ :٥).

وهكذا تلقى المنارة نور ضياء سرجها السبعة على الخيمة، وأول شئ هو أن يقدم الشعب الزيت النقى الضرورى لإيقاد السرج، لكى تكون مضيئة أمام الرب ليل نهار.... «فالله نور وساكن فى النور وتسبحه ملائكة النور». وأول ما تحتاجه الخدمة فى القداس هو النور. وكل من يريد أن يأتى إلى الرب يلزمه أن يسلك فى النور، وكما قال القديس يوحنا الرسول

بخصوص مجئ المسيح إلى العالم: «كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتياً إلى العالم» (يو١ :٩) «...الظلمة قد مضت والنور الحقيقى الآن يضئ» (١يو٢ :٨).

فلم تكن المنارة لمجرد الإضاءة فحسب، وإنما كانت جزءاً لا يتجزأ من الطقس التعبدى ولها مفاهيمها اللاهوتية والروحية، فالنور يذكرنا بالله الذى أوجده كأول أعمال خلقته (تك١ :٣)، وفى النور يسكن الله (تك٢٤ :١٠) وبه يلتحف (مز١٠٤ :٢)، والرب هو نور شعبه (أش١٠ :١٧) ويضئ عليه بمجيئه لخلاصه (أش٩ :٢) كما يضئ على الأمم والشعوب (أش٤٢ :٦) ليحولهم من أبناء الظلمة إلى أبناء النور. لهذا ففى طقس العماد عندما يجحد طالب العماد الشيطان ينظر إلى الغرب إشارة إلى مملكة الظلمة التى لأبليس، وعندما يعترف بعمل الله الخلاصى ينظر إلى الشرق إشارة إلى شروق مملكة النور التى لله.

ووجود **السرج السبعة** إنما هو إشارة إلى عمل الروح القدس النارى الذى يضئ فى الكنيسة ويلهبها بنار الحب الإلهى ويعمل فى حياتها السرائرية بل وفى كل عمل روحى تمتد إليه يد الكنيسة، لكى يعيش المؤمنون فى إستنارة دائمة، ولذا نرى الكنائس فى سفر الرؤيا على شكل منائر سبع (رؤ١).

وكما عبر **القديس ميثوديوس** بقوله: «إن الخيمة هى رمز للكنيسة، أما الكنيسة فهى رمز للسمائيات»، كذلك نجد أن نور الخيمة هو مثال لنور الكنيسة، وبه نستطيع خلال المحسوسات أن نرى مقدماً صورة الأمور الإلهية، لأننا حتى الآن لا نعى الحقائق كما هى فى الحياة الأبدية، إذ لا نقدر على رؤية الأمور الخالدة النقية النورانية كمن لا يستطيع التطلع إلى أشعة الشمس.

فإذا كانت الخيمة ظلالاً لصورة السمائيات، ونحن الآن نعاين صورة النظام السمائى، فإنه بعد القيامة ستتمثل لنا الحقيقة واضحة عندما نرى المسكن السمائى، أى المدينة التى صانعها وبارئها الله (عب١١ :١٠)، وسنراها وجه لوجه وليس فى ظلمة ولا خلال جزئيات (١كو١٣ :١٢).

النور فى كنيسة العهد الجديد

تسلمت الكنيسة المفاهيم الروحية للنور من طقوس العبادة فى خيمة الإجتماع، لذا إستخدمت كنيسة الرسل الأنوار أثناء العبادة، فلا يمكن لسفر أعمال الرسل أن يروى لنا عن وجود مصابيح كثيرة (أع ٢٠ :٨) أثناء الإفخارستيا فى ترواس بلا معنى، فلو أنها كانت لمجرد الإضاءة فقط لما كان هناك داع لذكرها، لكن هذا الطقس كان طبيعياً منذ بدء كنيسة الآباء الرسل كطقس روحى يمس حياة العابدين. وقد سلكت الكنيسة دوماً بهذا الروح، فنجد الشاعر الأسبانى **برودنتيوس** *Prudentius* فى القرن الرابع يتحدث عن السرج المنيرة داخل الكنيسة وقد إنعكست أضواؤها على زجاج الكنيسة النقى وكأنها السموات قد تلألأت بالنور. وفى نفس القرن قدم **الأب بولينوس** أسقف نولا شهادة مشابهة عن إستخدام النور أثناء العبادة، وقد وصف كيف كان يقدم الشموع بنفسه: «كان المذبح بهياً مضيئاً بشموع كثيرة... وكانت تضاء بالليل والنهار فكان الليل كأنه نهار والنهار يصير بهياً كالسماء».

فى إحدى كتابات **القديس إبيفانيوس** أسقف سلاميس يسرد قصة يظهر فيها كيف كانت الكنائس تتميز بالشموع المضيئة فى أيامه (القرن الرابع): «وبينما كان سائراً وجد مكاناً مضيئاً كالنهار، فلما سأل عن هذا المكان أخبروه أنها كنيسة».

وفى القرن السابع نسمع فى إيطاليا عن حمل الشموع فى مسيرة الأسقف عند دخوله الهيكل لبدء الصلاة وأمامه سبعة شمامسة حاملين شموعاً مضيئة، وعند لحظة دخول الهيكل ينقسم الشمامسة أربعة إلى اليمين وثلاثة إلى اليسار ليعبر الأسقف فى الوسط ويدخل الهيكل، وعند خروج الشماس لقراءة الإنجيل يسبقه شماسان حاملان شمعتين مضيئتين كرامة للإنجيل.

إن إستخدامنا فى الكنيسة للنور بكل صوره سواء مصابيح أو سرج أو قناديل إنما ينقلنا من النور المادى إلى النور الحقيقى والروحى لنشارك الملائكة النور (٢كو١١ :٤) ولتستنير عيوننا ويفرح قلبنا (أم١٥ :٣٠) ويصير جسدنا كله منيراً (مت٦ :٢٢) بإتحادنا بالنور الإلهى الذى ينير علينا بحضرته (رؤ٢٢ :٤) وينقلنا من الظلمة إلى نوره العجيب (١بط٢ :٩) فنكون نحن نوراً بحلوله فينا (١كو٣ :١٦ ؛ ١كو٦ :١٩)، نكون نوراً فى المعمودية التى هى إستنارة، ونكون نوراً بسر الميرون إذ نصير هياكل للروح القدس.

لذلك ترتيب إستخدام النور هو فريضة دهرية (خر٢٧ :٢٠)، وعندما تُوقد الشموع فى قراءة الإنجيل فذلك لأن كلامه هو نور، وحينما نوقدها على المذبح فذلك لأنها ترمز إلى ملائكة الذبيحة، وحينما نوقدها أمام أيقونات القديسين فذلك لأنهم نور على الأرض ولأنهم سرج موقدة منيرة يبتهج بنورهم (يو٥ :٣٥).

أما السراج المنير فى شرقية الكنيسة (حضن الآب) المضاء ليلاً ونهاراً فهو يرمز إلى النجم المشرق الذى ظهر للمجوس ليدخل بهم إلى المسيا المخلص، أما الشمعدانين حول المذبح فيرمز بهما إلى الملاكين المرافقين لجسد السيد الرب فى القبر واحد عند الرأس والآخر عند القدمين، والسرج التى تضاء أمام أيقونات القديسين إنما تعلن أنهم صاروا بالمسيح يسوع نوراً للعالم وكواكب مضيئة فى الفردوس. وفى تذكارات الشهداء والقديسين تضاء الشموع تكريماً وتحية لأرواحهم التى أضاءت فى العالم ساعة ثم إنطفأت «لتضئ كالجلد فى ملكوت الله».

وفى تاريخ بابوات روما نقرأ عن الترتيبات الفصحية التى رتبها البابا زوسيموس سنة ٤١٧م عن كيفية صلاة تكريس الشموع ليوم سبت النور وشموع الفصح... وفى أخبار اغريغوريوس الكبير سنة ٦٠٥م وجدت رسالة يرتب فيها كيفية الصلاة على الشموع وضرورة إضاءة جرن المعمودية ليلة الفصح بشموع تضاء من قناديل الكنيسة وليس من خارجها. كما نسمع عن ضرورة طقس إيقاد الشموع ليلة الفصح فى الطقس الأسبانى، إذ يبتدئ الأسقف الليتورجيا بإحتفال إيقاد الشموع ثم يدخل الكنيسة مع خورس الشمامسة قائلين: «أيها النور الحقيقى»، ويشرح هذا الكتاب أيضاً معنى تقديس الشموع وإنارتها بالنسبة لمضمون القيامة والنور الذى إنبعث منها على العالم.

وفى إحدى المخطوطات يُذكر أن شمعة الفصح الكبيرة كان يُحفر عليها عدد السنين التى مضت منذ الفصح الأول، ويذكر أحد الرحالة الإنجليز أنه رأى الشمعة مكتوباً عليها «قد مضى ٦٦٨ عاماً على قيامة المسيح».

أما فى طقس المعمودية، فكان يُعطى لكل مُعتمد بعد عمادة شمعة مضيئة تعبيراً عن الإستنارة التى نالها بسر العماد، كذلك كان المعمدون الجدد يدخلون الكنيسة وفى أيديهم الشموع المضاءة. لذا يقول **القديس أمبروسيوس** أسقف ميلان (٣٧٤م) لأحدى العذارى: «هل نسيت هذا الإحتفال المهيب فى الكنيسة بين الأنوار الكثيرة المتلألئة فى أيدى

المعمدين وكنتِ واحدة بين الجندات لملكوت الله كعروس الملك؟».

ويقول **القديس اغريغوريوس النزينزى** (٣٥٨م): «إن ملابسنا البيضاء وحملنا للشموع المضاءة فى إحتفالنا الذى عيّدنا له بالأمس..... وقد أضأنا الليل بأنوار الشموع الكثيرة..........».

فإستعمال الأنوار فى الكنيسة تسليم رسولى منذ كانت مصابيح العلية (أع٢٠) ومنذ سرج المنارة (٢أف٤ :٢)، إذ أنها لم تكن رمزاً حتى يُحكم ببطلانها بمجيء المرموز إليه. وورد فى **أوامر الرسل**: «يجب أن تكون الكنيسة منارة بأنوار كثيرة مثل السماء»، فتقاد بالأنوار وبالشموع والقناديل عند ممارسة الأسرار والعبادات. ويعتبر **القديس اغريغوريوس النزينزى** أن الأنوار من جملة الطقوس المستعملة، ويؤكد جيروم أنها كانت تستعمل حتى فى النهار.

وغاية الكنيسة من إستعمال الأنوار أن تحضر أمامنا تجلى المسيح (مت٨ :٢٨) وتؤكد إلتحافنا بالنور (رؤ١ :١٢) وبهذا تكون الكنيسة منارة وسفارة سمائية تعكس مجد وبهاء السماء (رو٢١ :٢٢) على اعتبار أنها سماوية مزينة بالأنوار وساطعة بالقناديل والمصابيح التى هى أشبه بالنجوم.

إن أهم وظائف التقليد الليتورجى هى حفظ ملء العقيدة، ملء لا يكون فهمه وحفظه حكراً على شخص واحد أو عصر واحد أو جيل واحد دون الباقين، لذا ظلت الكنيسة تحفظ الأنوار والشموع والقناديل ضمن نظامها وتحديداتها الطقسية لتكون حياة الكنيسة نفسها مواءمة لرسالتها السمائية النورانية المضيئة التى تملك نور العالم الذى لا يُدنى منه كرأس لها ورئيس.

وتتكلم الأنوار والشموع بالإلهيات فى الكنيسة لتعلن حضرة الله النورانية فى الوجدان الكنسى، ففى الطقس البيزنطى يبارك الأسقف الشعب بشمعة ذات فرعين *Dikeri* أو ثلاثة فروع *Triki*، أما فى الطقس القبطى فيبارك الكاهن الخديم الشعب بالصليب يرافقه ثلاث شمعات أثناء رفع البخور وطلب الرحمة من الله (إفنوتى ناى نان)، وأثناء قراءة الإنجيل تُضاء كل أنوار الكنيسة وتحمل الشموع عن يمين المنجلية ويسارها لأن «كلامك سراج لرجلى ونور لسبيلى» وإشارة لعمل الإنجيل فى إنارة العالم. وتُستخدم الأنوار ـ

المصابيح والقناديل ـ كجزء من طقس صلاة الجنازات كما جاء فى أعمال إستشهاد القديس كبريانوس وفى وصف جنازة القديس ماكرينا أخت القديس اغريغوريوس أسقف نيصص وجنازة الإمبراطور قسطنطين، كإشارة إلى عبور النفس الراحلة إلى النور السمائى والفرح الأبدى.

وبواسطة النور تحقق الكنيسة ذاتها فى هذا العالم لتكون سر ملكوت النور، ولتكون صورة أرضية للمدينة السمائية، تمثل المؤمنين المستنيرين المعمدين الحاضرين فى معية النور الحقيقى.

ولاهوت النور يدخل فى أدق تفاصيل حياة الكنيسة كما ويطبع التقليد الليتورجى بالروحانية الأرثوذكسية، إذ فى الخبرة الليتورجية نتحد بالنور، فنعيش حضور ملكوت الدهر الآتى فيما بيننا بنوره الذى لا يغرب، تحقيقاً يرتقى بالمنظور إلى اللامنظور، وبالأرضى إلى السمائى، وبالمادى إلى الروحانى.

ومن هنا يمكن فهم طبيعة الكنيسة النورانية المستمدة من طبيعة الرب النورانية، فنفهمها كسر إستناداً إلى بعدين: الكونى والخلاصى. **بُعد كونى** لأنها وهى فى «هذا العالم» تعلن عالم الله الحقيقى والأصيل، فنحن ندرك سمو رسالتنا وعمق إحتياجنا فى ضوء النور الإلهى وتبعاً له. **والبُعد الخلاصى** لأن المسيح خلص العالم الذى تعلنه الكنيسة.

وتقول صلاة رفع بخور العشية التى تُنسب إلى القديس أثينوجينس كما ذكرها **القديس باسيليوس الكبير** فى كتابه عن الروح القدس: «لقد رأى آباؤنا أن لا يتقبلوا موهبة النور المسائى بصمت بل أن يقدموا شكراً فى حال ظهوره».

وأيضاً فى تسبحة الصباح (رفع بخور باكر) التى وضعها **القديس هيلارى** أسقف بواتييه ضمن ألحان الكنيسة اللاتينية: «يا أبا المجد والنور، المشرق بالبهاء والسرور، لقد ولت ساعات الظلام وحلت أنوار الفجر بسلام».

كذلك نقول فى بداية التسبحة القبطية لحن «**تين ثينو**» أى «قوموا يا بنى النور لنسبح رب القوات» وكأن الرب قد ظهر ويستعد بنو النور ذو المصابيح الكثيرة الموقدة بالهتاف.

وكذلك فى **تسبحة باكر**: «أيها النور الحقيقى الذى يضئ لكل إنسان آتياً إلى

العالم.... فلتشرف فينا الحواس النورانية ولا تغطينا ظلمة الآلام...». **والذكصولوجية القبطية للقديسين الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا** تصفهما بأنهما «العمودان النيران والكواكبان المضيئان اللذان أضاءا نفوسنا بتعاليمهما المقدسة.... ».

وفى تشبيه طبيعة الكنيسة بالسماء نراها مضيئة بالأنوار ككواكب السماء لأن «المنائر السبع هى السبع الكنائس» (رؤ١ :٢٠) ذات المصابيح الكثيرة كما فى علية كنيسة الرسل (أع٢٠ :٨)، والشموع الموقدة على المذبح هى علامة نور الثالوث القدوس لأن الله لا يسكن إلا فى النور ولا يقترب إليه الظلام، لأنه نار آكلة تحرق كل ما هو خطية أو شر.

وعن علاقة الشمعة المضيئة بالإنجيل، فيحدثنا عنها **القديس چيروم** باعتبارها أمر مستقر فى الشرق منذ القدم: «فى جميع كنائس الشرق عندما يُقرأ الإنجيل تضاء الشموع حتى ولو كان نور الشمس يملأ الكنيسة، فالإضاءة ليست لتبديد الظلمة وإنما لإعلان الفرح» ولكى يكون النور المنظور إعلاناً وشهادة عن نور الإنجيل غير المنظور.

أما بخصوص طقس إيقاد الشموع فى مراسيم الجنازات فهو قديم فى الشرق أيضاً، ونقرأ عنه فى كتاب **يوسابيوس القيصرى** «حياة قسطنطين الملك»: «وأضاؤا شموعاً فى شمعدانات من الذهب ووضعوها حول جثمانه».

والقديس اغريغوريوس النيصى يصف مشهد جنازة أخته القديس ماكرينا سنة ٣٧٠م: «واصطف أمام الجثمان عدد غفير من الشمامسة (الدياكونيين) ومساعدى الشمامسة (الإيبدياكونيين) فى صفين، ملازمينه من البيت فى نظام والكل يحمل شموعاً مضاءة».

ويصف **القديس چيروم** مشهد جنازة القديسة باولا سنة ٣٨٦م وصفاً مؤثراً للغاية: «وحمل جثمانها بيد الأساقفة أنفسهم ووضعوها فى الصندوق وأصروا أن يحملوه على أكتفاهم فى حين كان باقى الرتب يحملون الشموع أمامها».

ويؤكد **القديس يوحنا ذهبى الفم** على مسيرة الشموع أمام الراحلين الأتقياء: «قل لى لماذا نسير بالشموع أمام هؤلاء؟ أليس لأننا نستودعهم كأبطال؟».

ويقص علينا المؤرخون الكنسيون الأوائل قصصاً واقعية تفيد وجود القناديل والشموع المضاءة فى كل طقوس الليتورچيا، وكذلك عثر علماء الآثار على مجموعة كبيرة من

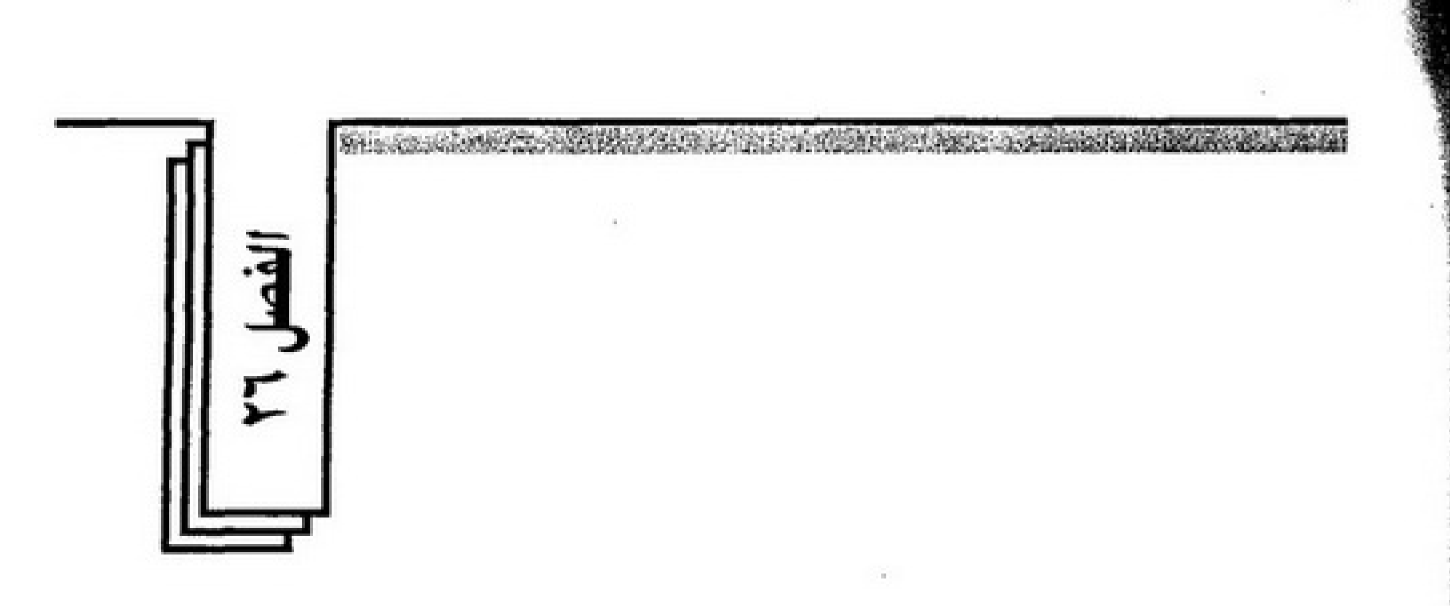
القناديل الفخارية والزجاجية والبرونزية التى كانت تُستخدم فى الكنيسة الأولى كنور منظور يعبر عن عطية النور الإلهى. وتبين هذه المصابيح والقناديل والشموع مكانة النور فى العبادة والرموز السرية العميقة التى تشير إليها، والمعروف فى الطقس الكنسى القديم أنه أثناء إيقاد الشموع والقناديل كانت تُقال صلوات خاصة مثل: «**لأنك أنت يا رب سوف تضئ شمعتى. أيها السيد الرب إلهى، أجعل هكذا ظلمتى**».

وقد عُثر على صلوات طقسية لتبريك مقدمى الشموع والأنوار فى القرن السابع فى كنيسة تور بفرنسا: «أيها الرب الأبدى النور الحقيقى صانع النور وواهبه، اسكب نورك الحقيقى الدائم فى قلوب المؤمنين بك. واسمح بأن كل من يزين هيكل مجدك المقدس بنور (شمعة أو قنديل) يخرج مُطهراً من كل الشرور حتى يصبح قادراً أن يتراءى أمامك بعد ذلك ومعه ثمار أفضل بالأعمال الصالحة فى هيكل مجدك السمائى فى مسكنك المستعد». وتوجد فى المتحف البريطانى مجموعة من المصابيح والقناديل التى دون عليها: «يا نور بهى» «نور الأنوار» «الرب نورى» «معرفة اللاهوت نور الله».

ويرى الآباء أن الشمعة الموقدة فى الهيكل تعلن أن الرب هو نور العالم الذى ينير لكل إنسان آت إليه (يو١ :٩)، أما الشمعة الموقدة أمام أيقونة العذراء فتعلن أنها أم النور، والشمعة الموقدة أمام أيقونة القديس والشهيد تعلن أنه هو السراج المزين الموضوع على المنارة فى أعلى البيت ليضئ لكل من فيه ونوقدها كتكريم وتسبيح صامت من أجل طلب شفاعتهم.

كذلك أكد الآباء على ضرورة أن يتوفر فينا حرارة وإشتعال القلب كالشمعة التى نوقدها، لأننا فيما نُوقد الشموع نتمثل بالذين قدموا نفوسهم ذبيحة حية، متوسلين أن تكون حياتنا منيرة، متشبهين بالعذارى الحكيمات ذوات المصابيح المضيئة، متمنين أن تكون سرجنا مُوقدة لتنير لمنْ هم حولنا، فنكون شهوداً للنور فى كل مكان حتى ينظر الرب من السماء إلى الشمعة الموقدة ويجعلنا ننير مثلها: «بنورك يا رب نعاين النور» متمثلين بالساكن فى النور الأعظم ليشرق علينا نحن الجالسين فى ظلمة العالم.





الموسيقى

في الكنيسة الأولى

الموسيقى

فى الكنيسة الأولى

تُعتبر الموسيقى من أقدم وسائل العبادة التى تقود المؤمن إلى جو سمائى يسنده فى تبعيته لله. ويربط البعض بين موسيقى الهيكل وموسيقى الكنيسة، ويبحثون عن التشابه بين الألحان الكنسية والألحان العبرية. وقد بدأ إستخدام الموسيقى منذ العهد القديم كما ورد فى (تك١٣ :٢٧، قض١١ :٣٤، ١صم١٣ :٦، ٢صم٢٣ :١، أش٥ :١٢، ١ملو٣٩ :٤٠، يشو٥٠ :١٦) ومن المعروف أن داود النبى مرنم إسرائيل كان يضرب على القيثارة لكى يطرد الأرواح الشريرة عن شاول.

وقد قام العديد من الآباء بكتابة التسابيح والأشعار والترانيم المسيحية، وكان للمسيحيين الأوائل آراء إيجابية بخصوص الموسيقى، فالقديس إفرآم السريانى وأمبروسيوس أسقف ميلان شجعا على الترنيم داخل الكنيسة، إلا أنه كانت هناك إعتراضات على ترنيم النساء فى الكنيسة. ويقول يوسابيوس القيصرى أن أول خورس للنساء فى الكنيسة أسسه بولس السموسطائى الهرطوقى.

ورفض إيسيذروس الفرمى وآباء كثيرون ترنيم المرآة فى الكنيسة، كما رفض أرنوبيوس إستخدام الآلات الموسيقية فى الكنيسة بصفة عامة خوفاً من إتباع عادات الوثنيين اللاأخلاقية. وربط الآباء بين إستخدام الآلات الموسيقية والتفسير الرمزى للكتاب المقدس.

وقارن الآباء بين ترنيم المسيحيين وغناء الوثنيين فتكلموا عن علاقة الموسيقى الوثنية بحركات الجسد... وبرهنوا على أن ترنيم المسيحيينبدون الآلات الموسيقية يعكس نقاء إيمانهم ويهبهم سلاماً وغبطة قلبية وفرح غير فانٍ ليس من هذا العالم.

إكتفت الكنيسة بإستخدام التسبيح بالأنتيفونا أو الفردى، فتنوعت الأوزان والطرائق لتكون ثمار الشفاه المعترفة باسم الله. والمقصود بطريقة الأنتيفونا «المجاوبة الصوتية» أى

طريقة الخورسين، خورس قبلى وآخر بحرى.

وترجع الأنتيفونا إلى الرؤيا التى رآها أشعياء النبى وسمعها من الخورس السمائى عندما يصرخ السيرافيم الواحد قبالة الواحد منهم (رؤ٤ :٨، ٥ :٩) ويقال أن بطرس الرسول رأى هذه الطريقة فى رؤيا. ويقال أيضاً أن طريقة الترتيل بالأنتيفونا أُدخلت إلى كنيسة ميلان نقلاً عن الآباء الشرقيين فى أيام القديس أمبروسيوس ومن ميلان إنتشرت إلى جميع أنحاء العالم.

أوضح **القديس كلمنضس السكندرى** أن الكنيسة منذ القرن الأول المسيحى لم تستخدم الآلات الموسيقية معللاً ذلك بأن هذه الآلات كانت تستخدمها الأمم والشعوب لإثارة الحقد والحروب: «فى إيطاليا يستخدمون البوق، وفى اليونان يستخدمون المزمار، والكريتيون يستخدمون القيثارة، والمصريون يستخدمون الطبول، والعرب يستخدمون الصنوج فى الحرب. أما آلة السلام الوحيدة فهى "الكلمة" الذى به وحده نكرم الله. هذا هو ما نستخدمه!! إننا لا نستخدم الآلات القديمة من مزمار وبوق وطبول وصفارة، هذه التى يستخدمونها فى الحروب وفى حفلاتهم».

لقد رأى آباء الكنيسة الأولون فى السيد المسيح نفسه «سر تسبيحنا» بل هو «آلة ترنمنا». لذا لزم أن يكون التسبيح قلبى للرب وباسم الرب، فهذا هو منهجنا، لكن إذا أردت الترنم واللعب على عود أو قيثارة فيقول كلمنضس السكندرى بأنه لا يكون عليك لوم، فإنك بهذا تتمثل بالملك العبرانى فى تقديمه الشكر لله إذ تقول النبوة: «إهتفوا أيها الصديقون بالرب، بالمستقيمين يليق التسبيح. إحمدوا الرب بالعود، بقيثارة ذات عشرة أوتار رنموا له. وغنوا له أغنية جديدة» (مز٣٣ :١). وما هذه القيثارة ذات العشرة أوتار إلا كلمة «يسوع» التى أُعلنت خلال حرف «عشرة» وهو حرف اليوتا والذى يمثل رقم ١٠ فى اليونانية وأول حروف فى كلمة إيسوس أى يسوع.

أكد الآباء على أن التسبيح لايكون بالضرورة بإستخدام آلات الموسيقى، لأنه فى جوهره ذبيحة حية مقدسة مرضية كعبادة عقلية (رو١٢ :١) فآلات تسبيحنا الحقيقية هى أن نقدم أجسادنا ذبائح لله وفى أن نقدم العبادة العقلية ليس بواسطة الآلات لكن بواسطة يسوع المسيح ربنا «فلنقدم به كل حين لله ذبيحة التسبيح» (عب١٣ :١٥).

وفرح التسبيح لم يكن فى الكنيسة الأولى مستنداً على الآلات الموسيقية، بل إعتمد على الترتيل والوزن واللحن كثوب سمائى ملائكى تُقدم به خدمة التسبيح، بترنيم منسجم تبلغ به الكنيسة إلى حالة شركة حقيقية مع الخوارس السمائية التى تسبح الله القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل (مز٢٢ :٣).

فاللحن هو لغة الروح التى تستمد منها النفس وعيها السمائى وتتنسم فيها رائحة الله فتتعلق بالحياة الأبدية وتتدرب على الجو السمائى الأفضل، لذلك كانت الكنيسة الأولى تنظم تسبيحها فى شركة الروح القدس، ذلك الروح الرقيق الوديع والهادئ، بعيداً عن الصخب والضجيج وعن كل ما يشوش دخولها فى سيرة الروحانيين، وهكذا تصل إلى التسبيح العديم الفساد الذى تبلغه لا إعتماداً على الآلات أو المؤثرات الخارجية وإنما بالإحتفاظ بهدف الخدمة فى عذوبتها، بدون أية مشاعر أرضية أو إعتماد على أشياء منظورة، وذلك إقتداءً بالملائكة الذين يسبحون فى خوارسهم.

إستبدلت كنيسة القرون الأولى الآلات الموسيقية التى كانت تُستخدم فى العبادة بـ «آلة الشفاه» مستبدلة المعدات الموسيقية بالتسبيح القلبى الذى نقدمه بشفاهنا بأصوات منسجمة خاشعة كوصية الرسول «مرتلين فى قلوبكم للرب» (أف٥ :٩) وذلك بإستثناء آلة واحدة من آلات هيكل الله فى القديم وهى الدُف (الصنوج) لضبط وزن النغمات بما يُعرف بالإيقاع أو الرتم الهارمونى.

إن مصدر فرح الكنيسة إنما يكمن فى تقدمة التسبيح للرب «ثمار الشفاه المعترفة باسمه» وبأفضاله الفياضة وتدبيره الخلاصى العجيب والثمين على خشبة الصليب المجيدة وإكماله خلاصاً هذا مقداره. وقد فسر الآباء إستخدام الآلات الموسيقية المذكورة فى المزمور (١٥٠) بطريقة رمزية فيها تقدم الكنيسة لعريسها السمائى تسبيحها كأداة موسيقية حية يلعب عليها الروح ويعزف ليُخرج تسبحة حب صادق لله.

ففى الخدمة الإلهية يترنم الروح وكأنه بِصوت البوق إذ بصوت البوق يقيم الأموات، ويسبح بالمِزمار لإن اللسان هو مزمار الرب، ويسبح بالقيثارة لأن الفم يحركه الروح القدس كالوتر، ويسبح بطبول ورقص إشارة إلى الكنيسة التى تتأمل القيامة من الموت خلال وقع الضرب على الجلود، ويسبح بصنوج حسنة الصوت لأن اللسان دُعى صنجاً لكونه يخرج

الصوت خلال الشفتين. كذلك تصرخ كل نفس وكل نسمة لأن الرب يعتنى بكل مخلوق يتنفس.

إن الغبطة الحقيقية فى التسبيح الإلهى تكمل فى جميع قديسيه هناك فى السماء حيث دوام ملك الله وديمومة صلاحه إذ لا تخضع الطبيعة بعد للخطية. هذا التسبيح لا يقدم بصوت خافت أو ضعيف إنما يُقدم بقوة تضارع أصوات البوق. كما إن إستخدام الخليقة فى هذا الكون الذى تتعدد وتتنوع صفاته تجعل من الكون أرغناً لله. فالمزمار والقيثارة والأرغن، تلك الآلات الصماء، تقترن أصواتها معاً بأصوات جوقات السماء مع عزف الأوتار ودق الطبول، إذ أن الأوتار المشدودة على الآلة الموسيقية تذكرنا بالرجولة الروحية وبرفض الخطية ومقاومة الشر بصلابة ورسوخ.

وما صوت الدفوف إلا تذوق الفرح الروحانى فى القلب والشركة مع الطبيعة الملائكية، وهذا هو ما يعنيه توافق الصنجين (أى الدفين)، فأحد الدفين يمثل الطبيعة السماوية للملائكة والآخر يمثل الخليقة البشرية، والخطية هى التى فصلتهما عن بعضهما، ولكن عندما يتحدا بصلاح الله نحو الإنسان حينئذ ترن تلك التسبحة الناتجة عن وحدتهما معاً، فتجثو باسم يسوع كل ركبة ممّنْ فى السماء ومنْ على الأرض (فى٢ :١٠). إنه تسبيح الإنتصار لهذين الدفين. ألم ينشأ إنسجامهما عن سحق العدو؟! لقد أُبيد تماماً. لهذا كل منْ له نسمة حياة يقدم تسبيحاً حاراً إلى الأبد ويسكب حمداً للرب على نصرته وغلبته، لأن التسبيح ليس لائقاً فى فم الخاطئ.

فالتسبيح لا يعتمد على آلات موسيقية بل يتضمن صوتاً من الحياة الأبدية حيث نسبح الله بلا نهاية، نسبحه فى جميع قديسيه أى الذين مجدّهم، ونسبحه فى جلد قوته الذى جعله لا يموت ولا يسود عليه الموت بعد، نسبحه فى أعماله التى عملها فى قديسيه لأنها أعمال قوته وهم بالحق أعمال قوته، نسبحه فى كثرة عظمته وأعمال بره التى يعملها فينا لكى يجعلنا نحن بره.

وما الآلات الموسيقية إلا قديسى الرب أنفسهم لأن البوق يمثل الوضوح الفائق لنغمة تسبيحهم، والمزمار يمثل تسبيحهم الروحى الذى من فوق، والقيثارة تمثل التسبيح الذى من الأرض لأنه خالق السماء والأرض، فبالمزمار نسبح الله على عطاياه السمائية وبالقيثارة نسبحه على عطاياه الأرضية. نسبحه بالدفوف وبالطبول أى بالجسد الذى سيتغير بعد

القيامة، ونسبحه بالصفوف أى بالخوارس عندما تكون جماعة المؤمنين متفقة متوافقة فى سلام معاً وفى وحدة، ونسبحه بالأوتار لأن صوتها من أسفل يتفق ويتناغم مع الأرغن الذى يعزف بنفخ الهواء ويبدو صوته من الأعالى فتتنوع وتتمايز الأصوات من كل نوع، لأن قديسى الله ستكون تسابيحهم متنوعة لكن متوافقة غير متنافرة، كما أن الأصوات الموسيقية مهما تنوعت تتلاقى لتكوّن أحلى النغمات وأكثرها إنسجاماً.

نسبحه بالدفوف (الدفان = الصنجان) عندما يلمس أحدهما الآخر لكى يحدثا صوتاً، فهما كالشفتين المسبحتين فى الفم الواحد. إنها صنوج التهليل التى يجب ألا يظن أحد أنها بلا حياة، إذ أنها مفرحة ولا ينطق بها ولا يعبر عنها. ويشار إلى أنواع الآلات الموسيقية على أنها ترمز إلى ثلاثة تصنيفات للأصوات: الأولى ترمز لتسبيح العقل والثانية لتسبيح الروح والثالثة لتسبيح الجسد فى الإنسان.

فالقديسون يسبحون الله فى نفوسهم لأنهم قوته وعمله وعظمته التى أبدعها فيهم. إنهم معاً بوق ومزمار وقيثارة ودف وخورس وأوتار وأرغن وصنوج التهليل الحسنة الصوت، وكل ذلك بسبب ترتيلهم بإتفاق وإنسجام معاً. ولكن طالما أن الجسد ستفوح منه رائحة الموت، إذاً كل نسمة (أى كل روح) يجب أن تسبح اسم الرب إلهنا.

وقد أُستخدمت الأدوات الموسيقية فى العهد القديم فقط، أما تسبيح الكنيسة فقد وجد كمال تعبيره ومعناه فى حياة السيد المسيح وعلى شفتيه. لهذا اعتبرت كنيسة الاسكندرية أن حنجرة المؤمن أجمل الآلات الموسيقية، مكتفية فقط بإستخدام الدف لضبط إيقاع الخورس. فالله يطلب الآلات الموسيقية التى للقلب والعقل والتى يعزف عليها بروحه القدوس، فالشعب كله منذ أيام الكنيسة المبكرة كان ينقسم إلى خورسين واحد شمالى (بحرى) وآخر جنوبى (قبلى) ليشترك الكل فى ترنيم إستيخونات المزامير وألحان التسابيح بالتتابع، وروح الله يعزف على ألسنتهم وينشد ألحانه بفمهم. وما الآلات الموسيقية إلا إنفتاح القلب وممارسة البر والعبادة بخشية والتهلل برعدة كمرآة تعكس سماتهم الحقيقية أمام العظمة الإلهية.

علمت الكنيسة أولادها أيضاً أن يجعلوا من ألسنتهم آلة ماهرة تقدم التسبيح الذكصولوجى، ومن حناجرهم أداة لتمجيد العلى فى سمو مجده بكل همة ونشاط،

مسبحين بمخافة وصلاح ومعرفة وقدرة ومشورة وفهم وحكمة، مخبرين بأعماله العجيبة الكريمة التى وهبتنا نعمة الملوكية والمسحة المقدسة.

الموسيقى القبطية

لقد نشأت الموسيقى القبطية مع الكنيسة نفسها، وهى ذات نغم أصيل تم ضبطه فى أزهى عصور الكنيسة الروحية وهو عصرها الرسولى الأول، عصر إنسكاب المواهب بلا حدود. ويرجع بعض الدارسين تاريخ بداية وضع الإيقاعات الموسيقية للعبادة الليتورچية القبطية إلى الأقباط الأولين الذين دُعوا «أطباء» ـ للروح والنفس ـ وخاصة النساك الساكنين فى نواحى الإسكندرية المدينة العظمى، إذ أن أثار هذه الأديرة فى منطقة برج العرب وما بعدها لا تزال موجودة حتى الآن.

ويذكر فيلو المؤرخ اليهودى المعاصر للرسل أن الترنيم كان يتم فى الموسيقى القبطية بطريقة الأنتيفونا أى الواحد قبالة الآخر، وأن أنواع أوزان هذه الموسيقى قد قُسمت طبقاً لمقاييس مختلفة، وأن هناك رتب شرف للذين يمارسون العبادة. ففى الأيام الأولى للإيمان ومنذ أيام مارمرقس بطريرك الاسكندرية الأول ومبدد الأوثان صاحب السيرة المطوّبة وأول من رأس كنيسة مصر كأسقف، إضطلعت الكنيسة بوضع التسابيح بألحانها وأوزانها وأوقاتها لتكون غاية فى الروحانية والعجب، فبدأت الخدمة الكنسية بداية ناضجة وكاملة منذ الأيام الأولى.

وتتسم الموسيقى القبطية بروحانيتها وعمقها وخشوعيتها التى تسمو بالنفس لتعاين جمال الأبدية وشوق السماء ولتنتقل إلى الخدمة غير المنظورة والتمتع بالإلهيات. كما إتسمت أيضاً بعمق التعبير وتميزها بالهارمونية الصوتية عن جميع ألحان كنائس العالم، وبعدم خضوعها للضبط الموسيقى الألى، إذ أن مصدر تأليف اللحن القبطى ليس موسيقياً ألياً، وبالتالى ليس مركباً تركيباً ميكانيكياً، ولكنه نابع من مصدر إحساس روحى. فالملحن فى تأليفه للموسيقى لم يكن يرتبط بأصول وأوزان وقواعد موسيقية، بل كان مرتبطاً بمعنى اللحن الروحى فصوره بإحساسه، لذا جاءت الموسيقى القبطية معبرة عن المعنى اللفظى وعن المشاعر المصاحبة للمناسبة الكنسية.

إرتبط اللحن القبطى بالأصول الصوتية القديمة، وهناك طرق عدة مستخدمة الآن فى التسبيح الكنسى وفقاً للمناسبات منها: الكيهكى، الصيامى، الشعانينى، الحزاينى، الفرايحى، والسنوى. وهى طرق لأنغام موسيقية تصور الحدث الكنسى تصويراً يفوق المقدرة العادية بحيث يدخل بالعابدين فى روح المناسبة وجلالها.

وساهمت الموسيقى الليتورچية بطرق إيقاعها فى أن تبرز وتحيى أحداث الإنجيل على مدار السنة، لتحيى فى المؤمن الاعتراف بأفضال الرب الخلاصية وتكريس قلبه له، لأن شخص المسيح هو مركز العبادة القبطية وهو المُحتفى به فى تلك المناسبات كرأس الكنيسة وأصل وأساس وجودها وبنيانها.

وبذلك تكون الموسيقى القبطية وسيلة حية وأيقونة صوتية لحقائق الإيمان وإستعراضاً *Panorama* متنقلاً من عام إلى آخر لأحداث الخلاص العظمى من ميلاد وعماد وصوم وآلام وقيامة وصعود وعنصرة. إنها دورة متعاقبة لإيقاعات موسيقية تتنوع خصائصها لتخدم الحدث الكنسى، مكونة الشكل العام للعبادة التى يكون فيها المؤمن قد أدرك ما تنطوى عليه من حقائق الإيمان وتزيد شعوره بالإنتماء لمسيحه وتربطه بالجانب التاريخى للعقيدة.

وهكذا تكون الكنيسة قد وضعت كل عنصر فى مكانه المناسب حسب قول المزمور: «يوم إلى يوم يذيع كلاماً» (مز١٩ :٢) عندما تُعين أعضاءها على أن يحيوا وفى أذهانهم أهم الأحداث التى يرتكز عليها خلاصهم. ومن خلال إيقاع الموسيقى تخاطب وجدانهم لتغذيهم كنسياً وتربيهم روحياً فى تناسب وتوازن يحفظ تقوى المناسبات فى كل ملئها.

فمن الرائع أن تكون الكنيسة قد ميزت كل مناسبة بألحان مميزة: ففى موسم التوبة والندامة والصوم تكون ألحانها بإيقاع صيامى يتناسب معها، وفى دخول المسيح أورشليم تكون ألحانها بإيقاع شعانينى معبرة عن دخول المسيح الملوكى والإنتصارى، وفى أسبوع الآلام تكون ألحانها بإيقاع حزاينى معبرة عن روح المناسبة، وهكذا يجد المؤمنون كفايتهم وشبعهم فى معبودهم المسيح ربنا وفى تأملهم فى موضوع المناسبة المقدسة وعيشها.

لقد إنتقل اللحن القبطى من مجرد كلمات مُلحنة بواسطة موسيقى صوتية إلى تعبير تجسيدى عن الطقس. وعندما نقوم بتحليل الألحان من الناحية الموسيقية سنقف على مدى إرتباطها بالمفهوم العقيدى وبكلمات العبادة ومفاهيمها الروحية، فكل لحن يصور معناه

تصويراً يفوق المقدرة العادية، بحيث يصعب بل ويستحيل تأليف شئ مماثل له الآن حتى ولو بواسطة أعظم الموسيقيين المحدثين.

إن التأليف المبكر لموسيقى الألحان القبطية ـ منذ العصر الرسولى بحسب شهادة يوحنا كاسيان ويوسابيوس القيصرى ـ جعلها تعتمد فوق كل شئ وبالرغم من كل شئ على الإلهام الذى كان من طابع العصر الرسولى. وأضحت الموسيقى فى كنيستنا جزءً مخصصاً للروح فى العبادة الطقسية لتخدم به الله بكل طاقاتها الشعورية والعاطفية.

وفى سنكسار الكنيسة القبطية (٤ كيهك) ترد قصة مؤثرة وطريفة عن أحد من المرتلين (إبصالتس) الذين ينشدون الترانيم والألحان اسمه «فليمون» والذى لرخامة صوته الشجى إنحلت قلوب كهنة الأوثان الذين كانوا يسمعونه فآمنوا بالرب.

ويرى علماء الموسيقى، والذين أبهرتهم الألحان القبطية، أنها أقدم موسيقى كنسية موجودة فى العالم، وأنها تشكل أقدم مدرسة موسيقى فى العالم الحالى. وقد حفظت الكنيسة هذه الموسيقى ميراثاً ثميناً لا يقدر بثمن، وذلك بحكم طبيعتها المحافظة ولكونها كنيسة تقليدية. وشهد العلماء بأن الموسيقى القبطية عظيمة بل يمكن القول بأنها إحدى عجائب العالم السبع. فهى ملحمة روحانية تلهب مشاعر السامعين، وأُعتبرت الموسيقى القبطية جسراً بين الشرق والغرب، إذ تضع أسلوباً جديداً فى أيدى الموسيقيين الغربيين... إنها فن روحانى رفيع ولطيف وعظيم، خاصة من جهة عنصر اللانهائية الذى نفتقر إليه اليوم.

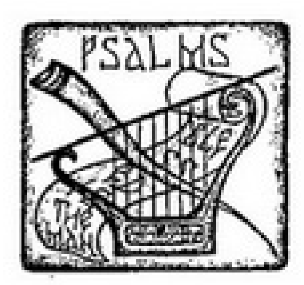
وقيل أن الموسيقى الغربية تجد أصلها فى مصر القديمة، ولا توجد أى موسيقى كلاسيكية يمكن أن تقارن بموسيقى الأقباط ولا بفاعليتها الهائلة... وجمالها فى كونها صوتية تماماً، حتى أُدخل فيها فيما بعد «الدف» و«المثلث» فى العصور الوسطى.

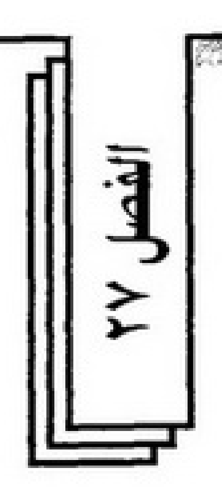
ويُقال أن كهنة الفراعنة كانوا يترنمون بالتسابيح مستخدمين الحروف السبعة المتحركة اليونانية، مقدمين صوتاً جميلاً رائعاً دون إستخدام مزمار أو قيثارة. ومما يذكر أن عالماً موسيقياً إنجليزياً أبهرته الألحان القبطية حتى قال: «أعطونى صوت كروزو (وهو أحد الآلات الموسيقية) يُنشد بعض الألحان القبطية، وأنا أسقط به أسوار أريحا».

إن الموسيقى القبطية «أوبرا إلهية» تحولنا إلى كائنات سمائية تسبح كجوقة سرية فى

الحضرة الإلهية حيث الفردوس، وكأننا نشكل خورساً من الملائكة ولكن فى هيئة بشر، لأن طغيان الشيطان قد إنسحق وأضاء علينا نور مخلصنا، فنسبح وندعو معنا الخليقة كلها لنبلغ ما نبغى وتنفتح قلوبنا للتسبيح الحقيقى بذهن مملوء من نعمة الله، تسبيحاً لا يشيخ بل يتجدد مدى الأيام فيتجدد معه كياننا ووجودنا ولا ينتابنا الذبول.

لقد جعلت الموسيقى القبطية من ألحانها نشيداً جديداً وتسبيحاً دائماً يلقى عليه الآب ضوءه ويعلمه الاب ويعمل فيه الروح القدس، فتنشد الكنيسة كلها بلا فتور تسبحه الرب الذى كللها بفرحة الطيب الغامر (الأفدوكيا *Evdokia*).





الأخلاقيات المسيحية

فى القرون الأولى

الأخلاقيات المسيحية

فى القرون الأولى

١) الخلفية التاريخية والإجتماعية للقرون الأولى

جاءت المسيحية إلى العالم فى عصر بلغت فيه الحضارة الرومانية أوج إكتمالها إلى جانب الرخاء وإنتشار المعاهد لتدريس الثقافة الإغريقية فى الشرق واللاتينية فى الغرب، وإمتداد المكتبات العامة حتى أن مدن أوكسرنخوس (البهنسا) فى مصر كانت أشهر مدن الشرق فى تصنيع وتمويل الحركة الثقافية بالورق الخام. هذه المظاهر الفاخرة للحضارة الرومانية جعلت المؤرخين يعتبرون القرن الثانى الميلادى من أسعد وأنجح العصور التى مرت على العالم بالرغم من الواقع الإنسانى البائس وثقل نير العبودية والفقر فى بعض بقاع العالم.

وإتسمت الظروف الإجتماعية للقرون الأولى وحتى القرن الخامس بالعديد من السمات:

١) التبذير والبذخ والموائد والملذات والثراء ومظاهر الإسراف.

٢) وجود طبقة الأحرار وطبقة العبيد والخدم والإماء.

٣) وجود المسيحيين كفئة ضعيفة مهددة بالإلقاء للوحوش دونما أية علة سوى «العقيدة» لأنهم كانوا أكثر الناس حباً للسلام والفضيلة.

٤) إنتشار الإحتفالات والمهرجانات ومباهج التسليات الوثنية من مسارح وحلبات الرياضة والسباقات والرقصات المبتذلة وأماكن تفريغ الرذائل وحلبات المصارعة المتوحشة وما يتبع ذلك من مسلسل الرذائل الذى يصعب حصره.

٥) إنتشار الفلسفات الأبيقورية والرواقية.

٦) فساد العبادة والأخلاق (رو١ :١٨) من وأد الأطفال وإحتقار المرأة والشذوذ الجنسى والرق.

ذلك كله جعل النسيج البشرى الذى يمثل المجتمع يتسم بالبطنة والتخمة والإسراف والغريزية والتعطش إلى الدماء والعنف وألوان الوحشية وإنعدام الإنسانية وتدهور الأخلاقيات خاصة لدى الطبقات الحاكمة التى كانت مستودعاً للشر والدموية.

فى وسط هذه التركيبة الإجتماعية والأخلاقية لهذا العالم الوثنى، كانت هناك خميرة صغيرة تعمل لتخمير العالم كله، تلك هى جماعة المؤمنين المسيحيين، الذين إستبدلوا السيف والكيس والمزود ببذور ملكوت السموات فى غناها وقوتها وبساطتها ونقاوتها، مؤمنين بمواعيد ووصايا المعلم الإلهى.

فالطهارة والعفة والقداسة والأمانة وأعمال الخير مع السلام واللطف والوداعة كانت تتضح فى كل عمل تقوم به هذه الجماعة المسالمة، والغريب أن التاريخ المعاصر لهم لم يذكر شيئاً عنهم فى القرون الأولى، وهذا تحقيق واقعى لقول المعلم الإلهى: «لا يأتى ملكوت الله بمراقبة» (لو١٧ :٢٠) وأيضاً «كأن إنسان يلقى البذار على الأرض وينام ويقول ليلاً ونهاراً والبذار يطلع وينمو وهو لا يعلم كيف» (مر٣ :٢٦) حتى أنه فى حوالى عام ٤٢٣م صار ينظر إلى الوثنية فى الشرق على أنها ديانة ميتة.

٢) السلوك الأخلاقى للجماعة المسيحية الأولى

منذ يوم الخمسين (العيد التأسيسى للكنيسة) حين إنضم إلى الكنيسة ثلاثة آلاف نفس، بالإضافة إلى ثمار الروح القدس، صارت كنيسة العهد الجديد غاية فى العجب فأنارت كل العالم بأشعة شمس تعاليم المخلص جاعلة من العالم كله حقلاً للكرازة وإلى أقاصى المسكونة.

وكانت الجماعة المسيحية الأولى سامية فى ممارسة الفضيلة والتقوى وتقدم أرفع مستوى للأخلاقيات الإنسانية وللكمال، فإستطاعت بقوتها وقدوتها العملية أن تحول الذئاب المفترسة إلى حملان وديعة.

كانت هذه الجماعة ملحاً ملّح العالم ونوراً أناره، وكانت حياتهم شركة حية مع المسيح مقدمين الإنجيل غير المكتوب فإستضاء بهم الجالسون فى ظلمات الخطية والجهل الوثنى، من حيث إحترام الفرد ورفعة المرأة التى صارت وارثة لنفس الخلاص مع الرجل (١بط٣ :٧،

غل٣:٢٨) وتقديس الزواج والأسرة وإدانة كل مظاهر الدنس وعدم الطلاق وإبطال الرق وتحرير العبيد.

نادت المسيحية بعدم العنف، ومن ذا الذى يستطيع أن يحصى الصلوات والتضرعات التى إرتفعت من آلاف المصلين المجهولين والركب المنحنية فى الكهوف والمغاير والسراديب وشقوق الأرض! فى القفار والبرارى! فى صمت الليل وسكونه! من أجل الإخوة والأعداء أيضاً! ولأجل جميع الناس ولأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب (١تى٢ :١). فالكنيسة الأولى لأنها كانت تحت الإضطهاد إفتخرت بإيمانها، وشبعت نفوس مؤمنيها من دسم النعمة فإستهانت بمتع الأرض، وصاروا جنود للمسيح منضوين تحت لواء الصليب الغالب للعالم والخطية والموت.

هذا وقد أفرزت مدارس الموعوظين والمنضمين الجدد للكنيسة مؤمنين يعترفون بإيمانهم ويجحدون الشيطان بكل حيله وجنوده ومباهجه، مدفونين على اسم الثالوث القدوس ليقوموا معمدين ومستنيرين جدد فى جندية المسيح الفريدة.

كان شعار مسيحى القرون الأولى هو الإعداد للتجارب والإستعداد للشهادة وذلك بالمواظبة على الصلاة والأصوام والنسك والعفة والجهاد الروحى والتناول، وكان المسيحى يتسلح بالأسلحة الروحية التى تجعله منتصراً ليعلو القاضى وينتصر على أنواع العذابات ويقدم على قبول الهزء والسخرية والمجادلات فى جراءة مذهلة أدهشت الجميع وبكتت الكثيرين.

تعلم المسيحى قداسة الحياة البشرية وإنكار الذات ورفض الخطية فى أوساط وأجواء كثيرة معاكسة. فكانت حياة أصوالها فى السماء وأغصانها وقضبانها ممتدة على الأرض وبذلك تربى الوجدان الأخلاقى المسيحى على نحو يختلف تماماً عما نادت به الحضارة اليونانية، إذ قدم المسيحيون منهجاً يتضاد تماماً مع المألوف من حيث أنهم كانوا يشتركون فى كل واجبات الحياة الحضارية كمواطنين أمناء ملتزمين لكن ليس حسب الجسد لأنهم مواطنين يحملون الجنسية السمائية، يتسامون ويتفوقون ويعملون الخير، يمارسون كل الأعمال والوظائف إنما بروح جديدة سامية، لكى يتمجد بهم وفيهم الله أبينا السماوى.

لكنهم إبتعدوا عن المهن التى تتنافى مع روح الوصية وتعاليم الإنجيل مثل: الرقص

والمسارح والأعمال المتعلقة بالوثنية والأساطير والعمل فى المصارعات والأصنام والتنجيم والسحر والعرافة والأرواح. وأول شئ رفضه المسيحيون الأولون كان السجود للآلهة الوثنية.

وكانت الكنيسة قاطعة وواضحة فى التصدى لهذه الممارسات وسنت لها القوانين، وقدمت التعاليم المثالية الخاصة بالسلوك المسيحى فى العالم. ولم تكن الكنيسة ضد الأعمال والمهن على إطلاقها لكنها إنتقت منها ما يتمشى مع الضمير العام لروح الإنجيل. ويشهد التاريخ على وجود قادة وجنود مسيحيين أمناء فى الجيوش الرومانية، وأيضاً على إقبال المسيحيين على وظائف الدولة الوثنية ذات طابع الولاية والحكم. كما نادت الكنيسة بوجوب العمل وقدسيته وبطاعة السلطات الزمنية (٢تس٣ :١٠ ، ١تس٤ :١٠ ، رو١٣ :١).

حددت الكنيسة أيضاً منذ القرن الثالث موقفها من كل مباهج وحيل أبليس، رافضة أعمال وخدمة الشيطان رئيس هذا العالم. ويقول العلامة ترتليان: «ما لا يليق أن يخرج من فم الإنسان المسيحى، فليحرص ألا يسمعه بأذنيه ولا يراه بعينيه لأنه سينجسه». فالفم الذى يهتف فى حلبات المصارعة والمسارح لا يمكنه أن ينطق بذكصولوجيات للثالوث القدوس.

أُستعلنت المسيحية أيضاً فى الشخصية الإنسانية قبل كل شئ بالسمو فى الفضيلة ورفض العلاقات النسائية خارج الزيجة، ورفض التسرى ونظام المحظيات والعبودية وبيع الفتيان والأطفال ورفض قتلهم أو التخلص من المعوقين منهم. كما غيرت المسيحية النظرة للمرأة التى كان ينظر إليها على أنها متاع أو شئ يعتزل فى بيت الحريم أو الحرملك لترفعها إلى مستوى الكرامة اللائقة بها كزوجة معينة للرجل.

صححت الكنيسة مسار الأسرة والمرأة حتى أن الزواج المختلط بين المسيحيين والوثنيين إتجه إتجاهاً مسيحياً، ويمكن القول أن المرأة كان لها دور كبير فى غلبة المسيحية وسيادتها على الحضارة الإنسانية من القرن الرابع فصاعداً لبروز شخصيات نسائية شهيرة أثرت التربية الأخلاقية المسيحية عملياً.

٣) نجاح الكنيسة وإصدار تشريعات مدنية وقضائية

نجحت الكنيسة فى تنصير المجتمع الرومانى الذى إنتقل من الوثنية إلى المسيحية كنتيجة حتمية لقبول الإمبراطور قسطنطين الكبير للإيمان المسيحى، فنجحت فى صبغ المجتمع

بالموقف الإنسانى. وفى الحقيقة أراد الله بتحول الدولة إلى المسيحية أن يسكن الذئب مع الخروف وأن يربض النمر مع الجدى لأن الأرض قد إمتلئت من معرفة الرب (أش١١ :٦)، فمنذ منشور التسامح والمعروف باسم منشور ميلان عام ٣١٣م، ثم معمودية قسطنطين عام ٣٣٧م، وإتخاذ إبنائه إتجاهاً مضاداً للوثنية، تم إصدار تشريعات مدنية وقضائية تتوافق مع تعاليم الإنجيل:

- إعتبار المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية.
- إستبدال الرموز الوثنية فى العملات المتداولة بالرموز المسيحية.
- إلغاء عقوبة الصلب.
- عتق العبيد فى يوم الأحد لأنه أليق الأيام لتحريرهم.
- التصريح بإفتقاد المسجونين ورعايتهم كنسياً.
- إعطاء الكنيسة حق قبول الهبات والميراث والأوقاف مع الإعفاء من الضرائب.
- إعتبار يوم الأحد عطلة رسمية مع تحديد المناسبات المسيحية بإعتبارها إجازات رسمية.
- إعتبار عبادة الآلهة الوثنية خيانة عظمى منذ عام ٣٩٢م.

هذا وقد صارت وساطة رجال الكنيسة لدى الدولة مقبولة، فكثيراً ما كتب القديس أنطونيوس الكبير للولاة والحكام متشفعاً عن الفلاحين والأرامل والأيتام من جور الضرائب، كما كتب للإمبراطور قسطنطين يوصيه بالرحمة والعدالة نحو الشعب ورد عليه الإمبراطور «كواحد من الأنبياء».

وتُظهر لنا رسائل القديس اغريغوريوس النزينزى أيضاً شدة إهتمامه بمساعدة كل منْ كانوا يلتمسون تدخله لدى الحكام، وكانت له علاقات جمة بالكثيرين ممنْ هم فى منصب، حتى أن أهل نزينزا نالوا عفواً من هدم مدينتهم لقيامهم بمخالفات لمجرد أنه قدم توسلاً إلى الحاكم.

٤) تأثير إعلان المسيحية ديانة رسمية للدولة

يُعتبر «عصر قسطنطين» نقطة تحول هامة فى تاريخ المسيحية، بعد أن تحول القيصر عن الوثنية وإعترف بالكنيسة وأُعلنت الحرية الدينية رسمياً «للمسيحيين ولكل الآخرين أن يتبعوا الديانة التى يرغبونها» وصار القيصر الذى ينتمى إلى هيئة هذا العالم مسيحياً، فلم تعد

المسيحية الأقلية المضطهدة وسط العالم. فصارت الكنائس تُبنى وتنتشر فى كل مكان، وصار نشاط المؤمنين بالمسيح يتغلغل ويؤثر فى كل المدن وفى كل أنواع المهن وفى الطبقات المثقفة. وبينما المجتمع الوثنى ينهار وينحل أخلاقياً، كان إيمان الكنيسة صامداً متماسكاً منتشراً فى العالم أجمع.

وصار برهان المسيحية ليس فقط الرؤى والإعلانات والمعجزات إنما حياة المسيحيين الأخلاقية بإعتبارها القوة الحاسمة وراء التقدم الأخلاقى للشعوب. إذ أن التجديد الأخلاقى قهر الحياة الهمجية والوحشية، فروّضها وشكّلها بالوصايا الإلهية.

لقد ظل المسيحيون أوقاتاً فى المؤخرة، إلا أنهم عندما فتحوا عيونهم على رؤية المسيح مثالهم الأعظم تشددوا وبحسبما أذلوهم هكذا نموا وإمتدوا وأُستعلن لهم الحق بقوة فى إتساع وحيوية.

عاش المسيحيون أخلاقياً كما يحق للدعوة التى دُعوا إليها فتكلموا بأعمالهم وعلموا بأقوالهم، ساعين إلى الترقى نحو الله بالفهم والمشورة والتقوى والمحبة الأخوية، وبقيت كنيسة الأجيال اللاحقة كلها فى كل عصر تنأى بنفسها عن الإحتواء داخل تيارات العالم التى تموج وتتصارع والتى يمكن أن تفقدها تراثها الإلهى الفريد الذى تحمله مبشرة به للبشرية وخادمة للخلاص.

كان القديس باسيليوس الكبير (٣٢٨م) حساساً للمساوئ التى حدثت نتيجة الإتحاد الذى حدث بين الكنيسة والإمبراطورية وقال أنه لا يريد أن يكون مفهوماً أن تحول الإمبراطورية للمسيحية يعنى أن تصير المسيحية هى دين الدولة، ولا أن يُصبح تدين الإمبراطورية الظاهرى بالمسيحية مجرد بديل لأخلاقيات الحضارة الرومانية اليونانية المنقرضة، لأننا نعبر عن مسيحيتنا بالأعمال أكثر مما بالكلام.

وعلى صعيد آخر، إهتمت الكنيسة بإسباغ الفضائل الإلهية على الإنسان للوصول إلى التمثل بالله حتى لا تذوب قيمه وفضائله وسط تيارات الزمان، وكأن الإنسان فى هذا مرآة يطهرها الله من كل وسخ وصدأ الحياة الأرضية ليصير صورة طاهرة واضحة له.

لذلك كان إهتمام الكنيسة الرئيسى منصباً على مشاكل الإنسان من أجل رفعته وتجديده وترقيته الأخلاقية، وهذا الربط بين الفكر والحياة كان نافعاً لحياة المسيحيين فى

كنيسة القرون الأولى التى إمتدت بإضطراد نتيجة الخبرة المعاشة والنموذج الحى وحركة الأرواح الصاعدة والعاملة بأخلاق وقيم الإنجيل، بدلاً من «الفضائل السياسية» التى نادى بها فلاسفة اليونان للتأثير على الدولة وسياستها بإعتبار أن الدولة هى أعظم ما فى الوجود فى عرف الحضارية اليونانية ووريثتها الرومانية

ويرى بعض المؤرخين أن إعتراف الدولة بحق المسيحيين فى حرية العبادة كان بلا شك ذا تأثير عميق على شكل العبادة نفسها لكن ليس على جوهرها. فالإجتماعات التى كانت تتم فى السراديب والمغائر ليلاً خرجت إلى وضح النهار تحت سمع وبصر بل وتشجيع الدولة، ودخلت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة والطبقات الغنية إلى الكنيسة مع الفقراء ما دفعها للتطور السريع لمواكبة الظروف الحادثة.

هذا وعكست المسيحية مبادئها على القوانين الوضعية فى المجتمع الرومانى وعلى الحياة العامة بجملتها، لتعيد للإنسانية صورتها الأولى التى شوهتها الخطية. فمنذ الجماعة المسيحية الأولى نرى سمو صلواتها خصوصاً عندما نقرأ أن كلمنضس الرومانى (٩٦م) بالرغم من أنه كان يذوق المر من الإمبراطور دومتيان مضطهد الكنيسة فى ذلك العصر، إلا أنه فى رسالته إلى أهل كورنثوس يطلب الخضوع للولاة والرؤساء كما يقدم عنهم صلاة من كل قلبه.

٥) إهتمام الكتابات الأبائية بالأخلاقيات

لا شك أن مسيحية الدولة أدت إلى زيادة كتابات آباء الكنيسة، وكثيراً ما تحدثت الكتابات الأبائية عن الأخلاقيات المسيحية، فضلاً عما كُتب قبل هذا الحدث، فنجد فى **الديداكية** (تعليم الرب للأمم بواسطة الإثنى عشر رسولاً) تعليماً عن الدستور الأخلاقى المسيحى:

محبة الله والقريب، مباركة اللاعنين والصلاة من أجل الأعداء والصوم من أجل المضطهدين، الإبتعاد عن الشهوات، العطاء، الإمتناع عن القتل والزنا ومضاجعة الصبيان والبغاء والسرقة وممارسة السحر وأعمال العرافة والإجهاض والشهوة والحلفان وشهادة الزور والإفتراء والحقد والنفاق والكذب والجشع والطمع والمحاباة بالوجوه وسوء الظن والبغضة والحسد والمخاصمة وحدة الطبع والبذاءة وأعمال المنجمين والشعوذة والتذمر والمكر...

وكتب **القديس كلمنضس السكندرى** (١٥٠م) عن سلوك المؤمن المسيحى وكيف يعيش حياته اليومية فى وسط عالم وثنى. ففى كتابه «المربى» هاجم البذخ والأصباغ ومحبة الزينة معتبراً أنها تكلف خادع. وقدم المثل الأعلى للمسيحى وهو: البساطة والسجية وتميز المسيحى بالهدوء والسكون والسلام والسلوك الصالح. كما إتخذ موقفاً صارماً من الأعمال الوثنية، إلا أنه وضح وجوب ألا تُفهم المسيحية على أنها مجرد وصايا ومتطلبات خارجية لابد من تتميمها، بل هى ديانة كيان الإنسان كله، والأخلاق المسيحية تنبع من النية وفضيلة النفس أولاً.

ثم تحدث كلمنضس عن الكمال المسيحى فى كتابه «ستروماتا ـ المتفرقات» معتبراً أن الإيمان المسيحى يُقتنى بطريقة شخصية وسرية وهو إقتداء بالمسيح وأن حياة المسيحى هى عيد دائم.

كذلك ركز **العلامة أوريجين** (١٨٥م) فى كتابه «المبادئ» على عدم محبة العالم ولا الأشياء التى فى العالم من شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة. وكانت هذه هى نقطة الإنطلاق الصحيحة التى وصفها فى كتابه «المبادئ» متحدثاً عن الإرتقاء بشريعة العين بالعين والسن بالسن إلى محبة الأعداء والمصالحة. وقاوم أوريجين ناموس الخطية الأصلية بتعليمه بنبذ الخصومات والأحقاد وعقيدة التنجيم والشر والخبث وحثه على عمل الخير. كذلك أشار فى كتابه «ضد كلسس» إلى ضرورة الإيجابية والمساهمة لأجل تحقيق القانون والعدالة وإلى وجوب الطاعة للسلطة طالما أنه ليس هناك ما يتعارض مع الشريعة الإلهية. وكتب يخاطب القارئ كمواطن يعيش فى العالم *Cosmopolitan* حيث يظهر تاريخ البشرية أمامه وهو سائر نحو إهتدائه إلى الله والشريعة الإلهية. كذلك قدم تعليماً للقضاء على عقيدة التنجيم لدى الشعب، والتى كان يغذيها الفلاسفة والمنجمون إذ كانوا يقولون أن مصير الإنسان مقيد بحركة النجوم ومن هنا نشأت «قراءة الطالع» حتى صارت علماً قائماً بذاته!!

ومن الأعمال البطولية والأخلاقية التى إتسمت بها كنيسة الأسكندرية فى ذلك الزمان (٢٤٨م) أنه فى عهد القديس البابا ديونيسيوس السكندرى قام الوثنيون بأعمال قتل ونهب وفوضى وسلب لبيوت المسيحيين حتى أنه لم يعد هناك ممر أو طريق مفترح، مما أدى إلى تفشى الطاعون وإنتشاره بسبب الأبخرة المتصاعدة من الدماء وكثرة عدد الجثث، إلا أن

مسيحيى الأسكندرية قدموا مثالاً رائعا لعمل الرحمة والإحسان والشهامة، حيث خرجوا من أماكن إختبائهم وهبوا دونما مراعاة للخطر المتربص بهم، وأخذوا يعتنون بالمرضى من الوثنيين مضطهديهم، فكانوا يحملونهم على أكتافهم ويدفنونهم بكل إحترام، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون تماماً أنهم سينالون نفس المصير بإنتقال العدوى والموت بنفس الداء، فكثير من المسيحيين الذين إعتنوا بالوثنيين وقعوا هم أنفسهم ضحايا محبتهم الحانية والمواسية والمفرجة عن كرب المضطهدين عندما داهمهم المرض، بينما المواطنين الوثنيين أنفسهم كانوا قساة على أعز أقربائهم.

ويصف المؤرخون هذه الأعمال الأخلاقية التى أكدت بطولة المسيحيين الأولين بأنها تمت وسط عدم القدرة على التجوال فى شوارع المدينة الغارقة فى مياه يخيل للناظر إليها أنها من مياه البحر الأحمر، فرحلوا مستشهدين ورحل بعضهم وهم ينقذون مضطهديهم، وبذا كان هذا النموذج فى مجابهة الموت ـ بما أظهروه من تقوى ـ لا ينقص شيئاً عن الإستشهاد، عندما كان المؤمنون يحملون ضحايا الوباء من الوثنيين مضطهديهم على أيديهم المجردة وفى أحضانهم ويغلقون عيونهم وأفواههم، وعلى أكتافهم يحملونهم ويضعونهم على فراشهم ويمسكون بهم ثم يغسلونهم الإغتسال اللائق ويكفنونهم فى الملابس. وبعد قليل ينالون هم أيضاً نفس هذه المعاملة لأن الباقين أحياء كانوا يلحقون بمن سبقوهم بعد قليل.

أما بالنسبة للوثنيين فكان الأمر مختلفاً تماماً إذكانوا يهجرون منْ إبتدأ منهم يمرض، ويهربون من أعز أصدقائهم وكانوا يطرحونهم فى الشوارع وهم نصف موتى ويتركونهم كنفاية بدون دفن، وكانوا ينفرون من أية خلطة مع موتاهم.

كذلك كتب **البابا ثيؤناس السكندرى** (٣٠٠م) رسالة مسيحية توقظ وعى الإنسان المسيحى المتحضر والمثقف لتكشف له كيفية التصرف والسلوك فى الوظائف الحساسة فأوصى بعدم السير بوجهين وعدم إستغلال المناصب لقبول الرشوة نظير التسهيلات، والتحلى بالحكمة والتدقيق والعناية والبشاشة والمرح والحرص فى السيرة والنظر والكلام والإعتدال.

وركز **القديس يوستين الشهيد** (١٠٠م) على الحياة الجادة المدققة الوقورة التى يحياها كل منْ يؤمن بالمسيح، وعلى أن الإيمان المسيحى هو قوة هامة لسعادة وحفظ العالم

والإمبراطور والدولة بل والحضارة نفسها. ودحض يوستين فى دفاعياته سخافات الوثنية المنافية للعقل، مؤكداً على عدم مخالفة المسيحيين للقوانين وعلى رفضهم الإنتحار لئلا يكونوا مخالفين لإرادة الله، ورفضهم للذبائح الدموية وحرق الأشياء التى خلقها الله لغذائنا، وحث على إبطال الذبائح المادية وفنون السحر والإمتناع عن الرذيلة.

قدم **أريستيدس المدافع** صورة لأخلاقيات المسيحيين فى القرن الأول بأنهم «لا يزنون، لا ينافقون، لا يشهدون بالزور، ولا يشتهون ما لغيرهم، يكرمون الوالدين، يحبون القريب، يحكمون بالحق، ولا يفعلون بالغير ما لا يريدون أن يفعل الغير بهم. يعزون الذين يسيئون إليهم ويصادقونهم. هم ودعاء لطفاء ويمتنعون عن كل علاقة غير شرعية وعن كل إثم وشر، ولا يحتقرون الأرملة ولا يظلمون اليتيم، ومنْ عنده يعطى منْ ليس عنده بسرور». ويرى أريستيدس فى قطيع المؤمنين شعباً جديداً وجنساً جديداً سيخرج العالم من الفساد الذى غرق فيه. وهو لا يتردد فى أن يقول أن العالم لا يستمر فى الوجود إلا بسبب صلوات وتضرعات المسيحيين

ثم نأتى إلى **تاتيان السريانى** الذى اعتبر أن كل الإنجازات اليونانية حمقاء خادعة ولاأخلاقية ورفض الفساد الأخلاقى والتنجيم وإرتياد المسارح كمدارس للرذيلة وكل صور الفسق والدنس، كما تحدث عن الكمال بحسب تعاليم المخلص.

ومن بين الكتابات الأخلاقية فى هذه الحقبة ما كتبه **أثيناغوراس** عن رفض أكل لحوم البشر وليس فقط الإمتناع عن القتل بل وتحويل النظر عن رؤيته، وأكد على تحريم الإجهاض وقتل الأولاد وألعاب المصارعة والمعاشرات الأوديبية.

كذلك جاءت كتابات **لاكتانتيوس** (٣٠٦م) معالجة للقضايا الأخلاقية فى كتابه عن «القوانين الإلهية» والذى أثبت فيه كذب وخرافة الديانة الوثنية وأفكارها وكذب عبادة الآلهة، معتبراً أن العدل أهم فضيلة فى المجتمع البشرى بينما ألغت الوثنية العدل والمساواة بين كل الناس.

كما أن **العلامة ترتليان** (١٩٥م) فند الإتهامات الأخلاقية الموجهة للمسيحيين وعالج موضوع موقف المؤمن من وسائل الترفيه وموضوع الثياب والجسد والعفة، وطالب بحرية الأديان ورفض عبادة الآلهة وتقديم القرابين لها وفضّل الإستشهاد عن القيام بها، كما أدان

فى رفض شامل كل ألعاب السيرك والإستاد والمسرح والمصارعة حاسباً أن أصلها نوع من الوثنية التى جحدها المسيحيون، وأنها تثير الشهوة وتفسد الأخلاقيات، كما عالج فى كتاب «ثياب النساء» موضوع حشمة المرأة وكيف أنه يجب ألا تتسلط عليها الموضة الوثنية بل تكون متعقلة معتدلة فى مظهرها، وأدان إستخدام النساء للمساحيق الخارجية معتبراً أنه تغيير لصنعة الخالق، مقنعاً المرأة المسيحية بأن يكون مظهرها مميزاً عن الوثنيات.

وعندما نأتى إلى **القديس كبريانوس** أسقف قرطاجنة (٢٤٩م) نجده يتحدث فى كتابه «إلى دوناتوس» مقارناً بين أخلاق العالم الوثنى من فساد وعنف وبربرية وخطايا وشهوات وبين نعمة الأخلاق المسيحية. وفى كتابه «ثياب العذارى» يتحدث عن الحشمة والثياب البسيطة والإبتعاد عن البهرجة والزينة والمساحيق التى ليست إلا إختراعاً من صنع الشيطان بحسب تعبيره. وفى كتابة «الأعمال والصدقات» يتحدث عن المحبة المسيحية كفرصة رائعة لمساعدة المحتاج والمريض والمحتضر.

كما كتب القديس كبريانوس كتابات أخلاقية متخصصة عن «فائدة الصبر» وعن «الغيرة والحسد» وعن «الأصنام» بما فيها عبادة الأشخاص ونحت التماثيل لهم وذبح الضحايا والذبائح.

كذلك إهتم آباء الاسكندرية بالأخلاقيات المسيحية **فالقديس أثناسيوس الرسولى** إعتنى بالجانب الأخلاقى لعملية الفداء، وكتب الكثير عن القيم الأخلاقية فى رسائله الفصحية، **وأيضاً البابا كيرلس عمود الدين** الذى إمتلئت رسائله بالحديث عن الصدقة والرحمة وأعمال الخير والفضيلة.

أما القديس إيسيذروس الفرمى (**البيلوزمى**) (٣٥٥م) فقد كتب ألفين رسالة حفلت بالتعليم الأخلاقى فى شتى النواحى فتكلم عن الضيافة والشراهة والخصام وعدم إهمال العمل والإمتناع عن المسارح العامة وأوصى بالطاعة للسلطات الحاكمة كأمر بديهى، وتحدث عن الأمراض الأخلاقية والشتائم والسباب وحذر الحكام الأشرار من العقاب الأبدى، ودافع عن العبيد ورفض إرتياد أماكن الشر لأنها مدرسة الفجور.

وتحدث أيضاً عن ما يخص الجنود والمعلمين ورجال الدولة والأطباء وأخلاقيات مهنهم، وتحدث عن الحظ وتقلب المزاج وعن السلوك الردئ لبعض الكهنة.. ويوصى بضرورة قراءة

سفر الأمثال لنتعلم الفضائل الأخلاقية، وقراءة سفر الجامعة لنتعرف على زوال كل مباهج ومسرات هذا العالم، وقراءة نشيد الأنشاد لنتذوق الحلاوة الروحية. وعندما سأله البعض عن سبب نجاح الأشرار بينما يتألم الأبرار، أجابهم أنه لو عُومل كل إنسان هنا على الأرض بحسب حقيقته لكانت الدينونة غير ضرورية.

ويقول القديس إيسيذروس: «حياة بدون كلام خير من كلام بدون حياة، فالأولى بالصمت تنفع أما الثانية فبالصياح تزعج، لكن إذا إقترنت الحياة بالكلمة، تصبح مثالاً لكل فلسفة». ويقول أيضاً: «إن كنا نغلب الهراطقة والوثنيين بتعليمنا الصحيح، فنحن ملتزمون أيضاً بأن نغلبهم بسلوكنا، لئلا إذا غلبناهم فى المعركة الأولى يغلبوننا هم فى المعركة الثانية، ثم إذ يرفضون ديانتنا يدينوننا فى سلوك حياتنا».

إنها تشكيلة غنية من الموضوعات الأخلاقية التى صاغها آباء الكنيسة الأولون فى القرون الأربعة الأولى إذ إهتم أيضاً الآباء أمبروسيوس وجيروم وأغسطينوس بعلم اللاهوت السلوكى العملى. فشرح **القديس أمبروسيوس** التعليم الأخلاقى المسيحى، وكتب عن واجبات الذين يتقلدون مناصب الدولة، وتكلم عن الأعمال الباطلة. وكذلك تكلم **آباء الرهبنة** عن أخلاقيات الراهب فتناولوا آداب الحديث وآداب الكلام وآداب الصمت وتحدثوا عن الحقد والدينونة والطمع والبطنة إلخ...

وأخيراً نأتى إلى كتابات الآباء الكبادوك عن التعليم الأخلاقى، فنجد كتابات وعظات **القديس باسيليوس الكبير** (٢٣٥م) التى تحدث فيها ناصحاً الشباب بالإستفادة من دراسة الأدب اليونانى، وأيضاً تحدث عن الغضب، وعن الذين لا يردون القروض وعن الحسد، وقدم تعليمه ضد الخمر والسكر والغضب والربا.

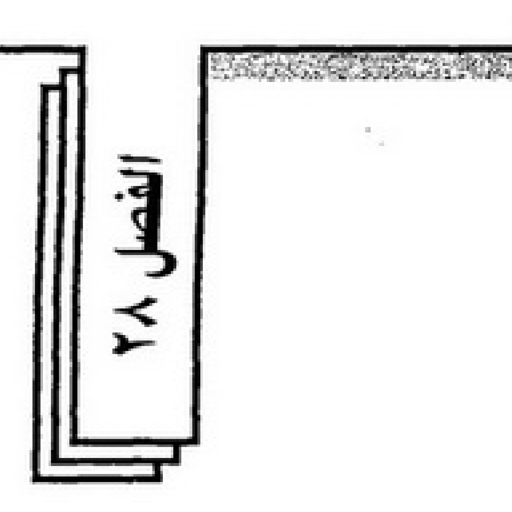
وكذلك كتب **القديس اغريغوريوس النيصى** (٣٧٣م) بعض المقالات الأخلاقية التى يُرجع فيها كل شئ إلى الله، ويتحدث عن الجمال غير المنظور وعن الصلاح والكمال المسيحى وعن عرش النفس مع الله وصورة الله فى الإنسان وعن الحظ.

ومن أكثر الآباء إهتماماً بالمشاكل العملية والسلوكية للمسيحيين كان **القديس يوحنا ذهبى الفم** (٣٥٠م) فقد حوت تفسيراته وعظاته قدراً كبيراً من التوجيه السلوكى والروحى تارة بالتشجيع وتارة بالتوبيخ. فتحدث كثيراً عن التكافل الإجتماعى وعن البخل وإستخدام

الثروة، وقاوم شهوة الشعب فى الهوس بمشاهدة السيرك والمسرح معتبراً أنها مدرسة الفساد العام وساحة تدريب عدم العفة ومصدر الوباء والبلاء.

واعتبر ذهبى الفم أن الأزمة الأخلاقية متفشية فى زمانه، لذا قاوم «التماثيل» فى عظاته وكتاباته، وحث على عدم الإنغماس فى العالميات، وركز على الموضوعات الآتية: الفقر والغنى ـ السلوك المسيحى ـ أعمال الرحمة والمحبة ـ الإشتراكية المسيحية ـ مرض الأرستقراطية ـ كيف يتعايش الزوجان ـ الأسرة ـ تربية الأطفال.





الأنشطة التربوية فى الكنيسة الأولى

الأنشطة التربوية

فى الكنيسة الأولى

بالنسبة للمسيحيين الأولين كان تعبير «التربية المسيحية» يعنى نوال معرفة عميقة ترتقى فوق المعرفة العقلية والعلمية إلى المعرفة الإختبارية لـ «إستعلان الحق» كما عبر عنه الكتاب المقدس وعقيدة الكنيسة. وفى الوقت عينه كانت التربية المسيحية أيضاً تعنى للمسيحيين الأولين التداريب والحياة الأخلاقية بحسب القوانين والوصايا المسيحية. ونجد فكرة التربية المسيحية فى رسائل القديس بولس الرسول «أنتم أيها الأباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره» (أف٦: ٤).

وكان القديس كلمنضس الرومانى (٩٦م) أول من إستخدم تعبير «التربية المسيحية» فى رسالته إلى أهل كورنثوس إذ يقول: «لابد أن يشترك أطفالكم فى التربية المسيحية». ويعلم القديس أغناطيوس الأنطاكى أيضاً بأن واجب الوالدين هو أن يقدموا لأبنائهم تعليماً وتربية، وقد إستجابت لهذه الدعوة مشاهير الأمهات فى القرون المسيحية الأولى مثل القديسة مونيكا والدة القديس أغسطينوس ونونا والدة اغريغوريوس النزينزى وأنثوسا والدة الأساقفة الثلاثة باسيليوس القيصرى واغريغوريوس النيصى وبطرس وأختهم القديسة ماكرينا، لذا كتب ليبانيوس البليغ بإعجاب قائلاً: «يا آلهة اليونان، كم رائعات هن نساء المسيحيين!!».

هذا وحذر الآباء من التأثير السلبى للأدب الوثنى على الأجيال المسيحية الناشئة وسعوا لإنشاء المدارس لتعليم الأطفال أوليات المواد المسيحية والترتيل مع إستخدام المزامير وتعاليم الرسل كمادة للقراءة، لكن هذا لا يعنى أن الكنيسة عزلت أولادها عن الحياة العامة، لأنها تربيهم ليتصور فيهم المسيح، فهى لا تدرب بل تحول الإنسان ليفكر ويعمل ويتصرف ويتشكل ويتقدم وينمو بحسب الله.

لذلك كان قصد التربية فى كنيسة القرون الأولى هو جعل المسيحية فعل وحياة وخبرة

عملية، فرفعت شأن الطفل بعد أن كانت حياته قيد رحمة والده بحسب القانون الرومانى، وطالبت بعماد الأطفال على إيمان والديهم، إذ لا يجسر أحد أن يقول أن المسيح ليس مخلص الأطفال وفاديهم. لقد جاء المسيح ليخلص الجميع، لذا عاش فى كل الأعمار السنية ليقدس الكل، ولهذا أمرت الكنيسة بوجوب المعمودية للجميع خصوصاً للأطفال الصغار بنوع خاص لأنهم يستميلون إهتمام وصلاح الله.

وأوصت الكنيسة الإشبين ليكون حارساً لإيمان الطفل ويجتهد فى تعليمه حفظ الكتب المقدسة أنفاس الله، وتعليمه ملازمة الكنيسة باكر وعشية وتدريبه على الأصوام وإتباع القوانين الكنسية والأوامر الرسولية، وأوصت الأشبين بأن يزرع فى الطفل الخصال المسيحية: البر والتسبيح والإستقامة.

١) دور الأسرة والكنيسة فى العملية التربوية

أ) دور الأسرة

أوصى القديس يوحنا ذهبى الفم الوالدين بضرورة أن يكونوا آباء بالروح أيضاً لأبنائهم وبأن يكونوا مثالاً مسيحياً يُحتذى به، من أجل تكوين أسرة مسيحية ترتفع بمستوى أولادها ليكونوا أعضاء فى أسرة المسيح الكبيرة التى هى عائلة الله. كما شدد على القدوة والمثال إذ أن الحالة الروحية التى يعيشها الوالدان إنما هى تسلم بالضبط لأولادهما، معتبراً أن الإيمان يُورث، وقد ورثه تيموثاوس عن أمه لوئيس التى ورثته بدورها عن أمها أفنيكى.

وإهتم ذهبى الفم بأن يكون الوالدين المثل الذى يحتذى به أولادهم، ليسلموهم التعليم المسيحى والفضائل الضرورية داخل المنزل، معتبراً أن الوالدين يربون أولادهم لله لأنه هو جابلنا وأبونا، ومعتبراً أيضاً أنهم يربون حكيماً مجاهداً مواطناً سمائياً مصارعاً لمجد المسيح.

اعتبر ذهبى الفم أن الأسرة تقوم بتشكيل أولادها لتكون لله. فالله يسكن فى طفلنا ويجب علينا أن نرفعه ليكون لله. ووصف العملية التربوية بأنها مثل نحت وتشكيل التماثيل، أى أن الوالدين نحاتان تشكيليان لأولادهما ينزعا منهم ما هو غير مناسب ويضيفا ما هو ناقص بإضافة العادات الطيبة وإقتلاع الأخطاء. كما طالب يوحنا ذهبى الفم الوالدين بضرورة الصلاة لطلب معونة الله لكى يرتفعوا بأولادهم ولكى يتمكنوا من

تعليمهم مخافة الله والحكمة، مؤكداً على أن التربية لا تُعلم فقط لكنها تُسلم بالأكثر خلال الحياة العملية.

أكد ذهبى الفم على ضرورة المذبح العائلى وحفظ الأصوام وتعليم الترانيم للأولاد، مع تنبيهه على ضرورة إهتمام الوالدين من جهة الناس الذين يحتك بهم أطفالهم. وكان يرى أن أحد سمات التربية المسيحية الهامة هى ضرورة الوحدة داخل الأسرة الواحدة، لأن أولادنا فى النهاية سيكوّنون عائلاتهم على النمط العائلى الذى أعطيناهم إياه، لذا يجب أن يتأكد الوالدان دوماً أنهما بالفعل مثل طيب لأولادهما.

طالب ذهبى الفم الأباء والأمهات بضرورة الاهتمام بتسمية أولادهم بأسماء القديسين والشهداء، ليقتدوا بهم ويتصادقوا معهم ويحتذوا بهم. كما اقترح رواية القصص الإنجيلية للأولاد مع التعليق والشرح وإستخلاص الدروس، بجانب ملاحظة إنتقاء ما يُطرح وفقاً للنمو.

ولم يفت ذهبى الفم أن يلفت عناية الوالدين ألا يتجاهلوا أهمية التأديب والتوجيه والتنظيم للبناء والإرشاد، مع الترفق والعناية المستمرة، وإظهار الحب والعطف وإعطاء فرص للمشاركة فى الأمور العائلية.

هذا ولم تحرمنا الكنيسة من ثمار التربية الأسرية التى أشرقت فى سمائها مثل القديسين باسيليوس وذهبى الفم واغريغوريوس النيصى، هؤلاء الذين نموا وتربوا فى أوساط مسيحية حقة.

وكان القديس باسيليوس الكبير يؤكد على أن الوالدين لابد أن يقدما التربية الأولية للطفل فى أعوامه الأولى، وأكد على أهمية دور الأم كمرشدة وكمدربة صالحة تعد نفسها وأولادها لمدرسة الكنيسة ليكونوا أولاداً لله.

ونصح يوسابيوس القيصرى بترتيل المزامير وقبله القديس يوستين الشهيد، كما أن القديس چيروم نصح السيدة ليتا فى تربية ابنتها الوحيدة باولا بضرورة أن تخبرها إلى أى جيش هى منتسبة كجندى لتعلم من هو قائدها الذى دُعيت للخدمة تحت قيادته. ويعتبر القديس چيروم أن الأبوة الأرضية صورة من السمائية، وأن الأطفال وديعة ثمينة يعهد بها الله للوالدين ولذلك سينالوا بركات مضاعفة عندما يربوهم تربية حسنة.

وفى هذا الأمر علّم چيروم بأن الوالدين مسؤولان عن أعمال أولادهم إن كانت صالحة أو شريرة، ولذلك نصح بضرورة تعريف الأولاد لأى جيش سمائى هم ينتسبون لكى يفتخروا بمواطنتهم الإلهية، وبلزوم حفظهم للمزامير وترديدها بحلاوة وعذوبة، وبالتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة، وبالذهاب إلى هيكل الله الحقيقى، وبالتفتيش فى الكتب المقدسة لقطف الأزهار الشهية والكنوز. وحذر چيروم من سماع أغانى العالم وأدوات خلاعته.

فرسم چيروم صورة للمناخ التربوى المسيحى السوى وذلك بالإبتعاد عن الأشرار وفساد حديثهم وفساد شخصياتهم وبعدم تعلم ما لا يليق تعلمه، معتبراً أن ما يتعمله النشء فى سن مبكرة يصعب التخلص منه لأن الصوف الذى يُصبغ مرة بلون أرجوانى لا يقدر أحد أن يعيده إلى بياضه الأول. ولم يفت القديس چيروم بعد أن قدم توجيهاته التربوية والسلوكية هذه أن يتحدث عن إختيار المربى صاحب السلوك الجاد وذلك عندما أوصى ألا تكون مربية "باولا" فاسدة أو بلهاء.

ب) دور الكنيسة

وجدت الكنيسة أن العملية التربوية لا تقتصر فقط على الأطفال الصغار لكنها لابد أن تشمل كل جماعة المؤمنين الجدد لكى تعد أولادها لله شعباً مستعداً معتبرة أن أعضاءها فى تعطش لإستلام خبرة الحياة المسيحية.

لذا لم يكن موضوع التربية وأنشطتها علماً مبكراً بالنسبة للأجيال اللاحقة لأن الآباء قد طرقوه ـ بطريقتهم الخاصة ـ منذ القرون الأولى، فقد تناوله القديس كلمنضس السكندرى فى كتابه «المربى» وكذا القديس أغسطينوس بعده بأكثر من قرنين فى كتابه «المعلم» ليرووا ظمأ المسيحيين الأولين إلى المعرفة الدينية فلمسوا أوتاراً كثيرة لقلوب الكثيرين.

وقد صارت الكنيسة كلها وسطاً تربوياً تُدخل أولادها لا إلى معرفة نظرية بل إلى تغيير شامل فى الحياة ليكونوا متشبهين بالله، وليكونوا مقدسين سمائيين مكملين فى نفوسهم جمالها.

وليس هناك أحلى من مقولة القديس كلمنضس السكندرى عندما لخص العمل الإلهى بقوله: «**بإختصار يعمل الرب معنا كما نفعل نحن أيضاً مع أبنائنا**». وإن كان عملنا مع

أبنائنا هو «التربية» فهذا هو العمل الإلهى. لذا وصف كلمنضس السيد المسيح بأنه «المربى»، مقدماً لنا منهجاً تربوياً على مستوى إلهى للعمل على تجديد العالم كله.

ومن هذا المنطلق قدمت الكنيسة دورها التربوى لبناء هيكل الله فى الناس ليتحدوا بالمسيح المعلم الإلهى القادر على تغيير حياة الإنسان تغييراً شاملاً، إذ أنه يقدم «حياة» يعيشها المؤمنون بمعرفة، وغايته هى إصلاح النفس وإعلان الحق، فالسيد المسيح كمربى وكمعلم يثقف الإنسان ويدربه لكى يكتشف الحق، وليرفعه إلى الحياة الفاضلة وليس فقط لإكسابه معرفة عقلية.

لذلك أسست الكنيسة المدارس التربوية الآتية:

١) **مدرسة الموعوظين:** لتقدم التعاليم المسيحية الأولية للوثنيين الراغبين فى نوال المعمودية، وضمت هذه المدارس أناساً من مختلف الأعمار والطبقات والجنسيات.

٢) **المدارس التعليمية:** كانت عبارة عن مؤسسات تقوم بتقديم مستوى متقدم من التعليم اللاهوتى المسيحى ومن التعليم الكلاسيكى، ومن أشهرها:

أ) **مدرسة الاسكندرية اللاهوتية:** وتُعتبر من أشهر المدارس وأُختيرت لتكون بيتاً للعلم ومركزاً لأعظم نشاط تربوى حى يقوم على أساس موسوعى شامل.

ب) **مدرسة أنطاكية:** كانت ثانى أهم مدرسة وقدمت للكنيسة علماء ومفسرين واستخدمت المنهج النقدى والحرفى فى التفسير.

جـ) **مدرستى نصيبين وأديسا:** أسس القديس مار إفرآم السريانى مدرسة نصيبين التى كانت من أشهر المدارس غير الناطقة باليونانية، وكان منهج دراستها يتضمن جوانب كتابية وتاريخية وتفاسير وفلسفة وبلاغة. أما مدرسة أديسا فكانت تغلب عليها السمة الرهبانية وحتى مبانيها كانت منظمة كأنها دير.

د) **مدارس أخرى:** كانت هناك مدارس أخرى عديدة مثل مدرسة قيصرية التى أسسها العلامة أوريجين، ومدرسة سلوقيا ومدرسة روما، وبعض من هذه كانت معاهد للإكليروس ولكن لم يضاه أى منها مدرسة الاسكندرية أو أنطاكية فى الأهمية.

هذا وقد إعتنت الكنيسة القبطية منذ القديم بوجود المدارس الملحقة بالكنائس، حتى أنه حينما خير الأقباط بين غلق الكنائس أو المدارس (الكتاتيب) فضلوا الإبقاء على المدارس حتى لا يفقد أبناؤهم الإيمان.

كما أن الكنيسة نفسها يمكن أن تُسمى مدرسة ذات أهمية عظيمة، فالمسيحية كانت تريد أن تغير العالم للأفضل، وإتخذت من تعليمها وسيلة أساسية لتحقيق ذلك، بما فى ذلك الأطفال الصغار ليتمتعوا بالعضوية الكنسية الحقة لا خلال الوصايا والتلقين فحسب وإنما خلال التربية الليتورجية والممارسة الحية للإنجيل العملى.

واهتمت الكنيسة بدورها التربوى لكل أعضائها خلال العظات والمقالات والكتابات والميامر والرسائل، مدركة دور الأسرة فى حياة الأطفال باعتبارها كنيسة البيت، ويروى التاريخ الكنسى عن رضع إنفتحت ألسنتهم أمام الولاة والحكام ليشهدوا للمسيح ربنا أثناء صور الإستشهاد.

هذا وتعطى الكنيسة القبطية أهمية خاصة لتربية الأطفال عملاً بقول السيد الرب: «دعوهم ولا تمنعوهم لأن لهم ملكوت السموات». ويبرز هذا الأمر فى تكريمها وإهتمامها بأعياد الكثير من الشهداء والقديسين الأطفال، وكذا بنائها الكنائس على إسمائهم مثل: أطفال بيت لحم، والقديس كرياكوس وأمه يوليطة، والشهيد أبانوب النهيسى، والقديسة دولاجى وأولادها، والست رفقة وأولادها.... إلخ.

ويذكر التاريخ الكنسى أيضاً كيف أن مدرسة الاسكندرية اللاهوتية نافست المؤسسات الثقافية المعاصرة لها فى الاسكندرية وكيف أنها بدأت مثل فصول مدارس الأحد الملحقة بالكنيسة عندنا الآن، ثم صارت معهداً لاهوتياً تدرس فيه العلوم الإنسانية والفلك والموسيقى والهندسة وحساب المثلثات... إلخ.

٢) النظريات التربوية عند آباء الكنيسة الأولى

لم يكتب أى من الآباء الأولين كتاباً خاصاً عن النظريات والتساؤلات التربوية، بل جاءت أفكارهم التربوية ضمناً فى صفحات الأدب المسيحى الغزير، ويكفى أن المدارس المسيحية إستطاعت أن تستقطب كل الإتجاهات الأخرى وتنمو وتتطور بها ولم تتخلف عن مواكبة التيار الثقافى العام.

فلا عجب أن مدارس الكنيسة، وخاصة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية، قد إجتذبت علماء وفلاسفة ليتتلمذوا عند أقدام آباء الكنيسة ومن ثم عند أقدام المعلم الواحد والمربى الصالح الكلمة الإلهى المتجسد.

إن سر نجاح هذه المدرسة اللاهوتية وإستمرار بقائها يرجع إلى:
١) قدرة معلمى المدرسة على مواجهة التحديات العصرية والقضايا السائدة.
٢) صلابة الأرضية التربوية أى أصالة المضمون التعليمى الذى صار عن جدارة بديلاً لأعظم حركات الثقافة والفلسفة.

وإهتم الآباء بنظرية **الثقافة والبيئة** فاستخدموا مصطلحات «طبيعة الإنسان» «التدريب» «الإرشاد» «التربية» «التفاعل الإجتماعى»، إذ أنهم عرفوا التيارات الفكرية السائدة من حولهم وتفاصيل الحياة الإجتماعية وبنيتها ومؤسساتها.

وكان آباء الكنيسة على وعى وإدراك تام بأن **للوراثة والبيئة** دورهما الهام للغاية فى النمو الشخصى لكل فرد. فالقديس يوحنا الدرجى معلم النفوس الشهير يقول: «إن البعض ـ لا أعرف لماذا ـ هم بالطبيعة، إن جاز أن أقول، ميالون إلى ضبط النفس أو الصمت أو النقاوة أو الإتضاع أو الوداعة أو الحزن. بينما هناك آخرون يغصبون أنفسهم بأقصى قدرتهم (لإقتناء هذه الفضائل) رغم أن طبيعتهم عينها تقاومهم فى ذلك».

وهذا القول يشرح بوضوح أن الإنسان يرث الإستعدادات والميول الصالحة، فالأدب الأبائى فى تعليمه عن الخطية يؤكد دوماً على الجانب السلبى للوراثة أى على «الخطية الأصلية» و«ناموس الخطية». لكن تختلف درجة الميل الشرير من شخص إلى آخر. وقد عبر القديس مكاريوس الكبير عن هذا الفكر عندما قال فى إحدى عظاته: «إن طبيعتنا قادرة على قبول الخير والشر، وقوى الشر تغوى وتعرض لكن لا تُكره أو تجبر». كذلك يشرح

الأدب الأبائى أن الإنسان حر فى قبول «الشهوات» أو رفضها، وهذه حقيقة تجعل الإنسان مسؤولاً عن أعماله.

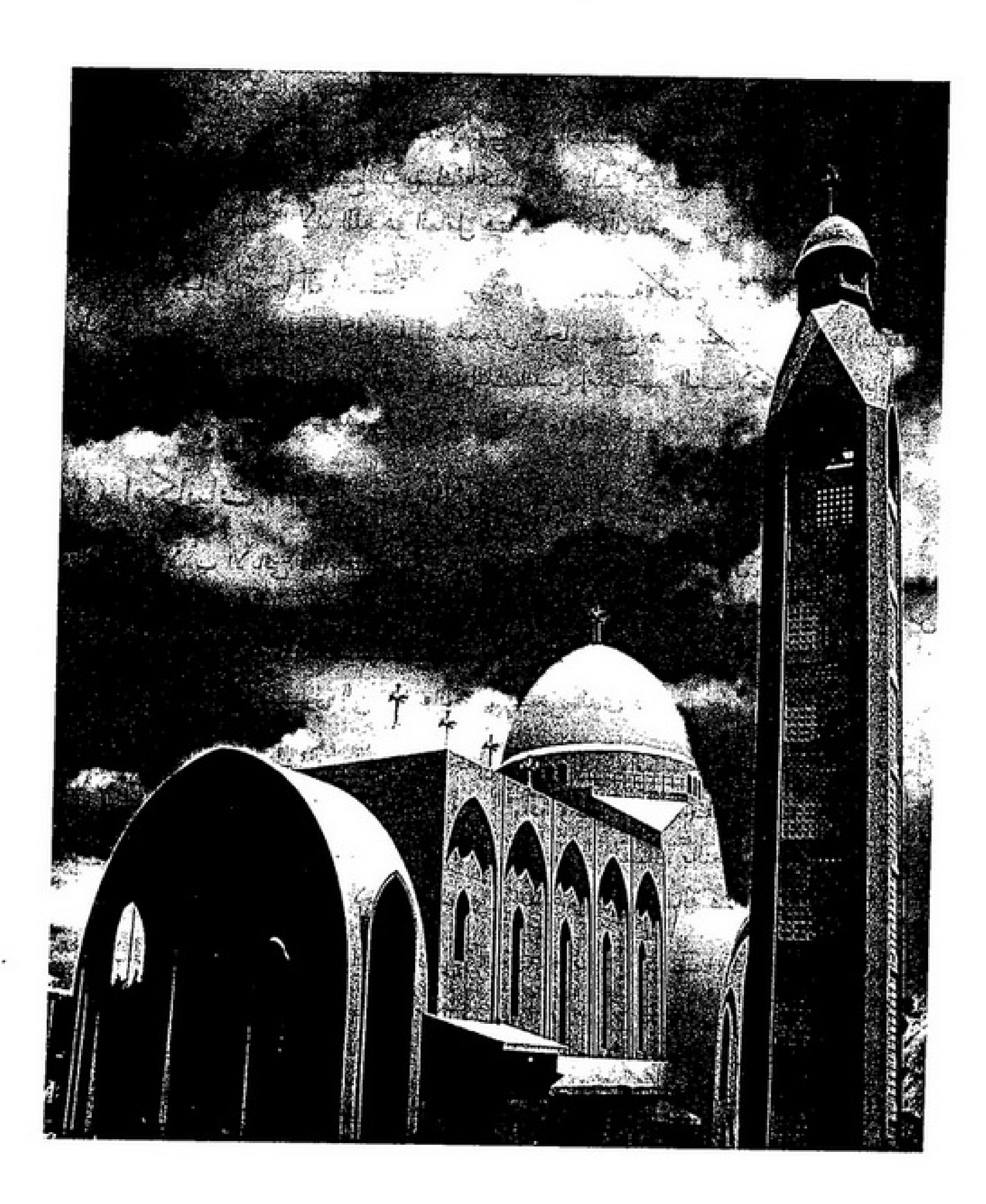
لذلك أتى التعليم التربوى لآباء الكنيسة هادفاً إلى وضع الجهاد الروحى فى إطار منهجى منظم لإنماء الميول والإستعدادات الصالحة والتى يرثها الإنسان أيضاً من أبائه وأجداده، وبعض هذه الاستعدادات هى «الذكاء» و«الفضائل»، ويقول القديس باسيليوس الكبير: «إن الفضائل توجد فينا أيضاً بالطبيعة، والنفس تنجذب لها ليس بالتربية بل بالطبيعة نفسها».

ومصطلح «الطبيعة» هنا إنما هو مرادف لمصطلح «الميلاد»، وفى القرن الرابع شرح الأنبا بفنوتيوس بوضوح أن بعض الناس لهم ميول فكرية، بينما هناك آخرون لهم ميول أخلاقية، لكن الفضائل لا توجد فى درجتها العالية المتقدمة، بل كبذرة وكـ «ميل» و«إستعداد»، ويتضح هذا الفكر فى كتابات كلمنضس السكندرى: «وفوق كل شئ يجب أن يعرفوا أننا بالطبيعة نميل إلى الفضيلة، وليس معنى هذا أننا نملكها بالميلاد، بل أننا مستعدون ولائقون لكى ننالها».

وتعتمد درجة تقدم الإنسان فى الفضيلة على التدريب الذى يتلقاه وعلى جهاده القانونى لكى يُكلل، وقد كتب القديس مقاريوس قائلاً: «لقد وضعت النعمة الإلهية تدبيراً يجعل كل يتقدم وينمو روحياً بحسب إرادته الشخصية وإستجابته، وبحسب عمله وجهاده هو».

والإستعدادات والسمات الموروثة هى أحد معايير تميز الإنسان عن الآخر، وقد أخذت قوانين الكنيسة هذه الفرادة ـ أي الفروق الفردية ـ فى إعتبارها عند تحديدها للسن الذى يصير فيه الطفل مسؤولاً عن أعماله، وهكذا نجد البابا تيموثاوس السكندرى فى إجاباته القانونية *Canonical Answers* يقول أن الطفل يصبح مسؤولاً عن أعماله عندما يبلغ نضوجاً معيناً، عادة نحو سن ١٠ أو ١١ عاماً.... ولم يحدد البابا تيموثاوس سناً معينة لأن هذا يتوقف على طبيعة الطفل.

أما فيما يخص البيئة، فنجد أن العديد من النصوص النسكية توضح أن آباء الكنيسة كانوا ينظرون إلى البيئة كعامل مؤثر وهام فى تطور ونمو الشخصية، لذا تحدثوا عن



المعاشرات الإجتماعية والصداقات ودورها القوى فى تشكيل الشخصية، فالبيئة الصالحة تكون نافعة وبناءة، أما البيئة الرديئة فهى هدامة ومدمرة، لأن منْ يذهب إلى محل العطور، حتى وإن لم يشتر شيئاً منه، يشتم الرائحة العطرة.

لذلك عملت الأنشطة التربوية فى كنيسة القرون الأولى على تهيئة المناخ والبيئة النافعة خلال الإهتمام بالعادات والسلوك والقدوة والعلاقات الصالحة التى هى «محل العطور» وتفادى معاشرة الأشرار والإخوة الكذبة.

وركز الآباء على **دور النعمة الإلهية** فى التربية، تلك النعمة التى تعمل مجاناً فى هؤلاء الذين لهم إرتباط عضوى بالكنيسة والذين يجاهدون فى قبولها ليعيشوا بحسب تعاليمها. واعتبر الآباء أن النعمة من أهم العوامل التى تؤثر على تطور ونمو الشخص بل أنها تحكم العاملين السابقين (**الوراثة والبيئة**).

فنقرأ فى سيرة القديس باخوميوس أن القديسين لم يُولدوا قديسين من رحم أمهم، وأن الخطاة يمكنهم أن يتغيروا ويتجاوبوا مع عمل النعمة ليعيشوا بسيرة صالحة خلال إرادتهم الحرة وقبولهم عمل الله. ذلك أن القديس باخوميوس كان خائفاً لله للغاية وملتحفاً بجميع الوصايا وهو الآن يقودنا بالصواب إلى الله بالرغم من أنه كان وثنياً.

إذن النعمة الإلهية فى كثير من الأحيان هى القوة التى تقود عاملى البيئة والوراثة، وهى التى تعطى الجهود التربوية والتعليمية إمكانية النجاح لأن الرب يقول «بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو١٥ :٥).

وبذلك يقودنا الآباء فى العملية التربوية إلى عوامل:

١) الوراثة **٢) البيئة** **٣) النعمة**

كمعايير لنمو الإنسان وصياغة شخصيته. لذا يقول القديس مقاريوس الكبير: «لا يستطيع الإنسان أن يتقدم بالقوة والنعمة الإلهية فقط دون تعاونه وإرادته الحرة، وكذلك لا يمكنه بقوته وجهاده فقط دون معونة الروح القدس أن يتمم إرادة الله الكاملة ويصل إلى ملء الحرية والنقاوة».

ولم يوضح لنا الآباء إلى أى مدى يسهم كل من هذه العوامل فى العملية التربوية، إلا

أنهم أكدوا على دور النعمة الإلهية بشدة واضعين إياها فوق العاملين الآخرين، فكل منهم له دوره فى التفاعل التشكيلى والتكوينى للشخصية.

ويعود إهتمام الآباء بدور النعمة الإلهية فى العملية التربوية إلى إيمانهم بأن الله هو أصلنا، وأن الإنسان لا يستطيع أن يدرك الكمال إلا بالشركة مع المسيح والعون من الأعالى ومؤازرة النعمة الإلهية، لأن الله هو العامل فينا أن نريد وأن نعمل من أجل المسرة.

وبهذا صار واضحاً أن الكنيسة إنما تربى «أبناء بالنعمة» على أساس أننا ننال بنوتنا لله بالنعمة، معترفين بعمله خلال سلوك ملموس يتجاوب مع هذه النعمة. وبهذه الطريقة لا نكون قد أخذناها عبثاً بل سنكون مثل أولئك الذين إمتدحهم الرب لأنهم تاجروا بالوزنات وإستثمروا النعمة التى أخذوها.

٣) إمكانيات التربية عند الآباء

يسلم الأدب الأبائى بأن للتربية تأثيرها الكبير على شخصية الإنسان، ويقول كلمنضس السكندرى أن التربية السليمة تقود إلى السماء، لذلك لابد أن توظف كل الإمكانيات من أجل العملية التربوية، ولهذا اعتبر كلمنضس السكندرى أن الفلسفة هى «هبة من الله» وأن لها هدف خلاصى للوصول إلى سمو الحق المسيحى الذى لا يجارى.

فالكلمة الصالحة لها من القوة ما يجعل الشرير باراً، والكلمة الشريرة يمكن أن تجعل البار شريراً. كذلك ركز الآباء على توافق الإرادة وعلى الإستجابة كإمكانيات تربوية، واهتموا بالإقتداء بأعمال القديسين وبالإختيار بين الإلتصاق بالنعمة أو الإبتعاد عنها، لتكون أعمالنا بالمسيح معمولة لأننا لا نعملها وحدنا بل هى أعماله فينا.

كذلك علّم آباء البرية بأن التربية تعنى بالجسد وبالنفس كليهما، لذلك وضعوا قوانين الأصوام والتداريب الروحية وتكلموا عن حروب الشياطين الجسدية والفكرية والسيكولوچية... لكنهم نبهوا إلى أن مهمة التربية شاقة للغاية وتتطلب وقتاً ولابد أن تتم بصبر ورفق وبالتدريج.

وفى تناولهم لإمكانية التربية وفقاً للسن، رأى الآباء أن التربية تأتى بنتائج أفضل عندما تتم فى السنوات الأولى من حياة الطفل، إذ أنه من السهل تشكيل النفس بينما لا تزال لينة

وطيعة مثل الشمع الذى يصبح من الصعب محو أشكاله فيما بعد.

ويقول القديس باسيليوس أن طبيعة الطفل طيعة للغاية وسهلة التشكيل، ويردد يوحنا الدرجى نفس هذا التعليم ويذكر أن التربية التى تلقاها وهو طفل كان لها تأثير حاسم على نموه فى الحياة الرهبانية. ويتناول ذهبى الفم هذا الموضوع بالإهتمام معتبراً أن النفس تكون رقيقة ولا يمكن فيما بعد محو ما قد تعلمته، تماماً كما أنه من الصعب محو الأختام. وبالمثل تعد السنوات الأولى من حياة المبتدئ فى الرهبنة أساسية جداً لأجل نموه فى الحياة الرهبانية.

من الأهمية بمكان أن ننوه إلى المؤسسات الرهبانية والكتابات النسكية التى لعبت دوراً كبيراً فى الأنشطة التربوية لكنيسة القرون الأولى، خاصة أن الآباء قد اعتبروا أن هدف وغاية الرهبنة هو نفس هدف المسيحية.

٤) التربية الرهبانية

فى المصادر الرهبانية الأولى وُضعت مناهج نسكية للرهبنة هى بالأصل تربوية تتضمن ضبط النفس فى الأكل والسهر والصمت والطاعة والتلمذة وفقاً لتداريب وممارسات محددة من حيث الأوقات والطرائق. لذا لم تصر التربية الرهبانية فناً فحسب بل فن الفنون الذى يعتنى بـ «التدريب، الممارسة، التمرين»، ويتم بإرشاد وتدبير وفى إطار نظم وقوانين تحفظ سلامة الهدف والأداء، الأمر الذى يؤكد أن آباء البرية كانوا مدركين لأهمية المفاهيم التربوية عند وضعهم للنظم والترتيبات الخاصة بـ «الأب والتلميذ» لأن الذين بلا مرشد يسقطون كأوراق الخريف.

هذا وقد تضمنت المنظومة الرهبانية الآتى: من هو الأب الروحى؟ وما هى مقوماته؟ وما هى الصفات المطلوبة فيه؟ وما هى سماته ودرجته؟ وكيف يتم إختياره أباً روحياً؟ وما هى مسؤولياته وواجباته؟ وهل يمكن أن يقبل أى أب هذا الدور؟ وجهاد الأب الروحى المزدوج فى الصلاة وحمل عبء أولاده... وما هى واجبات التلميذ؟ ... إلخ.

ومن الجدير بالذكر أن العملية التربوية فى الرهبنة تأخذ فى الاعتبار تنوع العادات الإنسانية وخداع الأفكار وإمكانية تحليل الأعمال الباطنية والخبرة فى حروب الشياطين وفى

حل المشاكل، والمواهب النعموية التى يتحلى بها الأب الروحى كوصى صالح وكأب رحيم لأبناء الله وكذلك قدوته فى كل شئ.

كان آباء البرية يُلقبون بـ «معلمين ومربين» كما يتضح من تكرار هذين اللقبين فى «الأقوال» وفى سيرة البابا ألكسندروس التى تروى أنه «صار مربياً ومعلماً لكل أحد». فهذه الإشارات تثبت أنهم كانوا مدركين لدورهم كمربين، وأن معاصريهم أيضاً أدركوا أنهم معلمون ومربون.

لم ينس آباء البرية قط أن **«الإنسان كيان متنوع للغاية له العديد من العادات»** كما يقول القديس اغريغوريوس النزينزى. ولأنهم كانوا مربين، لذا استخدموا ما يُسمى اليوم بـ «المنهج المتفرد فى التعليم *Individualism*» وذلك فى الأرشاد الشخصى الذى يعكس إحترامهم لتنوع الدعوة والقامات من شخص لآخر ولإختلاف المناهج الشخصية، ولذلك لم يضعوا قوانين عامة على المبتدئين بجملتهم.

كان آباء البرية يقدرون فى منهجهم **«فرادة شخصية التلميذ»** و**«تنوع العطايا»** إيماناً منهم بأن الروح الواحد هو هو يعمل ويقسم ويوزع نصيباً لكل إنسان من المواهب حسبما شاء، وقد إتفق معظم الآباء على وجود الإختلافات الفردية بين الإنسان والآخر ووجود تنوع فى النفوس. ويقول القديس إيسيذروس الفرمى: «لا يسر الناس جميعهم بنفس الأمور ولا يشفون جميعهم بنفس الأدوية».

وكانت شخصية طالب الرهبنة (التلميذ) ونموه الروحى يؤخذان فى الاعتبار عندما يساعده أبوه الروحى على اختيار أفضل طريق حياة يناسبه. ويقول يوحنا الدرجى فى كتابه «السلم إلى الله»: «على الذين عزموا على خدمة المسيح حقيقة أن يعمدوا قبل كل شئ إلى إختيار المكان والطريقة والسكنى والممارسات النسكية التى تناسبهم حتى تتلائم معهم، وذلك بإستطلاعهم الشخصى ومعونة الآباء الروحيين لأن الأديرة ذات المعيشة المشتركة لا توافق كل الناس، وكذلك مواضع الوحدة والسكون ليست للجميع».

أيضاً من العوامل التى كانت تُفحص عند قبول المبتدئ كان عامل السن، لذا تكلم الدرجى عن الأماكن المختلفة للمعيشة بحسب السن، ووضع القديس أنطونيوس أيضاً قوانين أصوام متنوعة لتلاميذه حسب حالتهم، والقديس باخوميوس صنف تلاميذه بحسب شخصياتهم.

وبجانب الفرادة الشخصية وعامل السن والقامة الروحية ونوع الشخصية، أتى إعتبار الجنس، فما ينفع الحياة المشتركة لمجمع الرهبان يختلف عن العذارى المكرسات لله.
وبالجملة نستدل على أن دور الأب كان بالدرجة الأولى دوراً تربوياً، وأن حياة التلميذ المبتدئ كانت فى تلمذة وتعليم مستمر، وفى مدرسة البرية كانت شخصانية وفرادة المبتدئ تجد كل رعاية وإهتمام.

٥) الوسائل التعليمية

إستخدم الآباء تنوعاً غنياً فى المناهج والطرق التى تتناسب مع فرادة كل شخص، ففى البرية مثلاً كانت تقدم «الأقوال» ليس بطريقة واحدة لكن بطرق عدة تتوافق مع: السن والحالة الروحية والشخصية ونوع الحياة (وحدة أم شركة) إلخ.

فقُدمت الأقوال لتناسب كل منْ يسمعها، إذ أنها لا تناسب الجميع بنفس القدر، وكانت الإجابات الروحية تقدم وفقاً لمستوى السائل، إذ أن النفوس المختلفة لابد أن تُعطى تعليماً وإرشاداً متنوعاً، فالبعض تقودهم العقيدة والبعض ينفعهم التعليم البسيط والبعض يحتاجون للمهماز والبعض الآخر ينتفعون بالتشجيع والبعض بالتوبيخ. لكن هذه جميعها يجب أن تُستخدم فى الوقت المناسب حتى لا تضر. فهناك منْ يحتاج للتشجيع وهناك من يحتاج للتوبيخ. لذا يقول القديس اغريغوريوس النزينزى: «فى بعض الأوقات يجب أن يلاحظ الأب أدق التفاصيل بتركيز، وفى أوقات أخرى يجب ألا يلاحظها بل بينما يرى يظهر كأنه لا يرى... حتى يقدم أفضل معونة».

ويقول القديس كلمنضس السكندرى فى كتابه «المربى» عن المسيح كمربى للإنسانية أنه يستخدم كل وسيلة ممكنة مثل اللوم والتأديب والتعنيف والتوبيخ والوعيد والتشجيع والمساندة والوعيد والصفح والعفو.. إلخ.

فكان الآباء يتدرجون فى تربية أولادهم الروحيين، ولذلك لم يكن العمل التربوى فى الكنيسة الأولى روتيناً سهلاً يمكن إستخدامه بنفس الطريقة مع جميع التلاميذ، بل كان عملية شاقة تتضمن العديد من المناهج والطرق والأساليب بحسب طبيعة كل تلميذ، كما كانت تتطلب معونة الله ونعمة الإفراز والتدبير وموهبة القيادة.

وهذا دليل جل واضح على أن كنيسة القرون الأولى بينما عاشت فى عصر كان الإهتمام فيه بالفرد ضئيلاً للغاية، أكدت هى على العمل الفردى والتمايز والتنوع فى طرق التعليم:

١) التعليم بالوسائل اللفظية:

أ) وسائل عامة:

١ – الوعظ
٢ – الحوار
٣ – التوبيخ
٤ – النصح والإرشاد

ب) وسائل خاصة:

١ – المثل
٢ – المجاز والرمزية
٣ – الأقوال

٢) التعليم بالوسائل غير اللفظية:

أ) الرموز
ب) الطقس
جـ) القدوة الشخصية

٣) التعليم بالخبرة:

أ) فحص الذات ومحاسبة النفس
ب) الاعتراف

وقد راعى الآباء مبدئين أساسيين هما:

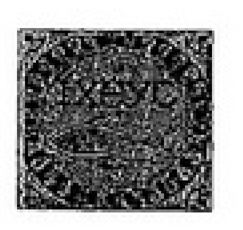
١) **مبدأ النمو التدريجى:** إذ أن التعليم والتربية بصفة عامة لابد أن يتم بصورة تدريجية تبدأ من الدروس الأولى السهلة وتتدرج إلى الدروس المتقدمة.

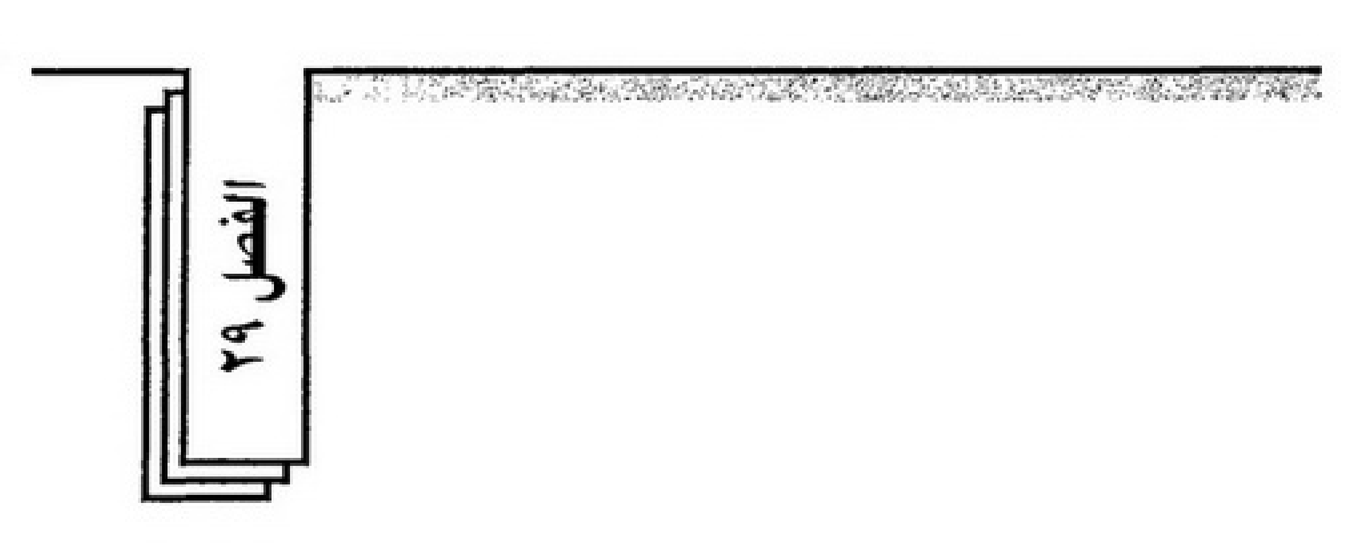
٢) **مبدأ تعليم الفرد:** ففى «الأقوال» كان السؤال والطلب الشائع هو «**قل لى كلمة منفعة**»، فلا يمكن إستخدام نفس المنهج الواحد مع جميع الناس، فالصغار والكبار، الأغنياء والفقراء، الحكيم والجاهل، الجبان والشجاع، لا يحتاجون لنفس التعليم، ومن هنا كان تنوع الوسائل فى الوعظ والحوار والتوبيخ والإرشاد والنصح.

واستخدم الآباء العظات التى كانت بسيطة وعامة سواء المكتوبة أو الشفاهية، وكذلك أسلوب الحوار الذى إختص بالتساؤلات والمشاكل الشخصية والأحاديث. كما استخدم الآباء وسيلة التوبيخ بأبوة ومحبة وترفق وصبر على الإخوة، ثم وسيلة النصح والإرشاد التى إرتقت لتكون علماً «علم الإرشاد أو المشورة». وقد استخدم الآباء الأمثال بصورة واسعة، وكذلك التفسيرات المجازية والرمزية كوسائل إيضاح فى التعليم، كما صارت الطقوس والرموز أداة مؤثرة فى التعليم الكنسى العام.

والآباء ـ كرواد فى «سيكولوجية العمق» ـ عرفوا أن القدوة لها تأثيراتها وإنطباعاتها القوية كوسيلة ممتازة للفهم والتطبيق العملى والحى، حتى أتى التعلم بالقدوة كأعظم منهج فى التربية الحديثة والدراسات المحدثة.

وهكذا كانت التربية الليتورجية الطقسية وأنماط الحياة الرهبانية والقيم المُعاشة فيها من أهم وسائل التربية المسيحية الأولى، إذ كانت المدارس والعظات والرموز والأقوال والعبادة والرهبنة والطقوس والاعتراف والإرشاد والقدوة والكتابات والقوانين تعمل جميعها فى تنشيط تربية المسيحيين الأول.





كيف أعدت الكنيسة الأولى أبناءها للإستشهاد

كيف أعدت الكنيسة الأولى

أبناءها للإستشهاد

١) فكر الإستشهاد فى الكنيسة الأولى

تعمق الإستشهاد فى وجدان الكنيسة حتى صار ليس أمراً إستثنائياً ولا جزءً مُضافاً بل ضرورة حتمية ضمن الإيمان المسيحى. وبإنتقال الرعيل الأول من التلاميذ والرسل، وبينهم كثيرون إستشهدوا، تسلمت الكنيسة ذخيرة حية من التعاليم والتقاليد التى تحث المؤمنين على مواجهة الإستشهاد بشجاعة بل وبإشتياق، فيقول القديس أغناطيوس الأنطاكى: «القريب من السيف قريب من الله. أن تكون وسط الوحوش يعنى أنك مع الله». وقال أيضاً: «همى الوحيد هو أن أصل إلى الله عن طريق الإستشهاد وأن أُحصى بين تلاميذه». وزادت الشجاعة عند القديسين حتى صارت تشوقاً ولهفة على الإستشهاد لدرجة أن القديس أغناطيوس الأنطاكى خاف أن تأخذ المؤمنين الشفقة عليه فيحرموه من حلاوة الإستشهاد فكتب إليهم يقول: «اتركونى فريسة للوحوش لأنها توصلنى سريعاً إلى الله» «إنى أتوق إلى الوحوش التى تنتظرنى... لقد قربت الساعة التى سأُولد فيها... إنى أكتب لكم بتمام وعى الحياة مختاراً الموت».

إن المسيحيين الأوائل كانوا يُقتلون ولكنهم بذلك كانوا يربحون الحياة الدائمة، يُحتقرون ليجدون مجدهم، يُفترى عليهم غير أنهم يتبررون، يُلعنون فيُباركون. لذلك عاشوا متسلحين ومستعدين للجهاد الذى يثيره عليهم عدو الخير، مستعدين للشهادة، متمسكين بالحياة الأبدية عالمين أنهم غرباء مشتهين الإنطلاق.

علّم الآباء الأولون كخبراء فى هذا الأمر بأن الإستشهاد هو شركة المسيح فى الآلام وأن الروح القدس هو المتكلم والمُعطى قوة لتجاوز حدة هذه الآلام، لذا إعتبروا أن الضيقات مفيدة كمشرط الجراح، وأن منْ لا يستعد ليموت لآلام الرب فإن حياة الرب ليست فيه،

وأن الإستشهاد واجب على كل مسيحى، وأن المؤهلين له هم شركاء كأس المسيح، وهم الذين يدخلون الأبدية السعيدة ويعبرون إلى الحياة الدائمة.

لقد صار الإستشهاد فلسفة روحية عميقة تستند إلى واقع روحى وحياة إنجيلية، تفرز دوافع الشهادة بالدم لا كفكرة طارئة أو ساذجة اعتنقها بسطاء المسيحيين، لكن كقصة الكرازة بالمسيحية التى تعطرت بمسك سيرتهم وعطر آلامهم وشهادة دمائهم وأعمال شهادتهم وأقوالهم وأدعيتهم وصلواتهم وسلوكهم وكتاباتهم وأنواع عذاباتهم وفئاتهم وتاريخهم وبالجملة كل ما يخص الأدب الإستشهادى.

فحملت كنيستنا بذلك سمة التعدد والتنوع أمام العالم كإبنة الملك الملتحفة بثياب مزركشة لتلمس أوتار كثيرة لقلوب الكثيرين، مقدمة أمثلة حية فى المجاهرة بالإيمان وفى الدفاعيات التى سُطرت فى ذلك الزمان. كان مجدهم أن يكونوا مسيحيين، ولم يشتهوا شيئاً أكثر من أن يواجهوا العالم كمسيحيين، مصلين لكى ينالوا هبة الألم إذ بهذا يخلصون ويمنحون ثقة وتأكيد لخلاصهم.

اعتبر آباء الكنيسة أن المسيحى الحقيقى لا يضطرب من شئ ولا يخشى الموت أو يخافه، لأن ضميره الصالح هو الذى يهيئه لمعاينة القوات السمائية، ونظروا للإستشهاد على أنه كمال العشق الإلهى وكمال عمل المحبة، فكان هو شهوتهم الوحيدة وسر خلاصهم الذى يضمن لهم مجداً أكثر ودالة أوفر، لأن جزاءه أعظم من كل ما يتركونه ورائهم على الأرض. ونظر الآباء للذين يتهيبون الإستشهاد ويهربون منه على أنهم يصيرون مع الملائكة الساقطين، أما الذين يعترفون به علناً، فإن المسيح يأخذهم معه إلى الفردوس تواً، والذين يسلمون حياتهم ليد الله، فمن يده يأخذونها مع عزاء أبدى مجتازين إلى العلا بأنفسهم.

٢) حلاوة الإستشهاد فى حياة وفكر الكنيسة الأولى

إزدادت قيمة الإستشهاد عندما ترسخت فى حياة الكنيسة تلك الكرامة والتطويب والجعالة التى ينالها الشهداء بإعتبار أن كرامتهم تساوى كرامة التلاميذ الذين سيجلسون مع المسيح متى جلس على كرسى مجده (مت١٩ :٢٨، لو٢٢ :٢٨، ١كو٦ :٢). وكان أول من أعلن هذه الكرامة هو القديس أغناطيوس الأنطاكى أيضاً حينما كتب قائلاً: «لقد إبتدأت أن أكون تلميذاً للمسيح»، وهو ما أكده القديس كلمنضس السكندرى فى أواخر القرن

الثانى ليوضح أنه قد صار عقيدة راسخة فى الكنيسة، فلم يعد هناك للكنيسة شرف أعظم من تقديم الشهداء للسماء، إذ ليس هناك ما يعادل اسم «شهيد».

وأضفت الكنيسة على الشهداء صفات أخرى للتعبير عن كرامتهم اللائقة بهم مثل «المغبوط، الكامل، الطوباوى، السعيد....» بإعتبار أن الإستشهاد ميلاد جديد تربح به النفس حياتها الأبدية. فسلام الشهيد من سلام الله، وكل منْ ينال سلاماً من شهيد فكأنه قد ناله من الله. لذلك بمجرد أن يودع المسيحى فى السجن تمهيداً لإستشهاده تتقاطر عليه الجموع طلباً للسلام والنعمة.

لقد تغلغلت إرادة الإستشهاد ووُجدت بالفعل خلال الإستعداد القلبى والمحسوب فى حد ذاته شهادة، وعلى هذا القياس تذوق الشهداء حلاوة الإستشهاد قبل إستشهادهم، فشاؤا الموت لله مختارين طالبين أن لا يعوقهم أحد ليجوزوا الشهادة التى بها يصيرون محررين للمسيح ويقوموا معه معتوقين للرب، عالمين ما هو لربحهم، مرحبين بالعذابات التى بها يبلغون غايتهم نحو المسيح.

وصار من المألوف أن تزدحم الجموع حول الشهداء فى لحظاتهم الأخيرة ليتنسموا رائحتهم ويتقبلوا نصائحهم ويتزودوا بدعواتهم وينتفعوا بصلواتهم، ويتزاحموا على لمس أجسادهم ويتباركوا بقطرات دمائهم!! واُعتبرت رفات الشهداء أثمن من الذهب والنفائس، واُعتبر الشهداء سفراء دائمين للكنيسة عند المسيح يتشفعون عن الجميع. لذا تطلب الكنيسة منهم أن يصلوا من أجلنا وتتذكر أعمالهم التى بها أكملوا المحبة أكثر من أى إنسان، وتجمع مدائحهم وتكتب أسماءهم فى سجل فخرها وتُخبّر بسيرهم. وهم يعملون كصيادين للناس بعد موتهم عندما يصطادون ربوات من الناس إلى مواضع أجسادهم، وكل منْ يلجأ إليهم ينال شفاء من الأوجاع ويأخذ تهذيب وقوة لنفسه لأنهم يحاربون عنا كجنود ويسرعون لمعونتنا كشهداء يشفعون عن الكنيسة فى إخوتهم ويتكلمون عنهم ويتوسلون لأجلهم.

إن الشهداء يدافعون عن الكنيسة كخط دفاع من حصون وقلاع لكنهم لا يُغلقون على أنفسهم، إنما يجولون فى كل موضع ويزورون البيوت ويتشفعون عن جميعنا. ولا تزال سيرهم أمامنا عظة بحد ذاتها للإنسان المسيحى وعون للكنيسة وتثبيت للإيمان وغلبة

لأوهام الموت وعينة للقيامة وتوبيخ للشيطان وتعليم للفلسفة الحقيقية، فسيرتهم ملهمة لكل الأمور الصالحة.

وقررت الكنيسة إعلان تطويب وقداسة شهدائها وأقرت شفاعتهم لأنهم أقدر منْ يمثل جسد المسيح كذبيحة، ولأنهم أصدقاء العريس السمائى الذين نسأل بتوسطهم عند المسيح ملكنا وإلهنا إذ قد صارت دالتهم أعظم بكثير مما كانت قبل شهادتهم.

٣) مكانة الشهداء فى الكنيسة الأولى

بموت الشهداء تدعمت العقيدة وإزداد الإيمان وتقوّت الكنيسة. لقد إنتصر الذين ماتوا أما المضطهدين فقد غُلبوا على أمرهم، وحُسب موت الشهداء أفضل من الحياة وصار هو نفسه مكافأة لحياتهم. فالملوك المضطهدين يموتون أما الشهداء فيرثون إلى الأبد كرامات ملكوت النعمة السمائية.

وربطت عبادة الكنيسة الشهداء بالشفاعة وبتكريم ذخائر رفاتهم الطاهرة وأعلنت قداستهم وطوّبتهم كقديسين وشفعاء لها، بإعتبار أنهم شهود المسيح الذين يحملون شهادة الحق، والمسيح الذى شهد لنفسه هو الذى حلّ فيهم وجعلهم قادرين على حمل الشهادة للحق. فالمسيح الحال فيهم هو الذى يشهد لنفسه، فهو بدونهم الله، أما هم فبدونه كلا شئ.

لقد إنسكبت محبة الله فى قلوبهم بالروح القدس المُعطى لهم ومنحتهم الجرأة الكاملة لمثل هذه الشهادة، تلك المحبة هى التى حوّلت قلب بطرس الذى كان قبلاً بارداً وخائفاً ومحصوراً لتجعله شجاعاً مجاهداً، فهناك أنكر الواحد الذى أحبه، وهنا أحب الواحد الذى أنكره.

فعندما تكرم الكنيسة الشهداء إنما تكرم المسيح الساكن والعامل فيهم، فبالله صنعوا بأساً وهكذا الله قد داس أعداءهم، والمسيح هو قائد الشهداء وهم جنوده الذين يقتفون آثاره، وعندما تحمر الأرض من دماء الشهداء، فإن السماء تزهر بأكاليلهم والكنائس تتزين برفاتهم والفصول تتميز بأعيادهم وصحة المؤمنين تتشدد بقوتهم.

إن موت الشهداء قد مجّد الله، لأنهم كانوا عارفين أية ميتة كانوا مزمعين أن يمجدوا

لله بها، ولأنهم عملوا أعمالاً تفوق كل الوصايا، لذا كان جزائهم فائقاً ومجدهم عالياً، ولذلك ينصح ذهبى الفم رعيته بأن يكثروا من التردد على أماكن الشهداء، ويوصى القديس باسيليوس الكبير قائلاً: «امدح الشهيد بكل إخلاص لكى تنمو محبة الإستشهاد فى قلبك وتنال، دون أن تذوق الإضطهاد، مجازاة من نفس نوع المجازاة التى فاز بها هؤلاء الشهداء».

وكما علّمت الكنيسة الأولى بتطوبيهم ومديحهم وطلب شفاعتهم والتبرك من أجسادهم وتكريمها وحفظ تذكارات أعيادهم، علّمت أيضاً بأن نطلب بأسمائهم ونوقد عندهم الشموع وأن نعرف كمالاتهم ونقتدى بهم وأن نركض فى نهج تعليمهم، إذ أن كرامة الشهيد فى الإقتداء به، وتطويبه يكون فى التمثل به.

وضعت الكنيسة رتبة الشهداء بعد رؤساء الآباء والأنبياء والرسل فى عبادتها الليتورجية، وجعلت تقويمها يبدأ بالشهداء، ووضعت أيقوناتهم فى حامل الأيقونات ليتطلعوا إلينا بعد أن أشتروا أماكنهم بالدم ليشفعوا فينا كخط أول لخورس الكنيسة فى العبادة، بل وحثت الكنيسة الفنانين على تسجيل أعمال الشهداء بالألوان والفرشاة لتصوير المشاهد العظيمة لعذاباتهم.

٤) دور الكنيسة فى الإعداد للإستشهاد

لكل نلم بالدور الأساسى الذى قامت به الكنيسة أثناء الإضطهادات التى لازمتها خلال الثلاثة قرون الأولى، لابد أن نطلع على إحصائية أعدها بعض المؤرخين عن السنوات التى عاشتها الكنيسة تحت الحرمان والإضطهاد والمطاردة مقابل سنى التسامح والسلام، بداية من عصر نيرون عام ٦٤م حتى رسوم ميلان السلامى عام ٣١٣م الذى أصدره قسطنطين الكبير لنلم بما يأتى:

القرن الأول: ست سنوات إضطهاد، مقابل ٢٨ سنة تسامح
القرن الثانى: ٨٦ إضطهاد مقابل ١٤ سنة تسامح
القرن الثالث: ٢٤ سنة إضطهاد مقابل ٧٦ سنة تسامح
القرن الرابع: ١٠ سنوات إضطهاد حتى صدور مرسوم ميلان.

ومع أن الإضطهادات لم تكن بدرجة واحدة من العنف فى كل الأوقات ولا فى جميع الأقطار، إلا أننا نستطيع أن نقول بإيجاز أنه أثناء ٢٤٩ سنة بين حكم نيرون حتى تملك

قسطنطين الكبير، ذاقت الكنيسة ١٢٦ سنة إضطهادات ومذابح، بينما لم تعرف الهدوء والسلام سوى ١٢٣ سنة.

وهذا يعنى أن الأجيال المتلاحقة كانت تدرك تماماً أنها تعيش تحت خطر الإضطهاد وأنه ينبغى الإستعداد له، فكان واجب الأساقفة وقادة الكنيسة الإعداد المناسب للمؤمنين، وأول درس تلقنه الكنيسة لأبنائها هو أنهم «مجاهدون، مصارعون». هكذا دُعى بطرس وبولس شهيدا الكنيسة من قِبل كلمنضس الرومانى، نقلاً عن بولس نفسه الذى «جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعى وحفظ الإيمان وأخيراً نال إكليل البر». وحياة المجاهد أو المصارع تفرض عليه نوعاً من التدريب والنسك والجهاد. أما الذين جبنوا وإرتدوا عن الإيمان فوصفهم التقليد الكنسى بأنهم لم يكونوا مستعدين ولا متدربين، إذ هم ضعفاء وعجزوا عن إحتمال عذاب شديد كهذا، أما الذين يتسلحون فيستعدون للجهاد الذى يثيره عليهم عدو الخير حاملين أسلحة الله.

كرست الكنيسة كل الجهود من أجل مبدأ الإستعداد لكى تألف النفس السجن وتمارس الجوع والعطش وتقبل الحرمان من الطعام فى السجن بنفس الكيفية كما لو كانت خارجة منه، وتصير الأتعاب نوعاً من الممارسات العادية التى يتدرع بها الجسد اللابس خوذة الخلاص التى تتقبل الضربات واللكمات.

كان النسك والأصوام هو المدرسة الأولى التى يتتلمذ فيها المسيحى إستعداداً للإستشهاد، ثم المواظبة على دراسة الكتاب المقدس بما يقدمه من أمثلة حية لتكون المصدر الأساسى الذى يلهم المؤمنين فى كل زمان، وبالأخص فى أزمنة الإضطهاد، قوة الإحتمال والشجاعة لمواجهة الآلام بفرح.

أوصت الكنيسة أولادها بالإهتمام بالكتب المقدسة للبيعة من حيث قراءتها وعيشها وحملها والمحافظة عليها ونساختها والعمل بها والحياة بمقتضاها، فيستمد منها الشهيد قوة وعزاء وسلطاناً لمواجهة الآلام والتشكيك المرير. حتى أن كثير من القديسين أجابوا الولاة بأنهم مسيحيون وردوا على تساؤلاتهم بأقوال من الكتاب المقدس موبخين المرتدين واعظين الجموع لكى يثبتوا على الأمانة الصحيحة.

وبالرجوع إلى سيرة شهداء سكيللى بشمال أفريقيا وأعمال الشهيدة تكلة من صعيد

مصر، والشهيد أبوانا من سبشير (منوفية) نلمس بوضوح كيف كانت الكنيسة تغذى أولادها بكلمة الإنجيل منذ حداثتهم وترضعهم صراحة الإيمان فيشبوا بقلوب مستنيرة بكلمة الله التى تملأهم شجاعة فلا يهابون الولاة والحكام بل يجاوبون بثقة ومعرفة وأدب وإحتشام منقطع النظير.

لم تكتف الكنيسة بهذا الأسلوب من التعليم، بل قامت أيضاً بتصوير أمثلة وقصص العهد القديم على الفرسكا والرخام والنقش على الأحجار لتعميق الأثر الإنجيلى فى قلب الشعب عن طريق الرؤية. وكانت أبرز المناظر التى شاعت فى أزمنة الأضطهاد: «الفتية الثلاثة فى آتون النار، ودانيال النبى فى جب الأسود، ويونان فى بطن الحوت». فهذه الصور كانت تلهم الثقة فى المعونة الإلهية وتوحى بنجاة إعجازية وتطبع فى المؤمنين إقتناعاً بخلاص يقدمه الرب فى حينه.

يُضاف إلى هذا بعض المقالات والكتابات التى أعدها الأساقفة ومعلمو البيعة بخصوص الحث على الإستشهاد والتحذير من الضعفات التى توهن المؤمنين. وكانت هذه العظات والرسائل متداولة بين المؤمنين ليتذكروا الوصايا والمواعيد الإلهية، مع الإرشادات الموجزة التى تلهم الشجاعة الروحية والتسلح بالنسك والإنجيل وروح الصلاة والإتضاع والتحلى بالصبر والإيمان العملى، مع وصف الخيرات الأبدية والإحتفالات والجعالة السماوية التى تجرى ساعة خروج النفس وإقتبالها فى السماء، وكيف أن أرواح الأبرار تستقبلها بالفرح والتهليل وصفوف الملائكة والقوات العلوية تهنئها على كمال جهادها.

ولا ينبغى أن نغفل دور الكنيسة فى تقديم الأسرار الإلهية كذخيرة دفاعية يتسلح بها الشهداء الجدد ليصطفوا فرقاً تحت شعار جسد يسوع ودمه الإلهى، وليشبعوا بالزاد السماوى كدرع حصين وملجأ أمين يحتمون ويستترون فيه. بهذا الإهتما م والعناية كانت الكنيسة تعد أبنائها للإستشهاد، معتنية بتكوينهم الأخلاقى والأدبى والروحى بطريقة عملية تهيئهم للإحتمال الجسمانى، لأنها تطمح جدياً إلى تكميل ذبيحة الذين يعترفون بالمسيح يسوع وتضمن عبورهم تلك الضيقات والعذابات بروح مسيحية عالية.

فصار الإستشهاد إختبار تقوى يومى يحياه المؤمن، فهو «**إختبار شركة الآلام**» وخبرة «**تكميل نقائص شدائد المسيح**» وتدريب «**الإستعداد للمعركة الروحية**» بالتطلع إلى المجد الأبدى. فإذا كانت الحرب قاسية وشديدة، تلك التى تهدد جنود المسيح، إذاً لا مناص من

تهيئتهم بشرب كأس دم المسيح اليومى حتى يعطيهم إمكانية تقديم دمهم مسفوكاً لأجله، وبأكل جسد الرب الإفخارستى حتى يكونوا فى ثبوت متبادل معه، ومن ثم يرفعهم إتحادهم به ليقدموا أنفسهم ذبائح له. لأن منْ قال أنه ثابت فيه ينبغى أن يسلك كما سلك ذاك (١ يو٢ :٦). إن الرب لا يرغب فى دمنا بل يطلب إيماننا، ذلك الذى تسلمه لنا الكنيسة كى نحياه ونشهد له لا بخوف العبيد بل كما يليق بأبناء أحرار.

إنها كنيسة مجيدة ومطوبة تلك التى صار فيها دم الشهداء ممجداً. لقد كانت بيضاء قبل إستشهادهم والآن صارت قرمزية بعد أن أعدّتهم للشهادة، ولم يعد ينقصها زهور بيضاء ولا زهور حمراء، لذلك هى تجاهد لتعد أولادها بالنسك والإنجيل والعفة والمواظبة على التناول، فينالوا أكاليل بيضاء فى أزمنة السلم، وينالوا أكاليل قرمزية مخضبة بدمائهم فى زمن الإستشهاد، وعندئذ يكون فى السماء لكل منهم زهوره التى يتمجد بها.

إنبرى الاباء، مثل القديس أنطونيوس الكبير، فى إرسال الرسائل للمؤمنين لحثهم على تشجيع المعترفين وتثبيتهم فى الإيمان وتعزيتهم وسط ظلام السجون وقساوتها، مع تقديم العون لهم والسهر على روحياتهم، وكذا علم الآباء أولادهم حياة التسبيح حتى إذا تقدموا إلى حلبة الإستشهاد إمتزجت عذاباتهم بالتسابيح المفرحة فبلغوا إلى الموت مسبحين الحى إلى أبد الأبدين ثابتين غير هيابين ولا مهزومين، بل بعزم الإرادة والتسبيح تمموا مجد الإستشهاد.

إهتمت الكنيسة إهتماماً خاصاً بمنْ كانوا فى السجون وإعترفوا الاعتراف الحسن بالرب، فخدمت هؤلاء البواسل وإعتنت بهم روحياً وسيكولوجياً وجسدياً، وسلمتهم روح المحبة بالإفتقاد والرسائل والأغابى، وكرمت الذين فارقوا الحياة فى نهاية مجيدة فى السجن بعد أن قاسوا ما كانوا عازمين أن يقاسوه إلى النهاية. كذلك إهتمت الكنيسة بالمساعدات ومساندة أسر الشهداء وإفتقادهم مع تقويتهم وتعزيتهم، ولم يفت الكنيسة الإهتمام برفات الشهداء وتكفينهم مع تسجيل أعمال شهادتهم.

علّمت الكنيسة أولادها روح المحبة للجميع وبالأخص للمضطهدين، وحثتهم على البعد عن الإثارة والكراهية والتذمر، وركزت على التدرب على روح الصلاة والتهذيب بالأصوام حتى ينتصروا على أنفسهم، لأن النصرة إنما تبدأ من الداخل، ونبهتهم إلى الإحتراس من المديح، وأيقظت وعيهم لبركات الألم مهتمة ببنائهم ونموهم فى النعمة.

قامت الكنيسة برعاية المعترفين وسهرت على حياتهم وهم تحت المحاكمة ولم تنس سرهم، فكان الأغنياء يضمون إليهم المشردين، وكان البطاركة والأساقفة يتخفون فى ملابس عادية ويزورون الأسر المجروحة ويقدمون لهم العطاء، وهكذا لم تتركهم الكنيسة مهم معوزين شيئاً.

أخيراً إعتنت الكنيسة بإقامة الصلوات الخاصة من أجل طلب مراحم الله ومعونته من جل هؤلاء الشهداء، مع تسجيل يوم إستشهاد كل منهم كبركة للكنيسة كلها، وكذا كتابة وثائق ترافق أجسادهم عند إرسال كل شهيد إلى بلده.

ومن أهم الكتابات التى تناولت الإعداد للإستشهاد:

١) «الحث على الإستشهاد» للعلامة أوريجين السكندرى.
٢) «إلى الشهداء» و«عن الهروب فى زمان الإضطهاد» و«ترياق العقرب» للعلامة ترتليان الأفريقى.
٣) «الحث على الإستشهاد» للقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة.

١) العلامة أوريجانوس

نشأ أوريجين فى بيت مسيحى له نفسية الشهداء، لهذا عندما أُقتيد والده للإستشهاد كان يود أن يقاسم أبيه هذا الإكليل لو لم تحجب أمه ملابسه عنه، عندئذ بعث إلى والده رسالة يشجعه ألا يتراجع عن هذا الطريق بسببهم. وعندما تسلم قيادة مدرسة الإسكندرية للاهوتية كانت رسالته تهيئة قلوب المؤمنين بل والموعوظين أيضاً لقبول الإستشهاد بفرح صار له تلاميذ شهداء وهم بعد موعوظين.

رأي أوريجانوس أن الكنيسة مكللة بالأمجاد وسط الضيقة، ويُروى كيف كان لإستشهاد يتم بشجاعة وأنهم كانوا يعودون من المقابر فى صحبة أجساد القديسين، وكيف كان الموعوظون يقبلون الوعظ وسط الإستشهاد، وأنهم كانوا يغلبون العذابات ويعترفون بالله حى بغير خوف، ويصف الأعمال البطولية العجيبة التى صنعها مؤمنون قليلون فى العدد كنهم بحق مؤمنون يتقدمون فى الطريق الضيق المؤدى إلى الحياة.

رأى أوريجين أن الإستشهاد خبرة حياة يومية وأنه شهادة للمسيح بالكلام والعمل

والسلوك وكل ما للإنسان، وأنه البلوغ إلى قمة العمل والحياة، وأنه تنفيذ لوصايا الرب. ورأى أيضاً أن الإستشهاد هو واجب كل مسيحى حقيقى، وأنه إتحاد مع الله وشوق للخلاص من جسد هذا الموت وراحة مع المسيح. ويقول: «لنجاهد ونصارع الجسد ما دمنا فى الجسد» . واعتبر العلامة أوريجين أن الإستشهاد ضرورى وأنه يليق بالمسيحيين أن يحتملوا الموت ليقابلوا حب الله بالحب، ويرى فيه نوعاً من تسديد الدين لعطايا الله لنا. فإذا كنا نبغى الخلاص لأرواحنا كى نستردها روحاً أفضل فلابد لنا أن نفقدها فى بطولة الإستشهاد، لأننا إذا فقدناها من أجل المسيح ووضعناها أمامه بالموت من أجله، سوف نحصل لها على خلاص حقيقى.

يرى أوريجين أنه خلال معمودية الدم تغفر الخطايا التى إرتكبناها بعد المعمودية، فإذا كنا نتمثل بالسيد المسيح ونبذل حياتنا فإنه يهبنا تعزياته. ومن ينكره على الأرض فسينكره هو أيضاً فى السماء، أما الذين يعترفون به فسيدخلهم الفردوس، وفى نفس الوقت يعطى لأبنائه بركة هنا.

ربط أوريجين بين إستشهاد المؤمنين وذبيحة الصليب، إذ أن ذبيحة الحمل لها إنعكاسها فى بذل دم الشهداء الذين يبذلون دماءهم وفى اعترافهم وغيرتهم على الصلاح مبطلين خطط الأشرار. ورأى فى الشهداء إرتباطاً بالسيد المسيح، وفى إستشهادهم ذبيحة حب مرتبطة بذبيحة الصليب، معتبراً أن الشهداء يخدمون على مذبح السماء ككهنة حقيقيين، لأن ذبيحتهم غير منفصلة عن ذبيحة المسيح نفسه، ولن تقبل شهادتهم إلا خلال إستحقاقات دم الحمل الإلهى.

٢) العلامة ترتليان

كتب العلامة ترتليان عمله «**إلى الشهداء**» إلى عدد من المعترفين المحبوسين والذين كانوا على وشك التقدم للموت بسبب إيمانهم المسيحى، فيشجعهم ويحثهم على الثبات ويذكرهم بالمعونة التى أخذوها من أمهم الكنيسة، ولم يتمنى فقط لهم أن يتركوا الخوف عنهم، بل أثار أيضاً فيهم حماسة حية إذ علمهم أن الإستشهاد أعظم الأعمال وأمجدها، فالموت من أجل المسيح ليس مجرد قبول غير واع للألم وإحتماله، بل هو إختبار لقوة النفس وجهادها بأعمق معنى للكلمة. ويختار ترتليان تشبيهاته المؤثرة من المصارعات التى

تدور فى حلبة المصارعة ومن أوجه الحياة العسكرية. وفى الفصل الثانى من الكتاب يحث ترتليان المجاهدين ألا ينزعجوا أو يضطربوا عند إنفصالهم عن العالم. ويكرر الفصل الثالث صورة المصارعة والقتال التى دعى إليها الشهداء، ويطلب منهم ترتليان أن يعتبروا السجن مكان تدريب لهم.

أما الفصول من ٤-٦، فتقدم أمثلة لأناس إحتملوا آلاماً عظيمة بل وأيضاً ضحوا بحياتهم لأجل طموح أو غرور أو حتى مجرد ظروف إضطرارية، بينما الشهداء يتألمون من أجل الله ولذا تنتظرهم المكافأة وينالون التطويب.

أما فى كتابه عن «**الهروب فى زمان الإضطهاد**» فيطرح ترتليان سؤالاً هاماً: «هل يسمح للمسيحيين أن يهربوا فى زمان الإضطهاد؟» وتأتى إجابته بالنفى، لأن الهروب يخالف إرادة الله، إذ أن الإضطهادات تأتى بسماح منه كى يتقوى إيمان المسيحيين، رغم أننا لا نستطيع أن ننكر أن للشيطان دوراً فيها.

واعتبر ترتليان أن ترك المدينة والذهاب إلى أخرى (مت١٠: ٢٣) هو كلام موجه للرسل فقط ويقتصر عليهم، فلا يليق أن يهرب أحد من الإستشهاد والضيق بعد أن إفتداه المسيح المخلص بدمه.

وفى كتاب «**ترياق العقرب**» يشرح أن الإستشهاد يصير واجباً وضرورة موضوعة على كل إنسان مسيحى حينما لا يكون هناك طريقة أخرى للإمتناع عن الإشتراك فى العبادة الوثنية، فالإستشهاد هو ميلاد جديد يهب النفس حياة أبدية.

وضمن التعليم الذى قدمه ترتليان للمعترفين المسجونين، قال لهم أنه بجانب المعونة التى تقدمها لهم أمهم الكنيسة وإخوتهم من أجل إحتياجاتهم الجسدية، يريد هو أن يقدم بعض المساهمة لأجل مساندتهم روحياً، لأنه ليس حسناً أن يُطعم الجسد بينما الروح تتضور جوعاً، واعتبر نفسه مثل المراقبين والمدربين الذين يحمسون المصارعين، وفى إتضاع يقول لهم: «أحياناً تأتى من المشاهدين العاديين أفضل النصائح» ويوصيهم ألا يحزنوا الروح القدس وأن يتركوه يقودهم إلى حيث ربنا.

ويحثهم ترتليان قائلاً بأنهم فى السجن يزعزعون الشيطان فى مسكنه ويهزمونه فى عقر داره، ويوصيهم أن يقاوموه فيهرب منهم، ويعلمهم أن لا ينزعجوا لكونهم إنفصلوا عن

العالم، فالعالم فيه ظلمة أعظم من ظلمة السجن. إنهم سينتقلون من العالم إلى الفردوس، وإن كان سجنهم مظلماً، لكن نفوسهم تحيا فى النور. إن كان به قيود فالله قد حررهم. إن كان به روائح كريهة، لكنهم هم أنفسهم رائحة حلوة. إن كانوا ينتظرون مجئ القاضى، لكنهم سيدينون القضاة أنفسهم. ويستطرد قائلاً: «إن المسيح الحقيقى قد جحد العالم ولا يهمه فى أى مكان فى العالم يكون، وإذا فقد مسرات الحياة، فلابد أن يعرف أن هذه هى التجارة الرابحة... وفى السجن يكون المسيحى حراً من أسباب الخطية، والسجن للمسيحى مثل البرية للنبى». وأوصاهم ترتليان بأن يعتبروا السجن مكاناً للراحة والخلوة. فرغم أن الجسد مقيد إلا أن النفس تسير فى الطريق المؤدى لله. فالقدم لا تشعر بالقيد مادام العقل فى السموات.

ويشبه ترتليان الإنسان المسيحى بالجندى، ويقول أن الجندى لا يخرج إلى القتال من حجرته المريحة، بل وحتى فى أزمنة السلم يتدرب الجنود على الحرب بالأعمال الشاقة والحياة فى ظروف صعبة، والغرض من هذه الأتعاب هو أن لا تجد الأجساد أو الأذهان صعوبة عندما تضطر للإنتقال من الظل إلى الشمس، أو من دفء الشمس إلى البرد. فكل ضيقة وشدة تحسب أنها تدريب وتلمذة لقوى الذهن والجسد، حتى حينما تجتاز الجهاد النبيل الذى يكون فيه الله هو المراقب والناظر، وفيه الروح القدس هو المدرب، تكون الجعالة بالإكليل الأبدى الذى من الجوهر الملائكى والمواطنة فى السماء.

وهكذا ينظر ترتليان إلى السجن بإعتباره مكاناً للتدريب، فالمصارعون يعزلون فى معسكر تدريب خاص كى تبنى قواهم الجسدية، وكلما إزدادت أتعابهم فى التدريب كلما إزداد الأمل فى الإنتصار. ربما يخاف الجسد من السيف المسنون، ومن الصليب المرفوع، ومن الوحوش المفترسة، ومن ألسنة النار الملتهبة، ومن العذابات البشعة، ومن شراسة الجلادين، لكن كثيرين إحتملوها وإشتاقوا إليها سواء من الرجال أو من النساء.

وفى كتابه عن «**الصبر**» يرى أن الصبر تهذيب سماوى للنفس البشرية، فكل من يريد الإقتداء بالرب عليه أن يجتهد بالصبر، إذ أن خادم المسيح يتحلى بالصبر لأنه مدعو للإحتمال الكثير لأجل الله، وربط ترتليان بين الصبر والإستشهاد، معتبراً أن معونة الصبر هى التى جعلت أشعياء يجتاز المنشار وإسطفانوس يحتمل رجم الحجارة. فعمل الصبر يقوى الإيمان وينشر السلام ويضمد الجروح ويهدأ التجارب ويزيل العثرات ويتوج الشهداء. إنه

يعزى المسكين ويحكم الغنى ويهدئ المريض ويحفظ القائم ويفرح المؤمن ويجتذب الوثنى ويوصى السيد على عبيده.

٣) القديس كبريانوس

عندما صدر مرسوم إمبراطورى عام ٢٥٠م بالقضاء على المسيحية، نال كثيرون إكليل الشهادة، وضعف البعض مرتدين، والبعض هربوا، وآخرون حسبوا معترفين، فأخذ كبريانوس يشدد ويشجع ويفتكر فى كل شئ ويوصى بزيارة المسجونين ومساعدة المحتاجين والإعتناء بأجساد الشهداء، وكان يرسل فى الليل منْ يحملها ويدفنها بإكرام جزيل معتبراً أن أزمنة الإستشهاد هى «أزمنة ضد المسيح» (١يو٢ :١٨، ٢يو٧) المشابهة لأواخر الأيام، ومن ثمّ أعد القلوب وشجع نفوس أولاده ليكونوا جنوداً للمسيح مستعدين للجهاد السمائى، يثبت إيمانهم ويسلحهم بكلمة الله، ويعد شعب الله الذى أؤتمن عليه كجيش فى المعسكر السمائى يواجه سهام وأسلحة الشيطان. فلا يمكن لمنْ لم يتمرن على القتال أن يكون جندياً صالحاً للرب أو أن يفوز بإكليل الجهاد. ويذكر كبريانوس أن أبليس عدونا هو عدونا القديم الذى نصارع ضده، ففى القديم قام بأول هجماته على الإنسان، ومنذ ذلك الحين تحنك وإختبر كل فنون وفخاخ التجارب التى يلقيها علينا، وإذا وُجد جندى المسيح غير معد ولا مهيئ وغير مبال أو ساهر بكل قلبه، فهو يطوقه ويخدعه فى جهالته وغفلته، أما الإنسان الذى يحفظ وصايا الرب فى سلوكه ويظل ملتصقاً بالمسيح بشجاعة فلابد أن يغلب عدوه لأن المسيح الذى يحيا فى المؤمن المعترف به لا يُقهر.

وينادى كبريانوس أولاده قائلاً: «ها أنا أرسل لكم ثوب الأرجوان الذى للحمل الحقيقى الذى فدانا وأحيانا، لكى تفصلوه لأنفسكم فيصير ثوباً خاصاً بكم لأن الذين أتوا من الضيقة العظيمة قد غسلوا ثيابهم وبيضوها فى دم الخروف (رؤ٧:١٤) وذلك حتى يتغطى عرينا القديم بثياب المسيح: ثياب تقديس النعمة السمائية».

وينبه كبريانوس شعبه قائلاً: «لقد اختبرنا، بتدبير الرب، المعمودية الأولى. فليكن كل واحد منا مستعداً للمعمودية الثانية أيضاً، متيقنين أن نعمتها أعمق وقوتها أعظم وكرامتها أثمن من الأولى. أنها تلك التى يعمد بها الملائكة الشهداء: معمودية الدم التى يتمجد بها الله ومسيحه، المعمودية التى لا يخطئ بها أحد. ففى معمودية الدم ننال إكليل كل الفضائل».

يشجع كبريانوس شعبه معتبراً أن الذى فينا أعظم من الذى فى العالم، وأن الرب وعدنا بالأمان والحماية، ذاكراً عناية الله بنا والتى هى أقوى من كل هجمات العدو، مع عرضه لمكافأة الرب للشهداء والجزاء الذى يفوق بلا قياس آلامهم قائلاً: «فى الإضطهاد تغلق أمامنا الأرض وتُفتح أمامنا السماء. ضد المسيح يهدد ولكن المسيح يحيى. الموت يقترب منا ولكن يتبعه الخلود. حياتنا الزمنية يُقضى عليها ولكن حياتنا الأبدية تصير مضمونة!! أى مجد هذا عندما نذهب من هنا فرحين ونرحل ممجدين بين الضيقات والعذابات؟ ففى لحظة نغلق عيوننا التى نرى بها البشر والعالم، وفى الحال نفتحها لنتطلع إلى الله ومسيحه!! أى تصور لهذا الرحيل المبارك!! إنك تنتزع فجأة من الأرض لتُوضع فى المجد السمائى».

ويؤكد كبريانوس على الجعالة السمائية وعظم تقدمة الإستشهاد وقبولها لدى الله بإيمان غير فاسد وفضيلة راسخة وقلب مكرس ومقدس، تلك التى تجعلنا نرافق الرب عندما يأتى فى الدينونة ونقف بجانبه عندما يجلس ليدين المسكونة، ونصير شركاء ميراث المسيح، ونتساوى مع الطغمات ونفرح بإمتلاكنا للملكوت السمائى.

كتب القديس كبريانوس كتاباً «**عن المرتد**» يمدح فيه الشهداء الذين قدموا مشهداً مجيداً فى عينى الرب وكانوا مثالاً وقدوة لإخوتهم، ثم تحدث عن الذين أنكروا الإيمان محذراً المعترفين من التشفع لهم قبل أن يقدموا التوبة المناسبة بحسب قوانين الكنيسة. هذا وكتب أيضاً كتاباً عن «**الموت**» تحدث فيه عن الذين استشهدوا أثناء إضطهاد ديسيوس، ثم كتب أيضاً «**حث على الإستشهاد**» ليقوى ويعضد المسيحيين أمام الإضطهاد.

ويمتدح كبريانوس المعترفين العظماء الذين لهم الاسم الحسن شارة نبالة لأنهم قدموا مشهداً مجيداً فى عينى الله ولم يحتملوا مشورة الشيطان، بل حفظوا أنفسهم لإكليل الرب. ويصف الفرح الذى به تأخذهم الكنيسة فى حضنها عندما يرجعون من المعركة، لأنهم مؤسسون على الأسس والجذور الثابتة للتعاليم الإلهية ومتقوبين بالتقاليد الإنجيلية.

فالشهادة تهزم قضاة هذا العالم وتفرح الله القاضى والديان العادل. ويرى كبريانوس أن أزمنة السلام قد أضرت بالتلمذة التى سلمت إلينا إلهياً فتمزق جزء من أحشاء الكنيسة، ولذلك يحذر كبريانوس من ترك المسيح وفقدان الخلاص والغرق فى الأمور العالمية، فالقلب والعقل والمشاعر يكونون جميعاً فى السماء متى كان الكنز فى السماء، ولا يمكن أن ينهزم من العالم ذاك الذى ليس له شئ فى العالم. والرب سينكر منْ أنكره، فإذا كان لا

ينكر مَنْ ينكره ويعترف بمَنْ يعترف به، لا يكون الإنجيل صحيحاً. ولا يمكن أن يُقلل أحد من كرامة ومجد الشهداء وإكليلهم، فقوة إيمانهم غير الفاسدة تظل صحيحة. ثم يطلب كبريانوس من المرتدين أن يفحصوا أنفسهم وضمائرهم وأن يفتحوا عيون قلوبهم لفهم خطيتهم، دون أن ييأسوا من مراحم الله، ويعلمهم أنهم لابد أن يتوبوا بندامة لا تقل عن خطيتهم، وأن يصوموا بعد أن أكلوا لحم الشيطان، وأن يهتموا بالأعمال الصالحة.

وفى رسالة العزاء التى أرسلها القديس كبريانوس إلى المعترفين فى المناجم، يخاطبهم بإعتبارهم مطوبين ومحبوبين وأن مجدهم عظيم بسبب بسالتهم وأعمالهم المجيدة المملوءة فرحاً، معتبراً أن كل يوم يتعذبون فيه يُحسب لهم كمكافأة غنية تنتظرهم عند المجازاة، وأن فترات عذاباتهم الطويلة تجعلهم يحصلون على إستحقاقات وفيرة.

ويصفهم بأنهم الشجعان والطوباويون وأصحاب القمم السامية فى الكنيسة لأنهم تمسكوا بالإيمان وإلتزموا بوصايا الرب، مثل البراءة والبساطة والوحدة والمحبة والإتضاع والخشوع والتدقيق فى الوصايا والسهر على نجدة المعوزين والشفقة فى رعاية المحتاجين والمثابرة فى الدفاع عن الحق....

ويمتدحهم لأنهم عندما يُضربون بالعصى لا يهتزوا أمام العصاة حيث أن رجاء المسيحى موضوع على الخشبة (أى خشبة الصليب) لأن خادم المسيح يعرف أنه يخلص بالخشبة إذ أنها سر خلاصه. ويمتدحهم ككنوز من ذهب وفضة مودعة فى المناجم، فبدلاً من أن تُعطى المناجم كنوزها أصبحت تستقبل الكنوز!!

ويعطيهم الطوبى لأجل أرجلهم المقيدة بالأغلال والتى هى محلولة من قِبل الرب وسالكة فى طريق الخلاص، لتكون فيما بعد حرة لله إلى الأبد ومسرعة فى طريق المجد. وبينما أجسادهم متعبة يكون المسيح هو راحتهم الأكيدة لأن مَنْ وُجد المسيح بجانبه لا يجد ألماً. وبينما أبدانهم متسخة لعدم الإستحمام، فإن أرواحهم تتنقى، وبينما هم عراة فإنه لبسوا المسيح وإكتسوا به، وهذا الألم الوقتى والقصير سيكافئون عوضه بكرامة ومجد أبدى.

إن مسرة الله هى أن يرى جهادنا يزهر حتى نفوز برضاه، فمَنْ يرغب فى قبول كأس الخلاص بسرور ينال المجازاة ويكون عزيزاً فى عينيه لأنه عزيز فى عينى الرب موت أتقيائه (مز١١٥ :١٤).



سيكولوچية الشهداء

صلوات الشهداء قبل إستشهادهم

سيكولوجية الشهداء

لقد إحتفظت لنا الكنيسة فى ذاكرتها بأعمال الشهداء وأقوالهم وبطولاتهم وإعترافاتهم، ومن هذه الصلوات والأقوال نتعرف على روحهم التى كانوا يعيشونها لحظات تعذيبهم وقبيل ذبحهم فى ميادين الإستشهاد وساحاته. إن هذه الصلوات والأدعية تفصح عن غنى وعمق النفس الداخلية بتعبيرات تفوق كل أدب وبيان إنشائى..

إن هذه الصلوات تكشف لنا عن معدن هؤلاء البواسل المجاهدين وتربيتهم وسيكولوجياتهم وإيمانهم وسلامة نياتهم وثبات مقصدهم فى تلك الساعة الحاسمة... إنها أدعية وصلوات قصيرة سهمية موجهة إلى الثالوث القدوس، لأن الشهيد ـ بينما يعذب ـ كان يصلى ويتضرع ويشكر ويناجى الرب الذى أحبه ومن أجله تألم، طالباً المعونة الإلهية والثبات، طالباً الصفح والغفران، بروح خشوعية تشعر بعدم الإستحقاق، وكذا يطلب من أجل معذبيه مثلما فعل إسطفانوس رئيس الشمامسة العظيم أول الشهداء متمثلاً أيضاً بدوره بالرب.. ولا يغيب عن بالنا أن سير وتذكارات الشهداء منذ العصور المبكرة للكنيسة قد دخلت ضمن العبادة الليتورجية، فلا يمكن ان نحتفل بعيد شهيد إلا من خلال القداس الإلهى.

وهذه الصلوات والأدعية التى رددها شهداء الكنيسة وهم فى القيود والسلاسل محاطين بالنيران والاسود الضارية والسيوف المسنونة والوحوش الجائعة والجنود والحراس مع الغوغاء والسوقة من الجموع الهائجة الثائرة إنما هى ترجمة تعبيرية حياتية عن خبرة وإختبار طالما عاشوه ومارسوه وتذوقوه ثم أتوا لكى يختم عليه بالبركة الإلهية بنوال نعمة إكليل الشهادة..

إنها أدعية تلقائية تعد أول شهادة على الصلاة الشخصية النابعة من صميم الحياة الباطنية الاصيلة والمعبرة بوضوح عن روح الشهيد المعنوية ونفسيته وهو فى طريق الشهادة.

وقد إمتزجت هذه الصلوات بالإعتراف بالإيمان فى لحظات العذاب والألم وقبل الموت

مباشرة، وليس من شئ يمتحن النفس ويختبرها أكثر من الموت والعذاب، ولا شئ اعظم من الإستشهاد الذى تنبع عظمته من الدم والنار والعذاب، والذين سجلوا لنا هذه الصلوات كانوا من الشهود الذين عاينوا الأحداث نفسها. وتعد هذه النصوص من أقدم الصلوات التى قدمها قديسون كانوا قريبين من النار والسيف ثم سلموا أرواحهم لله.

ولم تترك الكنيسة هؤلاء فى السجون بدون زيارة بل وحتى فى ساحات الإستشهاد وميادين العذابات كانت تقف لتشجع الذين يلقون فى النيران والذين يصلبون والذين يلقون للوحوش والذين تقطع أعضاءهم أو رقابهم بالسيف، وبالرغم من فظاعة العذابات كان المشجعون من الكنيسة فى سلام تام، وكان المؤمنون يقفون حول مواقع التعذيب بعضهم يصلى وبعضهم يرتل وبعضهم يكتب ما تفوه به هؤلاء الأبطال من رجال ونساء، ولعل هذه الصلوات هى أصل قراءة سير الشهداء فى الإحتفالات.

لقد خرجت الصلوات من قلوبهم غير مرتبة وغير محفوظة فكانت تلقائية تقدم لإسم يسوع الإسم الحلو المملوء مجداً، الإسم المبارك والكريم الذى كل من يدعو به يخلص..

ومن الناحية اللاهوتية، هناك عبارات كثيرة تعبر عن الإيمان بالثالوث القدوس وبآلام المسيح وفدائه وعمله الخلاصى، مع الإشارة إلى فاعلية وبركات السرائر المقدسة.

ومن الناحية الروحية نجد فيها الإهتمام بسلام الكنيسة وبطلب الغفران للذين عذبوهم، فكانوا يجتازون العذابات بلا شكوى ولا إعتراض، ومع كل ألم كانوا يذوقون مجد المسيح عياناً برؤيا منظورة ومحسوسة، ويسمعون تشجيعاً سمائياً من طغمات الشهداء السابقين، بل وترأى المسيح نفسه لكثير منهم ليعينهم ويسند بشريتهم، لذلك تقدموا للشهادة بنفسية هادئة متهللة بعيدة عن التذمر وروح الإنتقام..

وكل الذين شهدوا موت الشهداء عن قرب رأوا سيكولوجيات واثقة شجاعة ولمسوا معونة السماء، وإطلعوا على جمال الأبدية والأصوات الملائكية ورائحة عطر دماء الغالبين التى هى أجمل من رائحة البخور، فكانت الروائح السمائية تفوح منهم قبل وبعد الإستشهاد بحسب شهادة يوسابيوس المؤرخ الشهير.

لقد تعلم الشهداء أن الصراع مع التنين (الشيطان) يبدأ فى المعمودية لأن المسيح مخلصنا صرع التنين، وكل صلوات المعمودية القديمة تحتوى على إقتباس من مزمور

(١٣:٧٤) : «انت شققت البحر بقوتك وكسرت رؤوس التنانين على المياه».

ويتوقع الإنسان المسيحى أن تستمر الحرب مع التنين (الشيطان) لكنه سوف ينتصر عليه بقوة المسيح، وتؤكد هذه الصلوات وقدمها على الأصالة والقوة فى وصف سيكولوچية شهداء الكنيسة الأمجاد.

فعندما يبلغ الشهيد لحظة الإستشهاد، بعد العد التنازلى، تأتى لحظة الحب المشبع بالإيمان والرجاء الحى، فيتكلم الشهيد بما ليس من عنده لأن روح الله يعطيه ما يتكلم به.

لذلك كان المسيحيون يتقاطرون حول الشهداء فى لحظاتهم الاخيرة يتنسمون رائحتهم ويتلمسون بركتهم ويتقبلون نصائحهم ويتزاحمون على لمس اجسادهم ويأخذون بركة دمائهم.

وقد يظن البعض أن الشهيد حينما يواجه حكم الموت يفقد فلسفته فى الحياة ودعابتها المقدسة، كأن يكتئب أو يتجهم أو يصر بأسنانه ويضيق ذراعاً بمضطهديه، إلا الأمر لم يكن كذلك.... فهذه الصلوات والطلبات والزفرات الروحية إنما تكشف عن فلسفة الموت عند شهداء الكنيسة، ويقدم الأدب الإستشهادى نماذج من صلوات أولئك الذين واجهوا الموت إكراماً لاسم الفادى.

من روائع سير الشهداء

صلواتهم قبل إستشهادهم

القديس أغناطيوس الأنطاكى

«أنا حنطة الله!! فلأُضرس بأسنان الوحوش حتى أصير خبزاً طاهراً للمسيح. مرحباً بالنار والصليب والوحوش الضارية والتمزيق والتقطيع وخلع العظام وسحق الجسد كله. فلتقع علىّ أشر الضربات المبتكرة من إبليس إذا كان من شأنها ان تعدنى لأن ألتقى بيسوع المسيح الذى أسعى إليه والذى مات عنا. هذا هو منْ أريده، أى ذاك الذى قام لأجلنا. إنى أُحس الآن بآلام المخاض. ترفقوا بى يا إخوتى ولا تحرمونى من الحياة الحقيقية. لا تحاولوا تعطيل موتى. إتركونى ألحق بالنور الحقيقى. دعونى أقتدى بآلام إلهى».

هذه هى مشاعر ونفسية شهيد كنيسة أنطاكية، وتلك هى كلماته القلبية التى سجلها لنا التاريخ، علاوة على رسائله الفريدة من نوعها فى الأدب المسيحى خلال العصور الأولى، لأنها كتبت وهو مقيد بالسلاسل ومحاط بعشرة جنود - شبههم بالفهود - يشددون الحراسة عليه، وتضمنت هذه الرسائل تماجيد وصلوات موجهة للثالوث القدوس.. فكان يصلى للآب بيسوع المسيح ابنه بعد أن إمتلأ من الروح القدس، ولذا كانت صلوات سهمية تلقائية تتضمن الشكر والإعتراف والشهادة..

الشهيد بوليكاربوس الكثير الثمار

كان يناهز السادسة والثمانين من عمره لحظة القبض عليه، وقيل عنه أنه إشتهى الآلام فى موته كما فى حياته فإمتاز بإستشهاده الرائع.

وعندما وصل الجنود المكلفون بالقبض عليه، كان الطلب الوحيد الذى ترجاه منهم هو أن يسمحوا له بساعة زمن يصلى فيها، وفى صلاته ذكر كل منْ عرفه على الإطلاق وكل الكنيسة الجامعة فى المسكونة كلها.

أوثقوه وشدوه إلى قطعة من الخشب مثبتة فى الأرض ويداه وراء ظهره، وكأنه حمل مختار مفرز من بين قطيع كبير عظيم لكى يكون ذبيحة ومحرقة مقبولة لدى الله، وعندئذ رفع عينيه إلى السماء وقال:

«أيها الرب الإله الضابط الكل، أبو يسوع المسيح، ابنك المحبوب المبارك الذى به عرفناك يا إله الملائكة والقوات، يا إله كل خليقة وكل جنس الأبرار الذين يحيون فى حضرتك، أباركك لأنك جعلتنى أهلاً لهذا اليوم ولهذه الساعة، وأهلاً لأن أُحسب فى عداد شهدائك، ولأن أشترك فى كأس مسيحك والقيامة فى الحياة الأبدية للنفس والجسد، والحياة بالروح القدس، الحياة التى لا تقبل الفساد...

ليتنى اليوم أكون مقبولاً معهم قرباناً عزيزاً فى عينيك حسبما أعددتنى لذلك مسبقاً وأنبأتنى، وها أنت قد أكملت وعدك، يا إله الأمانة والحق.

من أجل نعمتك ومن أجل كل شئ أُسبحك وأُباركك وأُمجدك، برئيس كهنتنا الأبدى السمائى يسوع المسيح ابنك الحبيب الذى به يليق بك وبالروح القدس المجد.....».

وعندما طُلب من القديس بوليكاربوس ـ الذى يعنى إسمه المزهر أو المثمر أو الكثير الثمار ـ أن يلعن المسيح مخلصنا ردّ على مضطهديه قائلاً: «**لقد خدمت المسيح ستة وثمانين عاماً ولم يصنع بى شراً، فكيف أجدف على ملكى الذى خلصنى؟!** إنت تهدد بالنار التى تحرق إلى حين ثم تخمد، لأنك تجهل نار العقاب الأبدى المعد للأشرار.. إفعل ما تريد ولا تتأخر..».

فصار جسده لا جسم يُحرق بل كخبز ينضج وذهب وفضة يُنقى فى فرن يُشتم منه رائحة العطور.

شهداء ليون *The Martyrs of Lyons*

فى صيف ١٧٧م حدثت واحدة من أفظع الضيقات فى تاريخ الكنيسة الأولى، وقد حفظت لنا هذه القصة فى «التاريخ الكنسى» ليوسابيوس القيصرى (الكتاب الخامس فى الفصول من ١-٣).. وهذه الضيقة بسبب ما تصفه من بساطة وإخلاص وقبول عذابات مرعبة صارت جزءً لا يُضارع فى تاريخ الكنيسة.

وهذه رسالة كنيسة ليون التى تتحدث عن أعمال شهدائها:

«كانت تقودنا نعمة الله إلى ساحة الجهاد والإستشهاد، وعندما نتحدث عن أحد شهداء ليون الجديرين بالإعجاب ويدعى يونتيسيوس نقول أنه وصل إلى ملء المحبة من نحو الله ومن نحو القريب، أى من نحو الآخرين أياً كانوا. لقد بلغ إلى كمال حقيقى فى أسلوب حياته، حتى أنه بالرغم من حداثته قد حقق المثل الأعلى سائراً فى كل طريق ووصايا الله وأوامره دائماً بلا لوم، مبادراً بلا كلل إلى خدمة القريب، متقداً بالغيرة فى بذل حياته كلها لله، حاراً بالروح... وبقية الشهداء ظلوا راسخين فى الإيمان غير متزعزعين رغم شدة العذاب وتنوعه (إن الذى خفف من وطأة الألم على هؤلاء الشهداء هو فرحة الإستشهاد ورجاء المواعيد المنتظرة ومحبتهم للملك المسيح وللروح الباراقليط).

وفى الواقع لم يكن الشهداء بلا إفتقادات من النعمة الإلهية بل كان الروح القدس لهم مشيراً... حتى أن أسقفاً طاعناً فى السن يُدعى بوثين، بالغ من العمر تسعين سنة، كان الذبول يدب فى جسده بسبب الشيخوخة، ولكن السيد المسيح حفظ روحه قوية لينتصر فى حرارة الروح ورغبة الإستشهاد...

والعبدة الضعيفة الواهية بلاندينا هزمت بشجاعة أولئك الذين كانوا يتناوبون على تعذيبها بكل نوع من الصباح حتى المساء، حتى أنهم هم أنفسهم أقروا بأنها هزمتهم، لكن هذه المطوّبة وكأنها بطل شديد البأس، داومت على الجهر بإعترافها بالإيمان مرة أخرى متشددة بينبوع الماء السمائى المحيى الخارج من جنب المسيح...وكان جسدها الجدير بالشفقة شهادة حية لما حدث، ومع هذا كان المسيح الذى يتألم فيها يعمل الأعاجيب الكبيرة. مع أنها عبدة ضعيفة مزدرى بها، إلا أنها توشحت بالمصارع الذى لا يقهر ربنا يسوع المسيح، فرحة متهللة كمدعوة إلى حفلة عرس وليس للإلقاء للوحوش، فى حديث متبادل مع رب المجد، فصارت عظة صامتة لإخوتها.. ولا يمكن لمرور الزمن أن يحجب مجد شهداء ليون، بل وتعتبر بلاندينا *Blandina* من بطلات الإستشهاد فى العالم كله.،وكان الشهداء يقبلون التعذيب الجسدى على أنه أمر طبيعى، سواء ألقوا بهم فى حجرات السجن المظلمة القذرة، أو أمام هدير صيحات الجمهور الغاضب فى المدرجات الرومانية».

ويروى أحد الناجيين عن الشماس «سانكتوس *Sanctus*» أن أوصاله كانت تحترق،

ولكنه لم ينحن ولم يخضع لأنه كان يتقوّى بالنبع السمائى، نبع ماء الحياة النابع من جسد المسيح، وهكذا كان الأمر مع باقى الشهداء.

وتُعتبر رسالة ليون من أشهر ما كُتب فى الأدب المسيحى، فقد جعلت للشهداء طغمة منفردة، وكان الموتُ فقط هو ما يجعل المسيحى شهيداً كاملاً *Perfect Martyr*. وقد رفض الشهداء أن يُلقبوا بلقب «شهيد» قبل أن ينالوا إكليل الشهادة، وكانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم مجرد معترفين حقيرين ***Humble confessors*** لأنهم لم يكملوا شهادتهم بعد. وقد أفصحت نهاية الرسالة عن الوداعة والإتضاع والحب الذى تحلى به هؤلاء البررة:—

«ولكن إذا دعاهم أحد شهداء، سواء فى رسالة أو خطبة، كانوا يوبخونه، لأنهم كانوا يقدمون لقب الشهادة فقط للمسيح الشهيد الصادق الأمين، الحقيقى وحده، البكر من الأموات، رئيس الحياة وملك الدهور. وكانوا يذكروننا دائماً بالشهداء الذين أكملوا شهادتهم فعلاً، ويقولون: هؤلاء هم شهداء فعلاً، الذين تعطف المسيح وضمهم إليه بعد إعترافهم، بعد أن ختموا ودمغوا شهادتهم بختم رحيلهم من العالم، لكننا نحن معترفون ذليلون وحقيرون.... وكان شهداء ليون يترجون الإخوة بدموع طالبين منهم أحرّ الصلوات من أجل تكريسهم ونذرهم وإتمام شهادتهم وكمالها، وقد أظهروا فعلاً قوة الشهادة، وكانت شجاعتهم باسلة أمام الوثنيين، معلنين نبلهم وشجاعتهم بتحملهم وعدم خوفهم... ولكنهم فى ذات الوقت كانوا يرفضون لقب شهيد لأنهم كانوا مملوؤن من خوف الله».

والخشبة التى رُبطت عليها بلاندينا فى المدرج شُبهت لعينيها بالصليب، ورأى المعترفون فى مشهد آلام بلاندينا صورة السيد الذى صلب من أجلهم... أما بلاندينا فرأت مجد الفردوس عياناً...

الأسقف فيلكس الشهيد

تفصح صلاة هذا الأسقف عن نفسية شهداء الكنيسة وقت شهادتهم:

«أشكرك يا رب. كم أنت رحيم لأنك منحتنى هذا الإنعتاق. أشكرك يا الله. لقد عشت ٥٦ سنة فى العالم، وحفظت أنت نفسى فى البتولية. إتبعت وصايا الإنجيل، بشرت

بالإيمان وكرزت للحق وحده. يا رب إله السماء والأرض – يا يسوع المسيح – أيها الطويل الأناة، أنا أحنى رقبتى كذبيحة لك وحدك، المجد والعظمة لك دائماً فى كل الدهور».

الأسقف إيريناوس أسقف سيرميوم *Sirmium*

صلاته لحظة إستشهاده: «أشكرك يا ربى يسوع المسيح لأنك ثبتنى فى كل ما تعرضت له من آلام أثناء المحاكمات، وحسب رحمتك وهبتنى نصيباً صالحاً فى مجدك الأبدى. يا ربى يسوع المسيح إن رحمتك جعلتك تتألم لكى تخلص العالم، إفتح سماءك حتى تتلقى الملائكة روح عبدك إيريناوس الذى يتألم الآن لأجلك ولأجل كل الذين هم مدينين لك بحياتهم، ولأجل كنيستك الجامعة فى سيرميوم، أرجوك أن تصنع معنا صلاحاً أيها الرب الرحيم، وأن تقبلنى وأن تقويهم فى الإيمان بك».

شهداء أبيتين *Abitine*

قدم أحد شهداء أبيتين بشمال أفريقيا (نحو عام ٣٠٤م) نفسه بفرح إلى الإستشهاد، وإذ تمزق بالأمشاط الحديدية صاح قائلاً *Deo Gratsias* أى «نشكر الله»، وبينما هو مضرج فى دمائه صلى هذه الطلبة طالباً الصفح عن معذبيه:

«لشكر لك يا الله، إبن الله. بقوة اسمك خلص عبدك. يا الله ضابط الكل لا تحسب هذه الخطية عليهم، أما أنتم فعليكم أن تطيعوا وصايا الله. إغفر لهم يا الله من أجل إسمك، واعطهم القوة ليتحملوا ما أتحمله أنا، وخلص عبدك من السجن، سجن هذا العالم. الشكر لك. بالحقيقة لا أستطيع أن أشكرك بما فيه الكفاية وبما يستحق حبك. إنى أشكرك على هذا الألم الذى لمجد إسمك يا رب... أنت إله كل القوات، أيها الرب يسوع المسيح. نحن مسيحيون، نحن عبيدك، وأنت رجاؤنا ورجاء كل المسيحيين. يا الله الكلّى القداسة والكلّى العظمة والكلّى القدرة والضابط الكل نسبحك ونسبح إسمك، لا تجعل لى سبب يؤدى بى إلى الخجل. أرجوك يا يسوع إرحمنى. يا إبن الله ساعدنى. إقبل تسبحتى وخلصنى. لأجلك أتألم وكم أنا سعيد بذلك. إعطنى القوة لكى أحتمل الآن وإنى واثق أنك سوف تعطينى الحياة....».

كاربوس وبابيليوس وأجاثونيك

كان كاربوس أسقفاً وبابيليوس شماساً أما أجاثونيك فكانت إمرأة متزوجة، وقد أُحرق الجميع بالنار فى برجامون بتركيا، ويرى العالم الألمانى *Altaner* أن تاريخ إستشهادهم كان خلال حكم أوريليوس أى ما بين «١٦١ – ١٨٠م»، ويقول شاهد عيان:

«عندما رأى بابيلوس أكوام الخشب المعدة للنار رفع عينيه إلى السماء وقال: "يا ربى يسوع المسيح إقبل روحى" وحالما دفعوه فى النار نال إكليل الشهادة على الفور. أما كاربوس الأسقف فقد ربطوه فى العمود وعندما أشعلوا النار وبدأت ألسنة النار تحرقه صرخ بصوت عظيم وقال: "البركة لك يا ربى يسوع المسيح إبن اللـه لأنك جعلتنى مستحقاً أن أشترك معك فى هذا المصير رغم أننى خاطئ"، وبعد ذلك أسلم الروح، وعندما جاء دور أجاثونيك قالت "يا رب، يا رب، يا رب أسرع إلى معونتى لأننى ألتجئ إليك كحصنى"».

لوسيان ومرقيان

قُتل كلاهما بالسيف فى نيقوميديا فى إضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠م وقبل إستشهادهما صليا معاً قائلين: «نقدم لك تسبيحنا الفقير الذى لا يليق بك يا ربى يسوع المسيح، لأنك دافعت عنا. إغفر لنا نحن جبلتك غير المستحقين. أنت أخرجتنا من ظلام الوثنية، وبرحمتك أتيت بنا إلى هذه الآلام المجيدة، وهى شرف نناله لأجل اسمك. الشكر لك لأنك أعطيتنا نصيباً فى مجد قديسيك، فى يديك نستودع نفسينا وروحينا».

بيونيوس ومثرودوروس

أُحرق كلاهما بالنار حياً. كان بيونيوس قساً وكان مثرودوروس رجلاً غنياً من التجار، وأُحرقا فى سميرنا فى ٢٥ يناير سنة ٢٥٠م، ويقول شاهد العيان: «وعندما جاء بيونيوس ومثرودوروس إلى مكان إستشهادهما حولا نظرهما إلى الشرق. بيونيوس أغلق عينيه وصلى فى صمت، وعندما نظر إلى النار أشرق وجهه بفرح وقال: "آمين" ثم قال: "يا رب إقبل نفسى"، أما مثرودوروس فقد قال: "آمين"».

روجاتيان الموعوظ وأخوه دونتيان

إستشهدا فى مدينة *Nantes*. كان روجاتيان موعوظاً بينما سبقه أخوه دونتيان إلى نوال سر المعمودية، وعندما قُبض عليهما وحكم عليهما بالموت، طلب روجاتيان أن يُقبله أخوه لكى تكون هذه القبلة عوضاً عن المعمودية، وعندما عرف دونتيان معنى هذه القبلة، صلى هذه الصلاة:

«أيها الرب يسوع، عندما تكون الرغبة من كل القلب فإنها تُحسب عندك مثل الفعل ذاته وكذلك عندما يكون العجز عن تحقيق رغبة القلب هو عدم القدرة على أن نختار ما نريد، أما القدرة على تحقيق ما نختاره فهى منك وحدك. أرجوك أن تحسب إيمان أخى روجاتيان نعمة معمودية وإذا تشدد الحاكم وقرر أن يقتلنا غداً بالسيف، أرجوك أن تجعل من سفك دم أخى سر مسحة الميرون».

الشهيد إيبولوس

قال إيبولوس (صقلية – ٣٠٤م) قبل إستشهاده: «أشكرك أيها المسيح على هذه العطية. إحفظنى لأننى أتألم لأجلك. أنا أسجد للآب والابن والروح القدس. أنا أسجد للثالوث القدوس الذى لا يوجد سواه. لتهلك كل الآلهة الذين لا قوة ولا قدرة عندهم على خلق السماء والأرض وكل ما فيهما. أشكرك أيها المسيح على هذا. إحفظنى لأننى لأجلك أتألم».

وبدأ الشهيد يرتل بقوة الروح القدس ويقول: «عظيم هو التمجيد الذى تقبله يا رب من عبيدك الذين برحمتك تجمعهم إليك». وصلى لأجل الذين سوف يُقتلون شهداء: «إحفظ يا رب عبيدك، كن معهم حتى النهاية لكى يستطيعوا أن يمجدوا إسمك إلى الأبد».

وأسرع فى خطواته لأن النصر قريب جداً ولأنه سوف يلبس الإكليل تواً ولذلك رفع يديه نحو السماء وقال: «أشكرك يا ربى يسوع المسيح لأنك تعزينى بقوتك، ولأنك لم تسمح لنفسى أن تهلك مع المرتدين، ولأنك أعطيتنى نعمتك ونعمة اسمك. الآن هى الساعة التى تثبت فيها ما حققته أنت فىّ لأنك بهذا تفضح مؤامرة المعاند».

وعندما رأى جماعة المؤمنين قال: «إسمعوا أيها الإخوة الأعزاء، صلوا لله وخافوه من

كل قلوبكم لأنه يحفظ من العالم الذين يخافونه، وعندما يغادرون هذا العالم تأتى الملائكة وتأخذهم إلى المدينة المقدسة أورشليم»، وعندما إنتهى من حديثه ركع وسلم رقبته للسياف.

ثيؤدوسيوس والعذاري السبع

وقد إستشهدوا بأنقرة سنة ٣٠٢ م: «أيها الرب يسوع المسيح، أنت خالق السماء والأرض الذى لا يتخلى عن الذين يتكلون عليه.. نشكرك لأنك جعلتنا أهلاً أن نكون فى مدينتك فى السماء، وأن نشاركك ملكوتك... نشكرك لأنك أعطيتنا أن ندوس على التنين وأن نسحق رأسه، إعط عزاء لعبيدك... إعط سلاماً لكنيستك وخلصها من طغيان إبليس»سس.

چينسيوس الممثل

كان أحد الممثلين على مسارح روما (سنة ٢٨٥م) وعندما كان يمثل مسرحية هزلية تسخر من الإستشهاد، إفتقدته النعمة الإلهية وقبل الإيمان المسيحى، وعندما قُدِم للمحاكمة اعترف بالإيمان وحُكم عليه بالموت فى حضور النبلاء الرومان، وهنا قال بصوت مرتفع ليسمعه كل الحضور: «ليس ملك إلا إياه وحده الذى رأيته، والذى وحده أعبده، وإذا قدر لى أن أموت ألف مرة من أجل إرتباطى به فلن أتراجع، بل سوف أظل دائماً كما بدأت، الرجل الذى يحب المسيح ويخص المسيح، أعترف له بشفتاى، وهو فى قلبى مهما كانت العذابات.. أنا نادم على خطيتى التى إرتكبتها وهى الإستهزاء بالإسم المقدس الذى يتفوه به القديسون. أنا حزين لأننى تأخرت فى عبادة الملك الحقيقى ظناً منى أننى أعرف ما هو الأفضل لنفسى، ولأننى رفضت أن أكون جندياً له»..

بونيفان الطرسوسى

عندما ذهب ليُحرق حياً (٣٠٦م) قال: «يارب، يا ضابط الكل، الآب أبا ربنا يسوع المسيح، أنا عبدك، تعالى وساعدنى. أرسل ملاكك لكى يأخذ نفسى بسلام ولكى يزيل التنين الدامى من طريقى فلا يخدع نفسى بحيلة شريرة، اعطنى نصيباً وسلاماً مع شهدائك. خلص يا رب شعبك من الإضطهاد. لك الكرامة مع ابنك... أنا مسيحى *Christianus sum*».

الشهيد برلعام

من قيصرية الكبادوك (القرن الرابع): «أنا رجل فلاح وأنا مسيحى لأنى أعبد المسيح رب البشرية وسيد الأرض والشعوب كلها، أنا لا أعرف الفلسفة ولكنى قد علمت يقيناً أن المسيح ربى وأنا أحبه، وهو يحبنى وهو وحده الإله الحقيقى».

الشهيد نكفوروس

وهو المُلقب بـ «شهيد التسامح من أنطاكية»، لما رأى سبريسيوس إرتد أمام السياف صرخ أمام الجميع: «أنا مسيحى وأعبد المسيح إلهنا الواحد الوحيد، أميتونى بدل هذا الجاحد الذى كفر بإلهه».

الشهيدة تكلة

وهى من مدينة أيقونية ومُلقبة بـ «أولى الشهيدات»، وتلميذة بولس الرسول وبطلة من أبطال الشهادة المسيحية، وأشعلت مصابيح الطهارة بزيت الروح، فأحبت البتولية ورفضت الزواج من خطيبها بعد أن نذرت بتوليتها للمسيح..

أمر الوالى بإضرام نار حامية لتُحرق تكلة وتُطرح فيها.. وهناك ظلت تكلة تبحث وسط الجموع عن بولس الرسول معلمها، كالحمل الذى يبحث فى القفر عن راعيه، وأثناء بحثها رأت الرب جالساً على كرسيه فتشجعت وتهللت بقرب إتحادها بعريس نفسها السمائى، وجاء الجنود بحزم الحطب لكى يحرقوا تكلة، فتقدمت بنفسها ولم تنتظر حتى يشدوا وثاقها ويطرحوها فى تلك النيران المستعرة، بل ركضت هى إليها وزجت بنفسها فيها، وهى تتضرع إلى الله ليقويها ويثبتها ويحفظ نذر تكريسها البتولى ويقبل روحها إليه.

فبكى الوالى وتعجب من القوة التى كانت فيها.. وعندما أشعلوا النار إندلعت فى الحطب لكنها لم تلمس تكلة، لأن الرب زلزل الأرض وأرسل سحابة ظللت الجميع وإنهمر مطر شديد، فأُنقذت تكلة لتبقى مثالاً رائعاً للآتيين من بعدها من أجيال العذارى والمكرسات. لقد خرجت تكلة سالمة من النيران فشابهت الكنيسة فى رفعتها ببركة صلوات لسان العطر بولس الذى كان يصلى من أجلها قائلاً: «أيها المسيح المخلص، لا تدع النار تمس تكلة بل قف معها لأنها لك».

وكانت تكلة تصلى قائلة: «أيها الآب الذى خلقت السماء والأرض، أبو ابنك القدوس، أُبارك اسمك لأنك أنقذتنى حتى أرى بولس».

ولما رآها بولس الرسول قال: «يا الله الذى يعرف القلوب أبو ربنا يسوع المسيح، أُبارك إسمك لأنك سمعتنى وإستجبت سريعاً لطلبتى».

تعرضت تكلة للإستشهاد مرة ثانية فى أنطاكية، وأُرسلت إلى الوحوش، فعروها من ثيابها وتركت عرضة للثيران الكاسرة لتقتلها، وإجتمع الجميع فى المشهد ليروا نهش الوحوش لها، ولكن الوحوش إستأنست لها وسجدت عند قدميها ولعقتها.

وجلل اللـه جسد القديسة بالمهابة والأنوار وحجبها عن الأنظار لأنها أرادت أن تحيا فيه إلى الإنقضاء، ولكنهم أخرجوها ثم أعادوها فى اليوم التالى إلى الحلبة، وأطلقوا عليها رعيلاً من الثيران... فصرخت أرملة غنية اسمها «تريفينا» قائلة: «يا إله تكلة أعنها». عندئذ بكت تكلة بمرارة قائلة: «يا إلهى الذى أؤمن به، الذى هربت لألتجئ إليه، الذى نجانى من النار، هب مكافأة لتريفينا التى إمتلئت شفقة على عبدتك»... وهنا حدثت المعجزة عندما قتلت الوحوش بعضها البعض، وصارت شبه سحابة من نار حتى لا تقترب إليها الوحوش من ناحية ولا تُرى وهى عريانة من ناحية أخرى.

إستدعاها الوالى ليسألها من هى، ولماذا لم تمسها الوحوش، فأجابت بإحتشام ووقار: «أنا تكلة عبدة يسوع المسيح ابن اللـه الحى، وهو وحده الطريق والحق والحياة وخلاص النفوس... وهو الذى أنقذنى من الوحوش ومن الموت، وهو الذى يحفظنى بنعمته أكثر لكى لا أُعثر.... إن الذى ألبسنى وأنا عريانة بين الوحوش سيلبسك الخلاص فى يوم الدينونة».

وأصدر الوالى أمراً: «ها أنا أُطلق لكم خائفة الله تكلة خادمة الرب».. ومدحها آباء الكنيسة باسيليوس وغريغوريوس اللاهوتى وفم الذهب وأمبروسيوس وچيروم. فكما أن إسطفانوس هو أول الشهداء، هكذا تكلة أول الشهيدات التى أطفأت النار كالثلاثة فتية القديسين. إنها القديسة التى تمثل دانيال النبى الذى نُجى من أفواه الأسود.. لذلك سماها بعض الآباء رسول سلوكية.. وعندما كان يوسابيوس القيصرى وچيروم يمتدحون قديسة كانوا يُسمونها «تكلة الثانية» أو «تكلة الجديدة»...

والقديس إبيفانوس أسقف سلاميس يشبهها بإيليا النبى ويوحنا الحبيب، ويقدمها القديس أمبروسيوس لجميع العذارى المسيحيات كنموذج ومثال حى أكمل. وكتب إيسيذورس الفرمى إلى راهبات أحد الأديرة يقول: «من بعد موت يهوديت وسوسنة العفيفة وإبنة يفتاح لا يحق لأحد أن ينسب الضعف لجنس النساء، وبالأكثر عندما نرى تكلة، تلك البطلة المتقدمة بين البطلات من البنات، البتول الذائعة الصيت فى الدنيا كلها. وعندما نراها حاملة علم البرارة عالياً، وقد فازت فى معارك شديدة، نؤمن أن قلوب النساء يمكنها أن تكون جبارة».

والمعروف أن القديسة تكلة أُلقيت فى النار عندما كان عمرها ١٨ سنة وعاشت ناسكة ٧٢ سنة وتنيحت فى سن ٩٠ سنة...

الشهيدة أجنس *Agnes*

تحدث القديس إمبروسيوس أسقف ميلان عن الشهيدة أجنس (روما – أواخر القرن الثالث) فى كتابه عن البتولية، فقال:

«لقد إحتملت الإستشهاد وهى فى سن الإثنتى عشرة سنة. عانت من كراهية المضطهدين الذين لم يشفقوا على صغر سنها ولم يرحموا جسدها الغض، ولكنها الصغيرة سناً والقليلة جسداً، كانت عظيمة حقاً وكبيرة إيماناً..

لكن كيف لهذا الجسد الصغير أن يثخن بالجراح؟ كيف لهذا البدن الضعيف أن يتلقى ضربة السيف العنيفة؟ هل يقدر هذا الجسد الضعيف على مقاومة الحديد؟

لم ترهب أيدى الجلادين القاسية الثقيلة، ولم تهتز تحت وطأة السلاسل الثقيلة التى لا يقوى على حملها الرجال، مقدمة جسدها كله لسيف الجلاد الهائج. لم تكن تعرف شيئاً عن الموت لكنها تهيأت له. كانت مستعدة أن تفتح ذراعيها للمسيح عند نيران التقدمة، لكى تضع علامة الرب الغالب (إذ قد رفعت عند إستشهادها ذراعيها على علامة ومثال الصليب)، وأن تضع عنقها ويديها فى القيود الحديدية، لكن ما إستطاع أى قيد أن يعوق هذه الأطراف الرقيقة عن الإنطلاق للأبدية. إنه إستشهاد من نوع جديد!! فالعمر لم يكتمل بعد لكنه نضج للغلبة والنصرة، ومن الصعب أن يناضل ويجاهد لكنه من السهل أن

يُكلل ويتوج. لقد ملأت وشغلت بشجاعتها خدمة التعليم وهى بعد صغيرة، وعندما أسرعت الخطى كعروس إلى حفل عرسها، لم تزين رأسها بشعر عروسة مصفوف بل بالمسيح..

بكى الجميع وبقيت هى وحدها بلا دموع!! تعجب الجميع كيف أنها ضحت هكذا بحياتها التى لم تكن قد استمتعت بها بعد! وها هى الآن تقدمها كأن بها قد شبعت من طول أيامها!! لقد قدمت حياتها ذبيحة فى سن لم تستطع فيه أن تقنع الآخرين بالكلام!!

تُرى أية تهديدات هددها بها الجلاد ليرهبها، وأية وعود وإغراءات تقدم بها إليها الراغبون فى الزواج!! لكنها أجابت: سيكون جرحاً لعريس نفسى إن أنا نظرت إلى منْ يغرينى، فالذى إختارنى أولاً لنفسه سيستقبلنى، فلماذا تتباطأ أيها الجلاد؟! فلتقتل هذا الجسد الذى تشتهيه عيون الآخرين.....

ووقفت أجنس الطفلة مصلية، ثم أحنت رأسها للسياف، فإرتجف الجلاد وإرتعشت يداه كما لو كان هو المحكوم عليه بالموت، وحينما إرتفعت ذراعه لتهوى بالسيف، إهتز ذراعه وشحب وجهه، أما أجنس شهيدة المسيح فقد سلمت نفسها ثابتة فرحة بشوشة بلا خوف منتظرة مكافأة أبدية.

وفى اليوم الثامن لإستشهادها تراءت فى حلم لوالديها ومعها زمرة من الفتيات الصغيرات، ومعها أيضاً حمل أشد بياضاً من الثلج، وقالت لهما: «لا تحزنوا لموتى، بل إفرحا لأنى ظفرت بالإكليل»... وكانت لشهادتها أثر كبير فى تعزية وتثبيت وإمتداد المسيحية فى القرون الأولى، بعد أن شهدت بصمودها وثباتها وإيمانها وإحتمالها بفرح.. لذلك مدحها القديسون أمبروسيوس وأغسطينوس وچيروم وغيرهم من الآباء...

الشهداء بابياس ورفقاؤه

سألهم الوالى (عام ٢٨٤م) أن يترفقوا بشبابهم وينكروا مسيحهم، فقالوا له: «هذه طلبتنا التى لم نكف عن أن نسألها من ربنا فى صلواتنا البسيطة، ونحن نشعر بسعادة عظيمة أنها أُعطيت لنا».

وأجاب أحدهم: «إننى أخشى الآلام الفائقة الوصف التى تنتظرنى إن أنكرت وجحدت

إيمانى، أما العذابات التى تعدها أنت لى فإنى أتقبلها حتى أنجو من العذبات التى بعد الحياة هذه التى أُعدت لكم وللشيطان أبيكم. إنك تريد ان تسخر بى بهذه الوسيلة مع أننى أينما وجدت أكون أنا نفسى منزلاً يسكن فيه إلهى يسوع المسيح الذى بفضله أحتمل كل عذاباتكم».

وعندما أمر الحاكم ببتر يدى سابينوس ورجليه، كان يصرخ: «هذا كله يزيد من مجدى الأبدى».

الشهيد بابيلاس

قابل هذا الأسقف أمر الملك بقطع رأسه بفرح وبشاشة ثم أخذ يصلى، وعاد ليقول فى رقة للجلادين: «نفذوا أوامر الملك يا أولادى».

الشهيد بتروكليوس

هدده الامبراطور: «سأحرقك بالنار إن لم تذبح للآلهة»، فأجابه: أنا نفسى ذبيحة حية لله إذ دعانى لأنعم بالإستشهاد.

الشهيدة بليلاس

هذه الشهيدة (عام ١٧٧م) تعبت من شدة العذاب، وكان الوالى يستخدمها محاولاً التأثير على نفسية المسيحيين، وبعد ذلك حدث افتقاد عظيم من الله، وظهرت مراحم المسيح بطريقة لا توصف يندر ان تُرى، لكنها ليست بعيدة عن قدرة المسيح، إذ أن الذين تراجعوا عند القبض عليهم فى المرة الأولى سُجنوا ثانية مع الآخرين وتحملوا آلاماً مرة...

كان فرح الإستشهاد ورجاء المواعيد ومحبة المسيح وروح الآب سنداً للمؤمنين، أما هؤلاء الجاحدين فكانت ضمائرهم تعذبهم جداً، حتى كان من الممكن تمييزهم بمجرد النظر إلى وجوههم وهم يساقون. فالمؤمنون خرجوا فرحين، يتجلى المجد والنعمة على وجوههم وكانت قيودهم ذاتها كأنها حلى جميلة لعروس مزينة بحلى ذهبية، وفاحت منهم رائحة المسيح الذكية حتى ظن البعض أنهم قد تعطروا بعطور أرضية، أما هؤلاء الجاحدين، فكانوا أذلاء، منكسرين، مكتئبين، مملوئين بكل أنواع الخزى، وكان الوثنيون

يعيرونهم كخسيسين وضعفاء.

كأن هؤلاء الجاحدين قد نالوا تأديباً على إنكارهم للإيمان، تأديباً لم يفرضه أحد عليهم بل جاء التأديب نابعاً من الداخل... هذا وكان منظرهم يسند إخوتهم إذ رأوا بأعينهم عاقبة إنكار الإيمان فى هذا العالم الحاضر، لكنهم بلا شك كانوا موضع حب وشفقة إخوتهم وتعزيتهم، يفتحون لهم باب الرجاء كشركاء معهم فى الشهادة للرب بقيامهم بعد السقوط.

الشهيد برصنوفيوس *Barsenuphius*

ظهر له ملاك الرب وطلب منه ان يمضى إلى الوالى ليعترف بالسيد المسيح ففرح جداً، وعندما وصل إلى الوالى وجده يقرأ منشوراً يأمر فيه المسيحيين بالسجود للأصنام، فغار القديس وإندفع بقوة نحو الوالى وخطف منه المنشور ومزقه، فغضب الوالى جداً وأعد آتوناً ضخماً ألقى فيه القديس لينال إكليل الإستشهاد.

الشهيدان بروتاسيوس وجرفاسيوس

أمر الوالى بضرب بروتاسيوس بقسوة ووحشية حتى سقط القديس ميتاً تحت الجلدات ليستريح أبدياً فى الرب، وحاول الوالى أن يغرى جرفاسيوس بوعود كثيرة، ولكنه رفض فصار يهدده، إلا أن القديس لم يبال بالتهديدات معلناً أن الموت بالنسبة له هو طريق التمتع بالحياة إلى الأبد، وعندئذ قطعت رأسه، وطُرحت جثتيهما خارج المدينة لتأكلهما وحوش البرية، إلا أن القديس أمبروسيوس بإعلان سماوى بنى لهما كنيسة وزينها روحياً بهما، وقد حضر القديس اغسطينوس الإحتفال بأكتشاف جسديهما وبناء كنيستهما فى ميلان.

الشهيدة بربتوا *Perpetua* وفيليسيتاس *Felicity*

كان لأعمال الشهيدتين بربتوا وفيليسيتاس (قرطاجنة ٢٠٣م) أهمية كبيرة فى الكنيسة الأولى. ففى القرن الرابع كانت سيرتهما تقرأ فى كنيسة شمال غرب أفريقيا حتى خشى القديس اغسطينوس أن يخلط الشعب بين هذه الأعمال وأسفار الكتاب المقدس، فكان يحذر من ذلك وإن كان كثيراً ما تحدث عن هاتين الشهيدتين لحث الشعب على الجهاد الروحى.

دخلت بربتوا مع زميلاتها السجن فراعها هول منظره، إذ كان ظلامه لا يوصف ورائحة النتانة لا تطاق فضلاً عن قسوة الجند وحرمانها من رضيعها الذى عجزت بسبب سوء تغذيتها وجوعها فى السجن عن إرضاعه، وقد قالت:

«فى نفس تلك الفترة أعلن لى الروح القدس الآلام الجسدية التى سأتحملها. وبعد بضعة أيام أخذونا إلى زنزانة تحت الأرض وكنت مرتاعة جداً لأنى لم أتعود أبداً على هذه الظلمة الشديدة... وكان حاضراً معنا الشماسان المغبوطان اللذان قاما بالخدمة معنا هما ترتيوس وبونبونيوس وكنت قد وضعت طفلاً فأرضعته لأنه كان يتضور جوعاً وفى هلعى وخوفى أرسلت إلى أمى وعزيت أخى وأودعت ابنى إليهما ليرعياه... ثم جاءنى أخى وقال لى: "أختى العزيزة: أنت فعلاً محل كرامة ومجد عظيمين فأطلبى أن يعزيك الله برؤيا لتعرفى نهاية الأمر هل ستكون بآلامك أم بنجاتك"، ولما كنت أعرف أن الرب قد خصنى بإمتياز التحدث معه، إذ كانت رحمته بى عظيمة وحبه وإهتمامه بى لا يوصف، تجاسرت فوعدت أخى قائلة: "غداً سوف أخبرك" وتضرعت إلى الله وكان ما رأيته مذهلاً وعجيباً حقاً.....

فقد رأيت سلماً ذهبياً إرتفاعه عجيب يبلغ إرتفاع السماء. كان السلم ضيقاً جداً لا يسع إلا شخصاً واحداً يصعده، لم يكن يتسع فى عرضه لشخصين معاً، بل يصعد عليه واحد فواحد وعلى جانبى السلم ثبتت كل أنواع الاسلحة الحادة، فكانت هناك سيوف ورماح وخطاطيف وخناجر حتى إذا ما تسلقه أحد بغير إهتمام أو لم يكن ناظراً إلى أعلى فإنه يتمزق إرباً من جراء تلك الاسلحة الفتاكة التى تقطع جسده.

وصعدت أنا على السلم حتى بلغت نهايته وهناك رأيت بستان لا تبلغ العين مداه وفى وسط البستان رجل أبيض الشعر جالس فى ملابس راعى، قامته عظيمة، على منكبيه حملان يرضعا لبناً وحوله وقوف ربوات ربوات يلبسون أردية بيضاء متسربلين بالقوة، فرفع رأسه ونظر إلىّ ومن بين يديه أخذ قطعة جبن أبيض وأعطانى إياها فأخذتها بيدين مقبوضتين وأكلتها وحينئذ قال الجميع: "آمين". وعند سماع صوتهم إستيقظت من نومى وفى فمى مذاق حلو لا أستطيع وصفه، وقصصت هذه الرواية على أخى وأعلمته أن الأمر سينتهى بآلامى وإستشهادى فإنتهى عندئذ كل رجاء لنا فى العالم».

وتكررت الرؤى فيما بعد وأُعلن لبربتوا فى إحداها إنها فى قوتها وإستشهادها ستنتصر

على الشيطان. وفى رؤيا أخرى شاهدت رفيقها فى الإستشهاد ساتوروس وهو يشهد قبول جميع أرواح الشهداء فى السماء. ثم أُقتيدت إلى ساحة الإستشهاد ليفتك بها ثور هائج.

طرحوها أرضاً فسقطت على ركبتيها وتمزق رداؤها حتى تعرى جسدها فسترت عريها بالجزء الممزق من الثوب فى تسليم عجيب وتحمل للألم لا يوصف... ثم نهضت من سقطتها عندما رأت وصيفتها فيليسيتاس مسحوقة تدمى. مدت لها يدها وأقامتها فى إتضاع وحب شديد ووقفتا معاً جنباً إلى جنب، وعندما سكتت وحشية الغوغاء من عامة الناس دعيتا إلى بوابة التعذيب.. أما هى فكما لو كانت قد استيقظت من النوم، وبدأت تنظر حولها وقالت وسط دهشة الجميع: «لا أعرف كيف قادونا إلى ذلك الثور الهائج!!» وعندما سمعت ما حدث لم تصدق إلا عندما رأت فى جسدها آثار الجراح وتمزيق ثوبها فقالت للجميع: «إثبتوا فى الإيمان ولا تتزعزعوا ولا تفرطوا وليحب بعضكم بعضاً ولا تجزعوا لألمى».

أما العبدة الصغيرة فيليسيتاس فقد كانت تعانى من آلام الولادة قبل إستشهادها بيومين فقالت لها احدى القابلات بإستهزاء: «انت تتألمين الآن هكذا فماذا أنت فاعلة عندما يلقونك للوحوش ؟». ولكن فيليسيتاس تحاملت على نفسها وأجابتها قائلة: «الآن أنا اتألم آلامى الطبيعية ولكن فيما بعد سيكون هناك من يتألم عنى».

الشهيد بسادة الاسقف

عندما وضعوه فى السجن، كان يخرج من ظلمة السجن بوجه مشرق ومتهلل كمَنْ كان فى وليمة. وعندما حُكم عليه بقطع الرأس، ارتدى ثياب الخدمة الكهنوتية... ولما إلتقى به أحد الشمامسة سأله عن سبب إرتدائه هذه الثياب فى الطريق، فأجاب قائلاً: «يا ابنى أنا ذاهب إلى حفل عرسى... وقد عشت السنين الطويلة مشتاقاً لهذا اللقاء»....

الشهيد أبو فام الأوسيمى

عندما دُعى للشهادة لبس أفخر الثياب ومنطق نفسه بمنطقة من ذهب وركب حصاناً، وكان يقول: «هذا يوم عرسى الحقيقى، هذا يوم فرحى وسرورى بلقاء ملكى وإلهى سيدى يسوع المسيح» وقد إستشهد بمدينة فاو بصعيد مصر (طما حالياً)...

الشهيد أبوانا من شبشير منوفية

ذهب ليوبخ المرتدين فأتوا به إلى الوالى وهناك قال له: «مكتوب أن منْ يرد رجلاً خاطئاً عن طريق ضلالته يخلص نفساً من الموت والرب يستر على خطاياه. من أجل هذا أتيت إلى هذا المكان لكى أرد النفوس الضالة إلى معرفة الخلاص الذى للمسيح».

الشهيد سانكتوس شماس ليون

خلف أعمال الشهداء الظاهرة يكمن كل لاهوت الإستشهاد فى الكنيسة الأولى. لقد كانوا يطلبون الموت ليحظوا بنعمة الاقتداء بآلام وموت المسيح المخلص، فالمسيح نفسه يتألم فى الشهيد، وهو الذى غلب مرة ما برح يغلب فيهم...

ويحدثنا يوسابيوس القيصرى عن الشماس سانكتوس قائلاً: «إن المسيح المتألم داخله أعلن مجداً عظيماً، غالباً اعداءه، مظهراً للذين هم من خارج أنه حيثما يوجد حب الآب لا يوجد أى شئ يخيف، وحيث يوجد مجد المسيح إلهنا لا يوجد شئ يؤلمنا».

لقد كانت محبة المسيح ورجاء الخلاص به هما جوهر إيمان الشهداء وسر ثباتهم، وكان الشهيد تلميذاً حقيقياً للمسيح *A true diciple of Christ* يتبع آثار خطى آلامه من أجل المجد العتيد.

ولو نظرنا إلى مصادر «رسالة ليون» سنجد أن الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا كانا من اهم مصادر الإلهام للكاتب. فالمسيح ـ كما كتب عنه القديس يوحنا اللاهوتى ـ هو الشاهد الأعظم للحق والشهيد يتبعه. وهكذا وصفت رسالة ليون الشهيد سانكتوس بأنه كان: «ثابتاً فى إعترافه، منتعشاً ومتقوياً بالنبع السمائى الذى لا ينضب، نبع ماء الحياة». ورأى الشهداء فى حيوية وفرح السابقين لهم فى الإستشهاد تحقيقاً لوعد الله فى (يو ١٦ :٢)، لذلك كان المرتد يوبخ كإبن للهلاك (يو ١٧ :١٢).

وتستشهد رسالة ليون بكثير من الفقرات الواردة فى سفر الاعمال ورسائل بولس الرعوية، مع بعض التأثيرات من الأدب اليهودى المتأخر.

البابا ديسقوروس السكندرى

عذبته الملكة كنخريا وتهجمت عليهم وصفعته صفعة شديدة إقتلعت ضرسين من ضروسه نظراً لشيخوخته، وما لبث أن أنهال عليه رجال القصر وأوسعوه ضرباً أما هو فقال: «من أجلك نمات كل النهار»، ثم جمع ضرسيه وشعر لحيته وأرسلهما إلى شعبه بالاسكندرية مع رسالة يقول فيها: «هذه ثمرة جهادى لأجل الإيمان. إعلموا أنه قد نالتنى آلام كثيرة فى سبيل المحافظة على إيمان آبائى القديسين».

مار بقطر الجندى

قال الشهيد مار بقطر الجندى (الاسكندرية سنة ١٧٧م) قبل إستشهاده: «إن الآلام التى سأعانيها لن تميتنى بل ستهب لى الحياة الابدية. شكراً ليسوع إلهى الذى أعطانى هبة الإحتمال. حاشا لى أن أضحى لقطع من الخشب أو لكتل من الحجر وأسجد لها... بل أضحى فقط للإله الحى الحقيقى خالق السموات والارض. إنه إله آبائنا. إصغ يارب لخاطئ سيتألم بسبب محبته لك.. إحفظ يا إلهى جسدى من ألسنة النيران لكى يؤمن هؤلاء القوم أنك أنت الإله الحقيقى.. إستمروا فى تعذيبى ولكنكم لن ترهبونى لأن يسوع إلهى يقوينى، فلن تخور مقاومتى. إنى مستعد لكل ألم لإقتناء الهبات التى وعد بها الله وحده أولاده المحبين.... أشكرك يا سيدى الرب لأنك عزيت قلبى تعزية هذا مقدارها!! يا إلهى إقبل روحى.... ».

الشهيد أبا هور السرياقوسى

اعترف الشهيد أبا هور الصبى أمام الوالى قائلاً: «ربى يسوع المسيح قال فى إنجيله المقدس أن الذى يترك عنه أباه أو أمه أو أخاه أو أخته أو زوجته أو أولاده من أجل إسمه القدوس ومن أجل بشارة الإنجيل سيأخذ مائة ضعف وسيرث الحياة الأبدية. من أجل هذا نحن نموت على اسمه القدوس ونرفع أجسادنا قرباناً مقبولاً يرضيه».

الشهيد اسحق الدفراوى

لما رأى الشهيد آلات التعذيب صاح: «يا ربى يسوع المسيح أعنى. كما أرسلت ملاكك

وخلص الثلاثة فتية من آتون النار المتقدة كذلك إنقذنى يا ربى لئلا يقولوا أين هو إلهك. أيها الرب الإله ضابط الكل وسيدى يسوع المسيح أقبل إلىّ ولا تبعد عنى».

الكتيبة الطيبية

كتب أفراد الكتيبة الطيبية (من طيبة ـ الأقصر بصعيد مصر) خطاباً للإمبراطور مكسيميانوس يقولون فيه: «أيها القيصر العظيم ـ إننا جنودك، ولكننا فى ذات الوقت عبيد الله. نحن ندين لك بالخدمة العسكرية، أما الله فندين له بولاء قلوبنا. نحن نأخذ منك الراتب اليومى، أما الله فسننال منه الجزاء الأبدى. أيها القيصر العظيم لا يمكننا بحال من الأحوال أن نطيع الأوامر المخالفة لله، وما دامت أحكامك متفقة مع أحكامه فنحن ننفذها، أما متى تعارضت مع أحكامه فلن نقبلها، لأنه ينبغى أن يُطاع الله أكثر من الناس، وولائنا لأوامره فوق كل الأوامر مهما كان مصدرها. إننا لسنا ثواراً لأن لدينا الأسلحة وبها نستطيع أن ندافع عن أنفسنا، لكننا نفضل أن نموت أبرياء على أن نعيش ملوثين. إننا على أتم الإستعداد لأن نتحمل كل ما تصبه علينا من عذابات لأننا مسيحيون ونعلن مسيحيتنا جهاراً».

وإصطفوا جميعاً فى شجاعة وثبات، وحين كان الواحد منهم يسمع اسمه كان يرمى أسلحته على الأرض ويقدم ظهره للسياط وعنقه للسيف.

شهداء إسنا الأماجد

كانت المدينة المباركة إسنا مثالاً بتضحياتها للساكنين ببلاد صعيد مصر، فهذه المدينة العريقة إختلط ترابها بدماء شهدائها الكثيرين ولا زالت تنطق بأمجادهم وإيمانهم حتى الآن، ومن هؤلاء الشهداء:

الأم دولاجى وأولادها الأربعة

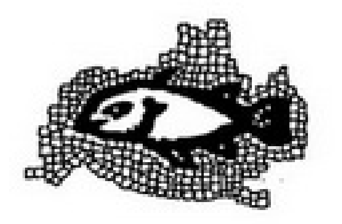
ذهب الوالى إريانوس إلى المدينة وقابل أربعة صبيان يسوقون دابة تحمل بطيخاً من الحقل، فأوقفهم وأراد أن يختبر فيهم مدى إنتشار المسيحية وقوتها فأمرهم أن يسجدوا للأوثان، ولكن الصبية رفضوا بكل حزم. وسرعان ما وصل الخبر إلى أمهم الشجاعة

دولاجى – التى تعد مفخرة من مفاخر الشهداء – فأسرعت من بيتها إلى الحقل حيث أولادها الأربعة يقفون فى حضرة الوالى.

وقفت الأم دولاجى أمام الوالى ملتفتة إلى أولادها تبث فيهم الإيمان. وعندما أُلقيت مع أولادها فى السجن، ظهرت لها العذراء أم المخلص تشجعها وتخبرها أن المسيح أعد لهم جميعاً مكاناً أبدياً فى ملكوت السموات. وعندما صدر الأمر بقتلهم بالسيف تقدمت دولاجى الأم لتقدم أولادها واحداً واحداً ليُقتلوا قبلها. ويذكر التاريخ أن الوالى أمر بذبحهم على ركبتيها إمعاناً فى القسوة عليهم، وبعد إستشهاد الصبيان قُطعت رأس الأم دولاجى، وهى فى غمرة صلواتها وتراتيلها للمسيح...



الفهرس



قائمة إصدارات

إكثوس ΙΧΘΥΣ



١) سلسلة آباء الكنيسة

١) القديس إيريناؤس أسقف ليون
٢) العلامة بنتينوس السكندرى
٣) العلامة يوسابيوس القيصرى
٤) القديس ديديموس الضرير
٥) العلامة لاكتانتيوس
٦) القديس ميثوديوس الأوليمبى
٧) اغريغوريوس صانع العجائب
٨) القديس إيڤاجريوس البنطى
٩) القديس هيلارى أسقف بواتييه
١٠) الرسالة إلى ديوجنيتس
١١) القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس
١٢) أمهات قديسات
١٣) العلامة ترتليان
١٤) القديس إيسيذروس الفرمى
١٥) جُهال من أجل الله
١٦) ثيؤفان الحبيس
١٧) القديس كيرلس الكبير ورسائله ضد النسطورية
١٨) القديس أموناس ورسائله إلى الرهبان
١٩) الآباء المؤرخون
٢٠) القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا

٢١) القديس يوحنا التبايسى
٢٢) القديس ألكسندروس بابا الأسكندرية ورسائله ضد الآريوسية
٢٣) أفراهات السريانى
٢٤) القديس إيلاريون الكبير
٢٥) القديس يوحنا كاسيان
٢٦) القديس يوستين والآباء المدافعون
٢٧) القديس ديونيسيوس السكندرى
٢٨) البابا أثناسيوس الرسولى «دفاع عن قانون إيمان مجمع نيقية»
٢٩) القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة
٣٠) القديس يعقوب البرادعى

٢) دراسات آبائية

١) الكنيسة فى فكر الآباء
٢) الإستشهاد فى فكر الآباء
٣) البتولية فى فكر الآباء
٤) اللاهوت فى فكر الآباء
٥) رحلة الكنيسة فى الصوم الكبير
٦) التربية عند آباء البرية
٧) صلاة يسوع – قوة الاسم فى الروحانية الأرثوذكسية
٨) سيكولوچية الإعتراف
٩) الأمانة فى التعليم
١٠) القديسة مريم المجدلية
١١) البابا المعلم
١٢) ذكرى آلامه المقدسة